التراث العربي





العددان: ٧١-٧٢ ربيع الأول - ١٤١٨ هـ - تموز "يوليو" ١٩٩٨م
السنة الثامنة عشرة

أ - ع ، ب - ع

عدد خاص مزدوج:

اللغة العربية...

واللغات الأخرى



تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

التراث العربي



العددان: ٧١-٧٢ ربيع الأول - ١٤١٨ هـ - تموز " يوليو" ١٩٩٨م - السنة الثامنة عشرة

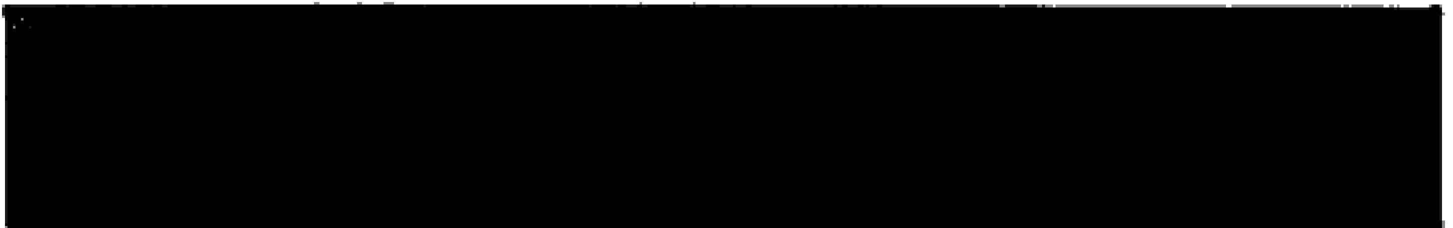
المدير المسؤول
د. علي عقله عرسان

رئيس التحرير
نصر الدين البحرة

أمين التحرير
محمود الأرناؤوط

هيئة التحرير:

د. عدنان البني
د. عدنان درويش
د. محمد زهير البابا
د. عمر موسى باشا
د. مسعود بوبو
د. عبد الحفيظ السطلي



تنويه:

إلى السادة كتاب مجلة "التراث العربي":

ترجو هيئة تحرير مجلة التراث العربي من السادة الكتاب مراعاة الأمور التالية في الموضوعات التي يرسلونها كي تنشر على صفحاتها:

١- يفضل أن يكون الموضوع مطبوعاً على الآلة الكاتبة - النسخة الأولى منه، فإذا تعذر ذلك فليكن مكتوباً بخط واضح، على أن ترسل النسخة الأولى منه، في حال طبعه على آلة النسخ.

٢- يذكر السادة الكتاب عناوينهم التي يرون مراسلتهم عليها.

٣- الموضوع المرسل إلى مجلة التراث العربي، لا يجوز لكاتبه أن يبعث به في الآن ذاته إلى مجلة أخرى.

٤- في حال مخالفة أي من شروط النشر السابقة، يهمل الموضوع المرسل فلا ينشر.

دمشق في ٣ / ٤ /١٩٩٧

هيئة تحرير مجلة التراث العربي



الاشتراك السنوي

داخل القطر للأفراد	:	١٥٠ ل.س
في الأقطار العربية »	:	٣٠٠ ل.س أو (١٥) دولار أميركي
خارج الوطن العربي »	:	٤٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أميركي
الدوائر الرسمية داخل القطر	:	٣٠٠ ل.س
الدوائر الرسمية في الوطن العربي	:	٥٠٠ ل.س أو (٢٥) دولار أميركي
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي	:	٦٥٠ ل.س أو (٤٠) دولار أميركي
أعضاء اتحاد الكتّاب	:	٧٥ ل.س

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً إلى: (محاسب مجلة التراث العربي) ■

المدقق اللغوي: ممدوح فاخوري

المحتوى :

ص


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

موشور الفصحى الجميل

نصر الدين البحرة

تنجيء أهمية ابن فارس من أمرين اثنين، أولهما أنه قدم في اللغة العربية مصطلحاً جديداً هو فقه اللغة، وثانيهما أنه طرح نظرية جديدة أيضاً في نشأة اللغة العربية هي التي يدعوها: التوقيفية. ففي القرن الرابع الهجري نشهد لأول مرة مصطلحاً جديداً هو فقه اللغة حين كتب أبو الحسين أحمد بن فارس كتابه "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها"(١).

وكان متواضعاً حتى إنه ذهب إلى أن كتابه "ليس جديداً في موضوعه" فقال: "والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرّق في أصناف مؤلفات العلماء المتقدمين -رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء- وإنما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق"(٢).

غير أن هذا لم يمنع الدكتور عبده الراجحي من القول: "نكاد نجزم أن ابن فارس هو أول من أطلق هذه التسمية: -فقه اللغة- إذ لو سبقه إليها سابق لما أغفلها رجال الطبقات على دقتهم في ترجمة الرجال"(٣) ويعتقد هذا الباحث الكريم أن ابن فارس اقتبس التسمية من الفقه الديني "فقد كان الرجل فقيهاً قدم أكثر من كتاب في الفقه فضلاً عن الصلة التي كان يراها ابن فارس وغيره من اللغويين العرب بين اللغة والدين على العموم، وبينها وبين الفقه على وجه الخصوص"(٤).

ومما يؤكد أهمية ابن فارس في هذا المجال أن اللغوي المشهور الثعالبي اعتمد على كتابه "الصاحبي" اعتماداً كبيراً "حتى إنه نقل عنه أبواباً بأكملها، لم يغير عناوينها ولا المادة التي تحتويها. من أمثلة ذلك: "فصل في إضافة الشيء إلى من ليس له، لكن أضيف إليه لاتصاله به" و"فصل في النحت" و"فصل في الإتباع والتوكيد"(٥).

أما نظرية ابن فارس في "التوقيف" فسنعرضها لاحقاً.

هذه النسخة من "الصاحبي".

في مكتبتي نسخة قديمة طريفة من كتاب "الصاحبي" انتهت إلي من مكتبة المرحوم والدي سعيد. ويبدو أنه اشتراها من مكتبة تبيع كتباً قديمة، فقد سجل في أعلى صفحة الغلاف الداخلي أنه اقتناها في ١٣ نيسان ١٩٣٢، في حين طبعت في القاهرة عام ١٣٢٨هـ -١٩١٠م في مطبعة المؤيد. وهذه النسخة العتيقة -جلّدتُها قبل بضع سنوات- كتب على حاشية غلافها الداخلي أيضاً بريشة حبرُها أسود: "هدية إلى جريدة "الوطنية" الزاهرة. القاهرة: ١٢ جمادى الثانية ١٩٢٩. محب الدين الخطيب" وهذا هو أحد مؤسسي "المكتبة السلفية" بالقاهرة مع زميله: عبد الفتاح القتلان، والظاهر أنه -محب الدين- هو الذي أعد الكتاب للنشر، وقدم له، وعرّف بمؤلفه. فهو يقول:

موشور الفصحى الجميل

نصر الدين البحرة

تجيء أهمية "ابن فارس" من أمرين اثنين، أولهما أنه قدم في اللغة العربية مصطلحاً جديداً هو "فقه اللغة"، وثانيهما أنه طرح نظرية جديدة أيضاً في نشأة اللغة العربية هي التي يدعوها: "التوقيفية". ففي القرن الرابع الهجري نشهد لأول مرة مصطلحاً جديداً هو فقه اللغة حين كتب أبو الحسين أحمد بن فارس كتابه "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها"(١).

وكان متواضعاً حتى إنه ذهب إلى أن كتابه "ليس جديداً في موضوعه" فقال: "والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرّق في أصناف مؤلفات العلماء المتقدمين -رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء- وإنما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق"(٢).

غير أن هذا لم يمنع الدكتور عبده الراجحي من القول: "نكاد نجزم أن ابن فارس هو أول من أطلق هذه التسمية: -فقه اللغة- إذ لو سبقه إليها سابق لما أغفلها رجال الطبقات على دقتهم في ترجمة الرجال"(٣) ويعتقد هذا الباحث الكريم أن ابن فارس التمس التسمية من الفقه الديني "فلقد كان الرجل فقيهاً قدم أكثر من كتاب في الفقه فضلاً عن الصلة التي كان يراها ابن فارس وغيره من اللغويين العرب بين اللغة والدين على العموم، وبينها وبين الفقه على وجه الخصوص"(٤).

وما يؤكد أهمية ابن فارس في هذا المجال أن اللغوي المشهور الثعالبي اعتمد على كتابه "الصاحبي" اعتماداً كبيراً "حتى إنه نقل عنه أبواباً بأكملها، لم يغير عناوينها ولا المادة التي تحتويها. من أمثلة ذلك: "فصل في إضافة الشيء إلى من ليس له، لكن أضيف إليه لاتصاله به" و"فصل في النحت" و"فصل في الإتباع والتوكيد"(٥).

أما نظرية ابن فارس في "التوقيف" فسنعرضها لاحقاً.

هذه النسخة من "الصاحبي".

في مكتبتي نسخة قديمة طريفة من كتاب "الصاحبي" انتهت إلي من مكتبة المرحوم والدي سعيد. ويبدو أنه اشتراها من مكتبة تبيع كتباً قديمة، فقد سجل في أعلى صفحة الغلاف الداخلي أنه اقتناها في ١٣ نيسان ١٩٣٢، في حين طبعت في القاهرة عام ١٣٢٨هـ -١٩١٠م في مطبعة المؤيد. وهذه النسخة العتيقة -جلّدتُها قبل بضع سنوات- كتب على حاشية غلافها الداخلي أيضاً بريشة حبرُها أسود: "هدية إلى جريدة "الوطنية" الزاهرة. القاهرة: ١٢ جمادى الثانية ١٩٢٩. محب الدين الخطيب" وهذا هو أحد مؤسّسَيْ "المكتبة السلفية" بالقاهرة مع زميله: عبد الفتاح القتلان. والظاهر أنه -محب الدين- هو الذي أعد الكتاب للنشر، وقدم له، وعرّف بمؤلفه. فهو يقول:

"اعتمدنا في إحياء "الصاحبي" ونشره على نسخة صحيحة بخط الأستاذ اللغوي الجليل المرحوم "الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي" من مكتبته المحفوظة في المكتبة المصرية الخديوية في القاهرة. وقد نقلها عن نسخة في إحدى مكتبات القسطنطينية -استانبول- قرئت على المصنف عام ٣٨٢هـ وعلى ظهرها بخطه ما نصّه:

"قرأ علي أبو محمد نوح بن أحمد الأديب، أعزه الله هذا الكتاب من أوله إلى آخره، وصححه وقرأه وسمع بقراءته أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بالغضبان، وأبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة القاري. وكتبه أحمد بن فارس بن زكرياء بخطه بالمحمديّة في شعبان من سنة اثنتين وثمانين وثلاثمئة."

ويوضح الناسخ الشنقيطي أنه فرغ من كتابة هذه النسخة من "الصاحبي" بعد شهرين، وكان ذلك "لعشر خلت من ربيع النبوي سنة أربع وثلاثمئة وألف"(٦).

اعتمد محب الدين الخطيب في ترجمة ابن فارس على عدد من أمهات المراجع: "معجم الأدباء" لياقوت الحموي. و"يتيمة الدهر" للثعالبي. و"طبقات اللغويين والنحاة" للسيوطي. و"وفيات الأعيان" لابن خلكان.

ابن فارس: نسبه وبلده.

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب القزويني- أحد أئمة اللغة العربية في القرن الرابع للهجرة. ولد في جهة "كرسف" و"جيانا باذ" وهما قريتان من "رستاق الزهراء" ولم نقف على تاريخ مولده. ولكن خير الدين الزركلي في "الأعلام" ذكر الميلاد والوفاة [٣٢٩-٣٩٥هـ = ٩٤١-١٠٠٤م] وأضاف أن أصله من قزوين.

وذكر السيوطي أن ابن فارس كان نحوياً "على طريقة الكوفيين" وقد تعلم العلم عن أبيه. وذكر ياقوت أسماء عدد من أساتذته، بينهم أبو عبد الله أحمد بن طاهر المنجم الذي يقول فيه ابن فارس "ما رأيت مثل أبي عبد الله أحمد بن طاهر ولا رأى هو مثل نفسه".

وبين البلدان التي زارها وأقام فيها أزمنة يسيرة بغداد والموصل ومكة وهمذان حيث أقام مدة، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها وإليها نسبته: الرازي.

مكانة ابن فارس

ربما كان الثعالبي بين أفضل من تحدث عن ابن فارس وبيّن فضله، فقد ذكره مرتين في "يتيمة الدهر" أولاً وفي "فقه اللغة" ثانياً. ففي اليتيمة قال: إنه كان من أعيان العلم بهمذان، ومن أفراد الدهر، يجمع إتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء. وهو بالجبل كـ "ابن لنكك" بالعراق و"ابن خالويه" بالشام و"ابن العلاف" بفارس و"أبي بكر الخوارزمي" بخراسان.

وفي "فقه اللغة" قال:

"كان من أكابر أيمة اللغة، بل هو إمام في علوم شتى. ذكره الصاحب بن عباد فقال: رزق ابن فارس التصنيف وأمن من التصحيف. وله تصانيف جمّة. وألف كتابه "المجمل" في اللغة، وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً. وله رسائل أنيقة ومسائل في اللغة تُعاني به الفقهاء. ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات ذلك

الأسلوب ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبية، وهي مئة مسألة. وكان مقيماً بهمذان وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني. وكان ابن فارس كريماً جواداً، فربما وهب السائل ثيابه وفُرُش بيته(٧)".

وفي الري تعرف ابن فارس بـ "الصاحب بن عباد" وزير "فخر الدولة بن بويه" فكان الصاحب يكرمه ويتتلمذ له. وكان من ثمرات هذه الروابط أنْ وضع ابن فارس كتابه "الصاحبي" نسبة إلى الوزير "الصاحب"، ودلالةً على أنه كتبه ليوضع في خزانته.

شخصية ابن فارس

يبدو ابن فارس تارة محافظاً، كما هو حاله في "الصاحبي" - وإن يكن بين وقت وآخر في الكتاب نفسه يخرج على هذه الحال -ويتراءى تارة أخرى متحرراً. فإن رسالته التي كتبها إلى "أبي عمرو محمد بن سعيد الكاتب" تكشف عن نزعة طليعية تحرزية حقيقية.

يقول ابن فارس مخاطباً أبا عمرو:

"لِمَ تأخذ بقول من قال: ما ترك الأول للآخر شيئاً. وتدع قول الآخر: كم ترك الأول للآخر؟! وهل الدنيا إلا أزمان، ولكل زمن منها رجال؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم، ووقفها على وقت محدود؟ ولِمَ لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول، حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل ذلك مثل رأيه؟ ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلت ألسن لسنة(٨)..."

من رسالته إلى أبي عمرو

ونشر ابن فارس في هذه الرسالة مقتطفات مختارة من الأشعار تشير إلى ظرفه وخفة ظله، وفي الآن ذاته تشي بنزوعه إلى التعصب، كقوله:

"وكان بقزوين رجل معروف بأبي محمد الضرير القزويني، حضر طعاماً وإلى جنبه رجل أكُولٌ، فأحسّ أبو محمد بجودة أكله فقال:

وصاحبٍ لي بَطْنُهُ كالهاويهْ   كأنّ في أمعائه معاويهْ

فانظر إلى وَجازة هذا اللفظ، وجودة وقوع الأمعاء إلى جنب "معاوية" وتحفل الرسالة بالحكايات التي تؤكد نمو حسّ الفكاهة عند ابن فارس، إضافة إلى نزعته نحو التصوير المتهكم الساخر، مما يذكر بفن الكاريكاتير في زماننا، وها هو ذا يتابع قائلاً:

"وبقزوين رجل يعرف بابن الرياشي القزويني، نظر إلى حاكم من حكامها من أهل طبرستان، مقبلاً عليه عمامة سوداء، وطيلسان أزرق، وقميص شديد البياض، وخفه أحمر، وهو مع ذلك كله قصير، على برذون أبلق هزيل الخلق طويل الحلق، فقال حين نظره:

وحاكمٍ جاء على أبلقِ   كعقعقٍ جاء على لقلقِ

فلو شاهدت هذا الحاكم على فرسه لشهدت للشاعر بصحة التشبيه وجودة التمثيل.."

ابن فارس شاعراً

ليس ابن فارس بين شعراء العربية المعروفين، من الذين كتبوا القصائد الجيدة وتفرغوا لقول الشعر، ذلك أنه كان في شغل شاغل من مسائل اللغة والفقه وسواهما، إلا أنه كان يلجأ إلى الشعر بين وقت وآخر، ليبث هموم نفسه ويشكو الزمان والخلان، ويعطي رأيه بروح عصره. وربما سمعنا "رنيناً محزناً بعد كل دمعة تذرف من عينيه" ورأينا "أكماماً زاهية تفتح أهدابها سروراً لابتسامة تتراوح بين فوائده وشفتيه(٩)".

والشكوى عنده مقرونة بالنكتة وخفة الظل، مما يذكرني على نحو ما بالشاعر أبي الحسين الجزار، وهو القائل:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ   ـت حفاظاً وأهجر الآدابا

وبها صارت الكلاب ترجيني   وبالشعر كنت أرجو الكلابا

قال ابن فارس وهو في همذان شاكياً:

سقى همذانَ الغيثُ لستُ بقائلٍ   سوى ذا، وفي الأحشاء نارٌ تُضرَّمُ

وما ليَ لا أُصفي الدعاء لبلدةٍ   أفدتُ بها نسيانَ ما كنتُ أعلمُ

نسيتُ الذي أحسنتُه غيرَ أنني   مدينٌ، وما في جوفِ بيتي(١٠) درهمُ

وتبدو في شعره نغمة قدرية واضحة:

تلبَّسْ لباسَ الرِّضا بالقضا   وخلِّ الأمورَ لمن يملكُ

تقدِّرُ أنتَ وجاري القضاء   —   مما تقدِّره يضحكُ

ويصور في شعره النزعة السائدة إلى اكتناز الثروة، وحلول المال كقيمة عليا، محل القيم العليا المعروفة، مما لفت انتباهنا إليه بديع الزمان الهمذاني في بعض مقاماته ولا سيما "المقامة المضيرية"، وهو من روح ذلك العصر، عنيت القرن الرابع الهجري:

قد قال فيما مضى حكيم   ما المرء إلا بأصغريه

فقلت قول امرئ لبيب   ما المرء إلا بدرهميه

من لم يكن معه درهماه   لم تلتفت عرسه إليه

وكان من ذله حقيراً   تبول سنّوره عليه

وهو في إخوانياته متشائم يشك في الآخرين. وفي شكواه يصل إلى درجة التذمر من مهنة الأدب:

وصاحب لي أتاني يستشير وقد | أراد في جنبات الأرض مضطربا
قلت: اطلب أي شيء شئت واسع ورد | منه الموارد إلا العلم والأدبا

مؤلفات ابن فارس

أحصيت لأبي الحسين أحمد بن فارس واحداً وثلاثين مؤلفاً، تتراوح بين ثماني صفحات، كما هو الحال في "أوجز السير لخير البشر" وأربع مجلدات مثل "جامع التأويل" في تفسير القرآن، وستة أجزاء ككتاب "مقاييس اللغة". وبعضها مطبوع مثل هذا الكتاب، و"النيروز" في نوادر المخطوطات و"ذم الخطأ في الشعر" و"الفصيح" و"متخير الألفاظ" و"الإتباع والمزاوجة" وبعضها الآخر مخطوط مثل "المجمل" و"كتاب الثلاثة"(١١).

وله رسائل أنيقة مثل رسالته إلى أبي عمرو الألف ذكرها.

العرب وحب العرب في "الصاحبي"

وضع ابن فارس كتاب الصاحبي في فترة متأخرة من حياته، بعد أن ألف كثيراً من كتبه التي أتينا على ذكر بعضها. وهو يشير في الصفحة الأخيرة من كتابه إلى أنه أنجز كتابته سنة ٣٨٢هـ، أي قبل وفاته بثلاث عشرة سنة(١٢)، دون أن يغفل الثناء مرة أخرى، مثلما فعل في مقدمة الكتاب، على الصاحب بن عباد قائلاً: وهذا تمام الكتاب "الصاحبي" أتم الله على "الصاحب" الجليل وأسبغ له المواهب.

وعلى الرغم من أنه عاش معظم حياته في فارس، لقد تعصب للعرب ولغة العرب، لاقترانها بالقرآن والسنة والنبي محمد (ص): "أقول إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لاغنى بأحد منهم عنه. وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله (ص) عربي". .. وعلى هذا النحو ينظر إلى اللغة العربية كل من هو مسلم غير عربي.. ولا شك أن هذا هو السر في أن المسلمين في كثير من بلدان آسيا ما يزالون يكتبون بالحروف العربية، مع أنها ليست لغتهم القومية.

لغة العرب أفضل اللغات.

لقد أفرد ابن فارس في صفحات كتابه الأولى فصلاً جعل له هذا العنوان: "باب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها" جاء فيه قوله: قال جل ثناؤه "وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين" ويتابع قائلاً: وقال جل ثناؤه "خلق الإنسان، علّمه البيان" إلى أن يقول: فلما خص جل ثناؤه اللسان العربي بالبيان عُلم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه(١٣).

ويقول مستطرداً في باب آخر "أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبيّ الرحمة محمداً (ص)" و"كانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها،

إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات -يعني: اللهجات- إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب"(١٤).

وهو يذهب في حبه العرب وتعصبه لهم إلى أن من العلوم الجليلة التي خُصّوا بها: الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد. وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالأخبار، وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً، لأنا نقول: "أزيدٌ عندك؟" و"أزيداً ضربت؟" فقد عمل الإعراب وليس هو من باب الخبر"(١٥).

ويعتقد ابن فارس أن لغة العرب لم تنته إلينا بكلّيتها، وقد "ذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقلّ. قال: ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير. وأحرِ بهذا القول أن يكون صحيحاً(١٦)" وهو يذهب في هذا الاتجاه بعيداً حتى إنه يوافق على قول بعض الفقهاء من أن "كلام العرب لا يحيط به إلا نبيّ"،"وما بلغنا أن أحداً ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها. فأما الكتاب المنسوب إلى "الخليل" وما في خاتمته من قوله "هذا آخر كلام العرب" فقد كان الخليل أورع وأتقى لله جل ثناؤه من أن يقول ذلك"

نظريته.. في التوقيف

تقوم نظرية ابن فارس في نشأة اللغة على ما يسميه "التوقيف" وهو يربط بينها وبين نشأة المعارف، فإنها جميعاً أنزلها الله معاً. وإنه لينطلق في ذلك من تفسيره ومناقشة تفسير سواه لإحدى آيات القرآن الكريم، وهي الآية ٣١ من سورة البقرة. ويبحث في هذا الأمر تحت هذا العنوان "باب القول على لغة العرب، أتوقيف أم اصطلاح؟":

"أقول: إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: وعلّم آدمَ الأسماء كلها" -تتمة الآية: ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين(١٧) -فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها، وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وروى خُصَيْف عن مجاهد قال: علمه اسم كل شيء. وقال غيرهما: إنما علمه أسماء الملائكة. وقال آخرون: علمه أسماء ذرّيته أجمعين." ثم يلتفت ابن فارس إلى المناقشة فيقول: "والذي نذهب إليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس. فإن قال قائل: لو كان ذلك كما تذهب إليه -يعني شمول الآية الكريمة أجناس الأرض جميعاً، من كائنات حية، عاقلة وغير عاقلة، وجماد ونبات(*)- لقال: "ثم عرضهن أو عرضها" فلما قال "عرضهم" علم أن ذلك لأعيان بني آدم أو الملائكة، لأن موضوع الكناية في كلام العرب يقال لما يعقل "عرضهم" ولما لا يعقل "عرضها أو عرضهن" قيل له: إنما قال ذلك، والله أعلم، لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل فغلب ما يعقل، وهي سنة من سنن العرب، أعني: "باب التغليب" وذلك كقوله جل ثناؤه: "والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع"(١٨)، تغليباً لمن يمشي على رجلين وهم بنو آدم"(١٩).

الخط العربيّ توقيف.. أيضاً

طبيعي بعد ذلك أن يشمل ابن فارس الخط العربي بنظريته التوقيفيّة فيقول: "الذي نقول فيه إن الخطّ توقيف. وذلك لظاهر قوله عز وجل: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم" وقال جل ثناؤه :﴿ ن والقلم وما يسطرون﴾ وإذا كان كذا، فليس ببعيد أن يوقّف آدم عليه السلام أو غيره ومن الأنبياء عليهم السلام، على الكتاب."

ومع أنه أورد رواية تقول "إن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها (آدم) عليه السلام قبل موته بثلاثمئة سنة، كتبها في طين وطبخه(٢٠)، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه(٢١)" فإنه ظل أميناً على نظريته في التوقيف، مؤكداً أن الكتابة كاللغة توقيف. فهو يقول "فأما أن يكون مخترع اخترعه -الخط- من تلقاء نفسه فشيء لا تُعلّم صحته إلا من خبر صحيح(٢٢)" ويستطرد قائلاً "ولم لا يكون الذي علم آدم عليه السلام الأسماء كلها هو الذي علمه الألف والباء والجيم والدال(٢٣)؟" ويمضي على النحو ذاته فيرى أن قواعد اللغة التي يقال إن أبا الأسود أول من وضعها، وأن العروض الذي قيل إن الخليل أول من تكلم فيه "قد كانا قديماً وأتت عليهما الأيام وقلاّ بين أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان"(٢٤).

وبلغ من غلوه في هذا "التوقيف" أنه أنكر التجديد اللغوي ورفض التغيير قائلاً: "وليس لنا اليوم أن نخترع أو نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها، ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن".

مؤمن.. بتدرّج المعارف

ومهما يكن من أمر، فقد كانت لابن فارس رؤياه الخاصة في مجال التوقيف، فإنها انطوت على إيمان بتدرج المعارف. وهو مؤمن أنها لم تنزل جميعاً دفعة واحدة على آدم عليه السلام.

وها هو ذا يقول موضحاً: "ولعل ظاناً يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد. وليس الأمر كذا، بل وقّف الله جل وعزّ آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله. ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبياً نبياً ما شاء أن يعلمه، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فآتاه الله عز وجل من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله، تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت"(٢٦).

رؤى ابن فارس اللغويّة

إذا انتقلنا بعدما تقدم إلى النظر في ما طرحه ابن فارس من رؤى لغوية، أدهشتنا آراؤه الناضجة وملاحظاته الذكية، وقدرته على النفاذ إلى ما وراء الكلمات والمفردات، ونحن واجدون ظلالاً للأفكار الفلسفية والمنطقية في عصره مما كان متداولاً بين علماء الكلام وأهل الاعتزال.

الأسماء عنده، من حيث أجناسها- وهذا اقتباسٌ من المنطق- خمسة: اسم فارق كقولنا: رجل وفرس

فرقنا بالاسمين بين شخصين. واسم مُفارِق كقولنا: طفل، يفارقه إذا كبر. واسم مشتق كقولنا: كاتب وهو مشتق من الكتابة. واسم مضاف كقولنا: كل وبعض، لا بد أن يكونا مضافين. واسم مقتضٍ كقولنا: أخ وشريكٌ وابنٌ وخصم، كل واحد منها إذا ذكر اقتضى غيره(٢٧).

وظيفة الكلمة المعنوية -الفكرية

وعلى هذا النحو ينظر ابن فارس إلى النعت، وهو الوصف كقولنا: هو عاقل، وجاهل. والنعت يجري مجريين: أحدهما تخليص اسم من اسم كقولنا "زيد العطار" و"زيد التميمي" خلصناه بنعته من الذي شاركه في اسمه، والآخر على معنى المدح والذم نحو "العاقل والجاهل".

إذاً فإنه ينظر في الوظيفة المعنوية -الفكرية التي تؤديها الكلمة.

والاسم قد يكون سمة كالعلامة والسيماء، وقد يكون مشتقاً من السِّمة(٢٨). وهناك أسماء "كانت فزالت بزوال معانيها، قولهم: المرباع والنشيطة والفضول" "ومما تُرك أيضاً: الأتاوة والمكس والحلوان، وأنعم صباحاً وانعم ظلاماً، وقولهم للملك: أبيت اللعن. وترك أيضاً قول المملوك لمالكه: ربي. وتُرك أيضاً تسمية من لم يحج: صَرُو"رة"(٢٩) ويوضح ابن فارس معنى هذه الكلمة. من حيث وظيفتها فيقول: "أصل الصرورة أن الرجل في الجاهلية كان إذا أحدث حدثاً فلجأ إلى الحرم لم يُهَجْ. وكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم قيل: هو صرورة فلا تهجه. ثم كثر ذلك في كلامهم حتى جعلوا المتعبّد الذي يجتنب النساء وطيب الطعام صرورة وصروريا، وذلك عنى النابغة بقوله: صرورة متعبد"(٣٠).

توليدات جديدة للأسماء ومعانيها

وإذا جازلنا أن نواصل كلامنا على ما دعوناه "الوظيفة المعنوية أو الفكرية للكلمة" أو "القيمة الوظيفية" لها، فإننا سننتهي إلى توليدات جديدة جميلة للأسماء ومعانيها. من ذلك ما يجعل له ابن فارس هذا العنوان "باب ما جرى مجرى الأسماء وإنما هي ألقاب" والأسماء عند العرب هنا على ثلاثة أضرب: ضرب مدح، وضرب ذمّ، وضرب تلقّب الإنسان لفعل يفعله. فالمدح: تلقيبهم البَحْر والحَبْر والصادق. والذم: تلقيبهم بالوزَغ -وهو الفسْل الضعيف- ورشْح الحَجَر. وأما اللقب المأخوذ من فعل: كطابخة ومدركة(٣١).

ولا ينسى أن يضيف الأسماء المنقولة من الحيوان فيقول: "فذهب علماؤنا أن العرب كانت إذا ولد لأحدهم ابن ذكر سمّاه بما يراه أو يسمعه مما يتفاءل به، فإن رأى حَجَراً أو سمعه، تأول فيه الشدّة والصلابة والبقاء والصبر. وإن رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والنكر والكسب، وإن رأى حماراً تأوّل فيه طول العمر والوقاحة، وإن رأى كلباً تأول فيه الحراسة وبُعْد الصوت والإلف(٣٢)"

..ودون أن يبتعد عن القيمة الوظيفية للاسم ينظر ابن فارس في التسمية "على المجاورة والسبب" فالعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب، وذلك قولهم: "التيمُّم" لمسح الوجه من الصعيد، وإنما التيمُّم الطلب والقصد. يقال: تيمّمتك وتأممتك أي تعمدتك. ومن ذلك تسميتهم السحاب "سماء" والمطر "سماء" وتجاوزوا ذلك إلى أن سمّوا النبات سماء. قال شاعرهم:

إذا نزل السماءُ بأرض قوم(٣٣)

ويظل ابن فارس مراوحاً في الموقع ذاته حين يبحث في أصول أسماء قيس عليها وألحق بها غيرها،

وينقل عن الأصمعي قوله: أصل "الورْد" إتيان الماء، ثم صار إتيان كل شيء وِرْداً. و"القَرَب" طلب الماء. ثم صار يقال ذلك لكل طلب، فيقال هو "يَقْرَب كذا" أي يطلبه و"لا تَقْرَبْ كذا". ويقولون "رفع عقيرته" أي صوته، وأصل ذلك أن رجلاً عُقِرَتْ رجله فرفعها وجعل يصيح بأعلى صوته، فقيل بعد ذلك لكل من رفع صوته: رفع عقيرته(٣٤)

اسم واحد لأشياء كثيرة وأسماء كثيرة لشيء واحد

وهو يلفت الانتباه إلى تسمية الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد نحو "عين الماء" و"عين المال" و"عين السحاب". وفي المقابل يُسمّى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو "السيف والمهند والحسام" وإذا كانت هذه المفردات ترادفات فإن هذا اللغوي الكبير ينطلق في تفسيرها من قيمتها الوظيفية أيضاً. "إن الاسم واحد هو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى." وقال آخرون "ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر." وينتقل من الأسماء إلى الأفعال في هذا التفسير، نحو "مضى وذهب وانطلق وقعد وجلس ورقد ونام وهجع". قالوا: ففي " قعد " معنى ليس في "جلس" وكذلك القول فيما سواه(٣٥).

ثم يعود ابن فارس فيسهب في عرض القيمة الوظيفية لأسماء كثيرة. "من ذلك "المائدة" لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام لأن المائدة من "مادني يميدني" إذا أعطاك، وإلا فاسمها "خِوان". وكذلك "الكأس" لا تكون كأساً حتى يكون فيها شراب، وإلا فهو "قدح" أو "كوب". وكذلك "الحُلّة" لا تكون إلا ثوبين: إزار ورداء من جنس واحد، فإن اختلفا لم تدْعُ حُلّة. ومن ذلك "الظعينة" لا تكون ظعينة حتى تكون امرأة في هودج على راحلة"(٣٦).

دور الإعراب والتصريف في الخطاب

وفي موضع آخر من الكتاب يبين ابن فارس دور "الإعراب" و"التصريف" في "الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل، والفهم من السامع" وذلك أن قائلاً لو قال "ما أحسنْ زيدْ" أو "ضرَبْ عمرْ زيدْ" غير معرب لم يوقف على مراده. فإذا قال "ما أحسنَ زيداً" أو "ما أحسنُ زيدٍ" أو "ما أحسنَ زيدٌ" أبان الإعراب عن المعنى الذي أراده.

ويتابع قائلاً: "وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها فهم يُفرّقون بالحركات وغيرها بين المعاني. يقولون "مِفتح" للآلة التي يفتح بها و"مَفتح" لموضع الفتح و"مِقص" لآلة القص و"مَقص" للموضع الذي يكون فيه القص." ثم يقولون": هذا غلاماً أحسن منه رجلاً" يريدون الحال في شخص واحد. ويقولون: "هذا غلامٌ أحسنُ منه رجلٌ" فهما إذاً شخصان"(٣٧).

ويعطي "التصريف" دوراً كبيراً في التمييز بين المعاني "فإن من فاته علمه فاته المُعْظَم" لأنا نقول "وَجَدَ" وهي كلمة مبهمة، فإذا صرفنا أفصحت، فقلنا في المال "وُجْداً" وفي الضالة "وِجداناً" وفي الغضب "مَوْجِدة" وفي الحزن "وَجداً". وقال الله جل ثناؤه "وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً" وقال: "وأقسطوا إن الله يحب المقسطين" كيف تحول المعنى بالتصريف من العدل إلى الجوْر.(٣٨).

المعنى والتفسير والتأويل

وينتبه ابن فارس إلى اختلاف واضح بين ثلاثة ألفاظ هامة من حيث معناها، هي المعنى والتفسير والتأويل. "وهي وإن اختلفت فإن المقاصد بها متقاربة" ولعله يعني بالمقاصد: المرامي. "فأما المعنى فهو القصد والمراد. يقال "عنيت بالكلام كذا" أي: قصدت وعمدت" وقال قوم "اشتقاق المعنى من "الإظهار" يقال: "عَنَتِ القِرْبةُ" إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته. و"عُنوان الكتاب" من هذا". وأما "التفسير" فإنه "التفصيل" كذا قال ابن عباس في قوله جل ثناؤه: "وأحْسَنَ تفسيراً" أي: تفصيلاً. وأما اشتقاقه فمن "الفَسر" ويتابع قائلاً "أخبرني القطان عن المعداني عن أبيه عن معروف عن الليث عن "الخليل" قال: الفسر: البيان، واشتقاقه من فَسْر الطبيب للماء إذا نظر إليه، ويقال لذلك "التَّفْسِرة" أيضاً. وأما "التأويل" فآخر الأمر وعاقبته. يقال: " إلى أيِّ شيءٍ مآل هذا الأمر؟" أي: مصيره وآخره وعقباه. وكذا قالوا في قوله جل ثناؤه "وما يعلم تأويلَه إلا الله" أي لا يعلم الآجال والمدد إلا الله جل ثناؤه."(٣٩).

بين حقائق الكلام وبين المجاز

على هذا المنوال، وحسب هذا المنهج الوظيفي إذا صح التعبير يميز ابن فارس بين "حقائق الكلام" وبين "المجاز". إن "الحقيقة من قولنا حق الشيء إذا وجب. واشتقاقه من الشيء المحقّق وهو المُحكم، تقول "ثوب محقّق النسج" أي مُحكَمه. قال الشاعر:

تَسْرِبَلْ جلدَ وجهِ أبيكَ إنّا ... كفيناكَ المحقّقةَ الرِّقاقا

وهذا جنس من الكلام يصدق بعضه بعضاً من قولنا "حقٌّ" وحقيقة ونصٌّ الحقاق" فالحقيقة الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل، ولا تقديم فيه ولا تأخير كقول القائل: أحمد الله على نعمه وإحسانه. وهذا أكثر الكلام."(٤٠).

وأما "المجاز" فمأخوذ من "جاز يجوز" إذا استنّ ماضياً. تقول: جازَ بنا فلان. وجاز علينا فارس. هذا هو الأصل. ثم تقول: "يجوز أن تفعل كذا" أي: يَنفُذ ولا يُرَدُّ ولا يُمنَع. "الكلام الحقيقي يمضي لسننه لا يُعترض عليه، وقد يكون غيره، يجوز جوازه لقربه منه، إلا أن فيه من تشبيه واستعارة وكفّ ما ليس في الأول، وذلك كقولك: عطاء فلان مزْنٌ واكفٌ، فهذا تشبيه. وقد جاز مجاز قوله "عطاؤه كثير وافٍ" ومن هذا في كتاب الله جل ثناؤه "سنسمه على الخرطوم" فهذا استعارة. وقال: "وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام" فهذا تشبيه(٤١).

وفي هذا الباب ذاته يذكّرنا ابن فارس بضرب من الكلام ما زال شائعاً في حياتنا الاجتماعية، ويستخدمه العوام خاصة. ذلك "مخالفة ظاهر اللفظ معناه كقولهم عند المدح "قاتله الله ما أشعره" فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه. ومنه قولهم "هوت أمه، وهبلَتْه، وثكلَتْه" قال كعب بن سعد يرثي أخاه:

هوَتْ أمُّه ما يَبعثُ الصبحُ غادياً ... وماذا يؤدّي الليلُ حين يؤوبُ(٤٢).

البلاغة الإيجاز

وفي كلامه على "الحذف والاختصار" يضع يده على سمة تتميز بها اللغة العربية تماماً. وهذا ما دفع بعضهم إلى القول "البلاغة الإيجاز" وربما جاء من يقدم تفسيراً لهذه الظاهرة، قد يتعلق بطبيعة المناخ المائل إلى الحرارة الشديدة في كثير من مناطق الجزيرة العربية، وهو ما قد يجعل الإنسان هناك ضيق العطن ملولاً محباً للإسراع والاختصار والإيجاز. وهذه من جانب آخر صفة إنسانية غير مذمومة على العموم. من ذلك ما جاء في كتاب الله: "واسأل القرية" أراد أهلها. و"بنوفلان يطؤهم الطريق" أي أهله. و"نحن نطأ السماء" أي مطرَها. ومثل هذا قوله تعالى "أن اضرب بعصاك البحرَ فانفلق"(٤٣) أي فضرب فانفلق. ومنه "إني آمنت بربكم فاسمعوني، قيل ادخل الجنة"(٤٤) أي: فلما قُتل قيل ادخل الجنّة(٤٥).

على أن العرب، تميل أحياناً إلى التكرار والإعادة "إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر" كقول الأشعر:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى يقول نساؤهم هذا فتى

وكقول الآخر:

كم نعمة كانت له كَم كَم وكَم

فكرر لفظ "كم" لفرط العناية بقصد تكثير العدد(٤٦).

من العام إلى الخاص وعكسه

وتحت عنوان "العموم والخصوص" يقف ابن فارس عند أمر، هو في واقعه ظاهرة، ربما تفرّدت بها اللغة العربية، سوى مسألتي العام والخاص، فالعام هو الذي يأتي على الجملة لا يغادر منها شيئاً، وذلك كقوله جل ثناؤه "خلق كل دابة من ماء" وقال: "خالق كل شيء". أما الخاص فهو الذي يقع على شيء دون أشياء كقوله جل ثناؤه "وامرأةً مؤمنة إنْ وهبت نفسها للنبي" وكقوله "واتقونِ يا أولي الألباب" فخاطب أهل العقل.

على أن بيت القصيد الذي رمينا إليه، هو "العامّ الذي يراد به الخاص" على حد تعبير ابن فارس، كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام "وأنا أول المؤمنين" ولم يرد كل المؤمنين لأن الأنبياء قبله قد كانوا مؤمنين. ومثله كثير، منه "قالت الأعراب آمنّا" وإنما قاله فريق منهم. و"الذين قال لهم الناس" إنما قاله "نُعَيْم ابن مسعود" إن الناس "أبو سفيان" و"عُيَيْنَة بن حصن".

وهو أيضاً "الخاص الذي يراد به العام" كقوله جل وعز "يا أيها النبي اتقِ الله ولا تطع الكافرين والمنافقين" الخطاب له (ص) والمراد الناس(٤٧) جميعاً" وفي ما يشبه عمل الاستعارة في البيان تكلم ابن فارس على "إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل في الحقيقة" يقولون: "أراد الحائط أن يقع" وفي كتاب الله جل ثناؤه "جداراً يريد أن ينقضّ." وهو في شعر العرب كثير(٤٨).

"ومن سنن العرب ذكر الواحد والمراد الجمع" والإتيان بلفظ الجمع والمراد واحد واثنان" ففي الحال الأولى، قوله للجماعة "ضَيْف" و"عَدُوّ" وقال تعالى "هؤلاء ضيفي" وقال "ثم يخرجكم طفلاً" وفي الحال الثانية، قوله جل ثناؤه "وليشهدْ عذابهما طائفةٌ" يراد به واحد واثنان وما فوق ومنه "إن الذين ينادونك من وراء

الحُجُرات" ولم يكن هؤلاء سوى رجل واحد نادى "يا محمد إن مدحي زَيْنٌ وإن شتمي شَيْنٌ" وقال: "فقد صَغَتْ قلوبكم" وهما قلبان. وقال "بِمَ يرجع المرسلون"(٤٩) وهو واحد يدل عليه قوله جل ثناؤه: "ارجع إليهم"(٥٠).

ويخاطب الواحد بلفظ الجميع فيقال للرجل العظيم "انظروا في أمري". والعرب "تذكر جماعة وجماعة، أو جماعة وواحداً، ثم تخبر عنهما بلفظ الاثنين. يقول الأسود:

إن المنيّةَ والحُتوفَ كلاهما

يوفي المخارِمَ، يرقُبانِ سوادي

وقد جاء مثله في القرآن الكريم "إن السموات والأرض، كانتا رتقاً ففتقناهما"(٥١)

الواحد والجمع والشاهد والغائب

وربما خوطب "الواحد خطاب الجمع إذا أريد بالخطاب هو ومن معه". قال الله جل ثناؤه "يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعِدّتهنّ(٥٢)". والعرب تخاطب الشاهد ثم تحوّل الخطاب إلى الغائب، كقول النابغة:

يا دارَ ميّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ ... أقوت وطال عليها سالف الأبدِ

فخاطب ثم قال: أقوت.(٥٣). والعكس صحيح فقد "يجعلون خطاب الغائب للشاهد". قال الهذلي:

يا ويحَ نفسي، كان جِدةُ خالدٍ ... وبياضُ وجهك للتراب الأعفَرِ

فخبّر عن خالد، ثم واجه فقال: "وبياض وجهك"(٥٤).

وقد يُخاطَب المُخاطَب ثم يُجْعَل الخطاب لغيره، أو يُخْبَر عن شيء ثم يجعل الخبر المتصل به لغيره. قال الله جل ثناؤه "فإن لم يستجيبوا لكم -الخطاب للنبي(ص) ثم قال للكفار -فاعلموا أنما أنزل بعلم الله". وقال "فمن ربّكما يا موسى" وقال "فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى"(٥٥).

الفعل وأسماء المفعول والفاعل

ومثلما يُخاطَب الواحد يُراد به الجمع، والجمع يُراد به واحد واثنان، ويُحوّل الخطاب من الشاهد إلى الغائب، ومن الغائب إلى الشاهد، فكذلك يأتي الفعل بلفظ الماضي وهو راهن أو مستقبل، وبلفظ المستقبل وهو ماض. ويعود ابن فارس إلى أسلوبه المفضل في الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، فيقول: قال الله جل ثناؤه" كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس" أي : أنتم. وقال جل ثناؤه: "أتى أمر الله" أي: يأتي. ويجيء بلفظ المستقبل وهو في المعنى ماض، قال الشاعر:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبّني ... فمضيتُ عنه وقلت: لا يعنيني(٥٦).

ويفرد باباً لاثنين من المشتقات يأتي أحدهما وهو اسم المفعول بلفظ اسم الفاعل. "تقول: سرٌّ كاتم، أي: مكتوم. وفي كتاب الله جلّ ثناؤه: لا عاصمَ اليومَ من أمر الله. أي: لا معصوم" (٥٧).

•••

زار دمشق عام ١٩٧٤ الممثل السينمائي الروسي الراحل "اينوكنتي سموكتونوفسكي" في صحبة مجموعة من الأفلام السينمائية السوفييتية المقتبسة عن مسرحيات شاعر الانكليز الكبير وليم شكسبير، وبينها "هاملت" و"عطيل" و"الملك لير" إلخ. كان ذلك بدعوة من نادي دمشق السينمائي الذي كنت حينها أمين سره. وفي حفل الافتتاح في صالة الكندي، كان علي أن ألقي كلمة النادي، على أن يقوم بترجمتها إلى الروسية مباشرة مخرج سينمائي متخرج من هنالك. وفي الحق فإني لم أبالغ في الفصاحة، ولكني كتبت وقرأت كلاماً، يختلف عن الدارج وعن لغة الصحف، فإذا الترجمان الصديق يتوقف بعد قليل معلناً عجزه عن الترجمة "إلا إذا بسّطت كلامي" أي عدتُ إلى لغة الصحف.

تذكرت هذه الحكاية وأنا أقرأ ما كتبه ابن فارس حول مسألة الترجمة من العربية إلى سواها بقوله: "وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب في القرآن فقال: ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل من السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة.. إلخ"(٥٨).

تذكرت هذه الحكاية، وأنا أستعيد عناوين بعض فصول كتاب ابن فارس "الصاحبي" أو أبوابه كما يدعوها هو، فأرى غوصه وراء كنوز الفصحى المكنونة، لإظهارها وإعلانها وتبيان ما فيها من عبقرية في النحت والاشتقاق والإعراب والتصريف، وفي أساليب مختلفة للخطاب والبلاغة بما فيها من بيان ومجاز واستعارة وتشبيه وكناية.. إلخ.

لقد قدم ابن فارس، هذه الفصحى، كما لو أنه واحد من خيرة أبنائها الأصلاء النجباء، وهو الفارسي أصلاً وفصلاً، واحد يكنُّ لها ولذويها وأهلها حباً بالغاً وإعجاباً كبيراً.. ولم يترك سانحة إلا تحدث فيها عن عظمة هذه اللغة وإعجازها، كما هو حال القرآن الكريم تماماً. وحسبه أنه عرضها أمام بصائرنا وأبصارنا، وكأننا نراها من خلال موشور كريستالي صاف تظهر فيه ألوان الطيف جميعاً.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

الحواشي:

١-فقه اللغة في الكتب العربية -تأليف: د. عبده الراجحي- دار النهضة العربية- بيروت ١٩٧٤- ص٤١.

٢-الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها -تأليف: أحمد بن فارس- المكتبة السلفيّة- القاهرة- ١٣٢٨: ١٩١٠.

٣-فقه اللغة -د. عبده الراجحي- ص٤٦.

٤-المصدر السابق- ص٤٦.

٥-المصدر نفسه -ص٤٨.

٦-الصاحبي -أحمد بن فارس -ص٣،٤،٥.

٧-فقه اللغة -للإمام أبي منصور اسماعيل الثعالبي النيسابوري -مطبعة الآباء اليسوعيين -بيروت: ١٨٨٥-ص 14.

٨-هذه الرسالة منشورة بنصها الكامل في النسخة التي اعتمدناها من "الصاحبي".

٩-من مقدمة الصاحبي -ص:يب.

١٠-المصدر السابق -ص.يب.

١١-الأعلام -خير الدين الزركلي -دار العلم للملايين- ط٥ ١٩٨٠- المجلد الأول.

١٢-الصاحبي -ص٢٣٦.

١٣-الصاحبي -ص١٦.

١٤-المصدر السابق -ص٢٣- نحائز جمع نحيزة أي الطبيعة.

١٥-المصدر السابق -ص٤٦.

١٦-المصدر نفسه -ص٢٤.

١٧-لم يذكر ابن فارس هذه التتمة للآية.

(*) القول بين المعترضتين من عندي. (ن.ب)

١٨-سورة النور -الآية ٤٥ وتتمتها: يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير".

١٩-الصاحبي -ص٥.

٢٠-إشارة إلى الرقم الطينية.

٢١-الصاحبي - ص٧.

٢٢-المصدر السابق- ص٨.

٢٣-المصدر نفسه- ص٨.

٢٤-المصدر نفسه -ص١٠.

٢٥-المصدر نفسه- ص٣٣.

٢٦-المصدر السابق -ص٦.

٢٧-المصدر نفسه -ص٥٤.

٢٨-المصدر نفسه -ص٥٧.

٢٩-المصدر نفسه- ص٥٨-٥٩.

٣٠-من قوله في وصف المتجردة امرأة النعمان:

لو أنها عرضت لأشمطَ راهبٍ   عبد الإلـه، صرورةٍ متعبّد

٣١-الصاحبي -ص٦١.

٣٢-المصدر السابق -ص٦٢.

٣٣-المصدر السابق -ص٦٣.

٣٤-المصدر نفسه -ص٦٤.

٣٥-المصدر نفسه-ص٦٥.

٣٦-المصدر نفسه -ص٦٧.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

٣٧-الصاحبي -ص١٦١.

٣٨-المصدر السابق -ص١٦٢.

٣٩-المصدر السابق -ص١٦٣-١٦٤.

٤٠-المصدر السابق -ص١٦٧.

٤١-المصدر نفسه -ص١٦٨.

٤٢-المصدر نفسه -ص١٦٩.

٤٣-الآية: وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق -سورة الشعراء- الآية ٦٣.

٤٤-الآية: إني آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة. قال يا ليت قومي يعلمون. -سورة يس- الآيتان: ٢٥-٢٦.

٤٥-الصاحبي -ص١٧٥.

٤٦-المصدر السابق -ص١٧٧.

٤٧-المصدر السابق -ص١٧٨-١٧٩.

٤٨-المصدر السابق -ص١٧٩.

٤٩-المصدر نفسه -ص١٨٠-١٨١.

٥٠-حكاية عن سيدنا سليمان عليه السلام -سورة النمل- الآيات: ٣٤-٣٥-٣٦-٣٧:

قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون. فلما جاء سليمان قال: أتمدونني بمال، فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون".

٥١-الصاحبي -ص١٨٢.

٥٢-المصدر نفسه -ص١٨٢.

٥٣-المصدر نفسه -ص١٨٣.

٥٤-المصدر نفسه -ص١٨٣.

٥٥-المصدر نفسه -ص١٨٤.

٥٦-المصدر السابق- ص١٨٦.

٥٧-المصدر نفسه -ص١٨٧.

٥٨-المصدر نفسه -ص١٦-١٣.



مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

العربية: لغةً و كتابةً

د. محمد محفل

جامعة دمشق

أ- اللغة:

١- اللغة والمجتمع:

لا حاجة بنا إلى القول بأنه لا لغة بلا مجتمع، كما أنه لا وجود لمجتمع بغير لغة، ومن نافلة القول أيضاً أن نقرّرَ الصعوبات التي تعترض سبيل الباحثين وذوي الاختصاص، لمعرفة تاريخ ومكان وكيفية نشوء "اللغة الأولى" لبني البشر. فهذا ليس قصدنا ولا مجال لذلك في عجالتنا هذه، متغاضين عن أهواء أولئك الذين

اهتدوا بما جاء في التوراة، (سفر التكوين، الإصحاح الحادي عشر):"

١- وكانت الأرض كلها لغةً واحدةً وكلاماً واحداً.

٢- وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعةً في أرض شنعار فأقاموا هنالك.

٣- وقالوا تعالوا نبني لنا مدينةً وبرجاً رأسه إلى السماء...

٤- فنزل الربّ لينظرَ المدينة والبرجَ..

٥- وقال الربّ هاهم شعبٌ واحد ولجميعهم لغة واحدة..

٦- هلُمّ نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض...

٧- فبدّدهم الربّ من هناك على وجه الأرض كلها..

٨- ولذلك سُمّيت بابلَ لأنّ الربّ هناك بَلْبَلَ لغة الأرض كلّها..".

لا تعليق لنا على ماجاء أعلاه!!.. مع العلم بأن اسم بابل لا يعني في الأكدية- البابلية والآرامية لاحقاً "باب ايلو/ باب ايلا" سوى (باب ايل= باب الله") وايل كما نعلم هو رب الأرباب في الهلال الخصيب، في إحدى الحقب، ومن هنا الأسماء المركّبة: اسماعيل، جبرائيل، عزرائيل، اسرافيل، الخ... ولدينا في الضاحية الجنوبية لدمشق بلدة "ببيّلا" بمعنى (باب الله).

لم يكن هدفنا من هذه اللفتة الاشتقاقية لاسم بابل، سوى التمهيد لما سنلاحظه لاحقاً من تشابهٍ جليّ واضح، بين اللغة العربية، كما أدركناها في الأدب الجاهلي وفي الخطاب القرآني فيما بعد، إضافة لما نجده في مختلف وثائق الحضارة اليمنيّة والنقوش القديمة (ثمودية، لحيانية، صفائية، وقال البعض صفويّة) وجميعها بالقلم المسند، أي بالتراث اللغوي لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ هذا من ناحية، وبين لغات بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، إضافة لشمال إفريقية، تلك اللغات واللهجات التي أطلق عليها البعض اسم اللغات "الحامية-السامية".

أعلن نفرٌ أن السريانية هي لغة "الإنسان الأول" واحتجّ آخرون على ذلك زاعمين أنها العبرية -مع العلم بأنه لا كيان لـ "عبرية قديمة" خارج دائرة اللغتين الكنعانية والآرامية، وأكد آخرون أنها العربية؛ بل شطت مخيلة هذا الفريق أو ذاك، عندما زعموا أن لغة أهل الجنّة هي هذه أو تلك!!

غنيٌ عن البيان أن شتى هذه الدعاوى لا علاقة لها بمنطق الأمور، وتدحضها مختلف الدراسات اللغوية المقارنة. ولامجال لنا للاستغراق في الحديث حول ذلك. ولكن لا بأس من ذكر بعض هذه الدراسات(1)، إذ من البديهي أن يطمح البعض إلى متابعة هذه النقطة أو تلك، وهذا أمر مفهوم.

قال البعض، إن الإشارات والرموز التي ظلّت الوسيلة الوحيدة للتفاهم لدى الجماعات البدائية، حتى مطلع قرننا هذا، (مجاهل أقيانوسية وافريقية الخ....)، والتي نلاحظها في الطفل قبل أن يتعلم الكلام، تعطينا فكرة تقريبية عن وسيلة التفاهم الأولى لدى الكائنات البدائية،' وبعد الإشارات هذه جاءت الأصوات فالكلمات: أحادية الصوت أو ثنائيته الخ... ثم كانت اللغة؛ والحالة هذه، فاللغة أصلاً هي أصوات وليست كلمات، والكلمة صوتٌ يرمز إلى معنى، وكتابة الكلمة رسمٌ يرمز إلى هذا الصوت، إذاً فالصوت هو الأصل. جاء في القاموس المحيط (الفيروز آبادي): "واللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم". ويضيف ابن منظور في مادة "لغا": ".... واللّغة، اللّسْن، وحدُها أنها أصواتٌ يُعبّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم...".

ونلخص فقرتنا هذه بما قاله (الأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح): "... وقد يصعب على الباحث معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة، إلا أننا لا نعدو الصواب، إذا قلنا: إنها بدأت عندما تكونت أول جماعة إنسانية في هذا الوجود، ولا نعدو الصواب أيضاً إذا قلنا: إن الجماعة الإنسانية الأولى -أياً كان طابعها- عندما تكونت صحبت معها مشاكلها الخاصة، الناتجة عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض، والناتجة عن علاقة الإنسان بالبيئة والطبيعة.

وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها، تولّد النشاط الإنساني في استخدام الصوت، لتكوين ألفاظ لغوية، بدائية الطابع، والإنصات لتلك الأصوات، بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الأذن. تجسّد هذا النشاط الإنساني المتميز من كائنات الطبيعة الأخرى، في صيحات موسيقية، توحي بمعانٍ سحرية، تختلف في دلالتها باختلاف موسيقاها.. بذلك تكوّن العنصر الأساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالإنسان وحده.. وليست على هذا الأساس، البيئة التي يحيا فيها الإنسان، يعمل ويبحث مادية فقط، بل ثقافية كذلك، فأفعال الإنسان وكيفية أدائه لها، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط، بل البيئة والإنسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبث في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والأهداف والمعتقدات التي تحملها الألفاظ اللغوية. في طيّها وتوحي بها.(2)

2 – العربية وانتسابها اللغوي.

من الأمور المقررة حالياً -في الدراسات الجامعية والأكاديمية- والخاصة بأصل الشعوب وألسنها، أنه لا يمكن أن نقيم علاقة مطلقة بين الأصل العرقي لشعب ما، وبين اللغة التي ينطق بها، ويمكننا أن نتيقن من ذلك، بدلائل وشواهد قديمة وحديثة، إذ نجد أقواماً وشعوباً تهجر ألسنتها الأصلية، لمصلحة ألسن أقوام أخرى، لأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية الخ.... فمثلاً اللغة الحوريّة اندثرت في سورية، بعد زوال سلطان الدولة الميتانية، في نهاية القرن الرابع عشر (ق.م)، لمصلحة لغة السكان المحليين. الكنعانية فالآرامية. وكذلك الفلستينيُّون[1]، وهم من أقوام شعوب البحر[2]، فبعد استقرارهم على الشريط الكنعاني الجنوبي، هجروا لغتهم لمصلحة الكنعانية، وكذلك أولئك الذين أطلقوا عليهم اسم الاسرائيليين القدماء فاليهود فيما بعد، منذ تسللهم إلى فلسطين، بعد القرن الثاني عشر (ق.م) ومروراً بالسبي الآشوري (٧٢١ ق.م) فالبابلي بمرحلتيه (٥٩٧/٥٨٦ ق.م) وانتهاء بتشريدهم النهائي على يد الرومان (عام ١٣٥م).... أما بالنسبة للأزمنة الحديثة والمعاصرة، فالشواهد على ذلك وافرة متنوعة: فالأقوام والشعوب التي تنطلق اليوم بالإسبانية والبرتغالية في مختلف أنحاء أمريكة الجنوبية، لا حصر لأصولها العرقية، ونحن نعلم أن الاسبانيين والبرتغاليين قد شرعوا في استعمار العالم الجديد- لاسيما القسم الجنوبي منه- منذ مطلع القرن السادس عشر.

---

[1] نعني بهم أولئك الجماعات الذين هاجموا سواحل الدلتا المصرية، وبعد فشلهم توجهوا نحو الساحل الكنعاني الأدنى/ الفلسطيني، حيث استقرّوا على الشريط الساحلي الممتد من يافا حتى غزة وأسسوا عدة مدن منها اشدود وعسقلان. واسمهم في المراجع الانكليزية حاليا placstinian وهم غير "الفلسطينيين palcstinian

[2] وهم الأقوام الذين اكتسحوا الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط- ومنهم الفلستينيون- في القرن الثاني عشر (ق.م)، انطلاقاً من جزر بحر ايجه وكريت بل ومن صقلية وسردينية. الخ...

وشاع استعمال هاتين اللغتين، ذات الأصل اللاتيني، بين سكان أمريكة الجنوبية، إلى درجةٍ كبيرة، مما جعل البعض يطلق اسم "أمريكة اللاتينية" على القسم الجنوبي من القارة الأمريكية، وماقيل عن الشعوب الناطقة بالاسبانية والبرتغالية ينطبق على بعض الأقوام الافريقية والأسيوية التي اعتمدت اللغة الفرنسية أو الانكليزية لغة رائجة لها، مع احتفاظها أحياناً (كالهند مثلاً) بلهجاتها القومية.

تنتسب لغتنا "العربية الفصحى" إلى تلك المجموعة اللغوية، التي أُطلِق عليها تجاوزاً اسم "اللغات السامية". وهي اللغات واللهجات التي تكوّنت في مختلف أصقاع وطننا العربي القديم اعتباراً من الألف الرابع (ق.م). وأوّل من نادى بالنظرية السامية بدءاً من عام ١٧٨١، الباحث النمساوي شلوتسر معتمداً -لأسبابٍ سياسية/ كهنوتية- على ماجاء في (سفر التكوين، الإصحاح العاشر)، ومن يقرأ هذا الإصحاح يلاحظ مباشرة أن كاتب النصّ يقسّم الشعوب والأقوام لاعتبارات سياسية، لاسيّما موقفها من أهل التوراة، ومن الأمثلة على ذلك، أنهم أخرجوا الكنعانيين من دائرة "الشجرة السامية"! علماً أن مختلف الدراسات المقارنة قد أظهرت الصلات الجوهرية والوشائج المطلقة، التي تشدّ الكنعانية إلى غيرها من لغات مشرقنا العربي القديم. ثم جاء بعد شلوتسر من عمل على ترويج هذه التسمية وفي مقدمتهم العالم الفرنسي (إرنست رِنان)، بل راح "يفلسفها" عرقياً، خدمة للمدرسة الاستعمارية الفرنسية في القرن التاسع عشر.

نحن نرفض جازمين نظرية "التسمية السامية"، لأسبابٍ علميةٍ محضة، ولدوافع سياسية وقومية:

أولاً: فمن الناحية العلمية، دحضت مختلف الدراسات العرقية والإناسية (انثروبولوجية) نظرية وحدة السلالة أو الأصل MONOGENISME/ MONOGENISM بمعنى أن مختلف أفراد شعبٍ ماينحدرون من شيخٍ واحد(3).

ثانياً: التسمية ذات أصل توراتي -كما ذكرنا أعلاه- كما أن الاستشراق الغربي قد "ابتدعها" وروّجها، لأسبابٍ سياسية/ مذهبية، لم تعد خافية على أحد، وذلك في أوج اندفاع الاستعمار الغربي، وقبل قرنٍ تقريباً من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول. كما أننا اكتوينا كافياً برعونة سلاح: سامية/ لاسامية، وإضافةً لهذا وذاك، لا نجد أثراً لهذه التسمية في مؤلفات علمائنا وشيوخنا الأوائل! وما نقرّره هنا، قد نبّهْنا إليه منذ ربع قرن تقريباً في المقدمة التاريخية لكتابنا (المدخل إلى اللغة الآرامية)، المقرّر في جامعة دمشق، والمعمول به حتى يومنا هذا، إذ قلنا أن المُهمة ملقاة على عاتق الباحثين العرب المعاصرين لإيجاد بديل للتسمية التوراتية... ويدخل الموضوع في باب "السهل الممتنع" لانتشار هذا الخطأ الشائع في الأوساط الجامعية، عربياً ودولياً. وقد سبق أن انتبه لإبهام التسمية بعض الباحثين العرب، لاسيّما الأستاذين محمد عزّة دروزة وجواد علي، وقد لخص هذا الأخير الموضوع كما يلي: "... ولعلّني لا أكون مخطئاً أو مبالغاً إذا قلت إن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح (سامي) و(سامية) بـ(عربي) و(عربية)... ولما كان العلماء قديماً قد أطلقوا على هذه الأرض التي ظهرت فيها شعوب كثيرة ولغات عديدة اسم (جزيرة العرب) أو (شبه جزيرة العرب) غير مراعين في ذلك تعداد المواضع أو اللغات واللهجات أو القبائل، ولا تاريخ ظهور لفظة (العرب) إلى عالم الوجود، جاز لنا بل وجب علينا -على ما أرى- أن نستبدل مصطلح (السامية) بمصطلح (العربية)، فنكون بذلك قد لاحظنا عاملين مهمّين: عامل القرابة اللغوية والأصل اللغوي، وعامل وحدة المكان.. وإذا وافقنا على إقرار هذا الاصطلاح، نكون قد تقربنا نحو العلم، وابتعدنا عن الأساطير، أسطورة انحدار الساميين من صلب

رجل هو سام، وحري بالعلم أن يبني أحكامه على حقائق علمية، وأن يبتعد عن القصص والأساطير"(4).

وغنيّ عن البيان، أنه لا يمكن تمييز أولئك "الساميين" عن غيرهم من أقوام وطننا العربي القديم، استناداً إلى ماهية العرق البشري فقط، إذ أن هؤلاء قد امتزجوا، منذ الألف الرابع (ق.م)؛ بسواهم من الأقوام المنحدرة من جبال زاغروس أو المتدفقة من بلاد الأناضول أو الوافدة من جزر الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط: من سومريين[٣] وغوتيين[٤] وحثيين[٥] وكاشيين[٦] وحوريين-ميتانيين[٧] وفلستينيين[٨] وفرس أخمينيين[٩] وإغريق ولاتين[١٠] وغيرهم. ومع أن أولئك الأقوام قد نطقوا بألسنٍ مغايرة لما كان سائداً في ربوعنا، فلم يتمكنوا من فرض لغاتهم على أهل البلاد، فظلّت محدودة في أوساطهم لتندثر بزوال سلطانهم السياسي.

وأظهرت شتى الدراسات المقارنة الخاصة بأصول السلالات البشرية (الاثنولوجية)، أن عملية تمازج الشعوب لم تنقطع منذ عصور ماقبل التاريخ، من جراء الهجرات البشرية المختلفة، مما أدّى إلى اختلاط دماء شتى الشعوب، وينطبق هذا الأمر على وطننا العربي القديم كما ذكرنا أعلاه.

ولاينبثق اختلاف الأمم في التفكير والسلوك عن نوعيات عرقية مطلقة، بل يتحدد ذلك بالشروط والظروف الاقتصادية-السياسية والاجتماعية لشعبٍ ما، إضافةً للعوامل الجغرافية التي تؤمّن شروطاً مناخية معينة، لا يُنكرُ دورها في هذا المضمار. وعندما نشير إلى جنسٍ ما، فلا يخطر على بالنا صفاء عرقه، بل نقصد بذلك تلك الصفات التي تميّز حضارته وثقافته في مختلف الميادين، على مرّ الأيام والسنين، وأهم حقلٍ تشع فيه الخصائص المشتركة لأمّة من الأمم، هو حقل اللغة، ويبدو هذا الأمر جليّا واضحاً في لغات ولهجاتٍ وطننا العربي عبر العصور. وإليكم أهم خواص ومميزات تلك الألسن، في بعض مركباتها، وأحوالها واختلافاتها عن غيرها من اللغات.

أ- اشتقاق أغلبية المفردات من جذرٍ ثلاثي، ولذلك أطلق علماء اللغة عليها صفة "ثلاثية الجذر" TRILITERE / TRILITERAL ونعلم أن المشتق ومصدره، في لغتنا العربية وأخواتها، يتفقان في الحروف الأصلية وترتيبها، فنقول: "نصَرَ وناصر ومنصور ومنتصِر والنصر الخ.. وكَتَبَ وكاتب وكتابة ومكتوب ومكتبة وتكاتب الخ.. ونَفَقَ واستنفقَ والنافقة والنفقة والمنفاق الخ..." نلاحظ أنه في مختلف المفردات المشتقة من

---

[٣] ظهر السومريون في المنطقة الجنوبية لبلاد الرافدين، بدءاً من منتصف الألف الرابع (ق.م)، وقد اعتبرهم البعض سابقاً غرباء عن المنطقة وأظهرت دراسات مقارنة حديثة إمكانية تطوّرهم محلياً.

[٤] انحدروا إلى بلاد الرافدين عبر جبال زاغروس، في أواخر الألف الثالث (ق.م) وساهموا في القضاء على الدولة الأكدية.

[٥] من أقوام آسية الصغرى، انطلقوا من الأناضول ليقوموا بدور ملحوظ في النصف الثاني للألف الثاني (ق.م)، في البقاع الشمالية لسورية وأحياناً في بلاد الرافدين.

[٦] موطنهم الأصلي في أواسط جبال زاغروس، احتلوا مدينة بابل وورثوا ممتلكاتها ودام حكمهم نحو أربعة قرون ونصف (١٥٩٥-١١٦٠ق.م).

[٧] أسس الحوريون الدولة الميتانية التي كان لها دور بارز في شمال بلاد الرافدين وسورية في القرنين السادس عشر والخامس عشر (ق.م).

[٨] انظر ماجاء عنهم سابقاً.

[٩] سسوا أول دولة فارسية في منتصف القرن السادس (ق.م) ليقضي عليها الاسكندر المقدوني عام (٣٣١ ق.م).

[١٠] في العصرين الهلنستي (السلوقي أ البطلمي) والروماني أ الرومي.

(نصَرَ)، أن ترتيب الحروف ثابت (ن/ فاء الفعل، ص/ عين الفعل، ر/لامه)، وكذلك بالنسبة لـ (كَتَبَ: ك، ت، ب) وأيضاً لـ(نَفَقَ: ن، ف،ق).

ونعلم أيضاً أنه في بعض المشتقّات يحصل اتفاق في الحروف الأصلية، دون ترتيبها، مع تناسب في المعنى، وذلك هو الاشتقاق الكبير (القلب). والاشتقاق في لغتنا العربية وأخواتها هو على ثلاثة أشكال: الاشتقاق الصغير، وهو اشتقاق كلمة من جذرٍ بشرط أن يكون بين المفردتين تناسب في اللفظ والمعنى وترتيب الحروف، مع تغاير في الصيغة، مثل: كَتَبَ، كتابة، مكتوب الخ.. ثم لدينا الاشتقاق الكبير، حيث نجد تناسباً في اللفظ والمعنى دون ترتيب الحروف، مثل جَذَبَ وجَبَذَ، طاف وطفا، جَذَلَ وجَلَذَ الخ... وقالوا أيضاً: "القلب" كما ذكرنا. ويأتينا بعد ذلك الاشتقاق الأكبر وهو "الإبدال" حيث نجد بين لفظين تناسباً في المعنى ومخارج الحروف دون تناسب في اللفظ، نحو: نَفَقَ ونَهَقَ، ضَمَّ (ضَمَمَ) وضَمَدَ، رَصَّ (رصَصَ) ورَصَفَ، رَجَّ (رَجَجَ) ورَجَفَ، الخ.. هذا، إضافةً إلى الاشتقاق الكُبار، وهو النحت، وهو أن تختصر من كلمتين فأكثر كلمة واحدة، ولا يُشترط فيها حفظ الكلمات بتمامها، ولا يؤخذ أحياناً من كل الكلمات كما أنه ليس من الضروري موافقة الحركات والسكنات، ولكن لابدّ من مراعاة ترتيب الحروف.

والنحت عند جمهور العلماء على أربعة أشكال:

فعلي، نحو: بَسْمَلَ (إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم)، حَوْقَلَ (لا حول ولا قوة إلا بالله)، حَمْدَلَ (الحمد لله)، سَمْعَلَ (السلام عليكم)، حَسْبَلَ (حسبي الله)، جَعْفَلَ (جعلني الله فداءك). الخ... والوصفي نحو: الصلدم بمعنى الصلد، وهو الأسد أيضاً، والاسمي، نحو الجلمود، بمعنى (الصخر القاسي، من جلد وجمد) والنسبي، وهو أن نشتق من منسوب مدينتين أو بلدين أو شخصين منسوباً واحداً، نحو عبدلي (نسبة إلى عبد اللات) وعبدري (من عبد الدار) وطبرخزي (من طبرستان وخوارزم) الخ...

ولكل ذلك أصوله القياسية لدى جمهور العلماء. وعندما نقع في العربية على كلمة يتجاوز عدد حروفها الصامتة ثلاثة حروف أصلية، فعلينا أن نتأكد أنها ليست دخيلة وحينئذٍ نبحث عن أصولها الاشتقاقية.

هذا في لغتنا العربية وكذلك في أغلبية أخواتها القديمة.

ب- انعدام الحياد في لغتنا العربية وفي أخواتها القديمة: كالأكدية-البابلية- الآشورية والكنعانية والآرامية ولغات ولهجات شبه الجزيرة العربية القديمة من سبئية ومعينية وحضرمية وحبشية ولحيانية وثمودية وصفائية وكلها بالقلم المسند، بأشكاله المختلفة، وذلك في أسماء الجنس والصفات وأسماء الإشارة والموصول والضمائر والأعداد، الخ... فهي إما أن تكون مؤنثة أو مذكرة، بعكس مانجده غالباً في اللغات الهندو-أوروبية، التي تضم المحايد إلى جانب المذكر والمؤنث. ويبدو هذا جلياً واضحاً في اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية وكذلك في لغاتٍ حديثة كالألمانية والانكليزية (ضمير IT).

ج) تفردها بأصوات الإطباق (القاف، الصاد، الطاء، الظاء، الضاد)، ونجد الأصوات الثلاثة الأولى (ق، ص، ط) في العربية وأخواتها، بينما تعرّض حرفا (ظ، ض) للتبدل في بعضها. وقالوا إن صوت (الضاد) مقتصر على العربية الفصحى الحجازية، ومنه قولهم (العربية لغة الضاد). ونعتقد أن هذا غير صحيح. فأولاً نجد حرف (الضاد) في النقوش السبئية والحميرية على شكل (⊟) ليتطور إلى (⊓) ثم (⊔) وأخيراً (⊏، ⊐، ص) ويمكن للراغب في الموضوع أن يطالع كتاب (مختارات من النقوش اليمنية القديمة)(5)، في النقوش التالية (رقم النقش فالسطر) مع مراعاة الترتيب الأبجدي للمفردات:

(ضأن، اسم جمع، كالعربية ٧/١٨)؛ (ضبأ، بمعنى حَارَبَ، ٧/٤٠)؛ (ضرس، بمعنى طوى بالحجارة ١٢٠/١)؛ (ضرك، طوى بالحجارة ١٢/٧)؛ (ضرع، بمعنى هزم، أذلّ ١٨/٢، ٨/١٢، ٢٩/٧٣ ويأتي أحيانا غرَبَ، مال، ٢/٣٤)؛ (ضفر، بمعنى ضَفَرَ، طوى بالحجارة بئراً ١/٣٦)؛ (ضمد بمعنى دعا إلى هدنة ٥/٦) الخ... كما تأكد وجود حرف (الضاد) في النقوش الثمودية والصفائية(6)، كما قلنا أعلاه، نقول صفائية لاجتناب اللبس مع الصفوية (نسبة إلى الدولة الفارسية الصفوية ١٥٠٢-١٧٣٦م). وعلى قول بعضهم مؤخراً وُجِدَ حرف (الضاد) في أحد النقوش الأوجاريتية(7)، وإضافةً لهذا وذاك، نلاحظ هذا الصوت في بعض اللغات الأوروبية الحديثة.

فمثلاً في الانكليزية، فعل عَمَلَ (DO, DID , DONE)، فنلفظ (DO, DID) بحرف (د D)، أما (DONE) فنلفظها بحرف الضاد، هكذا (ضَن). وكذلك في الفرنسية، فلو أخذنا فعل PRENDRE (أخذ)، في المستقبل، فنقول JE PRENDRAI(متكلم مفرد)، فحرف (D) هنا نلفظه (د)، أما في المتكلم الجمع، NOUS PRENDRONS وكذلك في الغائب الجمع ILS PRENDRONT فنلفظ حرف (D) وكأنه صوت (الضاد)، ولنأخذ حرف (ط)، من أصوات الإطباق، فمع أن هذا الحرف غير موجود في الأبجدية الانكليزية، ولكننا نسمعه أحياناً، ولنلفظ مثلاً NOT (لا) و BUT (لكن)، فنسمع حرف (T) في الحالتين وكأنه حرف (ط)؛ وعلى كل يختلف عن حرف (T) في TO (إلى، نحو، الخ....) و TO TAKE (أخَذَ) الخ.... ومن أصوات الإطباق أيضاً، حرف (ق) الذي يقابل حرف (Q) في الأبجدية اللاتينية، فتارة نسمعه بصوت (ق) وأخرى بصوت (ك).

فلنأخذ مثلاً كلمة (QUOIQUE)، بمعنى (مع أن، وإن، ولو) الفرنسية، ففي مطلع الكلمة نلفظه بصوت (ق)، والحرف الثاني بقيمة (ك) وكذلك في الانكليزية، وعندما يراجع المرء باب (Q) في المعاجم الفرنسية والانكليزية يعثر على أمثلةٍ شتى مماثلة.

ومع ذلك، فما أوضحناه أعلاه لا يلغي البند (ج) الخاص بـ(أصوات الإطباق)، والأمر ليس بهذه السهولة والبساطة. ولكن من الواضح أيضاً، أنه ما من أبجدية عكست قديماً وحديثاً، مختلف أصوات لغة أصحابها بشكل مطلق[11].

والمشكلة قائمة أيضاً، كما نعلم، في كتابتنا العربية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا، فمثلاً بالنسبة للحركات الثلاث: (الضمة والفتحة والكسرة)، المعبّرة عن الصوائت (الواو، الألف، الياء). فكم من صوتٍ تعجز هذه الحركات عن سلامة نطقه، لاسيّما في اللهجات المحليّة في مختلف ربوع وطننا العربي. ولا ندري حقاً لماذا اقتصر أسلافنا العلماء على هذه الحركات الثلاث، مع الشدّة والسكون، علماً أن الكتابتين: الآرامية المتطورة والسريانية فيما بعد، قد ابتدعتا عدداً أكبر من الحركات (الكبرى، والصغرى) المعبّرة عن أصوات تعجز أحياناً كتابتنا العربية عنها(8).

نرانا أسرفنا في الموضوع... ولا مجال لأكثر من ذلك في عجالتنا هذه.... ولكن الإشكال مازال قائماً وينتظر الحل على يد علماء اللغة العرب.. اليوم وغداً.

د) يأتي العدد في لغتنا العربية وأخواتها، من ثلاثة إلى عشرة، على عكس المعدود، فهو مذكر مع المؤنث

[11] يقول ابن جني في "الخصائص": "العبرة في إثبات الحرف بالنطق لا بالخط، لوجود اللفظ قبل الخط".

والعكس صحيح، أما العددان (واحد، واثنان) فيأتيان بموجب المعدود. فنقول : رجل واحد، وامرأة واحدة، رجلان اثنان، وامرأتان اثنتان، وثلاثة رجال، وثلاث نساء الخ.... إلا إن كانت العشرة مركبة، فهي على وفق المعدود. وللمقارنة مع اللغتين الآرامية والسريانية لدينا بعض المراجع المحلية الجامعية.(9).

هـ) تضم لغتنا العربية مختلف الأصوات الحلقية (الهمزة، الحاء، الخاء، العين، الغين، الهاء)، بينما لم تحتفظ أخواتها إلا ببعضها، وأقلها الأكدية التي لم تحتفظ سوى بصوتي (الهمزة والخاء).

و) تشابه الضمائر المنفصلة إلى درجةٍ كبيرة، وكذلك طريقة ارتباط الضمائر المتصلة بالأفعال والأسماء والحروف الخ...

ز) التشابه الكبير في المفردات الدالة على أعضاء الجسم والعدد وصلات القرابة ومختلف مرافق الحياة المألوفة لدى أسلافنا في العصور القديمة وحتى صدر الإسلام، إضافةً إلى التشابه في الضمائر والحروف وأسماء الإشارة، الخ...

وإليكم الجدول المقارن لبعض تلك اللغات.

عربي شمالي	أكدي/بابلي/آشوري	كنعاني	آرامي/ سرياني	يمني /حبشي
أب	أبو	أب	أبا	أب
ابن	بنو	بن	بر	بن
أخ	أخو	أخ	أخ	أخو
إذن	اِزنو	إزن	اود	ازن
أربع	اربعو	اربع	اربع	اربع
اسم	شومو	شم	شم	شم
أم	امّو	أم	أما	أم
جمل	جملو	جمل	جمل	جمل
دم	دمو	دم	دم	دم
و(حرف عطف)	و	و	و	و
زرْع	زرْو	زرْع	زرْعا	زرْع
يد	أدو	يد	إيدا	اد
كوكب	كاكبو	كوكب	كوكبا/كوخبا	كوكب
ماء	مو	مَايم	مايا	ماي
مَوْت	موتو	موت	مُوتا	مُوت
ست(٦)	ششو	شش	شِش	سِسْو
عين	أنو	عين	عينا	عين

شمس	شَمَشُو	شمش	شَمْشَا	شمس
ثلاث(٣)	شلاشو	شلوش	ثلاث	شلاس

لم نتطرق في جدولنا أعلاه إلى اللغة المصرية القديمة، بكتابتها الهيروغليفية وأشكالها المختلفة على مر العصور. ونحن نعلم جيداً "النغمة الفرعونية، التي جعلت من اللغة المصرية القديمة "كياناً" قائماً بذاته، لا علاقة له بألسنة وطننا العربي البائدة منها والباقية، لقد تزعزت أركان "الفرعونية" بعد الدراسات اللغوية الحديثة. ولعلّ أفضل ماصدر في السنوات الأخيرة في هذا المجال، دراسة الدكتور علي فهمي خشيم، تحت عنوان (آلهة مصر العربية)(10) بحث في تاريخ وادي النيل ومعبودات قدماء المصريين واللغة المصرية القديمة، بمنهج عربي جديد).

وإليكم جدول (رقم ١) شجرة لغات وطننا العربي، البائدة منها والباقية، بالإضافة طبعاً للمصرية القديمة (انظر مختلف الجداول والنقوش كملاحق في آخر البحث).

3 – العربية الفصحى، انتسابها ، ومكانتها:

نقصد بالعربية الفصحى، تلك اللهجة التي أدركناها مكتملة القواعد والبيان، في الشعر الجاهلي ثم في القرآن الكريم والحديث الشريف، قبل أن نأخذ لاحقاً مناحي جديدة في العصرين الأموي والعباسي، فالعصور التالية حتى أيامنا هذه. والأمر المدهش بل المحيّر، عظمة بلاغتها وبيانها وغنى مفرداتها، بالنسبة إلى الكتابات اليمنية التي تمّ العثور عليها -حتى الآن- مع غيرها من النقوش اللحيانية والثمودية والصفائية بالخط المسند، إضافة لتلك النقوش الشمالية، اعتباراً من منتصف القرن الثالث للميلاد وحتى نهاية القرن السادس للميلاد، وعلى وجه التحديد (عام ٥٦٨م) وهي محدودة العدد، وقد عُثِرَ عليها في المنطقة النبطية، ماعدا (نقش زبد)، كما سنرى وإليكم تسلسلها:

أ- أقدم هذه الكتابات هو (نقش أم الجمال الأولى)[١٢] نبطي اللهجة وبقلم نبطي، منقور في حجر شاهدة قبر "فهر بن شلى) مربي جذيمة، ملك تنوخ[١٣]، ويرجع تاريخه إلى حوالي (عام ٢٥٠م)، وهو بدء استعمال القلم النبطي عند ملوك العرب، ويُعتبر هذا النقش، على قصره، عظيم الأهمية، بإشارته للصلات التاريخية بين الأسر العربية الحاكمة في العراق وبلاد الشام. (انظر ملحق (١) "أ").

ب- والوثيقة الثانية هي كتابة النمارة[١٤]، على قبر الملك "امرئ القيس" ويرقى إلى (عام ٢٢٣) من سقوط البتراء (سلع) والموافقة لعام ٣٢٩ للميلاد[١٥] ويتألف النقش من خمسة سطور منقوشة على صرح مربع، وهي بالقلم النبطي وبلغة آرامية/ عربية ويغلب عليها تراكيب الجملة العربية، وتكمن أهمية النقش في أنه أقدم نص مكتوب بلهجة قوم لسانهم قريب من لهجة أهل الحجاز. (انظر ملحق (٢) "أ").

---

(١٢) قرية حنوبي بصرى، عُثِرَ فيها على أنقاض بيزنطية ونبطية وعربية.

(١٣) هو جذيمة بن مالك، أحد أوائل ملوك الحيرة التنوخيين، ويُعرف بالأبرش، ينسبه الاخباريون العرب إلى العاربة الأولى.

(١٤) موقع في حوران، في حرّة الصفا، حيث اكتشف العالم الفرنسي (دوسو) في مطلع هذا القرن نقش "امرئ القيس) وهو بالقلم النبطي المتأخر القريب من الخط العربي الباكر.

(١٥) عندما نضيف (١٠٦) عام سقوط البتراء، عاصمة الأنباط، إلى ٢٢٣ (تاريخ النقش)، نحصل على تاريخ النقش بالميلادي، وهو ٣٢٩. (انظر ملحق (٢) "أ".

جـ- والوثيقة الثالثة هي كتابة "زبَد" وهي خربة، تقع جنوبي- شرقي حلب، ويرجع تاريخه لعام (٥١٢م) ويتكوّن النقش من كتابات بثلاث لغات: يونانية وسريانية وعربية قديمة. (انظر جدول رقم (٣، خانة ٨)، ونُقشت الكتابات على حجرٍ كائنٍ في صرح الكنيسة.

د- أما النص الرابع، فهو الشهير بنقش "حرّان"، (الصفا، في اللجاة، شمالي جبل العرب)، وتاريخه هو عام (٥٦٨م.) وهو منقور في حجر فوق باب مزار، وأغلب الظن أنه يعود لأحد أمراء كندة، الذي أشار على حاشيته به، بمناسبة تدشين مزار (مشهد/ مرطور) تكريماً للشهيد القديس "يوحنا المعمدان". وتمتاز هذه الوثيقة بكون لهجتها قريبة إلى درجةٍ كبيرة من العربية الحجازية، ولاسيّما لهجة قريش. كما أن الخط يقترب كثيراً من النسخي القديم(١١). واعتباراً من هذا النص، راحت الكتابة العربية الشمالية (الحجازية) تبتعد تدريجياً عن القلم النبطي. (انظر ملحق (٣) "أ" وجدول رقم (٣، خانة ٧).

تزداد حيرتنا أكثر فأكثر، عندما نقيس ركاكة أسلوب محتوى النقوش، التي أشرنا إليها أعلاه، ببلاغة سحر الشعر الجاهلي وجزالته فالقرآن الكريم. مما لاشك فيه، أن تلك الكتابات الوجيزة لا تعكس بالضرورة حقيقة لغة التخاطب اليومي، وبالأحرى، ماهية الخطاب الأدبي. لسكان شبه جزيرة العرب، ولاسيما في ربوعها الوسطى والشمالية (نجد، الحجاز، بلاط الحيرة، بادية الشام الخ....) ومع ذلك، يظلّ ذلك الموضوع الملّح، الذي شغل بال علمائنا السابقين والباحثين المحدثين، من عرب وغيرهم، قائماً وبلا جوابٍ مقنع حاسم، حتى يومنا هذا، وعلينا بذلك: أين ومتى تمّت تلك "الطفرة النوعية، اللغوية لعربيتنا الفصحى، التي أدركناها في بلاغة وبيان الشعر الجاهلي ثم في الإعجاز القرآني فجزالة الحديث الشريف؟!....

قد يبسط البعض كله المشكلة بحصره القضية في عبقرية قريش وعالمها... وقد يلجأ آخرون إلى القول، إن عربيتنا الفصحى هذه، هي أبدية أزلية بصفتها لسان إنساننا الأول، في شبه جزيرة العرب، منذ أن كان... وقد "ينسف" نفرٌ آخر شتى "الأقاويل" الشعر الجاهلي وغيره، كما عهدنا ذلك في العقود الأولى من قرننا العشرين هذا....الخ... أما الرأي الأول، فليس بالجواب الشافي... في حين أن الزعم الثاني تنقضه مختلف لهجات النقوش اليمنية واللحيانية والثمودية والصفائية الخ (من القرن التاسع ق.م وحتى القرن الرابع للميلاد).. وكذلك الاجتهاد الثالث، الذي دحضت دعاويه، مختلف الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة، التي بحثت موضوعَ لهجات ولغات شتى الأمم والشعوب، منذ خطواتها البدائية وحتى نهاية العصر الوسيط، فاقترحت سلسلة المراحل التالية، التي واكبت -كما سنرى- مخربشات GRAFFITI الإنسان البدائي وحتى إبداع الأبجدية، مروراً بمختلف الأشكال والصور الكتابية:

الأصوات ← التمتمة ← الغناء ← السجع/الرجز ← الشعر ← النثر.

لا ندري!... ألا يكمن بعض الجواب عن إشكال عنصري الزمان والمكان " للطفرة النوعية"، التي أشرنا إليها أعلاه، في غموض مفهوم المساحة الجغرافية لعالم "العرب" على مرّ العصور وكذلك في تطوّر دلالات كلمة "عرب" على كرّ الأيام والسنين؟!...

من المعروف، أن مختلف -ولنقل غالبية- اجتهادات علمائنا السابقين، وكذلك أبحاث ودراسات المستشرقين والباحثين العرب المحدثين، قد حصرت مجال نشأة وتطور اللغة العربية "العتيقة" في قلب الجزيرة العربية، أو بالأحرى، في تلك الربوع الشهيرة حالياً باسم "المملكة العربية السعودية" إضافة إلى اليمن

والإمارات العربية، وكأن مجتمعات شبه الجزيرة تلك، كانت في عزلةٍ تامة عن عالم الهلال الخصيب ووادي النيل، وطبعاً، دون أن يتناسوا تلك الموجات البشرية "السامية" المنطلقة من قلب الجزيرة العربية، بين حقبةٍ وأخرى، لتستقر في بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، بل راح بعض المحدثين "يفلسف" الموضوع برسمه تواريخ محددة لتلك الهجرات البشرية "السامية (كذا)" عبر العصور: انطلاقاً من الألف الرابع (ق.م). فالعصر الأكدي/ البابلي، ثم الكنعاني فالآشوري/ الآرامي حتى الفتوحات العربية/ الإسلامية.

وقبل أن نسعى إلى إيضاح مايدور في خلدنا، نودّ الإشارة إلى ماذهب إليه بعض المستشرقين. فمنهم (ثيودور نولدكه ١٨٣٦-١٩٣٠) مثلاً جعل بلاد أرمينية المهد الأصلي "للساميين". ويبدو أن قوله هذا جاء متأثراً بما ورد في (سفر التكوين، الإصحاح الثامن، ٤). لتعيين البقعة التي استقر فيها فلك نوح: "واستقرت السفينة في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال أرارات"[66]. وزعم آخرون أن الحبشة هي الموطن الأصلي، بينما ذهب (غويدي) إلى أن الحوض الأسفل لنهر الفرات هو ذلك المهد، واقتصرت طائفة على ربوع اليمن كمهدٍ أصلي، في حين أن العدد الأكبر من هؤلاء قد نادى بنظرية (قلب شبه الجزيرة)، وفي عدادهم: سبرنجر وشرادر وده خويه، وبروكلمان وهومل وينكلر الخ...

أما النظرية الأرمينية، فقد تداعت أوهامها، في حين أن الفرضيات الأخرى لا تخرج عن دائرة شبه جزيرة العرب، ماعدا الحبشة... وهنا بيت القصيد: هل نظلّ حبيسي الاجتهادات والآراء التي أبعدت بلاد الهلال الخصيب مع وادي النيل عن دائرة العالم اللغوي، حيث نشأ وتطور لسان أسلافنا الأولين، بمراحله المتعاقبة، قبل إبداع الكتابتين المسمارية والهيروغليفية، "لنلتقط براعمه" فيما بعد، في النقوش فالكتابات الرافدية والمصرية والشامية الخ... اعتباراً من مطلع الألف الثالث (ق.م)؟! وهكذا، فمادمنا ننهج على منوال أولئك ونتبع خطاهم، بعزلنا عالم الهلال الخصيب ووادي النيل عن محيط شبه الجزيرة العربية، فلن نبلغ ضالتنا المنشودة ونظل ندور في حلقةٍ مفرغة... فذلك النهج يحرم عربيتنا الفصحى، هذه الشجرة الراسخة الباسقة، من جذورها المتأصلة في شتى أصقاع وطننا العربي، وفي الواقع، فالخلل ليس قريب العهد/ طارئاً، بل أصلياً/ متأصلاً، في التراث العربي-الإسلامي.

لقد غاب الأمر عن بال أغلبية علمائنا السابقين، منذ فجر الإسلام وحتى عصر نهضتنا المعاصرة، لأسبابٍ وأسبابٍ منها جهلهم الفاضح تاريخ حضارتنا العتيقة/الرائدة، في مظاهرها المختلفة: أخبارها، رواياتها، إرثها اللغوي الخ... ولجهلهم هذا أيضاً، أسباب ودوافع شتى: منها الموضوعي والذاتي، لا مجال لعرضها في عجالتنا هذه... ويدهشنا حقاً (ابن منظور، ١٢٣٢-١٣١١م) في "لسانه"، شارحاً مادة "كنع": "... وكنعان بن سام بن نوح، إليه يُنسَب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمّون بلغةٍ تضارع العربية....".

وكما قالوا: "النادر لاحكم له...." وعلى أيّ حال، ألا يبدو عالمنا ابن منظور أكثر حداثةً، وحضوراً من الدكتور (لويس عوض) في قوله: "فالعرب إذن أمة حديثة نسبياً إذا قيست بما جاورها من الأمم. ونحن عادة نؤرخ للحضارات ببداية عصر التدوين واستعمل (هكذا) والصحيح استعمال) الأبجدية وبهذا المقياس يجب أن نبدأ تاريخ الحضارة العربية الشمالية والحضارة العربية في وسط شبه الجزيرة بما فيها الحجاز ببداية القرن الثاني (ق.م). أي بنحو ثمانمائة سنة قبل ظهور الإسلام. أما تاريخ الحضارة العربية الجنوبية (أي سبأ ومعين وقتبان). فيبدأ نحو ٨٠٠ ق.م... وأقدم نص عربي معروف ينتمي إلى عام ٣٢٨م (وهو النقش الذي ذكرناه

---

[66] كتلة بركانية بارتفاع (٥١٥٦ متراً)، تقع شرقي تركية على الحدود بينها وبين إيران وجمهورية أرمينية.

أعلاه م.م). وهو شاهد قبر امرئ القيس بن عمرو...."(12).

نحن لا ننتكر لآراء واجتهادات المرحوم لويس عوض، في العديد من مؤلفاته التي تناولت شتّى جوانب المعرفة... رغم شعورنا بالغربة عنه في سنوات حياته الأخيرة، بما جاء في بعض مؤلفاته، وهاهو كتابه (مقدمة في فقه اللغة العربية)، خير شاهد على ذلك. نحن مع حرّية الفكر، والعلم أخذٌ وعطاء! وليس بعقيدة.. وهذا أمرٌ لاجدال فيه.... ولكن كم كانت حيرتنا بالغة ودهشتنا كبيرة، بعد الانتهاء من مطالعة كتابه هذا. نحن لسنا بصدد دراسة نقدية للكتاب الحاوي ومحتواه، ولما كان الدكتور عوض يقتلع اللغة العربية وأهلها من محيط الوطن العربي، ليلقيهم في أحضان العالم القفقاسي/ الهندو-أوروبي، فلا باس من لفت الانتباه إلى مايلي:

١- قلّما نجد مصدراً أو مرجعاً أجنبياً للاجتهادات والمسلمات الاشتقاقية المقارنة، مع العلم بأن المؤلف يبحث في أصول اللغة العربية وأهلها، لينتهي به الأمر إلى ربط مصيرهم بالعالم القفقاسي/ الهندو-أوروبي. (من الفصل السادس وحتى الثاني عشر، ص.ص. ٢٢٩-٤٥٩).

٢- ماندر ذكره من مراجع تاريخية في الهوامش، ولاسيّما في الصفحات (٢٨-٤٢-٤٥-٤٨-١٢٦) قديم وبال، ويعود بأغلبيته لعام ١٩٥٠، أو قبل ذلك، ولا يؤخذ به حالياً في الأوساط العلمية، وبخاصة بعد المكتشفات الأثرية والدراسات التاريخية/ اللغوية المقارنة، في العقود الثلاثة الأخيرة.

وإليكم بعض ماجاء في سفرنا "العجيب" إضافة للمقطع المذكور أعلاه:

(في الصفحة ٤٠) : "وقد انتهيت من أبحاثي في فقه اللغة العربية إلى أن اللغة العربية هي أحد فروع الشجرة التي خرجت منها اللغات الهندية- الأوروبية.").

(في الصفحة ٥١) : "فالعرب إذن موجة متأخرة جداً من الموجات التي نزلت على شبه الجزيرة من القوقاز (القفقاس م.م) والمنطقة المحيطة ببحر قزوين (بحر الخزر م.م) والبحر الأسود نحو ١٠٠٠ ق.م أو قبيل ذلك... فنفذت إلى الفراغ الكبير في شبه الجزيرة من طريق بادية الشام حاملة معها لغتها القوقازية المتفرعة من المجموعة الهندية الأوروبية".

(في الصفحة ٥٨) : ".... فهذا التبويب وهذه المواجهة هما الخطوتان الأوليان نحو أية دراسة علمية لنشأة القبائل العربية وتطورها منذ انبثقت من مهدها القوقازي الأول حتى توحدت تحت لواء قريش.....".

(في الصفحة ١١٨): ".... وكل مسح انثولوجي (سلالي م.م) لمصر والمصريين الناطقين بالعربية يوضح أنهم ينتمون أساساً إلى مجموعات انثولوجية (سلالية) مختلفة عن المجموعة العربية، بالإضافة إلى اختلافهم السلالي عن العرب. ".

في (الصفحة ١٣٦): "وهذا هو الافتراض الكبير الذي أسست عليه كتابي هذا، ألا وهو أن المجموعة السامية ونموذجها اللغة العربية، والمجموعة الحامية، ونموذجها اللغة المصرية القديمة، ليستا مجموعتين مستقلتين بذاتهما، وإنما هما فرعان أساسيان في تلك الشجرة السامقة التي خرجت منها المجموعة الهندية الأوروبية".

هذا غيضٌ من فيض الكتاب "العتيد"... إنه وسواس "المركزية الأوروبية" الذي أصاب خلب الدكتور عوض في بعض مؤلفاته، في عدادها هذا الكتاب: وقد عهدنا بعضه فيما مضى، في كتاب طه حسين

"مستقبل الثقافة في مصر".

نقول: للخروج من المأزق الذي وقع -بل أوقع بعضنا- فيه لويس عوض، وكثيرون غيره، نرى أنه من المفيد استجلاء بعض غوامض المسألة:

١- هل كانت "العربية الفصحى" التي أدركناها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، هي نفس لغة أسلافنا "العرب" الأولين، أولئك الذين راح ذكرهم يتردد في وثائقنا القديمة - ولاسيّما الآشورية منها- (ملكات العرب، جنديبو العربي الخ...) اعتباراً من القرن التاسع (ق.م)، علماً أننا نجد تلميحاً إليهم في نقش أكدي/ بابلي أكثر قدماً. وها هنا تعترض سبيلنا نظرية: "أزلية" اللغة العربية، التي أثارت الجدل الأكبر في العصر العباسي، لينعكس ذلك كله في مواقف فلاسفة المعتزلة وآرائهم من جهة، وعلماء الكلام واجتهاداتهم من جهة أخرى، حول قضية "خلق القرآن أو قدمه". ونقرّ هنا للدكتور لويس عوض بجميل دراسته لبعض جوانب المسألة، وتبسيطها بسهولةٍ بارعةٍ، ودون بساطة، في الفصل الثاني من كتابه (مشكلة اللغة العربية ونظرية اللوجوس)[١٧].

٢- ونأتي الآن إلى الفئة الثانية، التي رأت في شمال شبه الجزيرة، مجال تطوّر ونضج "العربية الفصحى" وبالغ بعضهم في الأمر، بحصر ذلك المجال بالحجاز بل بعالم قريش على وجه التحديد، وببضعة قرون فقط، بل قبيل فجر الإسلام.

أما أن تكون العربية الفصحى، هي نفس لغة أسلافنا الأقدمين، في بعض بقاع وطننا العربي القديم ، قبل الإسلام بعشرات القرون، كما يظن أصحاب الفريق الأول، فهو زعمٌ مغاير لمنطق التطور التاريخي/ الاجتماعي، وتدحضه أيضاً آلاف الوثائق والنصوص المكتشفة في بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، وشبه الجزيرة العربية، إضافة إلى النقوش القرطاجية/ الكنعانية[١٨]، في شمال افريقية وجزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وأقرب اللهجات القديمة التي تبشر بالعربية الفصحى هي الآرامية، التي راحت تعمّ الجزيرة السورية وباقي ربوع بلاد الشام (اعتباراً من القرن العاشر ق.م)، قبل أن تتغلب على شتى لهجات الهلال الخصيب، بعد سقوط نينوى والسلطان الآشوري (٦١٢ ق.م)، ولتصبح لغة دولية LINGUA FRANCA (والشهيرة في المؤلفات العلمية الجامعية بالآرامية الامبراطورية -في العصر الفارسي الأخميني (٥٥٠-٣٣١ق.م)) ثم راح يتفرّع، منها لهجات مختلفة: المنداعية، لهجة الترجوم[١٩]، النبطية - التدمرية، الآرامية اليهودية الفلسطينية، السريانية، الآرامية التلمودية، الخ. (13)

وهاهو نص آرامي ، من القرن الثامن (ق.م) عُثِر عليه في زنجرلي(شمأل)، مملكة آرامية تقع في ربوع سورية أصلاً ولكنها حالياً في البقاع المتاخمة للحدود السورية الشمالية الدولية - بعد سايكس بيكو

[١٧] كلمة يونانية (LOGOS)، بمعنى "العقل الأول"، "كلمة الله" وهو الأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس المسيحي، إلى غير ذلك من المعاني الفلسفية الأخرى.

[١٨] وأطلق عليها البعض اسم الفينيقة الليونا وهي نسبة يونانية/لاتينية ونفضل النسبة الكنعانية، التي ظلت شائعة حتى عصر القديس أوغسطينس (٣٥٤-٤٣٠)، أسقف عنابة الجزائرية.

[١٩] التفسير الآرامي لبعض كتب التوراة، بدءاً من القرن الخامس (ق.م)، عندما راحت الآرامية تزاحم لغات المنطقة لتحل محلها فيما بعد.

وسلخ لواء اسكندرون، وهاهو بعض ماجاء في النقش مع الترجمة العربية:

النص الآرامي: انه بر ركب بر فنمو
الترجمة العربية: أنا ابن ركب ابن فنمو
ملك شمأل عبد تجلتفليسر مرا ربعي
ملك شمأل عبد تجلتفليسر سيد الأربع
أرقا (وأحياناً أرعا وارصا) بصدق أبي وبصدقي
الأرض (جهات الأرض الأربع) بصدق أبي وبصدقي
هوشبني مراي ركبايل ومراي تجلتفليسر
أجلسني سيدي ركب إيل وسيدي تجلتفليسر
على كرسا (وأحياناً كسا) أبي.. أنه بنيت بيتا زنه
على عرش أبي أنا بنيت البيت هذا.

كما ذكرنا، تاريخ هذا النص هو القرن الثامن (ق.م)، أي قبل عربيتنا الفصحى بنحو أربعة عشر قرناً، ومع ذلك لا يخلو من مشابهات لعربيتنا -إن كان في مفرداته أو في سياق جملته- وإليكم بعض الشواهد:

- أنّه (وأحياناً أنا) ضمير رفع منفصل، متكلم مفرد.
- بر (ابن) ولدينا في العربية فعل (برّ بمعنى أطاع). والابن البرّ والبارّ. (المطيع لوالده والمحسن إليه).
- ملك ، عبد (بمعنى تابع).
- مار (السيد) ولدينا أيضاً جذر (مرّ، أمرّ) وإضافةً لمعانيه الأصلية، نقول: المرّة: قوة الخلق وشدّته، أصالة العقل، ورجل مرير: قويّ ذو حزم، والمريرة: عزّة النفس الخ... وفي العامية (من السريانية) مار جرجس، مار الياس الخ.. بمعنى (قديس، سيد).. ألا تتضمّن مختلف هذه المدلولات معاني ذات صلة، قريبة أو بعيدة، بالكلمة الأصلية (مار/ السيد).
- ملك ، شمأل (دولة الشمال)، بصدق أبي وبصدقي، عل (على)، كرسا (نقول كرسي العرش)، أنـة (أنا) بَنَيْتْ (الضمير المتصل التاء يأتي ساكناً في المتكلم المفرد، (مؤنثاً ومذكراً)، وفي المخاطب المفرد المذكر نقول (بَنَيْته أو بَنَيْتَ) وفي المخاطب المفرد المؤنث نقول (بَنَيْتي، بالياء)، ولدينا الكسرة عوضاً عن الياء... الخ.

ألا يدهشنا هذا التقارب بين نصنا هذا وعربيتنا الفصحى. ولنأخذ مثلاً جملة (أنه بنيت بيتا زنه= أنا بنيت البيت هذا)، والألف في (بيتا) هي أل التعريف في الآرامية القديمة وانقلبت إلى (واو) في بعض اللهجات السريانية الغربية، وجميع الأسماء التي تنتهي بألف تدلّ عادة على اسم مُعَرّفة، منها بعض مانسمعه في بلادنا: (دوما، حرستا، فالوغا، حمّانا، جسر تورا، بَتِيلا، عقربا، مسرابا) الخ... وهي جميعها أسماء مفردة، ونلاحظ أن العرب المسلمين بعربيتهم الفصحى، تركوها على ماكانت عليه، فلم يقولوا: الدوما، الحرستا، الفالوغا، الحمّانا، الخ...

ولنأخذ نصاً أحدث من الأول، من (سفر دانيال) التوراتي، ويرجع إلى أواسط القرن الثاني ق.م، وليس

إلى ايام السبي البابلي (القرن السادس ق.م)، كما ظنّ بعضهم سابقاً.

النص الآرامي: نبوكد نصّر ملْكا عَبَدْ صلَم أقيمه

الترجمة العربية: نبوخذ نصر الملك صنع تمثال أ أقامه

ببِقْعة دورا بمدينة بابل

ببِقْعة(في) دورا) بأقاليم بابل

-عَبَدْ: إضافةً لمعناه الآرامي الأصلي (صَنَع، عَمَلَ) اكتسب لاحقاً مدلولات أخرى ومنها: (عَبْد، تابع ، خادم)، كما أدركناها فيما بعد.

-صلم (صنم، تمثال)، وفي العربية: صلَمَ وصَلَّمَ الشيء، قطعه من أصله، وكأن الصلم الحجري مقطوع من الصخر.

- أقيمه (أقامه)، ببقعة (في بقعة، جمعها بقاع).

- بمدينة: في إقليم. وتفيد أيضاً في عربيتنا: المصر الجامع.

وعندما نقول (مكة: أم القرى) فنعني: أم المدائن، والقرية، هي المدينة بمعناها الشائع فيما بعد إن كان في الآرامية القُدمى أو في العربية لاحقاً، وهذا جلي واضح في القرآن الكريم. أما القرية كما نفهمها حالياً فهي (كَفْر)، إن كان في الآرامية أو في عربيتنا الفصحى.

وجذر (كَفَرْ الكنعاني، و"كَفَرْ الآرامي يفيد أصلاً معنى (سَتَرَ، غطّى المعاصي والذنوب) ثم اكتسب مدلولات أخرى (غطّى الأرض بالنبات) ومن هنا (كَفرا= القرية) بالآرامية. وكذلك في عربيتنا، فإضافة لمعناه الأصلي، اكتسب مدلولاتٍ جديدة وإلا فكيف نفسّر ماجاء في القرآن الكريم (سورة الحديد، ٢٠): "واعلموا إنما الحياة الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفّار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

فالكفّار هنا كما جاء في التفاسير هم الزُرّاع، وقد ذكرت معاجمنا القديمة في مادة (كَفَر) هذا المعنى وغيره من المعاني (ابن منظور، الفيروز آبادي الخ....) فالكافر أيضاً هو الرجل الذي ستر جسده بالدرع والسلاح كالكافر (الزارع) الذي يغطّي ويستر البذور والحبوب بتراب الأرض الخ....

وإذا عرضنا للكتابات النبطية والتدمرية، قبل نهاية القرن الثالث م، التي سبقت تلك النقوش التي لمحّنا إليها أعلاه: (أم الجمال، النمارة الخ...)، وهي النقوش التي عُثِرَ عليها في شمال شبه الجزيرة العربية وفلسطين والأردن وسيناء وتدمر وتوابعها وغيرها من أطراف بلاد الشام وباديتها، لاحظنا ازدياد أوجه الشبه بين شتى لهجاتها وبين عربية الشعر الجاهلي وصدر الإسلام.

لقد حسب البعض لهجات النقوش والكتابات التدمرية والنبطية آرامية صرفة وبقلم آرامي، بينما اعتبرها آخرون وبحق، تراكيب آرامية/ عربية، وبخطٍ آرامي: تدمري أو نبطي، قد يتساءل بعضهم عن سبب مثابرتنا على مقارنة لهجات نصوص آرامية ببعض مانجده في لساننا العربي!... إنه لإستفسار وجيه ومشروع.

كما ذكرنا سالفاً، أضحت "الأرامية الامبراطورية" اللغة السائدة في مختلف أصقاع وطننا العربي القديم، في العصر الفارسي/ الأخميني (٥٥٠-٣٣١ ق.م)، بعد تغلّبها على ماسبقها من لهجات شقيقة: اكدية / بابلية/ آشورية وكنعانية بل ومصرية، وذلك لأسباب عديدة، منها سهولة طريقة كتابتهم (المقتبسة أصلاً من أبجدية الساحل الكنعاني)، قبل أن يطوّر الأراميون فيما بعد، قلماً خاصاً بهم، كما سنرى لاحقاً، في الجزء الثاني من دراستنا الخاص بالكتابة، ويبدو دور الدويلات الأرامية ضئيلاً محدوداً في المجالين العسكري والسياسي، بالمقارنة مع سلطان الدول والامبراطوريات العظمى، التي احتلت مركز الصدارة في بلادنا، بوقائعها السياسية ومآثرها العسكرية من: اكدية/ بابلية/ آشورية ثم ميتانية وحثية ومقدونية الخ... ودون أن ننسى طبعاً عظمة الدولة المصرية ومشاهير فراعنتها... ومع ذلك، شاءت الأقدار أن يلعب الأراميون دوراً قومياً لا يُضاهى، في تاريخ أمتنا، قبل الفجر العربي-الإسلامي وتحرير البلاد من الاحتلال الفارسي/ البيزنطي.. لقد صمدت الأرامية أمام لغات الدخلاء من فرس والاغريق ورومان فبيزنطيين، وصانت الوحدة اللغوية لوطننا العربي، خلال اثني عشر قرناً تقريباً (من سقوط السلطان البابلي الحديث/ الكلداني عام ٥٣٩ ق.م وحتى عصر الفتوحات العربية الكبرى)... ولنا عودة إلى الإرث الثقافي هذا، في حديثنا عن الكتابة... مهدت الأرامية السبيل لعروبتنا الفصحى، شقيقتها والقريبة منها، كما لاحظنا من لهجة بعض فقرات أرامية قدمى، واللغة كظاهرة اجتماعية تؤثر وتتأثر بشتى الأسباب والعوامل، وتخضع كغيرها لسنّة التطوّر، وعندما نجد لغةً ما، تجابه غيرها من اللغات وتتغلّب عليها، يجدر بنا حينئذٍ أن نتقصى الأمر للكشف عن الأسباب (سياسية، اقتصادية، دينية، اجتماعية، الخ...)، التي هيأت لها سبيل الرسوخ والغلبة.

وكما أن الأرامية تغلّبت على ماسبقها من إرث لغوي محلي -مثلما أسلفناه- وصمدت في وجه لغات الدخلاء، كذلك جاء دور العربية الفصحى، لتحلّ تدريجياً وتلقائياً محل شتى اللهجات الأرامية، دون صراع ومن غير أن تقضي عليها كلياً، واستغرقت تلك العملية وقتاً أطول مما يظنّه البعض. وما اللهجات العامية - في مختلف ربوع وطننا العربي، بأصواتها المتنوعة ومفرداتها- ولاسيّما في الأرياف- تلك المفردات التي لا نجد أثراً لها في معاجمنا العربية إضافةً لعديد من أسماء المدن والبلدات والقرى والمواقع، ليس هذا كله، إلا رجع أصداء آراميتنا تلك أو شقيقتها الكنعانية وغيرها من لهجات أسلافنا الأقدمين. وكما أن الأرامية استوعبت ماسبقها من لهجات واغتنت بمفرداتها، محققةً بذلك طفرةً نوعية، مهدّت لها سبيل النصر عليها، والنا السالف: متى وكيف وأين تحققت "الطفرة النوعية" لعربيتنا الفصحى، وهل حصل ذلك محصوراً بزمان محدود ومكان معين، كما نادى بذلك أولئك الذين قصّروا العملية، على محيط قريشٍ وعلى فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ، لا تزيد على بضعةِ قرون، قبل فجر الإسلام مخالفين بذلك مذهب "الأزليين" الذين بشّروا، بمعتقد (قِدَم القرآن/ اللوح المحفوظ/ قِدَم اللّغة العربية).

لا حاجة بنا إلى القول أنه يصعب علينا قبول مذهب "الأزليين" الذين جعلوا آدم يتكلم العربية في الجنّة، بل نسبوا إليه شعراً حفظته العرب!!... وللمعري في "رسالة الغفران" أقوال وأقاويل في معرض ذلك.

أما نحن، فحسبنا أن نقول لهؤلاء... "والله أعلم"...

أما بالنسبة لأنصار الفريق الآخر "القرشي" فنرى أن فرضيتهم جديرة بالاهتمام، على أن يظلّ عالقاً بالذهن جميع ما أوردناه أعلاه، لندخل عليها التعديلات الضرورية التي تقتضيها حركة التاريخ الصاعدة، وحتمية عملية التطوّر الاجتماعي/ اللغوي، ودون أن تغيب عن بالنا حصيلة الدراسات المقارنة المعاصرة

الخاصة بعلوم اللغة والكتابة والأنساب والآثار والتاريخ الاقتصادي والانثروبولوجية (الأناسة) الخ...

جاء في الروايات(*) أن العربية الفصحى لم تؤخذ إلا من قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم... وعن هؤلاء نقل علماء اللغة وبهم اقتدوا وعليهم اتكلوا في الغريب وفي الإعراب والتصريف، وبالجملة فإنه لم يُؤخذ عن حضري قط، (خوفاً من الدخيل م.م). ولا عن سكان البراري، من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الذين حولهم، ولذلك لم يؤخذ من لخم لمجاورتهم الفرس، ولا من جذام لمجاورتهم الأنباط وقبط مصر ولا من قضاعة وغسّان لمجاورتهم أهل الشام ولا من تغلب، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم للروم والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عُمَان، لأنهم كانوا مخالطين للبحرين المتأثرة بالهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجارَ اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز (يثرب؟!)، لأن الذين نقلوا العربية صادفوهم حين راحوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

وجاء في الأخبار أيضاً، أنه كان على العرب أن يحدّدوا موقفهم من قريش بوضوح، ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم، وسموها (أهل الله)، فرأوا أن قريشاً "كانت مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب، تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ماتخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبِعُوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب..."(14).

ألا ترى أن ماجيء به في روايات كهذه، فيه كثير من التكلّف ولا يعدو أن يكون وهماً.. ليس إلا.. وعلى كلٍ، فهذا ليس همنا وأصل موضوعنا، ولنترك الأمر لأهله من الباحثين في فقه اللغة العربية وغيرهم من علماء اللغة، ولكن لابدّ لنا من القول إن الآراء والاجتهادات قد تغايرت وتشعّبت فيما يخصّ مظانّ كهذه، لتعكس المواقف والصراعات السياسية التي أطلّت برأسها منذ "الفتنة الكبرى"، ولتتطور إلى شيعٍ وأحزاب في العهدين الأموي والعباسي الأول، ثم إلى نشوء مذاهب ومدارس فكرية وفقهية مختلفة، عكست بشكلٍ أو بآخر، ذلك الصراع السافر بين أنصار السيادة العربية من جهة، ودعاة مذهب المساواة في الإسلام من جهة أخرى، اعتماداً على ماجاء في التنزيل الحكيم: "يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم..." ويضيف هؤلاء أيضاً، أن القرآن الكريم لم يذكر اسم قريش إلا مرة واحدة، فيردّ عليهم أولئك بما جاء في الآيات "العربية": "... لتكون من المنذرين بلسانٍ عربي مبين الشعراء/١٩٥"؛ "وهذا لسان عربي مبين، النحل/١٠٣"؛ "وإنّا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، يوسف/٢".

"وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد، طه/١١٣".

"وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً، الزخرف/ ٣" وإلى غير ذلك من الآيات التي تشهر عروبة الخطاب القرآني، وبتلك الآيات "العربية" يردّ أيضاً غير القرشيين من العرب على أنصار "المدرسة القرشية".

ألا يمكن تلخيص الموضوع بالقول، إنّ من ظنّ أن العربية الفصحى هي لهجة قريش، قد تأثر من كون النبي من قريش وأن الوحي قد تجلّى في وسطهم، فهو إذن بلسانهم.. ولكن لو كان الأمر كذلك، لجاء التنزيل الحكيم بذلك صراحة، ولما رأينا ذكر "عروبة" القرآن غير مرّة، دون أن يأتي على "قرشيته" ولو مرة واحدة،

(*) نقلاً عن (المزهر للسيوطي) مع بعض التصحيح الجغرافي (م.م).

کتابخانه
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

ولا يخفى أن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية، إلى أن جاء عمر بن أبي ربيعة في صدر الإسلام.

وبعد هذا وذاك، لا ندري في الواقع صحة أو بالأحرى دقّة ماورد لدى السيوطي وغيره من العلماء اللاحقين والمحدثين، ذلك أن عالمهم ليس عالم أولئك الأئمة السابقين، الذين أرسوا قواعد أصول فقه اللغة العربية. ومهما يكن، لا نعتقد أنه من المنطق أن نغفل عن بعض الوقائع منها:

أ- تقع مضارب القبائل التي نقلوا عنها -بحسب الروايات اللاحقة- إما بالقرب من قريش (هذيل وكنانة)، وإما إلى الجنوب من خط عرضٍ جغرافي يمتد تقريباً من خليج الكويت إلى ميناء المُوَيْلح -جنوبي خليج العقبة- حيث منازل تميم وأسد وطيء وقيس عيلان، وذلك إما في ربوع نجد وإما إلى الشمال منها.

ب- أما بالنسبة للقبائل والبقاع الكائنة جنوبي مكّة، فلم يأخذوا عنها، مهملين بذلك العديد من القبائل بالإضافة إلى أهل كندة وأقوام اليمن، وكأنهم ليسوا من العرب العاربة؟!...

جـ- إهمال عدة قبائل، تقع منازلهم ضمن خطّي العرض الجغرافي: الأعلى (من خليج الكويت إلى المويلح)، والأدنى، جنوبي مكة مباشرة، علماً أن بعض تلك القبائل قد اشتهرت بشعرائها، قبل الإسلام أو بعده.

وحسبنا هنا الاستشهاد بشوقي ضيف في "الشعر الجاهلي": "... ولم تكن تختص بهذا الشعر في الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها، فمنهم من ينسب إلى القبائل القحطانية، مثل امرئ القيس الكندي وعديّ بن رعلاء الغساني والحارث بن وعلة الجرمي القضاعي ومالك بن حريم الهمداني، وعبد يغوث الحارث النجراني والشنفرى الأزدي وعمرو بن معد يكرب المذحجي، أما من يُنسبون إلى مضر وربيعة فأكثر من أن نسميهم، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين في المدينة.. وعدّ ابن سلاّم في طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين... ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوي والحضري، كما يجد بين البدو اليمني والربعي والمضري...

"والذي لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلي كان أوفر من حظ القبائل الربعية والقحطانية..

" وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً، وكذلك كانت القبائل الربعية والقحطانية، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه، ومثلها المدن فمكّة كانت قليلة الشعر...."(15).

وبعد هذا وذاك، نرى أن ماقاله الأستاذ محمد الانطاكي بصدد اللهجة الفُصحى لشديد القرب إلى المنطق:

"وتسمى أحياناً بالقرشية لغلبة خصائص لهجة قريش عليها، كما تسمى أحياناً بالحجازية، وذلك لأن عامة القبائل الحجازية لم تكن تختلف لهجاتها عن لهجة قريش في شيء.

" ومهما يكن من أمر التسمية فإن مانعنيه بالفصحى هو هذه اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم، والتي بها جاء الحديث الشريف، والشعر الجاهلي، والتي لا تزال حتى اليوم نتخذ منها لسان أدب وعلم ودين.

"وهذه الفصحى ليست لهجة قبيلة عربية معيّنة وإن سميت في بعض الأحيان بالقرشية، بل هي مزيج لطيف من اختيار أنيق لخصائص لهجات عربية كثيرة أهمها القرشية والتميمية"(16).

ويضيف قائلاً: "واللهجات العربية الجنوبية شديدة التشابه، حتى ليمكن القول: إنها جميعاً لهجة

واحدة...، وعلى كل فاللهجات العربية اليمنية جميعها لهجات عربية صحيحة لا تختلف عن اللهجة الفصحى بأكثر مما تختلف فيه لهجتا تميم وقريش أو أسد وهذيل....."(17).

وإلى هذا المعنى أيضاً يذهب الدكتور مسعود بوبو: " ينبغي أن يستوقفنا قوله (أي السيوطي/ المزهر، م.م): إن العرب كان (ينشد بعضهم شعر بعض). أي أن لغة مشتركة فوق "مستوى" العامة من العرب كانت محل تداول في الإنشاد الأدبي، لغة فوق لهجات التخاطب، فوق لغة الحياة اليومية لدى القبائل الكثيرة، ولكنها مع ذلك كانت مفهومة عند عامة تلك القبائل، قاصيها عن قريش. ودانيها منها، ولهجات تلك القبائل على اختلافها لم تكن مستغلقة متأبية على الفهم، بل كانت كلها -كما يقول ابن جني- حجة، والناطق بها- على قياس لغة من لغات العرب- مصيب غير مخطئ، مع الإقرار بوجود لهجة أفضل"(18).

كما ذكرنا أعلاه، في إشارتنا لبعض الرأي الذي عرضه الأستاذ الانطاكي، إنه شديد القرب إلى المنطق، أي ليس المنطق الشافي/ المقنع، في رأينا بالطبع، ومع أن الأستاذ الانطاكي، يُعتبر في كتابه "الوجيز في فقه اللغة" الصادر في عام ١٩٦٩، متقدماً على العديد من أقرانه، إن كان في دراسته لفقه اللهجات اليمنيّة وغيرها من اللهجات العربية القديمة (لحيانية، ثمودية، صفائية) بقلمها المسند، ومقابلتها باللهجة العربية الفصحى (قال "لهجة" دون أي تردد)، وغير ذلك من الاجتهادات، التي تدلّ على تبحّره في علم اللغة، -وقد استفدنا من علمه كثيراً، رحمه الله- ومع ذلك، نرى أنه قد توقّف في منتصف الطريق. - كغيره من السابقين واللاحقين -الذين حصروا مجال تطوّر العربية في عالم شبه الجزيرة، وقد تغافلوا عن سائر بلاد العرب. وهاهنا نشعر بالميل إلى الدكتور جواد علي موضحاً: "والحق أقول: إنني إذا فكّرت تفكير علماء العربية المحدثين، الذين نسبوا تفوّق اللغات على اللهجات إلى السيادة السياسية والاقتصادية، وأمثال ذلك من سيادات، فإنني لن أفكّر في موطن أينعت فيه العربية في تلك الأيام سوى بلاد الشام والعراق."(19).

في الحقيقة، نرى أن ماذهب إليه جواد علي بصدد مساهمة بلاد الشام والعراق، في تطوّر وارتقاء العربية، بالإضافة طبعاً إلى دور شبه الجزيرة العربية، بشتّى لهجاتها الجنوبية والشمالية العتيقة، البائدة منها والباقية، وذلك منذ مطلع الألف الأول (ق.م). فقط، وليس أقدم من ذلك، كما توهم البعض، غافلين بذلك عن نتائج الدراسات المقارنة الخاصة بالكتابات اليمنية وشتى لهجاتها، تلك التي ساهمت، بلا أدنى شك، في تطوّر وإغناء عربيتنا، موضوع دراستنا، نقول إن ماوجدناه لدى جواد علي يترجم بعض مايدور في خلدنا.

ولقد أشرنا سابقاً إلى بضعة نقوش قديمة يرقى أقدمها إلى (عام ٢٥٠م) وأحدثها إلى (عام ٥٦٨م).

- أي قبل فجر الإسلام ببضعة عقود فقط- فلو أجرينا مقارنة بين لهجات تلك النقوش ولهجة نقشنا الأرامي (القرن الثامن ق.م)، أي أقدم من أحدثها بنحو ثلاثة عشر قرناً، لاستولت علينا الدهشة وعجبنا لقرابة لهجة نقشنا الأرامي العتيد، بمانجده في النقش الأحدث. - دون أن تغيب عن بالنا النقوش الأخرى الأكثر قدماً- مع محاكاة أرامية بعض فقرات النقش لهجتنا العربية الفصحى، وهاكم مقارنة النصين:

نقش عام ٥٦٨م: أنا شر حبيل بر ظلمو بنيت ذا المرطور

أنا شر حبيل بن ظلمو بنيت هذا المشهد (المرطور).

النقش الآرامي (القرن ٨ ق.م): أنه بنيت بيتا زنه

أنا بنيت البيت هذا.

هل لهجة النقش الآرامي أكثر بعداً من عربيتنا الفصحى، بالقياس إلى لهجة الحديث الشريف الشهير، الذي خاطب به الرسول (ص)، وفد اليمن بلهجتهم، جواباً عن استفسارهم: "هل من امبر امصيام في أمسفر/ هل من البر الصيام في السفر"، فكان الجواب "ليس من امبر امصيام في امسفر/ ليس من البر الصيام في السفر".

أليس من المدهش وجود هذه القرابة بين لهجات نقوش تتفاوت زمنياً إلى درجةٍ أن أحدها يتقدم على الآخر زهاء أربعة عشر قرناً؟!... ولكن أين عُثِرَ على هذا النقش البعيد/ القريب؟! ألم يعثروا عليه مع مئات نقوش أخرى مماثلة في بلاد الشام والعراق ووادي النيل الخ...) أما فيما يخصّ بلاد الشام والعراق، فنحن نعلم علم اليقين ان اسم العرب راح يتردد على ألسنة أهلها اعتباراً من القرن التاسع (ق.م)، بل وأحياناً قبل ذلك(20)، وبتعبير آخر، أضحى التداخل قائماً، منذ تلك الفترة، إن لم يكن قبل ذلك، فيما بين لهجات العرب الوافدين وسكان الهلال الخصيب بلهجاتهم الآرامية. وكما قالوا.. إن عُرِفَ السبب بطل العجب...

ونأتي الآن إلى موضوع قريش ولهجتها، التي غلبت سائر اللهجات، في رأي البعض، ثم غالى بعضهم في الأمر، فجعل القرآن الكريم بلسان قريش. نحن لا ننكر ما آلت إليه اللهجة القرشية من شهرة مع البعثة النبوية، فهذا أمر لا جدال فيه. وأما أن تكون اللهجة المطلقة في صدر الإسلام ومابعده، وأن يكون القرآن بلسان قريش حصراً، فهذه مسألة فيها نظر، وقضية تحتاج إلى دراسات مستفيضة، لا مجال هنا للدخول في شتى تفاصيلها، وإذا كانت هناك روايات لمصلحة "قرشية" القرآن، فلدينا في الطرف الآخر حجج وأخبار معاكسة لها. ونرى أن الحكم الفيصل في هذا الخلاف هو القرآن الكريم، فهو التعبير الأكبر عن الحدث الأعظم، بل هو الحدث ذاته... بالشكل والمضمون. ولذلك نرى أن تلك الروايات اللاحقة، "القرشية" منها أو غيرها، ليست ذات قيمة، لأنها جاءت على لسان أخباريين ومؤرخين بعيدين عن عصر البعثة النبوية، إضافة لكونها صادرة أحياناً -على ما نرى- عن دوافع ومواقف حزبية سياسية أو نوازع ومعتقدات مذهبية فقهية.. وكما رأينا سابقاً، لم يفتر عزّ وجلّ عن التذكير بعروبة لسان القرآن الكريم، في حين أننا لا نجد ذكراً لقريش إلا مرة واحدة فقط.. "لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ". تبدو هذه السورة امتداداً لسورة (الفيل) قبلها من ناحية جوّها وموضوعها. فبعد إخفاق حملة أصحاب الفيل، ازدادت حرمة البيت عند العرب، بمختلف قبائلهم كما ارتفعت مكانة قريش، فسار أهلها في الأرض آمنين، مما شجّع تجارها على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة، فكانت رحلة الشتاء إلى اليمن، والثانية إلى بلاد الشام في الصيف.

ألا نجد هنا عاملاً مساعداً جديداً لارتقاء وازدهار لهجة قريش، نتيجةً لاحتكاكها بلهجات عربية أخرى- في اليمن وفي الشام- بالإضافة طبعاً إلى العوامل الأخرى: الدينية (الكعبة) واللغوية، باطلاعها على لهجات شتى الوفود التي تقصدها، في مواسم الحج وغيرها، فاستفادت بذلك من المفردات والأساليب الجديدة فتنوّعت فنون قولها، وجمل اسلوبها ، فتقدمت تدريجياً على غيرها من اللهجات لتأخذ مركز الصدارة فيما بعد.. ومع ذلك حافظت أكثرية اللهجات على بعض ألفاظها الرائجة في المخاطبة والشؤون اليومية وأحياناً في بعض شعرها.

ولابد أن نستنتج من كل ما أسلفناه، أن المراكز التي تبلورت فيها اللغة العربية الفصحى لا تقتصر على قلب الجزيرة العربية وعلى لهجات بعض القبائل التي تقع مضاربها ضمن خطين جغرافيين وهميين -كما

لحظنا سابقاً- كلا! فالأمر أكثر تعقيداً وشمولاً: ولا يمكننا أن نغفل عن دور اليمن والهجرات القحطانية الأزلية (كندة، المناذرة، الغساسنة الخ...) ولا عن لهجاتها القديمة، البائدة منها والباقية.. وهذا العالم الآرامي، في بلاد الشام والعراق بل وفي وادي النيل، الذي أفضنا في تفاصيله، بإرثه اللغوي العظيم، هل نخرجه من محيطنا الجغرافي/ اللغوي، حيث نشأت مختلف لهجات أسلافنا القدامى، منذ الأزل: من أكدية/بابلية/ آشورية إلى كنعانية وسبئية وحميرية وغيرها، لتصبّ فيما بعد في هذا الخزّان الأعظم... وهاهنا نقول: إن كل دراسة تعالج فقه لغتنا العربية وتطوّرها، تظلّ ناقصة مادامت تهمل بعض عوامل نشوئها وأركان ازدهارها على مرّ السنين والأيام، ومادامت تقلّص مجال تفاعلها الجغرافي لتحصره في بقاع محدودة في قلب الجزيرة العربية.

وهذا هو مقتل علمائنا اللغويين، السابقين منهم واللاحقين/ المحدثين... فنظرة خاطفة لمفردات معاجمنا الكنعانية فالآرامية التي ورثتها، كافية لإدراك مغزى قولنا.. يزعم البعض أننا الورثاء الشرعيون لتلك الحضارات القديمة، وهذا صحيح! ويضيف فريقٌ آخر أن أجدادنا العرب المسلمين لم يغزوا بلاداً غريبة عنهم -في عصر الفتوحات الكبرى- بل حرّروها من نير الاحتلال الفارسي البيزنطي، وهذا أيضاً أمرٌ لا غبار عليه، ويتفاخر آخرون برسالة الإسلام السمحة وبشعار "لا إكراه في الدين" وهذه فكرة صائبة.. نعم كل هذا صحيح.. ولكن ألا يترتّب على كل ذلك بعض النتائج والمواقف المغايرة لتلك التي أقرّها واتخذها بعض علمائنا السابقين، ومازال بعض اللاحقين/ المحدثين يسيرون على هديهم.. وإن كان لشيوخنا القدامى عذرهم، ألا وهو جهلهم، إرثنا اللغوي العتيق.. وعدم تمكنهم من معرفة تاريخ أسلافنا الأوائل، لأسباب ذاتية وموضوعية، مما أوقعهم في الفخ، وأحالهم إلى ضحية سهلة لأوهام "الإسرائيليات"، إن كان هذا الأمر مفهوماً بل ومنطقياً بالنسبة للسابقين، فكيف نعلّل المواقف الجامدة/ الخامدة لبعض أساتذة اللغة العربية وباحثيها اللغويين؟!.. وبمَ نبرّر إحجامهم عن ولوج عالم الدراسات اللغوية المقارنة، ولاسيما بعد اكتشاف هذا الكمّ العظيم -المتزايد من يوم لآخر- من كتاباتنا القديمة، بلهجاتها المتنوعة والقريبة. بشكل أو بآخر، بعضها من بعض، والشائعة حينذاك في مختلف ربوع الهلال الخصيب، والتي رفدت لهجتنا الآرامية في طورها الأول (من القرن التاسع وحتى الرابع ق.م) فأغنتها وأعلت شأنها، بعد اندماجها فيها، فأضحت -كما أسلفناه- هذا الدرع الواقي، الذي صان تراثنا اللغوي، خلال اثني عشر قرناً تقريباً، لتعهد إلى شقيقتها العربية به فيما بعد.. نكرر تساؤلنا عن أسباب ودوافع هذا الإهمال أو بالأحرى الاستخفاف بإرثنا/ الكنز اللغوي القديم؟!.. أهو عدم إلمام البعض بتلك اللغات العتيقة؟!... أم التقاعس عن اقتحام مجاهل تاريخنا الأقدم؟!... أم اعتزازهم بلغتنا العربية الفصحى وشعورهم بالاكتفاء الذاتي وبما أورثنا إياه أجدادنا العرب الصرحاء من ديوان؟!... قد يكون لجميع هذه العوامل والدوافع نصيبٌ من الصحة.. ولكن بعد هذا وذاك.. ماهو نصيب طيف التزّمت الذي يلوح في أفقنا، الفينة بعد الفينة؟!...

يلاحظ خريجو جامعات قطرنا، من أساتذة لغةٍ عربية وتاريخ، هذه القرابة بين عربيتنا الفصحى وسائر لهجاتنا القديمة، إذ أنهم اطّلعوا على بعض قواعدها وتكوّنت لديهم فكرة عامة عنها- لأن المنهج يقضي أن يدرسوا إحداها-ولذلك يدركون أكثر من غيرهم مغزى قولنا وأسباب إصرارنا على إلقاء الأضواء على مسألة القرابة تلك، -وكما قلنا- فنظرة خاطفة على معاجم تلك اللهجات- وعلى الخصوص الكنعانية والآرامية- لخير شاهد على ذلك.. ومن هو أجدر منا بعرض هذا الموضوع، ونحن أصحاب هذا التراث الأزلي... ألقينا المسؤولية على كاهل الآخرين: فمنهم من أدى المهمة بأمانة، كما أن البعض الآخر أساء. وكما قيل: "ماحكّ جلدك مثل ظفرك".

كفانا تقاعساً وتزمتاً... فلقد أورثنا الأجداد "لساناً عربياً مبيناً" لن ندرك إعجازه في النثر والشعر، إلا بالموازنة بينه وبين نظرائه في لغاتٍ أجنبية أخرى، وهل من جاهل أحمق ينكر ذلك ويماري فيه؟!.. إذن فعربيتنا بخير ولكنها ليست على أحسن مايُرام، لاسيّما في أسلوب دراستها وتدريسها، وإليكم شهادة أحد أساتذتها، وسمينا (الدكتور عبد المنعم سيد عبد العال)، في قاموسه "**معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والاصول العربية**"، حيث يقول: "من أهم المشاكل التربوية التي تصادفنا، أن يعيش أبناؤنا بين لغتين إحداهما خاصة بالمنزل والأخرى خاصة بالمدرسة، وأن نقول إن كلا منهما تختلف عن الأخرى، مع أن هذا الاختلاف لا وجود له أصلاً في إحداهما، وإنما هو وهم نسجه الزمن بسبب قصور الإدراك، وزاد في أثره تقصير المشتغلين بأمر اللغة العربية ووقوفهم عند حدّ القول بعامية لفظٍ وفصاحةِ آخر، لمجرد الكلام دون اعتماد على بحثٍ لغوي سليم... "(21).

ويضيف قائلاً: "ونحن إذا ما تتبعنا لغة التخطاب الآن لنعلم نسبتها من العربية وجدناها نفس العربية، ولكن طرأ عليها التحريف... ومما لاشك فيه أن الكثرة الكبرى من الألفاظ العامية، إما عربية قرشية صحيحة، وإما محرفة عنها تحريفاً قليلاً، وإما عربية من لهجات قبائل أخرى غير قريش أو محرفة عنها تحريفاً قليلاً..."(22).

ويقول أيضاً: "لقد طال الكلام في اللغة العربية وشأنها، وتمادى الزمن بالناس وهم يبدئون ويعيدون في عزلة العربية وقصورها، وضرورة ردّ الحياة إليها، وأهمية مسايرتها لحاجات الأمم التي ورثتها، دون أن يبدو لذلك كلّه أثرٌ يُذكرُ أو يتناسب مع السنين الطوال التي مضت على هذا الحديث الأجوف.....(23).

وبصدد سلامة النطق يقول: "ومن أهم الأمور اللازمة لدراسة اللهجات العربية الحديثة كتابتها كتابة علمية يساير رسمها النطق الصحيح لهذه اللهجات في أقاليمها المختلفة، ويفي ماأمكن بالغرض الذي يتوخّاه علم الاصوات في العصر الحديث.

" والكتابة العربية بحالتها الراهنة قاصرة عن تصوير النّطق الصحيح للهجات العربية الحديثة، لأن في هذه اللهجات سواكن وحركات لا يوجد لها في كتابتنا العربية نظير من الحروف ولا من علامات الشكل(24)".

وأيضاً: "في الكتابة العربية حتى الآن ثلاث علامات لثلاث حركات، هي الفتحة والضمة والكسرة، وهي غير كافية لكتابة نصوص اللهجات العربية الحديثة، ولذلك أضفت إليها خمس علامات مبتكرة..."(25).

نرى، تلخيصاً لما جاء في القسم الأول من دراستنا، أن نبرز أركان البحث التالية:

أولاً: التشابه الكبير بين مختلف لهجات أسلافنا القدامى، إن كان في بلاد الهلال الخصيب أو في الحوض الأدنى لنهر النيل أو في شبه الجزيرة العربية.

ثانياً: يمكن اعتبار اللهجات العتيقة: أكدية/ بابلية/ آشورية/ كنعانية، بمثابة العتبات الأولى في السلم اللغوي لوطننا العربي، ولا تشكّل هذه اللهجات لغات قائمة بذاتها، لدرجةٍ أن أمرها قد اختلط على العلماء الأجانب (المستشرقين)، فمثلا بالنسبة للغات بلاد الرافدين: أكدية/ بابلية/ آشورية، نراهم يطلقون عليها في البدء اسم "الأشوريات" كما عهدناه سابقاً في جامعاتهم، ثم راحوا يقولون "الأكديات" وهي

التسمية الرائجة في أوساطهم حالياً، وفي الواقع، فلا هذه التسمية ولا تلك منطقية: إذ أن هذه التسميات لا تشير إلى عرق/ جنس محدد، بل تعود بنسبتها إلى مواقع أو مدن الخ... فالأكدية، نسبة إلى أكد، عاصمة الامبراطورية الأكدية والبابلية نسبة إلى بابل الخ..

ثالثاً: التسمية السامية التي أطلقها شلوتسر في نهاية القرن الثامن عشر غير منطقية ومخالفة لأبسط الحقائق العلمية، وتلحق الأذى بقضايانا القومية. فالتسمية توراتية ومضللة، وهدفها الترويج للغة "عبرية" قديمة. مع العلم أنه لا توجد لغة عبرية قديمة، كما يتوهم البعض، والتوراة ذاتها تقول "شفة كنعان" أو "لسان يهودي" نسبة إلى سبط يهوذا. والتوراتية ليست سوى خليط كنعاني/ آرامي كما هو معروف أكاديمياً. ولم تظهر تسمية "لغة عبرية" إلا بعد السيد المسيح. فمن ظلّ على يهوديته نطَقَ "بالعبرية" ومن تنصّر تكلم بالآرامية/ السريانية، (كُتِبَ انجيل متى بالآرامية/ السريانية في حين كُتِبَت الأناجيل الثلاثة الأخرى باليونانية). وعوضاً عن "السامية" -هذا الخطأ الشائع- من الأفضل أن نقول "العربيات العتيقة"(26)، لأسباب وجيهة، كما سنوضحه لاحقاً.

رابعاً: عدم حصر مجال نشوء وتطوّر اللهجات العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية، بل التوسيع من حدوده ليشمل عالم الهلال الخصيب ووادي النيل، حيث لعبت اللهجة الآرامية دورها الأكبر. في صيانة تراثنا اللغوي القديم، قبل البعثة النبوية، تلك الآرامية التي احتلّت العتبات الوسطى في السلم اللغوي لوطننا العربي، خلال اثني عشر قرناً تقريباً، من القرن السادس (ق.م) وحتى صدر الإسلام، قبل أن تحلّ العربية الفصحى محلها، بعد أن شغلت آنذاك أعلى عتبات ذلك "السلّم اللغوي".

خامساً: -جاء التنزيل الحكيم بلسان "عربي مبين"، ولم يأتِ بلهجة قريش، كما زعم البعض في روايات لاحقة. يقول الأستاذ سعيد الأفغاني في مقدمته لكتاب "حجّة القراءات"(27): "لم يكن كتبة الوحي الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يملي عليهم كلما أُوحيَ إليه شيء، من قبيلة واحدة، بل كانوا من قبائل عدّة فيهم القرشي وغيره. وكان الناس -على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم- في سعة من أمرهم في قراءة القرآن: كل يقرؤه بلحن قومه.. واندرجت هذه الوجوه الكثيرة في تعبير "الأحرف السبعة" الواردة في الحديث، وأريد بها التعدد والكثرة لا تحديد العدد سبعة"[*].

---

[*] قال البعض بـ "القراءات السبع" ولا ندري لماذا توقفوا عند العدد (٧)، بينما جعلها فريق آخر أربع عشرة قراءة، فهل للعدد (٧) وأضعافه سحر خاص. يقول الأستاذ سعيد الأفغاني في مدخل (حجّة القراءات، ص ٥٠): "ولكل إمام صاحب قراءة رواة كثيرون ورووا عنه، ولكل راوٍ طرق متعددة، وأنا مثبت لك تراجم موجزة لأعلام القراءة بادئاً بالقرّاء السبعة فبقية العشرة فبقية الأربعة عشر..." كما نلاحظ، (٧) قراءات وضعفها، مع العلم بأن عدد القراءات قد يكون أكثر من ذلك، كما نرى من قوله: "ولكل إمام صاحب قراءة رواة كثيرون ورووا عنه، ولكل راوٍ طرق متعددة..."... والله أعلم... ألا يعني أن لكل قارئ أو راوٍ لهجته.

والمهم في الموضوع "قدسية" الرقم (٧) مع أضعافه. ففي الحقيقة، يتكرر ذكر الرقم (٧) منذ بدء التاريخ، ومن المؤكد أنه قدسهم بقدسيته، ونستشف سحره في روايات ومعتقدات القدماء، من مختلف الأقوام والأمم فقالوا بـ:

الكواكب السيّارة السبعة، السموات السبع، قدسيته، في قصة الخليقة وملحمة جلجامش، طبقات أو أدوار الزيقورة (ومنها برج بابل) سبعة. وتظهر قدسية العدد في (سفر التكوين، الأصحاح السابع، ٢-٤) فبعد أن يأمر الرب نوحاً وجميع أهله بدخول الفلك يقول له: "وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وأنثى، وخذ أيضاً من طيور السماء سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً لحيا نسلها على وجه الأرض، فإني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض..." فكما رأينا: (٧)

سادساً: لا نظنّ أن لهجة قريش قد استوعبت كلياً شتى اللهجات، إن كان داخل شبه جزيرة العرب أو خارجها، كما أنها لم تتمكن من محوها بصورةٍ مطلقةٍ، ومن هنا تعدّد اللهجات وتنوّعها حتى اليوم، في شتّى أقطار الوطن العربي. وفي الحقيقة، لا تشكل "تشويهاً" أو "انحطاطاً" للعربية كما يتوهم البعض، بل هي ألسنة أصيلة لقبائل عربية، كما رأينا في حديثنا عن اللهجات (معجم الألفاظ العامية...) ودليلنا على ذلك، تعدّد القراءات (٧-١٤ الخ...)، منذ القدم، إذن فعربيتنا الفصحى، التي أدركناها قبيل الإسلام وبعده، والتي تطوّرت وازدهرت، في العصرين الأموي والعباسي، لا تعكس فقط لسان قريش.

سابعاً: الصحيح والأقرب إلى منطق التطور الاجتماعي/ اللغوي أن نهجر التسمية "السامية" ونقول "بالعربيات العتيقة فالقديمة فالعربية الفصحى". وكم من لغة ذائعة الصيت ولا يتوافر لها ما كان للعربية، من ديمومة زمنية واستمرار مكاني، ومع ذلك لم يحجموا عمّا نقترحه، أما اللهجات العربية العتيقة، فنعني بها لهجات الهلال الخصيب، حتى مطلع الألف الأول (ق.م). بالإضافة إلى اللهجات البائدة لشبه الجزيرة العربية. ونقصد بالقديمة: الآرامية الأولى (ثم لهجاتها المختلفة بعد القرن الثاني ق.م). مع لهجات اليمن (٨٠٠ ق.م- ٥٠٠م) في جنوب شبه الجزيرة العربية واللهجات اللحيانية والثمودية والصفائية، في وسط وشمال شبه الجزيرة وحتى جنوبي بلاد الشام (٥٠٠ ق.م- ٣٥٠م) ثم العربية الحجازية الصريحة، من الشعر الجاهلي فما بعد.

للحيوانات الطاهرة و(٦) لغير الطاهرة، والأسبوع سبعة أيام وآخرها مقدس. ويظهر العدد (٧) من جديد في قصة يوسف "سبع بقرات سمان وسبع بقرات عجاف، سبع سنابل دقاق الخ.. وكان لمدينة بابل (٧) أبواب. وقال الآشوريون بـ(٧) أسوار تحيط العالم الآخر.

وقيل إن (زرداشت) رأى سبع رؤى أثناء عزلته، قبل أن يعلن رسالته. ومن تعاليم (ماني) لأتباعه في فارس الصيام (٧) أيام في كل شهر. وعند اليونان :(٧) حكماء، (٧) عجائب العالم. وحكم روما (٧.١٩) ملوك (انظر كتابنا: تاريخ الرومان/ط١، ١٩٧٤، ص ١٧٨). وكم من مرة يرد العدد (٧) في الأناجيل وكذلك في القرآن الكريم. ومن أشعار العرب قبل الإسلام أن قبيلة (عاد) أهلكت في "سبع" ليال... والمعلقات المشهورة (٧) وعند العرب أيضاً: "الحمل" السباعي، وبيت الشعر "المسبوع". ومن مناسك الحج: الطواف (٧) مرات حول الكعبة وتظهر قدسية العدد (٧) عند بعض الفرق والمذاهب في الإسلام: عند إخوان الصفا وعند الإسماعيليين (التوقف عند الإمام السابع اسماعيل). ومراتب التصوّف هي (٧): التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكّل، الرضا (سراج الطوسي، اللمع في التصوف). وقال أبو تمام في ردّه على المنجمين:

والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

والأقاليم المعمورة في مصوّرات الجغرافيين العرب هي سبعة وكذلك الرحلات "السبع الشهيرة" للسندباد، وهل من تفسير لقدسية هذا العدد وغيره من الأعداد، كالعدد (٣) والعدد (٥) الخ... ويرمز العدد (٣) إلى تفاسير عدة: الحياة/ الموت/ البعث، السماء/ الأرض/ الإنسان الخ... أما العدد (٥)، فنلاحظ سحره منذ عشرات الآلاف السنين، في المغاور والكهوف أو بالأحرى في رسوم جدرانها، حيث نشاهد حيوانات تلك العصور، عدوة الإنسان وفريسته، وقد أحيطت بأيدٍ بشرية، وكأنها تحاول القبض على الحيوان. ألم يقولوا افترق الإنسان عن الحيوان بعمل يده، الذي تفاعل جدلياً مع دماغه، وبذلك كان تطوّره وارتقاؤه، وهكذا اكتسبت اليد تلك القدرة السحرية. ومازلنا نلمس آثارها ورموزها في مأثورنا الشعبي: "خمسة بعين العدو، وشكل اليد المغموسة في دم الضحية على باب مسكن جديد، وهذه اليد وفي وسطها "عين الحسود" يخترقها سهم، الخ،، أما بالنسبة للعدد (٧) وقدسيته الغريبة بانتشارها وديمومتها، فنرى أنها ترمز إلى اليد السحرية (٥) يُضاف إليها الرقم (٢)، كرمز للحياة/ الموت أو السماء/ الأرض أو الذكر/ الأنثى الخ... هذا اجتهاد ليس إلاّ... والله أعلم....

قد يستغرب البعض اقتراحنا الجديد هذا، وعلى كل فـ "الجديد غريب". أما بالنسبة لنـا، فليس بجديد ولا بغريب، فمنذ نحو ربع قرن، قلنا في المقدمة التاريخية لكتابنا (المدخل إلى اللغة الآرامية) منذ عام ١٩٧٠، إن التسمية "السامية" خاطئة وعلى "الباحثين وذوي الاختصاص العرب أن يطرحوا الموضوع على بساط البحث ويتداولوا الآراء، ليخلصوا إلى تسمية أخرى أقرب إلى منطق الأمور، الخ..." وها نحن مانزال ننتظر....

ب- الكتابة:

١- من الصورة إلى المقطع الصوتي:

تُعتَبرُ الكتابة العربية حصيلة تطوّر مديد ومستمر، انطلاقاً من الكتابة المسمارية المقطعية الرافدية(*) (نحو ٣٥٠٠ ق.م) والهيروغليفية الصورية المصرية(**) التي ظهرت مع المسمارية، في منتصف الألف الرابع (ق.م) ومروراً بالكتابة المسمارية الأبجدية (***) في دولة أجرت (رأس شمرة شمالي اللاذقية، وقالوا أيضا أوغاريت). نحو (١٥٠٠ ق.م)، فانتهاءً بالأبجدية الكنعانية المتطوّرة (التي أطلق عليها الإغريق اسم "الفينيقية")، حوالي القرن الحادي عشر (ق.م).

وعندما أفلح الكنعانيون "الفينيقيون" في تجريد الصور الهيروغليفية المصرية والمقاطع المسمارية الرافدية وأبدعوا رموزاً، كلّ منها يمثّل "وحدة صوتية" أي حرفاً (فونم phonem)، تكون البشرية قد قطعت بذلك مرحلة، بالغة التعقيد، وبلغت شأواً عظيماً، كانت له نتائج حاسمة، مازال يُشار إليها بالبنان، نتائج عادت بالنفع الكبير والخير العميم على مختلف بني البشر، في مختلف أصقاعهم وأمصارهم (****)

(*) يرى العلماء المختصون أن أول من استخدم الكتابة في بلاد الرافدين هم السومريون وعنهم أخذها الأكاديون/ البابليون فالآشوريون (انظر الجدول رقم ١) "شجرة السن الوطن العربي القديم" (الرقم ١)، كانت الكتابة المسمارية في أول عهدها، كالهيروغليفية المصرية، صورية"، أي أن كل صورة تمثل كلمة وتعني الشيء ذاته كصورة "بيت للبيت والشجرة للشجرة و الشمس للشمس الخ...."، وهذه المرحلة "الكتابة الصورية" ثم راحوا يستعملون هذه الأشكال للتعبير عن بعض المعاني، وهي الكتابة "الفكرية"، فمثلاً الشجرة إضافة لمعناها الأصلي أخذت تعني "الحياة والربيع والخلود الخ...." والشمس تعني الكوكب ثم راحت تعني "الضوء والحرارة والنهار، الخ...." وقالوا: "مسمارية" لأن أشكالها تطوّرت من الصور إلى رسوم مبسّطة تشبه المسامير، بأشكالها المختلفة. ونقول أحياناً "إسفينية" ثم تطوّر الأمر وأصبحت هذه الأشكال المبسطة تدل على أصوات معينة، على شكل مقاطع صوتية، أي أن الكلمة لا تكتب أبجدياً، كما نعرفها حالياً، بل على شكل مقاطع، ويمكننا أن نشبّهها أحياناً، بما نجده حالياً في اللغات الصينية واليابانية والكورية الخ... وكان عدد المقاطع المسمارية في أول الأمر بحدود (٧٠٠ مقطع) وقد تقلّص تدريجياً ليصل في الآشورية الحديثة إلى (٧٥ مقطعاً) تقريباً.

(**) ظلّت الكتابة الهيروغليفية محافظة على شكلها الصوري، علماً أنه قد تفرّع عنها كتابة موازية مختزلة أكثر ليونة وهي "الهيراطيقية" (المقدسة) وأخرى شعبية وهي "الديموطيقية".

(***) ضمّت الكتابة المسمارية الأبجدية الأوغاريتية (جدول رقم ١، ٥أ) (٢٩ حرفاً) وهي قريبة جداً من حروفنا العربية ولكن شكلها مسماري، أي أن الشكل لا يمثل مقطعاً، بل حرفاً قائماً بذاته، على شكل مسمار (إسفين).

(****) من أقدم النقوش المعروفة -حتى الآن- بالأبجدية الكنعانية، الفينيقية، "نقش تابوت حيرام" ملك جبيل، ويعود إلى نهاية القرن الحادي عشر (ق.م).

نحن لا نرغب في مناقشة مختلف النظريات والأراء المتعلقة بنشوء أول قلم أبجدي، وأيهما كان له التأثير الأكبر في هذا المجال: وادي النيل أم بلاد الرافدين، فهذا ليس مجال بحثنا بالذات، علماً أن بعضهم أعطى كتابات جزيرة كريت (الألفان الثالث والثاني ق.م)، دوراً في نشوء الأبجدية الكنعانية، لقد اكتفينا بإيراد جدول لإيضاح "النظرية السينائية" (*****) التي تعكس بشكل أو بآخر مكانة الكتابة المصرية الهيروغليفية، ولاسيما في نهاية عصر الملكية الوسطى (٢٠٥٢-١٧٧٠ق.م) عندما راح المصريون يستعملون "أربعين صورة "من صور كتابتهم كرموز لقيم صوتية "وحدات هجائية". ولكن الكتابة هي سبيل إلى المعرفة، ويبدو أن الطّبقة الحاكمة الفرعونية المحافظة، في مصر القديمة، لم تشجّع على الانتقال إلى الخطوة التالية، أي جعل هذه الرموز الهجائية حروف هجاء، دون اللجوء إلى صورٍ أخرى في كتابة الكلمات؛ فظلّت الكتابة المصرية "الهيروغليفية" مزيجاً مُعقداً من صوَر ورموز وحروف هجاء، وبذلك ظلّت امتيازاً لفئة من الكتبة المختارين، الذين يدرسون في البلاط الملكي، قبل أن ينخرطوا في سلك الجهاز الإداري، لمختلف دواوين الدولة[*].

٢- من المقطع الصوتي الصوري إلى الحرف الأبجدي الكنعاني (الفينيقي):

يعود الفضل في إبداع الأبجدية للكنعانيين[**]، الذين خطوا الخطوة الحاسمة انطلاقاً من مبدأ الأكروفونيا[***]، فاتخذوا الرموز الصورية وأعطوها قيماً صوتية تلائم الأصوات الهجائية في لسانهم، فاتخذوا مثلاً الرمز الذي يشير إلى "البيت" وسموه "بت" وأصبحت صورة البيت لا تمثّل ولا تلفظ "بيت" بل الصوت الهجائي الأول في الكلمة وهو حرف "ب" وصورة العين لا تمثلها، بل تمثل الوحدة الصوتية "ع" و"اليود" لا تمثل "اليد" رمزاً ولفظاً، بل الحرف الأول "ي" وهكذا دواليك.... وتكوّنت هكذا الأبجدية الكنعانية "الفينيقية" وعدد حروفها (٢٢) حرفاً بترتيب:

أبجد- هوز - حطي- كلمن- سعفص- قرشت.

وكان كنعانيو ("أجرت - أوغاريت" رأس شمرة) قد سبقوا أبناء عمومتهم الجنوبيين، فجرّدوا المقاطع الصوتية المسمارية، لبلاد الرافدين، بطريقة شبيهة بأبجدية جبيل، ولكن سقوط العاصمة الشمالية للعالم الكنعاني، في نهاية القرن الثالث عشر (ق.م) على يد شعوب البحر، أوقف عملية تطوّر كتابة الأبجدية المسمارية الشمالية لمدينة "أجرت".

(*****) انظر الملحق (رقم ٧) في آخر البحث مع الملاحق الأخرى.

(*) ظلّت الكتابة في مصر الفرعونية حكراً على الطبقة الحاكمة وعلى أتباعها من الكهنة والكتبة وأحاطوا أصولها بالسرية، وتحتوي الكلمتان "هيروغليفية"، وهيراطيقية" حذراً يفيد القدسية "هوروس"! والمصري الذي يكون قد ارتفع إلى مرتبة "كاتب" ليدخل في خدمة البلاط الملكي، ينال فوائد عظيمة ويصبح من المبجلين في المجتمع.

(**) كما ذكرنا، أطلق الإغريق (اعتباراً من القرن التاسع ق.م -في الأوديسة- تلك الملحمة المنسوبة إلى هوميرُس مع الإلياذة). اسم "فينيقيين" على بعض الكنعانيين من سكان الساحل الشامي (صيدون، صور، الخ....) علماً أن التسمية غير واردة في كتاباتنا القديمة، بل نجد دائماً التسمية الكنعانية، ثم انتشر هذا الخطأ الشائع في الأدبيات اليونانية واللاتينية فيما بعد.

(***) كلمة يونانية مركّبة بمعنى "الصوت الهجائي الأول في كلمة ما: فصورة "كف" مثلاً لا تلفظ "كَفْ" بل الصوت الهجائي الأول في الكلمة وهو حرف (ك)، وصورة "رأس" لا تمثل وتلفظ "ريش" بل الحرف الأول في الكلمة وهو "ر". ومن المعروف أنه لكل حرف أبجدي مدلول يشير إلى رمز صوتي.

وبمقارنة سريعة لحروف أبجدية جبيل المتطورة بما يقابلها في الأبجدية الشمالية المسـمارية "الاجريتيـة، نلاحظ الشوط الكبير الذي حققته أبجدية جبيل الجنوبية:

(انظر الجدول المقارن في الصفحة التالية).

عربي	اللفظ الكنعاني ومعناه	أبجدية اجريت	أبجدية جبيل	الأبجدية اليونانية	الأبجدية اللاتينية
ا	ألف (رأس ثور)			Α α	A a
ب	بيت (بيت)			Β β	B b
ج	جمل (جمل)			Γ γ	G g
د	دلت (باب)			Δ δ	D d
هـ	هي (شباك)			Ε ε	E e
و	واو (وتد)				
ز	زين (سلاح)			Ζ ζ	Z z
ح	حيط (حائط)			—	—
ط	طيت (أفعى ثعبان)			—	—
ي	يود (يد)			Ι ι	I i
ك	كف (كف)			Κ κ	K k
ل	لمد (عصا)			Λ λ	L l
م	مم (مياه)			Μ μ	M m
ن	نون (سمك)			Ν ν	N n
س	سامخ (سند)			Σ ς σ	S s
ع	عين (عين)			—	—
ف	في (فم)			Φ φ	F f
ص	صاد (خطاف للصيد)			—	—
ق	قوف (قحف، ثقرة)			Ϙ (حرف مات)	Q q
ر	ريش (رأس)			Ρ ρ	R r
س/ش	شين/شين (سن)			—	—
ت	تاو (إشارة، علامة)			Τ τ	T t

وهاكم بعض الملاحظات بالنسبة للجدول أعلاه:

أولاً: من الواضح أن أبجدية جبيل هي أقرب من أبجدية "أجرت -أوغاريت" إلى مفهوم الكتابة السريعة كما عهدناها فيما بعد.

ثانياً: قلنا أن أبجدية "أجرت" المسمارية ضمت (٢٩ حرفاً) ولم نذكر منها سوى (٢٢ حرفاً)، كما هي واردة في أبجدية جبيل، وفي الحقيقة، نطق أهل جبيل وغيرهم من كنعانيي عصرهم وكذلك أولئك الذين نقلوا عن هؤلاء الأبجدية، كالآراميين والاسرائيليين القدماء والمؤابيين بعض الحروف بطريقتين. فمثلاً حرف "ج" لفظوه كما نعرفه في العربية وأحياناً نطقوه "غ"، وحرف "د" هو "د" أو "ذ" وحرف "ك" هو "ك" أو "خ" وحرف "ت" هو "ت" أو "ث" الخ...

وهذه الحروف الملفوظة بطريقتين موجودة في أبجدية، "أجرت".

ثالثاً: لا نجد حرف "ض" لا في أبجدية "أجرت"[*] ولا في "جبيل". وعندما نقول "أبجدية جبيل"، فهذا لا يعني مطلقاً، أنها خاصة بمدينة جبيل، ولأننا عثرنا على أقدم نقش في جبيل، أطلقنا اسم المدينة عليها. وفي الواقع، انتشر استعمال هذه الأبجدية في مختلف أنحاء بلاد الشام. أما حرف "ض" فنجده في شتى ألسُن الجزيرة العربية، في اللهجات اليمنية المختلفة، وفي لهجات الجزيرة العربية الشمالية (انظر الجدول رقم (١)، في الفرعين ٤ أ- ٤ب) وكذلك صفحة - (الجدول رقم ٢).

رابعاً: عن أبجدية جبيل، أخذ الإغريق خطهم وكذلك الكتابة اللاتينية تكوّنت انطلاقاً من اليونانية والأتروسكية، ذات المنبت المشرقي. ومن المدهش أن بعض الحروف اللاتينية وقبلها اليونانية حافظت على أسماء حروف أبجدية جبيل وأحياناً على نفس الترتيب والشكل. فمثلاً حرف " ≮ " في جبيل أصبح "ألفا" في اليونانية وهو "A" وحرف " 𐤁 " هو "بتا" اليوناني وشكله "B" أي بتحويله من اليمين إلى اليسار. وحرف " ◺ " هو " Δ " دلتا في اليونانية وحرف " ꓘ " هو حرف " K" كابا في اليونانية مع تحويل اتجاهه، حرف ".. .." أصبح "L" لمدا في اليونانية، حرف " W " أصبح "M" أي بقلبه إلى الأعلى..M. مع قطع أحد ضلعيه وكذلك حرف " ꓡ " بقلبه إلى الأعلى مع قطع الضلع، الخ... وجدير بالذكر أن ترتيب هذه الحروف هو واحد في مختلف الأبجديات المذكورة أعلاه:

جبيل (ك ل م ن) - العربية (ك ل م ن) - اليونانية واللا تينية (K, L, M, N) والأصل كما هو معروف في أبجدية جبيل.

3- من الأبجدية الكنعانية إلى الكتابات الآرامية:

نقل الآراميون قلمهم عن معاصريهم الساحليين، الكنعانيين "الفينيقيين، وبه كتبوا نصوصهم الأولى، وكتابة ولغة تلك النصوص (من القرن العاشر إلى القرن السابع ق.م) تشبهان، وإلى درجة كبيرة، محتويات

---

[*] هذا ماتقرره حتى يومنا هذا المراجع الأكاديمية، وهو الأمر المتعارف عليه -حتى الآن- لدى ذوي الاختصاص، مع العلم بأنه تمّ العثور، في السنوات الأخيرة، على نقش جديد في أوغاريت -كما قلنا سابقاً- قد يفيد بعكس ذلك. ولمّا تُحسَم المسألة.

النصوص الكنعانية المعاصرة لها. ولا شك في أن الآراميين الذين نقلوا عن جيرانهم الكنعانيين "الفينيقيين" قلمهم، راحوا يطوّرون بدءاً من القرن السادس (ق.م) كتابة خاصة بهم، قبل أن يتفرّع منها، منذ القرن الثالث (ق.م) كتابات آرامية محلية، في مختلف أصقاع المشرق العربي.

إن كان آراميو بلاد الشام قد استعملوا الأبجدية الكنعانية "الفينيقية" في بادئ الأمر، فإن آراميي بلاد الرافدين قد اقتبسوا قلمهم الأول من الكتابة المسمارية الرافدية، قبل أن تتطوّر لدى الطرفين كتابة آرامية موحّدة في مختلف الدويلات الآرامية.

اشتهر الآراميون بتجارتهم النشطة داخلياً وخارجياً، وكما أن أقرباءهم الكنعانيين قد ذاع صيتهم في مجال التجارة البحرية، ونقلوا السلع المستوردة ومنتجاتهم إلى مختلف أرجاء البحر الأبيض المتوسط، فإن الآراميين اشتهروا بتجارتهم البرّية وأصبحوا المتحكمين بالقوافل التجارية بين الساحل الكنعاني وبلاد الرافدين وفارس والأناضول، وكما انتقلت لغة الكنعانيين، وكتابتهم مع تجارتهم غرباً، فكذلك انتشرت لغة الآراميين وكتابتهم شرقاً مع قوافلهم التجارية، وساهمت في تكوين بعض كتابات فارس والهند وآسية الصغرى والقفقاس، بالإضافة طبعاً إلى كتاباتنا الآرامية المحلية: تدمرية نبطية الخ... وكما أسلفناه، لم يستمّر نفوذ الآراميين السياسي، في بلاد الشام وشمالي بلاد الرافدين إلا لفترة محدودة (من القرن العاشر وحتى القرن السادس ق.م). ويبدو ضئيلاً، إذا ما قارناه بتاريخ مختلف الأقوام والدول التي سبقتهم أو عاصرتهم، ولكن دورهم الثقافي، ولاسيما في حقلي اللغة والكتابة، كان أساسياً ومذهلاً في تراث مشرقنا العربي القديم، في العصرين الفارسي- الأخميني والهلنستي الروماني، (كما جاء سابقاً في بحث اللغة).

ففي العصر الفارسي -الأخميني، أصبحت الآرامية لغة دبلوماسية دولية وكانت لغة الإدارة والحكم مع الفارسية، في مختلف أرجاء الامبراطورية الفارسية- الأخمينية، اعتباراً من القرن السادس (ق.م) وحتى الربع الأخير للقرن الرابع (ق.م)، وتلك هي "الآرامية الامبراطورية".

وعندما انهارت الامبراطورية الفارسية -الأخمينية، تحت ضربات الاسكندر المقدوني (٣٣١ ق.م)، فقدت الآرامية السند الذي جعلها لغة رسمية موحدة، ذات لهجة متماسكة في مختلف ولايات الامبراطورية وراحت تفقد نقاوتها نسبياً، وانكمشت قليلاً أمام اللغة اليونانية، ولاسيّما في ميادين الحكم والإدارة، وراحت تتكون عدة لهجات وكتابات آرامية محلية، مشتقة من الآرامية الأم، ويمكننا بدءاً من القرن الأول (ق.م) تصنيف مختلف اللهجات والكتابات الآرامية في بلاد الشام والرافدين كالآتي، ضمن مجموعتين أساسيتين: الشرقية والغربية [*]، وسيكون لبعض كتابات هاتين المجموعتين دور في نشوء الكتابة العربية الحجازية، منذ القرن الرابع للميلاد(28).

وتضم المجموعة الشرقية:

أ- السريانية : بفرعيها النسطوري واليعقوبي، عندما اعتنق آراميو بلاد الشام والرافدين المسيحية، صاروا يُعرفون باسم "السريان" بدءاً من القرن الثاني للميلاد.

١

[*] انظر الجدول (١) شجرة ألسن الوطن العربي القديم (رقم ٦، ٧، ٨).

ب- لهجة تلمود بابل: وقلمها هو الآرامي المربّع.

جـ- المنداعية : في جنوب العراق، والمنداعيون هم "أهل المعرفة"، وعرفوا في العصر الإسلامي الأول باسم (الصابئة).

د- الحرّانية : نسبة إلى مدينة حرّان، شمالي بلاد الرافدين، وعُرفت في المصادر الكلاسيكية اليونانية واللاتينية باسم Hellenpolis "مدينة الهلنيين". ظلّوا على وثنيتهم في العصر المسيحي الأول، وكانت المدينة في العصر العباسي- ولاسيّما في عهد المأمون- مركز إشعاع علمي وفلسفي.

وتشتمل المجموعة الغربية على :

أ- الآرامية الفلسطينية: وتحوي كتابات "تلمود أورشليم"(*) وبعض الكتابات المسيحية الأولى، من أناجيل وغيرها.

ب- النبطية : وهي كتابات الأنباط، وبالنسبة لموضوعنا تطوّر القلم النبطي، من القرن الثالث للميلاد وحتى نهاية القرن الرابع، وكان له دورٌ، مع الكتابة السريانية، في ميلاد الخط العربي الحجازي.

جـ- التدمرية : وتمثل نقوش دولة تدمر (٣٣ ق.م-٢٧٢ م) في مختلف أنحاء بلاد الشام والرافدين وفارس وحيث تواجد الجنود والتجار التدمريون.

4- الكتابة العربية الحجازية بين الأقلام الآرامية والخطّ المُسْنَد:

من المعلوم، أنه قد ازدهرت، منذ نهاية الألف الثاني (ق.م) حضارةٌ عربية قديمة، في جنوبي شبه الجزيرة العربية، ولقد طوّر أقوامها كتابات قديمة، قريبة بعضها من بعض، ويُطلق على قلم تلك الكتابات اسم "الخط المُسْنَد"، وهو أقدم الخطوط المعروفة -حتى الآن- في شبه الجزيرة العربية،ويسميه البعض بالخط "الحِمْيَري"، إذ إن الحميريين هم آخر من كتب به، علماً أنه قد سبقهم إليه في إبداعه وتطويره، أقوام عربية أخرى، من سبئيين ومعينيين وقتبانيين وغيرهم(**).

ونقرأ كتابات "المسند/ الحميري" من اليمين إلى اليسار- كما هو مألوف في الكتابات الكنعانية والآرامية والعربية، كما أننا نقرؤه أحياناً، من اليسار إلى اليمين، على طريقة الكتابات اليونانية واللاتينية والكتابات المتفرعة عن هذه أو تلك.

ومنذ نهاية القرن الماضي وحتى يومنا هذا، يزداد عدد النقوش المكتشفة في أواسط شبه الجزيرة العربية وشمالها، وفي شرقي الأردن وفي حوران، مكتشفات أزاحت النقاب عن ثلاث مجموعات متشابهة من النقوش المنقورة في الصخر، كتاباتها شديدة الصلة بقلم النقوش العربية اليمنية القديمة؛ والجدير بالذكر، قرابة

(*) تعني كلمة تلمود "تعليم"، ويتضمن التلمود الشرائع التي وضعها أحبار اليهود لتفسير أسفار التوراة، ونجد فيه أيضاً اجتهاداتهم عبر العصور، ولدينا تلمودان "البابلي والأورشليمي أو الطبراني"، والأول أكثر تكاملاً من الثاني.

(**) انظر الجدول (رقم ١) شجرة الس .... "٤ ب".

لهجات هذه النقوش، بما عهدناه في عربية معلقات الشعر الجاهلي والقرآن الكريم[***]، ويمكن تصنيف هذه النقوش كما يلي:

أ- النقوش الثمودية: وقد تمّ اكتشافها في أماكن مختلفة من وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها. وَوُزّعَت هذه النقوش على عدة مجموعات يتراوح تاريخها بين القرن الرابع (ق.م) والقرن الخامس م، (قرابة تسعة قرون).

ب- النقوش اللحيانية: وعُثر عليها، في الدرجة الأولى، في منطقة العُلا، شمالي الحجاز، وتعود إلى القرن الخامس حتى القرن الثالث (ق.م).

جـ- النقوش الصفائية، نسبةً إلى تلول الصفا البركانية، شرقي اللجاة، في منطقة حوران، ويتراوح تاريخها بي من القرن الأول (ق.م) ومنتصف القرن الرابع للميلاد.

كما نلاحظ أعلاه، تشمل النقوش الثمودية واللحيانية والصفائية، مدة تسعة قرون تقريباً، (القرن الخامس ق.م- القرن الرابع ميلادي)، ولغة هذه النقوش شديدة الصلة بالعربية الصريحة الحجازية، التي انتشرت مع الفتوحات الإسلامية، على الرغم من وجود بعض أوجه الخلاف، من أهمها أداة التعريف، فهذه الطوائف الثلاث (ثمودية، لحيانية، صفوية) تستعمل "الهاء" كأداة للتعريف، في حين جعلت العربية الحجازية الصريحة "أل" التعريف، بينما نجد أن الكتابات اليمنية الجنوبية (معينية، سبئية، حبشية، حميرية، الخ...) قد وضعت الـ "ن" في آخر الكلمة للتعريف.

حتى السنوات الأخيرة كان الرأي السائد في الأوساط الجامعية والأكاديمية المهتمة بقضايا الاستشراق، أن الخطوط: العربي الحجازي ثم النسخي غرباً والكوفي شرقاً، قد تطوّرت بتأثير قلمين آراميين الأصل: السرياني والنبطي، أما القلم المسند وفروعه، فلم يعطها معظم الباحثين دوراً يذكر. أما نحن فنعتقد أن هذا الموقف لم يعد مقبولاً، لأسباب عديدة، فما هوالجديد في الموضوع؟!

لا نوّد أن نسهب في أمر روايات الأخباريين والرواة العرب حول أصول الكتابة العربية الشمالية، نظراً إلى أن مختلف الآراء في هذا الموضوع، لا تشفي غليلنا وذلك لاضطرابها وتناقضها من جهة وللطابع الأسطوري الذي يغلب عليها من جهة أخرى.

نلاحظ أولاً أن سوادهم الأعظم يرى أن القلم العربي الشمالي نشأ في الحيرة، ويُطلَق عليه اسم "الجزم" جاء في "القاموس المحيط" للفيروز آبادي، في مادة (جزم): "والجزم في الخط تسوية الحروف والقلم لا حرف له، وهذا الخط المؤلف من حروف المعجم، لأنه جُزِم أي قُطِع عن خط حِمْيَر.. "

ويذكر (ابن خلّكان): "... انتقل الخط الحميري إلى الحيرة في عهد المناذرة" (30)

ويضيف (ابن خلدون)، في روايته عن أصل الكتابة العربية الشمالية أن "... أهل الحجاز إنما لقّنوها من الحيرة ولقّنتها الحيرة من التبابعة وحمير من اليمن..."(31).

[***] انظر الجدول (رقم ١) شجرة الألسن .... "٦٤" و"جدول رقم ٦".

ويقول (ناجي زين الدين): حول أصول الخط العربي وتسميته بالجزم: "لأن الخط الكوفي كان أولاً يسمى "الجزم"، قبل وجود الكوفة لأنه جُزِم أي القطع وولد من المسند الحميري ومرامر وهو الذي اقتطعه ولعله وضع صوره.. والخط الكوفي قديم الوضع، وضعه سيدنا اسماعيل... ومما يدعم هذه الأقوال في الجزم مطابقة عدد حروفه الكاملة لما جاء في الحديث النبوي المروي عن أبي ذر الغفاري، قول النبي: "يا أبا ذر، والذي بعثني بالحق نبياً ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً..."(32).

ولقد اعتبروا الحرف التاسع والعشرين "لا".

نلاحظ أن روايات الأخباريين العرب تتضافر على أن الكتابة كانت شائعة بين عرب الحيرة قبيل الإسلام وأن بعض الحجازيين عرفوا تلك الكتابة وتعلموها قبل أن يعلّموها في ديارهم فيما بعد.

ولكن كما نعلم، ليس بحوزتنا حتى يومنا هذا من وثائق لغوية تاريخية عربيتها قريبة من عربية المعلقات والقرآن الكريم، وقلمها يختلف عما وجدناه في المسند ومشتقاته، سوى بعض الكتابات، التي تعد على أصابع اليد وهي الوثائق التي عثر عليها في المنطقة النبطية، أو في الأنحاء التي تمتّ بصلة إلى الأنباط أصلاً، أي في بلاد الشام، وأشرنا إلى هذه النقوش أعلاه.

ومن دراستنا لهذه الوثائق، نلاحظ أنها وجدت في منطقة الأنباط وفي تلك التي تأثرت بثقافتهم بشكل أو بآخر. وهذا مادعا الكثيرين إلى القول إن الخط النبطي، هو أصل الكتابة العربية الشمالية، بينما يرى البعض الآخر أنه كان للكتابة السريانية دورٌ ملحوظ في تطور القلم العربي الشمالي.

وهكذا، كان النقاش محصوراً حول أثر كل من الكتابتين النبطية والسريانية في نشوء وتطور القلم العربي الشمالي بشكليه النسخي والكوفي (الحيري). ومن المعلوم أن الكتابتين النبطية والسريانية صدرتا أصلاً عن القلم الأرامي (انظر جدول رقم ١ "الأرامية ٦"). ولقد قبلنا أيضاً هذا الرأي (٣٣)، حتى عام ١٩٨١، عندما نشرنا دراستنا " في أصول الكتابة العربية" وقلنا أنه لا يمكننا أن نقبل الرأي السائد في الأوساط الجامعية والأكاديمية، بعد الدراسات المقارنة التي قمنا بها.

لقد أوضحنا في دراستنا، أن القلم النبطي (الأرامي) راح يبتعد تدريجياً عن أصله الأرامي، بعد سقوط الأنباط (عام ١٠٦م)، ليقترب أكثر فأكثر من القلم المسند الحميري والخطوط المشتقة منه. (لحياني، ثمودي، صفائي)، وبذلك راح يتكوّن قلم نبطي متأخر كان له دور جذري في نشوء القلم العربي القديم بفرعيه: الكوفي والنسخي، (انظر ملحق ٧)، حول "نظرية طور سيناء"، وأصل الأقلام الأبجدية أي أن الخط النبطي المتأخر ذا الأصل الأرامي. والذي كان له دورٌ كبيرٌ في نشوء القلم العربي الحجازي، قد تطوّر هو نفسه بتأثير من الخط المسند الحميري وفرعيه: الثمودي والصفائي(٣) .

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر مجلة دراسات تاريخية، العدد السادس، تشرين الأول ١٩٨١ص.ص . (٥٩-١١١) ، حيث ألقيناه في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية - الاسلامية ، في دمشق، جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ ميلادي.

شجرة ألسن الوطن العربي القديم

الجدول رقم (١)

- (١) شرقية (الأكادية البابلية الآشورية) (بالقلم المسماري المقطعي)
- (٢) غربية
  - (٣) شمالية
    - (٥) كنعانية
      - (٥أ) أجريتية (أوغاريتية) (بالخط المسماري الهجائي)
      - (٥ب) كنعانية قديمة
      - (٥جـ) مؤابية
      - (٥د) توراتية (عبري)
      - (٥هـ) كنعانية فينيقية - بونيقية - قرطاجية
    - (٦) آرامية
      - (٧) مجموعة لهجات شرقية
        - (٧أ) السريانية
          - (٧أ١) نسطورية
          - (٧أ٢) يعقوبية
        - (٧ب) تلمود بابل
        - (٧جـ) مندعية
        - (٧د) حرانية
      - (٨) مجموعة لهجات غربية
        - (٨أ) الآرامية الفلسطينية
        - (٨ب) النبطية
        - (٨جـ) التدمرية
  - (٤) جنوبية
    - (٤أ) العربية الجنوبية (يمنية - حبشية)
      - (٤أ١) معينية
      - (٤أ٢) سبئية
      - (٤أ٣) حضرمية
      - (٤أ٤) قتبانية
      - (٤أ٥) حبشية
    - (٤ب) العربية الشمالية
      - (٤ب١) العربية البائدة
        - (٤ب١أ) لحيانية
        - (٤ب١ب) ثمودية
        - [illegible]
      - (٤ب٢) العربية الباقية
        - (٤ب٢أ) تميمية
        - (٤ب٢ب) حجازية

جدول رقم ٢

الترتيب العربي الكامل للحروف بحسب تسلسل (أبجد - هوز - حطي - كلمن - سعفص - قرشت) وما يقابلها في بعض الخطوط القديمة

صفائي	ثمودي	لحياني	آرامي مربع	[illegible]	النبطي متأخر	عربي
						أ
						ب
						ج
						د
						هـ
						و
						ز
						ح
						ط
						ي
						ك
						ل
						م
						ن
						س
						ع
						ف
						ص
						ق
						ر
						ش
						ت
						ث
٧	٦	٥	٤	٣	٢	١

جدول رقم ٣

الحرف العربي	فينيقي (؟)	آرامي: مربع	آرامي (؟)	تدمري (؟)	نبطي: قديم (؟)	نبطي: متأخر (؟)	نقش النمارة	نقش زبد وحران	حروف (؟)	[illegible]	الحرف الكوفي	سرياني (؟)	سرياني (؟)	سرياني (؟)	سرياني (؟)
١	٢	٣		٤	٥		٦	٧	٨	٩	١٠	١١			
		أ	ب		أ	ب						أ	ب	حـ	د
ا	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ث	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ح	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
خ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ذ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ر	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ض	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد			
ط	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ظ	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	[illegible]	لا يوجد			
ع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
غ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ف	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ل	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
هـ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ي	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
لا							[illegible]	[illegible]	[illegible]						

ملحق (١) "أ"

شكل ١: نقش أم "الجمال الأولى" بكتابة نبطية (انظر الجدول رقم ٥ من المجموعة ب) وبمفردات آرامية وعربية، وهذا نصه مع الترجمة العربية:

القراءة الحرفية

النص :	دنه	نفشو	فهرو	
الترجمة:	هذا	قبر	فهر	
	١	٢	٣	
النص:	بر	شلي	ربو	جذيمة
الترجمة:	بن	سلى	مربى	جذيمة
	٤(أ)	٤(ب)	٥	٦
النص:	ملك	تنوخ		
الترجمة	ملك	تنوخ		
	٧	٨		

انظر للمقارنة جدول (رقم ٣، خانة ٥).

ملحق (٢) "أ"

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
النص:	دنا	نفش	مر	القيس	بر	عمرو	ملك	العرب	كله	ذو	اسر	التاج
الترجمة	هذا	قبر	امرئ	القيس	بن	عمرو	ملك	العرب	كلهم	الذين	نال	التاج

السطر الأول من نقش النمارة، ونلاحظ اتصال الحروف في الكلمة أكثر مما رأيناه أعلاه، في نقش "أم الجمال الأولى".

انظر للمقارنة جدول (رقم ٣، خانة ٦).

ملحق (٣) "أ"

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧)

شكل ٣- السطر الأول من "كتابة حرّان" وتاريخ النقش هو سنة ٤٦٣ بحسب تقويم بصرى النبطي، حيث أصبحت بصرى عوضاً عن البتراء، عاصمة العالم النبطي، بعد أن قضى الامبراطور الروماني "تريانوس" على يد حاكم سورية الروماني A. C. PALMA على مملكة الأنباط وألحق أراضيها بالامبراطورية الرومانية عام (١٠٦ ميلادي)، باسم "الولاية العربية" Provincia Arabia وإذا أضفنا (رقم ١٠٦) على (٤٦٣) نحصل على تاريخ النقش بالميلادي، وهو (٥٦٨). "أي قبل بدء التاريخ الهجري بـ ٥٣ عاماً، ووُجد هذا النقش، كما ذكرنا سابقاً على حجر فوق باب مزار أقيم للقديس يوحنا المعمدان، في حرّان، "اللجاة" شمالي جبل العرب، وهو مكتوب بالعربية واليونانية.

النص:	أنا	شرحبيل	بر	ظلمو	بنيت	ذا	المرطور
الترجمة:	أنا	شرحبيل	بن	ظلمو	بنيت	هذا	المشهد (المرطور)

ملحق (٤) "أ"

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢)

شكل ٤- المقطع الأول من ثلاثة مقاطع منقورة في صخر جبل سلع بالقرب من المدينة المنورة من عهد الخلفاء الراشدين، وبعض حروف النقش قد عفا عليها الزمن، ونضيفها بين قوسين ونقرأ كالتالي:

كل	من	الله	إلى	يتور (عا)ن	أبو بكر	و	عمر	وأصبح	أمسي
١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١

يكرَه	ما
١٢	١١

ملحق (٥)"أ"

١- الطر...

٢- عبد الله عبد الملك

٣- أمير المؤمنين رحمه الله

شكل ٥- من كتابة كوفية منقورة في حجر طريق يعود لأيام عبد الملك بن مروان، وعثر على الحجر في فلسطين، ونقرأ كالتالي:

١- الطريق... (بقية السطر غير واضحة)..

٢- عبد الله عبد الملك.

٣- أمير المؤمنين رحمه الله.

شكل ٦-

١- وكتب هذا الكتب في

٢- شوال من سنة أربع و

٣- ستين

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

الأسطر الثلاثة الأخيرة من كتابة كوفية على حجر قبر ثابت بن يزيد الأسعدي، عُثر عليه في وادي الأبيض بلواء كربلاء، وتاريخ الكتابة سنة (٦٤هـ) وهي كالتالي:

١- وكتب هذا الكتب في

٢- شوال من سنة أربع وستين.

بسم الله الر	حمن الرحيم	والسماء ذا	ت البروج	واليوم المو	عود و
السطر: ١	٢	٣	٤	٥	٦

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كتابة بخط كوفي على رق الغزال من المصحف الكريم

المنسوب للخليفة علي بن أبي طالب

(من روائع خزانة الروضة الحيدرية في النجف).

ملحق ٦

ملحق (٧) سلسلة تفرع الكتابات العتيقة : الشمالية والجنوبية

خط طور سيناء

الخط العتيق الجنوبي

المسند الحميري ① - السبئي - المعيني - اللحياني - الثمودي - صفائي ②

براهماني الخط الرشيدي ⑦

الخط الجعزي (الحبشي) ⑥

خط رأس شمرة

الخط العتيق الشمالي (الكنعاني المطور)

خطوط عديدة في آسية الصغرى - توراتي قديم - الآرامي ③

اليوناني

اليوناني الغربي - الافريجي - الليبي - الأتروسكي

اللاتيني

الرهمي - النبطي - البهلوي - التدمري - السرياني - توراتي مربع

الاسطرنجيلي

النسطوري (الشرقي) - اليعقوبي (الغربي)

نبطي متأخر ④

عربي قديم ⑤

الكوفي - النسخي

نعم أن النظرية السينائية يرتقي الى مطلع هذا القرن فانها رائجة في الأوساط العلمية أكثر من غيرها ومن الأوائل الذين اعتمدوها نذكر:
F. PETRIE, F., The Formation of the Alphabet, London 1912.

المصادر والمراجع:

١- برومليه، وبودولني، الأثنوس والتاريخ، ترجمة طارق معصراني، طُبِعَ في الاتحاد السوفياتي، دار التقدم ١٩٨٨؛ عبد العزيز بنعبدا لله، الوحدة الأصلية بين اللغات، مظهر لوحدة اسمائية عريقة، مجلة اللسان العربي، الرباط (المغرب الأقصى)، المجلد السابع، الجزء الأول ١٣٨٩/ ١٩٧٠ ص٥ ١٩٧٠/، ومابعدها: الدكتور حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار المعارف، بمصر ١٩٧١.

٢- اللغة والمجتمع الانسلي، مجلة اللسان العربي، الرباط (المغرب الأقصى)، العدد السادس، 1970/1388، صفحة ١٤.

٣- محمد محفل، المدخل إلى اللغة الآرامية، منشورات جامعة دمشق الطبعة الخامسة، ١٤١١- ١٤١٢هـ/ ١٩٩١-١٩٩٤م، صفحة ٥.

٤- تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ص ٢٨٧.

٥- بافقيه، بيستون، روبان، الغول، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٥؛ الفريد بيستون، قواعد النقوش العربية الجنوبية كتابات المسند" ترجمة الدكتور رفعت هزيم، جامعة اليرموك ١٩٩٥.

٦- محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية والصفوية، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ص (٥١، ٢٢٧، ٣٢٨، ٣٨٠).

7 -P. Bordreuil D. Pardee , Un Abécédaire Du type sud - sémitique découvert en 1988 dans les fouilles archéologiques francaises de Ras - Shamra - Ougarit , in Académie des , Inscriptions et Belles - Lettres, Paris , 1995, p. p. 856-860.

٨- محمد محفل ، المدخل إلى اللغة الآرامية، ص، ص ٤١-٤٥.

٩- المرجع نفسه، ص ١١٤، الدكتور أحمد أرحيم هبو، المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها، منشورات جامعة حلب، صفحة ١٣١ وما بعدها.

١٠- الدكتور علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ودار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء جزءان، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

11- C, Robin , Les plus ANCIENS Monuments De La Langue Arabe , In, L, Arabic Antique De kARIBIL a Mahomet, Edisud , No, 61. 1992, p .p 113-125

وانظر أيضاً، محمد محفل، في أصول الكتابة العربية، مجلة دراسات تاريخية، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، العدد السادس ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، صفحة ٩٦ ومابعدها.

١٢- الدكتور لويس عوض، مقدمة في فقه اللغة العربية، سينا للنشر، طبعة ثانية ١٩٩٣، صفحة ٢٥.

١٣- انظر، محمد محفل، المدخل إلى اللغة الآرامية، صفحة ١٩، ومابعدها.

١٤- السيوطي، المزهر، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨، ج١، صفحة ٢٠٩.

١٥- د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، القاهرة بلا تاريخ صفحة ١٨٦.

١٦- محمد الانطاكي، الوجيز في فقه اللغة، مكتبة الشهباء، حلب ١٩٦٩، صفحة ١٠٠.

١٧- نفس المرجع، صفحة ٩٩.

١٨- د. مسعود بوبو، عن تاريخ اللغة العربية، دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ٣٧- ٣٨، ١٩٩٠، صفحة ١٦.

١٩- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، صفحة ٦٤٦.

20- R, Dussaud La Pénétration des Arabes en Syrie Avant L, Islam, I, F, A, B, , in B, A, H, Tome LIX Paris , (Geuthner), 1955, Israel , E PH' AL , The Ancient Arabs , Nomads on The Border of The fertile crescent gth .-5th Centuries B, C, LEIDIN (Brill) 1982.

٢١- الناشر مكتبة الخانجي، بمصر، طبعة ثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، صفحة ٥.

٢٢- نفس المرجع ، صفحة ١٠.

٢٣- نفس المرجع، صفحة ١٣.

٢٤- نفس المرجع، صفحة ١٧.

٢٥- نفس المرجع، صفحة ١٩.

٢٦- د. محمد بهجت قبيسي، ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية حتى الحميرية، أطروحة دكتوراه، جامعة كراتشي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، وأتيح لنا أن نكون عضواً في اللجنة الفاحصة، والدراسة غير منشورة حتى الآن. وعلى كل، فمنطلقات الموضوع هي أقرب إلى المنطق الاجتماعي/ اللغوي مما قرأناه لدى الدكتور جعفر دك الباب في دراسته نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة، دار الأهالي دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

٢٧- حجة القراءات، للإمام الجليل أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، محقق الكتاب ومعلّق حواشيه، سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٢، صفحة ٨.

٢٨- لمزيد من المعلومات، انظر محفل، في أصول الكتابة العربية، مجلة دراسات تاريخية العدد السادس، تشرين الأول ١٩٨١، جامعة دمشق، صفحة ٦٣، ومابعدها.

٢٩- انظر حول هذا الموضوع، إضافة لبحثنا أعلاه:

أصل الخط العربي وتاريخ تطوره (من محاضرات ليتمان في الجامعة المصرية)، نشر مجلة كلية الآداب، القاهرة ١٣٥٤هـ؛ أحمد يوسف، الخط الكوفي، القاهرة ١٣٥٦هـ؛ صلاح الدين المنجد، الكتاب العربي المخطوط، القاهرة ١٩٦٠؛ أنيس فريحة، الخط العربي، نشأته ومشكلته، بيروت ١٩٦١؛ أحمد فخري، أحدث الاكتشافات الأثرية في اليمن، مجموعة أبحاث المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية، فاس ١٩٥٩(مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ١٩٦٠)؛ خليل يحيى نامي، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، مجلد ٢، مايو ١٩٣٥، صفحة ١٠٤، وما بعدها. ومن المراجع الأجنبية.

Hoftijzer , j, c, Dictionnaire des inscriptions sémitiques de L'Ouest, Leiden (Brill) 1963, Driver , G, R, , Semitic Writing from Pictograph to Alphabet, London 1954, Abbott Nabiha , The rise of the North Arabic Script , CHICAGo 1939.

٣٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة ١٩٤٨، ج١، صفحة ٣٤٦.

٣١- المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة ١٩٥٧، صفحة ١١٥.

٣٢- مصور الخط العربي، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠، صفحة ٢٩٨.

٣٣- محمد محفل، المدخل إلى اللغة الآرامية، صفحة ٦٧.



ما أخذه العرب من اللغات الأخرى

د.مسعود بوبو

مدخل:

من المتفق عليه في علم الإنسان، أو علم الأجناس (الانثروبولوجية Anthropology) أنه ما من عرق بشري نقي الدم تماماً، إلا في استثناءات نادرة تنطبق على سلالة مغلقة اجتماعياً أو جغرافياً إغلاقاً حجز بينها وبين الآخرين. ومثل هذا الحكم يمكن أن يطلق على اللغات. فثمة مجموعات بشرية صغيرة اتخذت لنفسها رموزاً إشارية أو صوتية للتفاهم والتواصل واصطلح على تسميتها لغة. فإذا قيّض لمثل هذه المجموعات أن تبقى معزولة عن الآخرين، منقطعة الصلة بما حولها أمكن أن تَسْلَمَ لغتها من الدخيل. وهذا، وإن كان مستبعداً، يوحي بأن أصحابه خاملون أو يخشون الآخرين، أو إنهم شديدو التعصب والعزلة والرفض للآخر. ولا شيء من هذا يمكن أن ينسب إلى العرب. فللعرب لغة قديمة عريقة امتدت على مدى تاريخي طويل، وعلى مساحة جغرافية فسيحة. ولم يكن العرب خاملين ولا منعزلين عن غيرهم أو متعصبين تعصباً يملي عليهم الحذرَ من الآخرين أو رفضَهم. لقد كانوا على صلة بالحضارات المجاورة، وعلى حوار إنساني مع الأمم والشعوب الذين احتكوا بهم في التجاور والتجارات والمصاهرة والسفارة والمحالفات والولاء والوكالات والهجرة والحروب.

لقد كان للعرب صلات وثيقة بالفرس عن طريق المناذرة في الحيرة ودومة الجندل وجنوبي العراق، كما كان لهم صلات وثيقة بالروم عن طريق الغساسنة في منطقة دمشق وما جاورها، وفي الجنوب اتصل العرب بالأحباش عن طريق الهجرة والحروب وعلاقات الجوار المتنوعة. وعن طريق المعاملات التجارية أقام العرب أنواعاً من الصلات بهذه الأطراف كلها، فضلاً عن صلتهم بالهند والصين منذ القديم(١). ولا يعقل أن تبقى العربية بعد هذا خالية من مؤثرات أصحاب هذه اللغات، بل ستأخذ منها من الألفاظ والمصطلحات والمسميات بالقدر الذي تستدعيه طبيعة العلاقة والتعامل. ولا ننس أن مكة المكرمة كانت مركزاً دينياً وجغرافياً وتجارياً في قلب جزيرة العرب، وهذا جعل منها ملتقى للتجار ومحطة للقوافل التجارية العابرة من الشرق إلى بلاد الشام وأوربة، ومن المنتظر أن يفتح هذا باباً للتبادل اللغوي، وللأخذ والعطاء والمحادثة والمحاورة وغير ذلك مما سيخلّف آثاراً لغوية لا سبيل إلى تجنبها.

وقبل أن نبسط القول في تفصيلات ما اقتبسه العرب من غيرهم يحسن أن نوضح بعض ما يحيط بهذا الموضوع من ملابسات، وأن نقف عند اختلاف العلماء في النظر إلى ظاهرة الدخيل اللغوي في هذه المنطقة من العالم. ولا معدى لنا في الخطوة الأولى عن الوقوف عند مفهوم الدخيل، ثم مفهوم المعرّب حتى نسمي الأشياء بأسمائها في منأى عن قلق التفسير والاجتهاد.

ولعلّ الأصل اللغوي العربي "دخل" يسعفنا بدلالته القديمة على تعريف مصطلح الدخيل اللغوي بدلالته المتأخرة، فالدخيل أصلاً: الذي يُداخلك في أمورك(٢) و"فلان دخيل في بني فلان إذا كان من غيرهم فتدخل فيهم"(٣). و"الدخيل: المُداخل المُباطن.. وداء دخيل: داخلٌ، وكذلك حبّ دخيل(٢).

أما مصطلح الدخيل اللغوي عند صاحب اللسان فلا يعدو أن يكون إشارة مجتزأة إلى جوهر المصطلح بمفهومه الأعم، بيد أنها تنطوي على تنبّه مبكر، وفهم متطور لظاهرة الدخيل في اللغة العربية، يقول: "وكلمة دخيلٌ: أدخلت في كلام العرب وليست منه، استعملها ابن دريد كثيراً في الجمهرة"(٤).

ولم يستوِ الدخيل مصطلحاً خالصاً في الدراسات اللغوية عند العرب، أو لم يشعْ مصطلحاً متّفقاً عليه بالدقة والتحديد، وإن حظي باهتمام السلف في مرحلة التصنيف في غريب القرآن، ومرحلة "تنقية" اللغة بعد ذلك(٥) إلى أن جاء الجواليقي فأضفى عليه مزيداً من الإيضاح عندما نظر إليه بالقياس إلى العربي الأصيل أو الصريح حيث قال في مقدمة كتابه "المعرب":

"هذا كتاب نذكر فيه ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي، ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، وذكرته العرب في أشعارها وأخبارها. ليُعْرَفَ الدخيل من الصريح، ففي معرفة ذلك فائدة جليلة، وهي أن يحترس المشتقّ فلا يجعل شيئاً من لغة العرب لشيء من لغة العجم"(٦).

فالدخيل والكلام الأعجمي هنا وضعا في مقابل العربي الصريح، ولغة العجم في مقابل لغة العرب، وتلك صورة تزيد مفهوم الدخيل وضوحاً وتعزّز استقراره مصطلحاً. وقد اتسع مفهوم هذا المصطلح في مراحل لاحقة على النحو الذي يصفه ابن خلدون في إطار الظاهرة اللغوية الأشمل، قال:

"فلما هجر الدينُ اللغاتِ الأعجمية، وكان لسان العرب القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هُجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تَبَعٌ للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهَجَر الأممُ لغاتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانَهم حتى تَرَسَّخَ ذلك لغةً في جميع أمصارهم ومدنهم، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيه وغريبة"(٧).

وعلى هذا النحو من الاستعمال التلقائي للفظة "الدخيل" في الموضع الموافق للمصطلح بمفهومه العلمي بدأت فكرته تترسخ وتشيع في الكتابة والبحوث اللغوية، حتى جرى بها العرف ولقيت من العلماء قبولاً، بل إقبالاً يشبه أن يكون اتفاقاً ضمنياً اصطلحوا عليه من غير نصّ صريح، وبالمقابل من غير دفع أو معارضة أو استنكار(٨) وتعمم هذا المصطلح بعد ذلك في تعابير حديثة من مثل "المصطلحات الدخيلة" و"العلوم الدخيلة" وما يشبه ذلك مما استعير من اللغات الأخرى.

ويلحظ في هذا الإطار أن القدماء قد ساووا بين "الدخيل" والأعجمي من غير تعريف مقيّد نصوا عليه فيهما، ولا تفريق مذكور بينهما، وإنما انطلقوا من النظر إلى مفهوم العجمة المناقض للإفصاح والبيان في

الدلالة اللغوية. وشيئاً فشيئاً تراجعت تسمية الأعجمي ليستخدموا بدلاً منها تسمية "المعرّب" الذي ما لبث أن استوى مصطلحاً، ولكنها لم يكن موضع اتفاق، أو إجماع، بل كان موضع خلاف بين العلماء قديماً وحديثاً، وعلى أوجه منها:

أ-النظر إليه من جهة الدلالة، فإذا كان الأصل اللغوي يتجه إلى الإبانة والإفصاح اتجه المصطلح إلى نقل اللفظ من العجمة إلى العربية على نحو مستساغ نطقاً وصوتية. والمشهور فيه "التعريب" وقد عبّر عن هذه الفكرة سيبويه في وقت مبكر حين سماه "إعراباً" استئناساً بأصل المعنى، وعليه يقال: معرّب ومُعْرَب(٩).

ب-النظر إليه من جهة الإجراء عند النقل إلى العربية، وقد لخص هذه الفكرة غير واحد من علمائنا، من ذلك قول الجوهري في "الصحاح": "تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول: عرّبته العرب وأعربته أيضاً"(١٠).

فعبارة "تتفوّه به على منهاجها" تقتضي مجموعة من الإجراءات هي التي فصّل فيها الخالفون ممن عرضوا الظاهرة الدخيل والمعرب.

ج-النظر إليه من جهة الزمن، فقد ذهب بعضهم إلى أن ما دخل العربية بعد عصر الاحتجاج يعدّ مولّداً أو دخيلاً، وما قبل ذلك يعد معرّباً. ويحدد عصر الاحتجاج غالباً بنهاية منتصف القرن الثاني الهجري (١٥٠هـ). وفي هذا اعتداد لا يخفى بالعرب الخلّص الذين يحتجّ بلغتهم في السلامة والصحة، وفي التعريب.

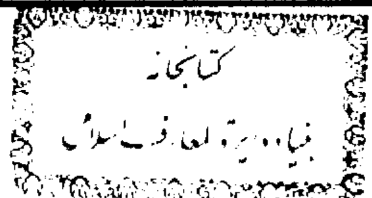
د- النظر إليه من جهة الوزن، أي "إذا جاءت لفظة أجنبية، وهذبت من حيث لفظها بحيث أشبهت الأبنية العربية القحة في ميزانها الصرفي، اعتبرت من المعرب. أما إذا بقيت على وزن غريب على اللغة العربية فهي من الدخيل"(١١).

وهذا الاشتراط في تعريف المعرّب لم يقل به القدماء صراحة، وإنما أشاروا إليه بصفته واحداً من الإجراءات العامة في التعريب. وبهذه الرؤية المتنوعة الموزعة بدا مصطلح المعرّب موضع خلاف. أما القول الأقرب إلى الصواب فيه فهو إن المعرب دخيل في الأصل وقبل كل شيء. وتعريب هذا الدخيل كان بأن يجري العرب عليه تعديلات تتفق وطبيعة العربية وتجعله ينقاد لخصائصها بالقدر الممكن: في أوزانه ومعانيه وأصواته، فتغيّرُه بالحذف والإضافة والإبدال والتصريف (التنوين) وإدخال (لام) التعريف عليه (للتمكين) وحتى يصير (محمولاً) على كلام العرب(١٢).

وثمة مظاهر أخرى للتعريب لم ينصّ عليها اللغويون بالتسمية والحد، ولكنها جاءت عرضاً في بعض كتب التراث، كقول أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي: "الزبرجد: إعراب زُمُرّد"(١٣). وقول الأصمعي:

"سكّر طبرزد، وطبرزل، وطبرزن ثلاث لغات مُعَرّبات"(١٤).

وتتضمن إشارة الفارابي إلى تعريب "الزبرجد" مفهومات: الصرف، والإبدال الصوتي، والتغيير في الحركات، والحذف. كما تشير فكرة الأصمعي بثلاث اللغات المعربات إلى التعريب عن طريق القلب الموضعي، والتغيير الصوتي- الفونيمي Phoneme ، والصرف بوضع الحركات العربية (الإعرابية) على أواخر الكلم.



وكان من معاني الإعراب عندهم ما يقابل مفهوم الترجمة عندنا اليوم كقول الأصمعي: "الخنْدَقُوق نبطي، ولا أدري كيف أعربه إلا أني أقول: (الذُرَق). قال: ولا يقال: (حِنْدقوق) ولا(حندقوقة)(١٥).

وهذا يعني وضع الأصيل العربي في مقابل الدخيل الأجنبي أو بدلاً منه (من وجهة نظر الأصمعي)، كما يعني عدم قبول الأصمعي، أو عدم استساغته لفظة حِندقوق (بكسر الحاء) لأنه وزن غير مألوف في الأبنية العربية، وكذلك لا يجوز (عند الأصمعي) أخذ مفردة منه بلفظ (حندقوقة) وقد يكون المراد أيضاً عدم قبوله أن يقال (حندقوقا) بألف التعريف الآرامية التي تلحق بأواخر الأسماء بدلاً من بدايتها في العربية.

ذلكم هو التعريب بمظاهره التي عرفها وعرض لها القدماء.

أما الدخيل فامرأة أقل إشكالاً وغموضاً، ويتلخص حدُّ مصطلحه في أنه "أعم من المعرّب، إذ يشمل ما نقل إلى لغة العرب، سواء جرت عليه أحكام التعريب أو لم تجر عليه، وسواء أكان في عصر الاستشهاد (الاحتجاج) أم بعده"(١٦).



وبعد، فما هي اللغات التي نعدّ ما تسرّب منها إلى العربية دخيلاً؟!

قبل الإجابة عن هذا التساؤل يحسن أن نشير في إيجاز إلى أن لغويينا القدماء لم يفرقوا بين مصطلحي "اللغة" و"اللهجة" كما يعرفهما علم اللغة حديثاً، إذ عبروا عن الاختلافات اللهجية بين القبائل بما درجوا على تسميته "اللغات"، وأخذاً بهذا التصور جاء عنوان كتاب "اللغات في القرآن" الآنف الذكر،(١٧) المنسوب إلى عبد الله بن عباس. وفي هذا الكتاب صُنّفت الظواهر اللهجية (وهي صوتية في الغالب) منسوبة إلى "لغات كالحميرية والحبشية والحورانية والنبطية ولغة طيّ وأهل اليمامة ولغة قريش ومذحج وجرهم وكنانة ولغة غسان.. إلخ.

ومن المتّفق عليه بين الباحثين المحدثين أن تلك "اللغات" التي ذكرنا تنحدر من أصل لغوي واحد هو الذي أطلق عليه عالم اللاهوت النمسوي الألماني شلوتسر A.I. SHLOESTER مصطلح "اللغات السامية"، وذلك عام ١٧٨١م، وتبعه في الأخذ بهذه التسمية ألماني آخر هو ايخهورن Eichhorn منذ عام ١٨٠٧م. ثم شاعت هذه التسمية غير الدقيقة (كما أقرّ مجموعة من الباحثين)(١٨).

وإذا كان من أخذوا بهذه التسمية قد ميزوا ما أسموه "اللغات السامية" من اللغات المجاورة، فإن لغويينا القدماء لم يلتفتوا إلى ذلك، بل سموا اللهجات العربية والمحلية واللغات المجاورة جميعاً لغات. وهذا أيضاً غير دقيق، لا بالمعايير العلمية، ولا من وجهة نظر علم اللغة المقارن Comparativ linguistic والذي نأخذ به وندعو إليه هو اعتماد التسمية الأقرب إلى الحقيقة وروح العلم، وهي "العربية القدمى"(١٩)، بدلاً من اللغات السامية أو اللغة السامية. وتكون اللغات "الأعجمية" أو اللغات "الأجنبية" تلك التي من أسرة أو أسر لغوية أخرى، كالفارسية والهندية والرومية والتركية واللغات الأوربية الحديثة وغيرها مما ندرسه بالقياس إلى العربية تحت مصطلح "علم اللغة التقابلي Contrastive linguistic . وما توقفنا القصير هذا إلاّ لإيضاح ما قد يعتور التسميات أو المصطلحات من غموض والتباس، وللإجابة عن تساؤل قد يدور في بال القارئ هو: هل نعد اللهجات العروبية المتفرعة من العربية القدمى أجنبية لنعدّ من ثم ما رشح إلى العربية منها دخيلاً أو في جملة الدخيل؟ والإجابة بداهة بالنفي للأسباب الآتية:

أ-لأن الكلمات التي تنسب عند التأصيل إلى الكنعانية والأوغاريتية والبابلية والأشورية والآرامية والحبشية وأشباهها وفروعها- تنحدر كلها من سلالة لغوية واحدة، أو من أسرة واحدة هي اللغة العربية القدمى. وأفراد الأسرة الواحدة أو الأصل الواحد ليسوا غرباء ولا دخلاء.

ب-لأن الدراسات اللغوية التحليلية والتاريخية والتأصيلية ليست بقادرة على إثبات انتماء الألفاظ التي هي موضع أخذ ورد إلى هذه اللهجة أو تلك من لهجات العربية القدمى، لأن التداخل اللهجي قديم لا تعرف طبيعته ولا أزمنته ولا قنواته، ولأن متكلمي تلك اللهجات كانوا في حالة انتقال وارتحال واختلاط على نحو غير منقطع وغير مرصود بضوابط موثوقة، لذلك يعدّ البحث في الفرز اللغوي هنا جهداً غير علمي خالص، بل سيكون عملاً مبنياً على التخمين والافتراض والاجتهاد.

ج-لأن جلّ الدخيل اللغوي في العربية- كما سيجيء- يعزى في منشئه وطبيعته إلى مسميات غير موجودة في الأرض العربية، وليست من مفرزات البيئة العربية ولا من طبع العرب ومجتمعاتهم، وعلى هذا سيكون ما دخل من لهجات العربية القدمى -لو تمت معرفته بحق- شيئاً مألوفاً تداوله الناس والألسنة ببعض اختلاف في النطق أو تنوع في المدلول، وهو أمر لم تخل منه العربية الفصيحة الباقية نفسها، أي أنه لا يسلك في معايير التأثير والتأثر بين اللغات والحضارات على النحو الذي نتطلع إلى رصد جانب منه. فَلِمَ إذن بذل الجهد والإمعان في التكلف والافتراض؟! ونخلص من هذا إلى القول: إن الدخيل اللغوي الحقيقي إلى العربية هو الذي أخذه العرب من لغات الأمم المجاورة لأطراف جزيرتهم كالفارسية واللاتينية واليونانية والهندية والتركية وأشباهها.

❖ ❖ ❖

ومما يجدر ذكره هنا أننا لسنا بصدد عمل إحصائي أو استقرائي تام لما أخذه العرب من اللغات المذكورة قبل قليل، فذلك أمر له ميدان آخر. أما الأمر الثاني فهو أن مسألة القطع بأمر الدخيل لا تخلو من جدل بين الباحثين اللغويين، إذ قد يرى بعضهم أن الألفاظ كذا وكذا عربية صريحة، ويراها آخرون دخيلة صريحة. فضلاً عن أن بعض باحثينا يبالغ فيصل إلى حدّ الزعم أن ألفاظ اللغات كلها عربية الأصل، وهو أمر دفعه وأنكره العلماء منذ القرن الثامن عشر، أو سلكوه في جملة اللهو والتوهم. وتفادياً لمثل تلك الاجتهادات والأحكام العاطفية القلقة نعتمد مبدأ الترجيح المعزز بما بين أيدينا من أقوال وأدلة ارتضاها الثقات من علمائنا الذين يُشْهَد لهم بمعرفة العربي الأصيل، وارتضاها الثقات ممن يُشهد لهم بمعرفة اللغات الأخرى من الباحثين المحدثين.

- ما أخذه العرب من الفرس:

وسنبدأ من القديم، ممّا وقفنا عليه من دخيل توزّعته مصادرنا اللغوية من شعر ونثر ومعجمات وأقوال. وفي القديم ، في العصر الجاهلي لم يكن العرب يتحفظون أو يتخوفون من أخذ ألفاظ أجنبية، أو يفكّرون بمقابيلها، ومع ذلك كان أخذهم قليلاً، لأن صلتهم بغيرهم كانت محدودة. ولعل الصلة الطويلة والقديمة بالفرس هي الأبرز والأدعى إلى اقتباس الألفاظ الفارسية قبل غيرها وأكثر من غيرها، فقد استمرت تلك الصلة ما يزيد على عشرة قرون، بل إن علاقات الجوار والحدود لم تنقطع أو تغلق، بصرف النظر عن طبيعتها السلمية أو الحربية أو التجارية.

ونقف قليلاً عند مثال واحد يفتح الباب لتسرب بعض الدخيل اللغوي الفارسي إلى العربية هو الشاعر الجاهلي الأعشى (ميمون بن قيس) الذي ولد في إقليم اليمامة حيث كانت قبائل بكر التي نشأ في أحضان أحد بطونها "بنو قيس بن ثعلبة". فالأعشى كان يتردد بين اليمامة والعراق، ونجدُ في شعره ذكراً لبلدتي "عانة" و"بابل" من العراق. كما نجد ذكراً للحيرة، عاصمة المناذرة القريبة من الكوفة. ونقرأ بيته في الخمر:

ولقد شربت الخمر ترقصُ حولنا تُرْكٌ وكابلْ

ولعلّه يقصد بالترك والكابل جواري أو راقصات ممن استُجلبن من بلاد الترك وأفغانستان التي عاصمتها الحالية "كابل" أو كابول"(٢٠) ويذكر في شعره الأديرة التي شرب قربها أو فيها، كما يذكر الرياحين والطيوب مما كان يستحضر في تلك المجالس، كما في قوله:

لنا جُلّسانٌ عندها وبنفسجٌ وسيسنبرٌ والمرزجوشُ منمنما

وآسٌ وخيريٌّ ومروٌ وسوسنٌ إذا كان هنزمنٌ ورحتُ مخشّما

وشاهسفرمٌ والياسمين ونرجسٌ يصبّحنا في كلّ دجنٍ تغيّما

فكم من الألفاظ الفارسية في هذه الأبيات الثلاثة وحدها؟

إن احتكاك الأعشى برهبان الأديرة، وبالجواري التركيات، ووقوفه على مسميات غريبة يعج بها مجلس خمر في بيئة فارسية مترفة(٢١)، ومشاهدته لألوان من الرياحين وأنواع من آلات الطرب التي لم يعرفها العرب.. كل ذلك يجعل من المحتّم عليه أن يقتبس المسميات ويضمّنها شعره، ولو من باب الهزل والاستطراف. وعلى هذه الصورة وشبيهاتها بدأ العرب يأخذون الدخيل الفارسي.

ونطيل هذه الوقفة عند الأعشى قليلاً فنقول: إن ما أدخله في شعره من الفارسية يمكن رصد معظمه في المسميات الآتية:

آس، إبريق، أرجوان، أرندج، إوان، باطية (وعاء للخمر)، بربط (آلة طرب)، بستان، بقّم، بنفسج، تامورة، جُلّسان، جون، خندق، خسرواني، خيم (الطبيعة والسجيّة)، دخارص (جميع دخرص: قطعة تزاد في الثوب)، دوسر (إحدى كتيبتي النعمان بن امرئ القيس، اسم نبات، الجمل الضخم، اسم قلعة جعبر المعروفة قرب الرقة بشمال سورية، اسم شاعر هو دوسر بن ذهيل القريعي، ومعناها: ذو الرأسين)، دهقان، ديابوذ (ثوب ينسج على نيرين أو ذو لحمتين)، ديسق (خوان من فضة)، راووق، زبرجد، زمهرير، زنبق، زير (وتر دقيق حاد الصوت)، سلجم (لفت)، سُنبك، سوسن، صنج وصناجة، طنبور، طرجهار، (شبه كأس يشربُ به)، طرجهارة (آلة مائية، فنجان. ويقال: طرجهالة)، مستقة (آلة طرب)، شيدارة (بساط منقش وثمين، بُرد يُشق ثم تلقيه المرأة على عنقها من غير كمين ولا جيب. قال:

إذا لبستْ شيدارةً ثمّ أبرقتْ بمعصمها والشمسُ لمّا ترجّلِ

مكوك (آلة تخص النساج والخياط، أو مكيال، مُلاب، مهارق، نمارق، ياسمين.. إضافة إلى ما جاء في الأبيات السابقة، وما صرفنا النظر عنه لغرابته)(٢٢).

ويُلحظ أن معظم هذه الألفاظ يتعلق بآلة العيش، وبمجالس الطرب والخمرة ولوازمهما من (الكماليات) المتممة للترفيه، إلى جانب ألفاظ تتعلق بالعمران، أو بما يُلبس، وكل ذلك مما لم تعرفه العرب على تلك الصورة، وكله من المسميات المادية الخالصة التي لا تخترق دائرتها كلمة واحدة تخلص للفكر أو للذهنية والتجريد.

ومما يشبه تلك المسميات أخذ العرب ألفاظاً فارسية تتصل بالثياب والألوان من مثل أرمغان: (نسيج حرير فاخر)، استبرق، جورب، جُمان، دخدار (ثوب)، ديباج، زركشة، سروال وسربال، صندل، جوخ، طيلسان، يلمق، أبْرَيْسَم، بَرْكان وبرنكان (ثوب أسود) تبّان، قرطف (لباس شبيه بالقباء، ذو طاق واحد)، خزّ، زرياب (ماء الذهب)، نرمق (من الثياب)، آذريون (زهر أصفر في وسطه خمل أسود، معناه: شبه النار...)...

كما أخذوا ألفاظاً تدور في فلك المعادن والأحجار الكريمة مثل: فولاذ، زئبق، سمبادج، دانق، خردق، بهرمان، أبريز، جوهر، اسبيداج، خنجر، أسرب، جلزار، آنك، ستّوق (درهم مزيف)، تنك، بوتقة، فيروز، توبال (ما يتساقط من الحديد أو النحاس عند طرقهما)، لازورد، توتياء..

ومن النباتات والرياحين والأشجار المثمرة وغير المثمرة أخذ العرب مسمّيات لم تكن معروفة في لغتهم مثل: نيلوفر، سبنديان، صنوبر، تفاح، أبلوج (نبات السكر، ويعني: السكرّ الأبيض) ترمس (للحَبّ، أما الترمس للوعاء المعروف حديثاً فمن اليونانية Ther mos)، مردقوش (الزعفران، أو نبات عطري، وعرّب أيضاً: مرزجوش ومرزنجوش)، ازدرخت، أي: الشجر الحرّ، من (أزاد: حرّ) و(درخت: شجر) ويَرِد في بعض الكتب بلفظ (زنزلخت)، نسرين، خربز (بطّيخ) ياسمين، باذنجان، خرّم، جرجير، خِلنج (شجر)، تنّوم، جزر، خيار، سرو، لوز، نَسْتَبويَه (نوع من البطيخ الشمّام)، زعرور، عرموط، جلّوز (بندق)، أيهقان (عشب يطول، وهو اسم الخردل البري)، جلّنار، راوند، جوز، زنبق، كُركُم، هليون، طرخون، أفيون...
وأخذوا من أسماء الحيوانات: سمند أو سمندر، بَبْر (الأسد الهندي)، سنجاب، فُرانق (جنس من السباع، وعرّب بلفظ برانق)، سنّور (الهرّ) جاموس، دلق (حيوان شبيه بالسنجاب).. ومن الطيور: كروان، سوذنيق وسوذانق (الصقر، أو شبيهه)، ببغاء، كُرّز (الباشق، والباشق أيضاً بالفارسية: باشه)، باز، شاهين، طيهوج، قَبْج (الحجل)...

وأخذوا من الأشربة والأطعمة: لوزينج، بختج (عصير مطبوخ مسكر)، باذق (أيضاً عصير مطبوخ)، جردق (الغليظ من الخبز)، جلاّب، شوربا، جلنجبين (معجون يعمل من الورد والعسل)، زلابية، رشته (طعام يصنع من العجين الملفوف المقطع...) شبارق، دوشاب (نبيذ التمر أوالدبس)، زماورد، بوظة، سكباج، بقلاوة، سنبوسك، بقسماط (وقيل إنها يونانية الأصل)، طباهجة (الكباب)، برغل، فالوذج، فانيد (نوع من الحلوى)، خُشكنان، كعك، وفيهما يقول الراجز:

يا حبذا الكعكُ بلحم مثرود   وخشكنانٌ وسَويقٌ مقنود

وسويق ومقنود بالفارسية، أما الخشكنان فدقيق الحنطة إذا عجن بشيرج (دهن السمسم) وبُسط وملئ

بالسكر واللوز أو الفستق وماء الورد وجمع وخبز..

أما ما يمكن سلكه في جملة الألفاظ العامة والإدارية والتنظيمية فقد أخذ العرب ألفاظاً ومسميات تتباعد وتتوزع في مجالات كثيرة، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

جَنْدار (حافظ الأمير أو الملك)، د سكرة، إسوار (الفارس الذي يحسن ركوب الخيل والرماية للسهام، واحد الأساورة)، ديوان، بارة، بلاس، زنديق، خوان، باركان، نموذج، رستاق، بندار، وبلدر، ديدبان، خندق، دربان، شادروان (حافظ الخيمة)، دهقان، بريد، بيمارستان، برنامج، خزندار (مركبة من الفارسية والعربية)، دستور (من الفهلوية Dast war بمعنى القاضي والحاكم وكبير الزراد شتيين. وتستعمل في الفارسية والتركية بمعنى القواعد الأساسية لعلم من العلوم أو صناعة من الصناعات. ومن معانيها: الإذن، عند الترك والعرب إذا دخل الرجال على النساء، أو همّوا بالدخول في مكان مظلم استئذاناً من الجن. وهي الدخيل المتأخر في العربية)(٢٣)، دَرْبَنْد (غلق الدكّان والباب، من (در: باب) ومن (بند: رباط) ومنه البند بمعنى الراية والشارة)، جُلاهق (جسم صغير كروي من طين أو رصاص يرمى به الطير)، بَرْوانة (مروحة السفينة، وحاجب الملك، سرادق، صهريج، طَسّوج (الناحية والمحافظة. جمع طساسيج.)، سرداب، دهليز، سردار، عسكر، سندان، صولجان، فرند، سباهي (رتبة عسكرية، تحوّل معناها إلى مالك القرية)، قيروان، سرسام، زرنيخ، ساباط، فهرس، كشك، ربان، دورق، ماخور، مرزبان (حارس الحدود)، جوسق، درفس، بهلوان، تاج، مهرجان، مومياء، بُنْدُكدار (من يحمل جراوة البندق خلف السلطان، صاحب البندقة)، أريكة وزرابي وطنافس... وأخذوا بعض مسميات الآلات الموسيقية والطرب ومصطلحاتهما، وبعض أسماء الخمرة وألقاب الشعراء كالفرزدق، والطغرائي، ودوسر..

- ما أخذه العرب عن الهنود:

إن ما عرفه العرب عن طريق الهنود من النبات والحيوان والسيوف والعقاقير والطيوب والأحجار الكريمة والمنسوجات القطنية أخذوا مسمياته منهم مباشرة بطريق المعاملات التجارية وتبادل السلع، أو أخذوه عن طريق الفرس الذين كانوا أحياناً شبه وسطاء بين العرب والهنود، كما كان العرب أحياناً وسطاء بين أوربة والشرق في جلب البضائع الهندية والصينية وإيصالها إلى الأوروبيين قبل أن يتاح لهؤلاء الاتصال المباشر بالشرق الأقصى في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي(٢٤)، ومن هنا يقع بعض الباحثين اللغويين في الوهم حين ينسبون بعض الألفاظ الهندية والفارسية إلى العربية، لأنهم عرفوها عن طريق العرب. وتنقل عن المسعودي فكرة حرص العرب على استعمال الألفاظ المحلية في مختلف المناطق التي ترددوا إليها، من ذلك قوله: "إنما نعبر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم".

ويقول، "إنما نعبر عن عبارة كل بحر وما يستعملونه في خطابهم(٢٥)" ومما يجدر ذكره هنا تعليق الدكتور محمد يوسف (من جامعة كراتشي) على كلام المسعودي بقوله:

"ويلاحظ في هذا الصدد أن العرب لم يأخذوا الكلمات الهندية من اللغة السنسكريتية الفصيحة، ولا هم اعتنوا بأشكالها الصحيحة في الكتابة، بل إنما [كذا] أخذوها من أفواه التجار وسكان المناطق الساحلية التي كانوا يترددون عليها، ولا يخفى أن تلك المناطق كانت ولا تزال تسودها لهجات متعددة بل لغات مستقلة"(٢٦).

ومن الألفاظ الهندية التي أخذها العرب:

الأُترُج (ويرد في الكتب العربية أيضاً بلفظ: أُترُنج وتُرُنج)، أرزّ (وبلفظ: آرز بالمدّ، رنز، رزّ)، أوج (الأصل: ارتفاع الشمس أو تشا)، أرجوان (بالسنسكريتية Ergewnn Argawnn، اشتيام (رئيس الركاب) اطريفل (معناها بالهندية: ثلاثة أخلاط هي: إهليلج، وبليلج، وأملج)(٢٧) ألنج (يلنج، النجوج، يلنجوج، وهو عود يتبخر به، بالسنسكريتية laghu)، أنبج (بالهندية Anbo والأنبجات هي المربيات أو المربّبات من الرُّب)، بقّم، بهار، تنبول، توتياء، جلفاط (قلفاط)، بنج، جونة العطارين (Goni)، خرص (للرمح)، خيزران، رانج (الجوز الهندي، بلغة بورما ong)، زنجبيل، ساسم (نوع من شجر الجبال)، سكر، سمهري، شطرنج، شنكل (معقاف، وقيل هو بالفارسية)، شيت (نوع من النسيج chites)، صندل، طاووس، طباشير (من: تبا بمعنى مثل، وشير بمعنى اللبن، أما تباشير الصباح فبالعربية)، طنّ، عاج، فانيد (نوع من الحلواء، وقيل إنه بالفارسية)، فلفل، فنجان، فوطة، فيل، قرفة، قرنفل (ويزعم بعضهم أنها يونانية بلفظ: خاريوفلون، لكنّ أصل منبته بالهند، والأرجح أن اليونانية أخذته عن الهندية بطريق ما)، قماري (عود يتبخر به)، قنا (للرماح)، قند (لقصب السكر)، كافور (أصله بالسنسكريتية Karpura وبالهندية والفارسية Capoor، وبالفرنسية Camphora واشتق منه فيها الفعل Camphorer بمعنى دهن بالكافور وذلك حوالي عام ١٧٥١م (دائرة المعارف الفرنسية) وفي العصر الحديث أطلق على زيت الكافور اسم Campol(٢٧)، كركدن، كرنده (الرَّنْد)، ليمون، مسك، المندلي (عود طيب الرائحة Mandal)، الناردين (السنبل الهندي)، نارنج (ويقال في دمشق: لارنج)، النمط (بالهندية Namata)، النارجيلة، النيلج، هيل أوهال، ورس، وشيج (نوع من الشجر، والوشيج ينبتُ الخطيّ- ومنه الرماح الخطية.

وجاء في لسان العرب: وقيل: "الخطّ مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح.. وليست الخطّ بمنبت للرماح، ولكنها مرفأ السفن التي تحمل القنا من الهند" وقال: "وليس الخطيّ الذي هو الرماح من نبات أرض العرب، وقد كثر مجيئه في أشعارها، قال الشاعر في نباته:

وهل يُنبتُ الخطّيّ إلا وشيجُهُ ... وتُغرَسُ إلا في منابتها النخلُ؟"

واعتماداً على هذا القول رأى الدكتور محمد يوسف أن الوشيج في الأصل كلمة هندية من Vansho فتأمّل(٢٨).

ووضع العرب ألفاظاً أملتها صلتهم بالهند كقولهم: هندة، هنيدة، هندواني..

ما أخذه العرب عن اليونان:

تعود صلة العرب باليونان، أو بالروم البيزنطيين إلى ما قبل الميلاد بنحو نصف قرن حين احتل الروم مصر وسورية وفلسطين وقسماً من العراق. ذلك الاحتلال الذي استمر حتى الفتح العربي الإسلامي وقد انتشرت اليونانية إبان هذا التاريخ في حواضر مثل الاسكندرية واللاذقية وانطاكية وآفاميا (قرب حماه) وصور ودمشق والقدس. وكان انتشارها واضحاً في المجالين الديني والفلسفي، وفي مرحلة لاحقة تقوّى وجود اليونانية في بلاد الشام بوجه خاص بعد دخول أمراء الغساسنة من آل جفنة في المسيحية. وعلى أساس من هذا التصور سيعتقد المرء أن ألفاظاً يونانية كثيرة قد دخلت العربية في ظل هذه المعطيات، لكن الحقيقة

لم تكن كذلك، فالمأخوذ عن اليونانية لا يكاد يذكر بالقياس إلى ما أخذ عن الفارسية مثلاً.

وقد كان لتسرب الدخيل اليوناني إلى العربية مسلكان، أو قناتان هما: إمّا اليونانية مباشرة، أو عن طريق السريان الذين كانوا أكثر صلة روحية وسياسية باليونان، وأقدم وأوسع من علاقات العرب قبل الفتح العربي(٢٩). وقد يكون ذلك الدخيل اليوناني موروثاً لغوياً تناقله السكان بعد هجرهم الحديث باليونانية في مصر وبلاد الشام إثرَ شيوع العربية.(٣٠).

ومعظم ما أخذ عن اليونانية يدور حول الأمور المادية والإدارية والدينية، وبعضه يعبّر عن الحياة البحرية والعلوم الطبيعية والعقلية. ومن أشهره.

إبليس، ابنوس، إنجيل (وينسب بعضهم الأبنوس إلى الهندية الصينية)(٣١) أخطبوط Oktopodion أي: ذو ثماني أرجل؟!) أبو قلمون (طائر)، أثير (مادة منتشرة في الفضاء، هواء على طبقات الجو Ethir)، إزميل، إسطار (نقد من ذهب)، اسطول، اسطقس (العنصر)، أسطورة (ومنها في الانكليزية History وبالفرنسية Histoire بمعنى التاريخ)، اسطنبول (واستانبول، ومعناها في الأصل: إلى المدينة)، إفريز، إقليد، إقليم، اسفنج، إكسير، أنجر السفينة (المرساة)، برنس، بقدونس (ومقدونس، نسبة إلى مقدونية)، برقوق، بلغم (وأصلها: ملغم)، بوق (المزمار النحاسي المعروف، أصل بوكينا Buccina وهو عند الرومان البوق العسكري، من بوكا Bucca ومعناها الفم الذي ينفخ البوق، ومن هذه الكلمة الأخيرة جاء في العامية المصرية: بق، بالضم، أي الفم)(٣٢)، بطاقة، بيطار، ترياق، كوبري، درهم (دراخمة اليوم)، دكان، ديماس، دمقس، رفاس (Rpns حبل للربط)، زبرجد، زنار، سندس، طاجن، سيمياء، طريخ (سمك صغار تعالج بالملح) طلسق (محرفة عن طلقس)، طلّسم، فانوس، فنار، فندق، قارب، قانون، قربوس (قسم من السرج)، قرطاس، قنبيط، قصدير، قفة، قلم، قمقم، قنب، قنينة، كتّان، كركي، كوب، كورة (Khqarn ومنها جاء اسم الخوري)، كيمياء، لغم، لقالق، مرهم، ملوخية، ناموس، نقرس، نوتي، هيولى، يانسون (وصحيحها أنيسون Aneeson)، أبرشية، ارثذكس، أرخبيل، ارستقراطية، آزوت، اسطرلاب، اسفنط (أجود الخمر)، اسقف، أطلس، اقريدس (سمك صغير)، الماس Adhamas)، أقيانوس، بلاّن (حمام)، جاثليق، تيفوس وتيفوئيد، جريال (لون توصف به الخمرة، جغرافية، خريطة، دلفين، زخرف، سفسطة، سلمون (سمك)، طغمة، فردوس، فسيفساء، فلسفة، فلين، قراسيا، قنداق (مديح وجيز لقديس..)، قندلفت، قونس، قيراط، كوليرا، كيلوس، لوبياء، هندباء، مسطار (خمر)، مصطكى (علك)، موسيقى، ناووس، هرطقة، ياقوت، فار قليط أوبار قليط (الروح القدس)، بطرك وبطريرك (رئيس ديني مسيحي)، بطريق (الرئيس والعظيم من الروم)، دينار، زيزفون، قولنج، كيموس، منخوليا، أنبيق، أيقونة، خندريس..

-ما أخذه العرب عن اللاتينية:

لم يكن العرب القدماء يفرقون بين اليونانية واللاتينية لغوياً، بل كان ما ينسب إلى هاتين اللغتين يدرج تحت اسم الرومية. ولن نعرض بالتفصيل لمسالك دخول الألفاظ اللاتينية إلى العربية أو أزمنتها، ولكن نشير في اختصار إلى أن الاحتكاك بين اللغتين بدأ قديماً في بلاد الشام خاصة، واستمر عن طريق المتاجرة، والنشاط الديني المسيحي، ثم أيام الحروب الصليبية، وبلغ ذروته في الصلات السياسية والثقافية عن طريق الأندلس وصقلية وبالرمو وغيرها من المرافئ والثغور. وبعض الدخيل اللاتيني وصلنا متأخراً عن طريق اللغات الأوربية وريثة اللاتينية.

وأشهر ما أخذته العربية عن اللاتينية في مختلف المراحل:

الاصطبل (مربط الدواب، بلفظ Stabulum)، إلياء أو إيلياء (بيت المقدس، وقد أطلق عليها هذه التسمية القيصر هدريان عام ١٣٥م بلفظ aclia capitolia)، بندق (نسبة إلى مملكة البونت Pont ولفظه Nux pontica، وفي بعض المصادر Bonduc)(٣٣)، امبراطور، بابا، أطربون (ضابط أعلى درجة من القومس عند الرومان Tribunus، والقومس يوازي رتبة الأمير)، بُرْجُد (ثوب غليظ مخطط Paraganda)، بركان Vulcanus، ابن جوبيتر، سيد آلهة الرومان القدماء. كان فلكانس يهيء لأبيه الصواعق)(٣٤)، بلاط (بمعنى القصر من Palatium، قصر القياصرة الرومان المبني على تل بلاتيوم من تلال رومية)(٣٥)، رساطون (شراب من خمر وعسل Rosatum، أو شراب مطيب بالورد)، سجلّ (بمعنى الختم Sigillum)، سجلاّط وسجلاّطس (ثياب كتان موشية)، سجنجل (صفيحة فضة مصقولة كانت تستعمل كالمرآة، أو المرآة ذات الزوايا الست Sex Angulus)(٣٦)، سراط وصراط من Strata فرن، قبّان وقفّان (قال الأصمعي وغيره: العرب يقولون: قفّان لأنهم ليست في كلامهم با(يعني p) عجمية فأعربوه، وهو مستقصي معرفة الشيء يعمل به الإنسان. ومنه حديث عمر حين قال له حذيفة: إنك تستعين بالرجلِ الذي فيه. فقال عمر: أستعمله لأستعين بقوّته ثم أكون على قفّانه. وقال ابن الأعرابي: القفان: الأمين، وهو معرب أصله قبّان. وقال أبو عبيدة: هو الرئيس الذي يتبع أمر الرجل ويحاسبه، ولهذا سمي الميزان قباناً، (٣٧) والقبان عند اللاتين: ميزان لأشياء ثقيلة، بلفظ Campana)، قرصان، قميص، قنديل، قنطار، قيصر، منديل، ميل (مقياس لطول مسافة، مقتضبة من Mill passum)، قنصل..

-ما أخذه العرب بعد العصر العباسي:

ونعني بهذه المرحلة وما تلاها أن نتتبع بشيء من العرض السريع تسرّب الدخيل اللغوي إلى العربية مع سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، ودخول السلاطين المماليك مقرّ الخلافة والمنطقة العربية.

فمنذ زمن المماليك (٦٤٨-١٢٣هـ) بدأ العرب يأخذون ألفاظاً وتعابير جديدة يضيفونها إلى ما كان أخذه أسلافهم من اللغات الأخرى. وهذا الجديد من الدخيل راح يحتل مكانه تدريجياً في المعاجم والمصنفات العلمية والكتب الموسوعية التي شاعت بوضوح في هذه المرحلة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى أن اللغة الرسمية للمماليك كانت العربية، أما الدخيل اللغوي على ألسنتهم فكان مزيجاً من التركي والفارسي، مع بعض الألفاظ القفقاسية التي انتقلت إليهم عن طريق الشركس. ولمزيد من الإيضاح نشير إلى بعض المؤلفات التي يمكن أن نقف فيها على أمثلة وشواهد لما أخذه العرب من دخيل في هذا الإطار، فمن ذلك: كتاب "عيون التواريخ" لابن شاكر الكتبي(ت ٧٦٤)، و" المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ملك حماه (ت٧٢٢هـ)، "ونهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري (ت٧٢٢هـ)، "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٢هـ)، وكتاب "العبر في خبر من غبَر" لشمس الدين الذهبي (تـ ٧٤٨هـ)، وكتب سراج الدين بن الوردي (تـ ٧٤٩هـ) و"البداية والنهاية" لابن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) و"تحفة النظّار في غرائب الأمصار" لابن بطوطة (تـ ٧٧٩هـ) وكتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر" لابن خلدون (تـ٨٠٨هـ)، و"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي (تـ ٨٣١هـ)، و"السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي (ت٨٤٥هـ)، و"النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي (تـ ٨٧٤هـ)، ومؤلفات ابن قيّم الجوزية،

والسخاوي، والسيوطي، وابن طولون الدمشقي، والجبرتي.. وغيرهم كثير.

ومن الصعب تقييد زمن دخول هذه الألفاظ وتداولها، أو التثبت القطعي من أنها وليدة هذه المرحلة إلا باستقراء النصوص السابقة.. في أناة وتفحص، وأنى لنا ذاك في مثل هذه العجالة، لذلك فنحن نعتمد هنا على مبدأ التغليب والترجيح معياراً عاماً لرسم ملامح التطور، وللوقوف على خطوطه العريضة على مدى تاريخ العربية الطويل.

ومن أشهر تلك الألفاظ التي أخذتها العربية:

الأتابك، أو الأطابك (الوالد أو الأمير باللغة التركية) (٣٨) مركبة من (أتا): أي الأب أو الشيخ المحترم لكبر سنه، ومن (بك): الأمير. ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب: أتابك العسكر، وقد تأتي بمعنى الجيش، أرسلان (الأسد باللغة التركية)، أرناؤوط (الألباني الجنسية، ولم يستعمل قديماً لفظ الألبان، بل الأرناؤوط، الأستدار (لقب مملوكي يطلق على القائم على الشؤون الخاصة للسلطان، والاستدارية وظيفة موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ، والشراب خانه، والحاشية والغلمان)، والإستدار (بكسر الهمزة: لقب يطلق على من يتولى قبض المال وصرفه، وتمثيل أوامر السلطان فيه، وهو مركب من لفظتين فارسيتين: إستَذ، ومعناه الأخذ، ودار: ومعناه الممسك، و(دار) لاحقة تعني المختص بالشيء أو صاحبه أو من يتولى أمره)، الأسفهلار (وظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند، وإلى صاحبها يرجع أمر الأجناد، واللفظة أعجمية تعريبها: قائد جيوش)(٣٩)، الأسكلة (ولها معنيان: ١-الأخشاب التي يقف عليها البناؤون (سقالة) ٢-رصيف الميناء البحري، ثم أطلقت على الميناء، وأصلها من اللغة الإيطالية بلفظ Scala دخلت التركية أسكلة)، أصبهند (كلمة تطلق على النائب، والأصبهانية: فرقة من الجنود المأجورين في الجيش العثماني، تقابل المرتزقة في عصرنا)، الآغا (كلمة تركية تعني الأخ الكبير، وتطلق على صغار الضباط، وأحياناً على كبارهم، وتأتي بمعنى السيد، والآمر، ورئيس الخدم، والمَلاّك الكبير)، الألاجة (لفظ تركي يعني الشيء الملوّن بألوان كثيرة، كغطاء الطاولة والسرير)، الألداش أو الألضاش (لفظ تركي أصله: يولداش، يتألف من (يول) بمعنى طريق، و(داش) وهي أداة المشاركة، واليولداش هو الرفيق في الطريق، كما تطلق على الرفاق في الحزب الواحد)، آخور (اصطبل الخيول)، جاندار (الأمير الممسك للروح بالفارسية، أي الحافظ للسلطان فلا يأذن بالدخول عليه إلا لمن يثق به، من "جان" بمعنى الروح بالفارسية، و"دار" لاحقة للاختصاص بالشيء)، الأوشاقي (الذي يتولى أمور الخيل للسلطان)، الانكشارية (كلمة تركية تعني: العسكر الجديد، وهو جيش من المشاة أنشئ في عهد السلطان أورخان العثماني)، الأورطة (لفظ تركي أصله أورته بمعنى الطابور، أي فئة من الجند)، أوطاق (تركية بمعنى خيمة فخمة)، أولاق (اصطلاح عثماني بمعنى الرسول)، أيبك (لفظ تركي مركب من "أي" بمعنى القمر و"بك" بمعنى الأمير، وهو اسم لشخص تولى مرتبة أتابك العسكر، أي أمير الجند زمن شجرة الدرّ أو "شَجَر الدرّ"، وهو الملك المعزّ عزّ الدين أيبك الجا شنكير)، البازدار (حامل الباز أو أي من الطيور الجارحة المعدة للصيد على يده)، باشا، البايزة (لفظ موغولي معناه: لوح صغير من ذهب مرسوم على أحد وجهيه رأس سبع، كالوسام في عصرنا، وكان يمنح لكبار رجال الدولة الموغولية)، البركيل (مرتاد البحار من التبحار والمغامرين، والبراكلية ضرب من السفن)، البزرجانية أو البزركانية، من البازركان: التاجر بالفارسية، انتقلت إلى التركية، ثم صارت لقباً لليهود بدلاً من لقبي آغا وأفندي)، بصم، من التركية (باصماق) أن يطأ الرجل بقدمه، وكذلك أن يضغط أو يطبع الأوراق المبصومة،

أي الأوراق المطبوعة بالختم، ومنها عبارة "أخذ البصمات") البغاز أو البوغاز (من التركي، مصدره بوغمق، أي يخنق، ويطلق على الحلقوم، وهو بمعنى المضيق، مثل بوغاز جبل طارق وبوغاز البوسفور)، البقشيش (من الفارسية "بخشيش" أي العطية أو الهدية للعامل أو الخادم أو النادل، فوق أجره)، البنديرة (في الطليانية والإسبانية والتركية ومعناها: الراية الأجنبية)، البودقة (المذيب، وعاء لإذابة المعادن توقد تحته نار حامية، وجوزة الغليون التي يوضع فيها التبغ)، البيرق (تركية: بايراق، بيراق، بمعنى العلم أو الراية، والبيرقدار: حامل البيرق)، البكباشي (تركية من: بيك وباشا، رئيس الألف، وهي رتبة عسكرية عثمانية استعملت في الجيوش العربية، كما استعملت اليوزباشي) التخت والتختروان، الترسخانة (دار الصناعة، لفظ تركي ذهب إلى بعض اللغات الأجنبية، ثم عاد إلى التركية والعربية بلفظ الترسانة)، التفتا (نوع من القماش المعروف، وأجوده الهندي، تصنع منه بعض الثياب كالشال والقلنسوة)، من التومان أو الطومان (الفرقة من الجند التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل، الجاشنكير (الذي يتصدى لتذوّق المأكول والمشروب قبل السلطات أو الأمير خوفاً من أن يدس عليه فيه سمّ، واللفظ من كلمتين فارسيتين: جاشا، ومعناها الذوق، وكير: المتعاطي)، الجامكية، الجبخانة، الجاندارية، جاوش، جلاهق، الجلبي أو شلبي (لقب كان شائعاً بين الأتراك العثمانيين ذوي النبل والفضل، واستعمل أيضاً بمعنى سيّد، وبمعنى خواجة عند الأتراك)، الجمقدار، الجمدار، الجنبازية (جمباز)، الجوامك (جمع جامكية، مرتب خدم الدولة في العساكر والموظفين)، الجوخدار، الخازوق، الخاصكية، الخانقاه (كلمة فارسية تعني محلاً للتعبّد والتزهد والبعد عن الناس، وبمعنى بيت كذلك، دخلت هذه الكلمة اللغة العربية منذ انتشر التصوف فهي كالدير في النصرانية)، الخزندار، الخشداش (الزميل في الخدمة) الخواجا، الخيش (نوع من الكتان) الدبوس (بالفارسية Topouz)، دفتر دار، الدمغة (من التركية تمغا وطامغة)، الدويدار أو الداوادار (صاحب الدواة، وكان يسمى قديماً: الحاجب.. وكانت الدوادارية في دولة المماليك وظيفة صغيرة، يقول ابن تغري بردي "وأما الدوادارية فكانت وظيفة سافلة.. ولكن هذه الوظيفة عظمت في منتصف القرن الرابع عشر.. وقد عرف هذا المنصب في الدولة العثمانية...)(٤٠) الرنك (الشعار)، سالار (الأمر الأعلى أو الرئيس، وهو اسم أمير من المماليك قتله المنصور محمد بن قلاوون)، السُّفتجة (بضم السين وفتحها، فارسي معرب، كتاب من صاحب المال لوكيله أن يدفع مالاً قرضاً ليأمن به من خطر الطريق)، السنجق (بمعنى العلم والراية، والرمح، واللواء)، السنجقدار، الشوشرة (أصلها: شاشرمالك، بمعنى تحيّر واضطراب، أي الفوضى في البلاد أو في المجلس)، صاية (زيّ من الجوخ)، الطابور، الطارمة (بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان، لفظة فارسية الأصل)، الطبخانة (طوب خانة: دار لصناعة المدافع)، الطبنجة، الطرخان (المحال على المعاش)، الططري= التتري (ساعي البريد في الدولة العثمانية، لأن التتر كانوا يؤدون هذا العمل)، الطغراء (ختم السلطان، والطغرائي: حامل أختام السلطان)، القاووق والقاوقجية (صناع القلانس)، القرمة (نوع من الخط، ومنه القارمة بمعنى اللافتة في لغة العامة ببلاد الشام، قشلة (معسكر)، القلبق، القلندرية (المحلّقون)، القناق (المنزل)، القندلجي، القيسارية، الكتخدا (صاحب البيت أو السيد الموقر)، الكرستة، المطرجي أو المطهرجي (من الكلمة العربية مطهرة، أي إبريق أو ما يشبه ليحفظ به الماء للوضوء، دخلت التركية في صيغة مطرة، أي وعاء للماء من جلد أو صفيح، و"جي" لمصدر النسبة، والمطرجي هو سقّاء القافلة)، النشان أو النيشان (فارسية، دخلت التركية، وهي العلامة التي تنصب للتدريب على الرماية، وتطلق على الشارة والشعار الذي يوضع على صدور المحاربين والمتفوقين، أو على الأماكن التي تتبعهم)، الوجاق (تركية من أوجاق، وللكلمة عدة معان(٤١): كل ما تنفخ وتشعل فيه النار من طين أو قرميد، ثم أطلق على الجماعة التي يلتقي أفرادها في مكان واحد،

وعلى أصحاب الحرف وعلى الصنف من الجند كالسباهية)، يازجي (بالتركية كاتب)، اليسق (تعني القانون في المغولية، والمنع في التركية، ومنها اليسقي واليسقجي وهو القوّاس الذي يحرس القناصل والسفراء ويحميهم، واليسق أيضاً الحرس والسجن الحربي للأسرى والمساجين)، اليَلَك (جمع يلكات، وهو لباس بلا أكمام يلبس على الصدر ليدفع عنه الهواء، ويقابل الصدرية أو الصدار)، الأسطى، الأفندي، الإكديش (الفرس الهجين، في الفارسية أكدش "بفتح الهمزة وكسرها" دخلت التركية بلفظ: إيكديش)، الأوية (غطاء للرأس والزينة)، البابوج، البرمة، البقجة، البازار، الجاليش أو الشاليش، الجدك، الخردة، الداقم (الطاقم)، درابزين، الرهوان، الروشن (فارسية الأصل: الفتحة أو النافذة، بالعامية: الروزنة)، القايق (تركية: القارب الصغير)، القزمة، سجقدار، بشمقدار، الاي (فرقة عسكرية) القلق (دار الحراسة، أو مكان إقامة الحرس أو الشرطة)، القيطون، اوردو (جيش)، سراي، خرطوش، سنجق..

-أما ما دخل العربية بعد هذه المرحلة وصولاً إلى العصر الحديث فقد ازداد تبعاً لازدياد الصلة بمتكلمي اللغات غير العربية، وتنوّع تبعاً لتنوع طبائع المجتمعات والاهتمامات والمعارف والممتلكات. ومن العسير في تلك الأحوال المضطربة ضبط مسارب الدخيل، أو تحديد زمن دخوله، أو حصره وتصنيفه وفق اللغات التي جاء منها. لأن مثل هذه الدراسات المتأنية والمعرفية كانت نادرة، إن لم نقل غائبة.

إن اتساع النشاط التجاري، والتبشير الديني، والأطماع الاستعمارية كانت مظاهر حيوية في زيادة التفاعل البشري واللغوي، وكانت سبيلاً للاحتكاك باللغات الأوربية إلى جانب اللغات الشرقية، مما فتح الباب واسعاً للدخيل الإيطالي والإسباني والفرنسي والانكليزي؛ إلى جانب الدخيل السابق الذي عرضنا له.

وعلى سبيل التمثيل لا التصنيف أو الإحصاء نسوق هنا نماذج منه بكثير من الاختصار، فمن ذلك:

فرحان، شاكوش، اسبانخ، أطلس، امبريالية، أنبوب، صابون، مدام، مغناطيس، برنُس، بكلة (مشبك بالتركية) بندقية، جلت، بكرة (تركية، آلة لرفع الثقل)، بروتوكول، سيناريو، اوبرا، موسيقى، دبلوماسية، التلفزة، ميكروب، شيك (صك)، جيولوجية، فلور، بنسلين، هستيريا، خصوصية، براغماتية، راديكالية، كلاسيكية، واط، فولط، بوليصة، فاشية، نازية، إلكترون، ديلمو، تنّ، تمباك، ميكانيك، ترمومتر، فوسفور، برنيطة، بندورة، روزنامه، طلمبة (إيطالية Trombа، مضخة مياه) غليون، فرتونة (عاصفة، بحرية غالباً)، ألمنيوم، كرباج، كالسيوم، كشكبان (القشقوال= جبن) هنكار، وطاق، سكرتير، بوليس، بوسطة، كمبيالة فاتورة، بورصة، أيقونة، جبخانة، بترول، بامياء، برميل، بطاطا، سيجارة، تراخوما، بهلوان، جنرال، تدشين، دراّقن، دلفين، ديناميت، رواق، ريال، زنبق، زرنيخ، ساذج، سردين، برتقال، سرطان، سفسطة، سيكولوجية، سينما، سمفونية، شاي، شدياق، صهريج، طازج، طربوش، طرخون، طرطور، طنجرة، عندليب، غاز (هولندية)، غرام (في الوزن)، فانوس، فنار، فستان (ألبانية؟)، فقمة، فلسفة، فلّين، فندق، قاموس، قرصان، قصدير، بابوج، قنبلة، قنطرة، كربون، كردينال، قلقاس، كمنجة، كوليرا، كيلو، لجنة، مازوت، مركيز، مرهم، مطران، مليار، نبريج (نربيج) نرد، نشادر، هاون، هندام، هندباء، يود...

– ما أخذه العرب من أسماء الأعلام الأجنبية:

وعلى مدى العصور وطول الصلات بالأمم استملح العرب بعض أسماء الأعلام لأبنائهم وبناتهم ومواليهم وجواريهم، فلهجوا بتلك الأسماء وتسموا، تيمناً وتديناً، أو إعجاباً بصوتيتها أو بصيغها ووقعها، أو

إظهاراً للتحضر والتظرّف وسعة الثقافة(٤٢) ومع الزمن صارت جزءاً من تراثهم المكتوب والمحفوظ. وغني عن القول إن العرب لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذا الأخذ لغنى لغتهم وتنوّع صيغها ومشتقاتها، ولكن، ليس للعدوى ضوابط، ولا للذوق والتأثر معايير أو قوانين لغوية، يأخذ القوم أنفسهم بها، أو تراعى.. وهكذا دخل العربية أسماء أعلام أخذت طريقها إلى كتب التراث والمعاجم ورموز الإبداع الأدبي، وصارت مألوفة في الذاكرة العربية، من مثل ذلك:

نسرين، بيبرس، خوند، فيروز، ياسمين، طوغان، كروان، آسيا، أباظة، نوزاد، ميرزا، إدوار، أدمون، بخيتان، أسمهان، بندقجي، يزبك، يكن، ياقوت، أرسلان، يارا، وليم، أرناؤوط، هيلين، هنري، اسكندر، ألفرد، أليس، هرمزه، نيسان، نيروز، أنطون، أيدا، إيفا، نيازي، نورس، نهاوند، إيليا، برويز، برلنت، ميليا، دانا، نقولا، ناريمان، نرمين، بستنجي، نرجس، نازك، بطرس، بندر، ليليان، بهزاد، بهلوان، مكسيم، مهران، لويس، تيمور، جادو، جاك، لانا، بيطار، تادرس، تيريزا، كلش، تومان، كنج، لورنس، لونا، جاويد، جان، فريال، كاميليا، فلفل، جلنار، جوخدار، فينوس، جمدار، جمشيد، فيولا، قبطان، قره (الأسمر في التركية، ومنه قره علي، وقره حسن.. وكرامانلس، رئيس وزراء اليونان مرة)، جنكيز، قزق، قسطنطين، جهان، قيصر، كاترين، طرخان، طوني، غاندي، فانوس، شلبي، جوانا، جورج، فردوس، جوليا، خزندار، خاشقجي (صانع الملاعق أو بائعها. تركية)، طوسون، شوربجي، صوفيا، خان، داغستان، شيرين، خديوي، شويكار، خربوطلي، دارا، دادا، خواجه، شيراز، خورشيد، صابوني، شهناز، شنودة، درباس، دركزلي، شهرزاد، درهم، درويش، سركيس، سيرين، سمكري، داليدا، سيمون، دمرداش، دروزة، سنجر، شهبندر، سُهراب، ديمتري، سهردار، سوزان، دينار، سوسن، سونة، زنكي، سباهي، سابا، رستم، سالار، روز، زاده، زرلي، سامان، سهردار، بكداش، بكيزة، طوقان، رامان، سنقر، صونيا، شبلاق، شاهيناز، فيليب، مرقص، ليزا، لوريس، نظلة، نيفين، هيلانة، هويدا، ميرفت (من العربية أصلاً: مروة)، هزار، رونق..

- ما أخذه العرب من التعابير والمصطلحات الحديثة:

لم تقتصر ظاهرة التأثر اللغوي على أخذ الألفاظ والمسميات المفردة وحدها، بل اتسع التأثر فطال الأساليب والمصطلحات، وتجلّي ذلك على وجهين: في أساليب الترجمة المتأثرة بصياغات اللغات الأخرى. وفي أساليب الأخذ المباشر نقلاً حرفياً، أو تعريباً يتم بطرائق من التعديل الصوتي أو الصرفي كما أشرنا في المقدمة. ونكرر ما سبق قوله من أننا نسوق أمثلة على سبيل التمثيل لا الحصر أو الإحصاء. فمن ذلك بعض التعابير التي نصادفها في الحوارات والمقابلات الإعلامية، وفي الدوريات والصحف اليومية العربية، كقول القائل: أهلاً بكم إلى هذه الحلقة أو إلى هذا اللقاء.. فهذا التعبير ترجمة متأثرة بالمقابل الانكليزي Well come to، والعرب تقول: أهلاً بكم، أو نرحب بكم في.. ومثل هذا سؤال السائل لمخاطبه: ماذا عن نشاطكم الفني أو الثقافي؟ وهذا أيضاً من أثر الترجمة عن الانكليزية للتعبير؟ What about. ومن مثل ذلك صوغ الفعل المجهول من المصدر وفعل الصيرورة على نحو ما في اللغات الأجنبية كقولهم: "صارت كتابته" و"جرى بحثه" و"تمت مناقشته" بدلاً من: كُتب، بُحث، نوقش.. أو كقولهم: "تمت كتابته بمعرفة فلان"، أو "تمت كتابته من قبل فلان"، بدلاً من قولنا: فلان كتب الكتاب، أو بدلاً من الأخذ بنظام الجملة العربية التقليدي: كتب فلان الكتاب(٤٣) ومن أمثلة هذه الاستعمالات الوافدة إلى العربية بترجمة حَرْفية واضحة قولهم: يلعب دوراً في كذا.. وهذا ترجمة لاستعمال لغوي أوربي هو في الفرنسية Il joue son role، وفي الإنكليزية: He plys his

وقولهم ذر الرماد في العيون هو في الفرنسية، Il jette de la poudre aux yeux، وفي الانكليزية To part throw dust in the eye، وقولهم لمن يشرع في المخاطرة: هو يلعب بالنار، ترجمة للعبارة الفرنسية IL joue avec le feu، وللعبارة الانكليزية To ply with fire. ويقولون في التوكيد أو المدح: بكل معنى الكلمة، وهذا في الفرنسية: Dans tous le sens du mot، وفي الانكليزية In the full sens ومن مثل ذلك قولهم: أكد على كذا، مقابل العبارة الفرنسية Il A insisté sur ولا تعرف العربية تعدية الفعل "أكد" بعلى، إنما يتعدى بنفسه، فتقول: أكد الشيء ووكده، و(على) هنا جاءت ترجمة حرفية لـ (Sur) التي تعني: على، فوق.. وقل مثل ذلك في عبارات أخرى نحو: ابتسامة صفراء، الأكثرية الساحقة، وضع النقاط على الحروف، ضرب الرقم القياسي، ألقى نظرة سريعة، يعلق أهمية خاصة على كذا، عاصفة من التصفيق، يتبنى المشروع، لا جديد تحت الشمس، ألوان صارخة(٤٤) ومن مظاهر التأثر بالأساليب الأجنبية الحديثة عبارات أو مصطلحات صارت ثوابت ولوازم في مجالات التخصص، أو صارت عبارات مؤطرة جاهزة كأنها متكآت لفظية لا معدى عنها، نحو قولهم:

فتح اعتماد، مسك الدفاتر، تسديد الحساب، التضخم المالي، رصيد قابل للسحب، دفتر شيكات، اللامعقول، اللاشعور، اللانهائي، المالا يعرف، أوضحت الوكالة، طوق العزلة، تغطية المؤتمر، عسكرة الفضاء، سباق التسلح، جمال صارخ، دعاية سوداء... ويشبه هذا أن يكون تتميماً لما شاع وكثر في المرحلة المملوكية والعثمانية من تعابير ومسميات أملتها الحاجة وطبيعة المجتمع والأنظمة، من مثل: أمير جاندار (الذي يستأذن على الأمير وغيره في أيام المواكب)، والأمير الاي، والمابين، والباشكاتب، والسلاملك، والرصدخانه، والقائمقام...(٤٥)

خاتمة:

بعد هذا العرض السريع الموجز لما أخذته العربية من اللغات الأخرى في تاريخها الطويل، يمكن المتأمل أن يخرج بانطباع عام، أو بتصور يرسم الخطوط العريضة لطبيعة التأثر اللغوي الذي اعترى العربية، أو يرصد مدى ما كانت في حاجة إليه من المادة اللغوية، وما أخذته ترفاً وتزيّداً. وسنحاول أن نلخص ذلك كله في النقاط التالية:

أولاً: أخذت العربية من اللغات الأخرى المسميات التي كانت مادية في معظمها، ولم تكن قد عُرفت في المجتمعات العربية. ويمكن أن يرصد هذا في مفردات الدخيل القديم. وفي مرحلة لاحقة، عندما اشتغل العرب بالترجمة وعلم الكلام واطلعوا على الفلسفات والأديان لدى الأمم المجاورة تسرّب قدر قليل من الألفاظ الذهنية المجردة أو ذات الطابع الفكري من تلك الأمم، ولكن في اعتدال واقتصاد.

ثانياً: لم تأخذ العربية ما يمكن أن يخلّ بأسس قواعدها وأحكامها، إذ لم تأخذ من اللغات الأخرى لا الصفات ولا التراكيب، لأن ثروتها اللفظية الوفيرة، وتماسك قواعدها المطردة يغنيانها عن ذلك، ولا يناقض هذا الحكم ما تأثرت به من مظاهر الأساليب في العصر الحديث. ولهذا لم يكن خطر الدخيل اللغوي ذا أثر كبير في تاريخ العربية، إنما استطاعت أن تهضمه وتتمثله بغير عسر أو مضاعفات أو عقابيل تخلخل بنيانها المتين...

ثالثاً: دلّ هذا الأخذ من اللغات الأخرى على عراقة التجربة الإنسانية للعرب، وعلى صلتهم الواسعة بالأمم المجاورة، في مجالات العلم الخالص، وفي المتاجرة والحروب وعلاقات الجوار وتطور المجتمعات نحو التحضر بغير تعصب أو انكفاء على الذات، أو تخوّف من المؤثرات الخارجية. كما دلّ على مقدرة العربية ونجاحها في استيعاب مظاهر الحضارات الأخرى ومسمياتها ومصطلحاتها.

رابعاً: ما من شك في أن الدخيل الذي أخذته العربية قد أمدّها بثروة لغوية وافرة وجدت طريقها، على مرّ العصور، إلى المعاجم وكتب التراث العربي، مما أغنى تجربتها الفكرية والحضارية. وهذه المادة اللغوية، على تنوعها، في حاجة إلى المزيد من الدراسة والتصنيف والتتبع لتكون دليلاً وثائقياً في جملة الأدلة التي يحسن اعتمادها لدراسة تاريخ العربية دراسة لا يعوزها النقص، ولا تُرمى بإغفال هذا الجانب المهم من النشاط الإنساني.

خامساً: إذا كان للمتأمل أن يتساءل عن أمر هذا الدخيل الذي أخذته العربية، أو يستغرب كثرته وتنوّعه فليتساءل قبل ذلك عن أثر العربية في اللغات الأخرى، وعن مدى انتشار العربية والكتابة بها في أقطار هذه المعمورة ليتفهم في هدوء وإنصاف طبيعة التجربة الإنسانية للعربية وأصحابها، ويتقبل، بغير قلق، مثل هذا التفاعل اللغوي الذي يزداد ويتنامى في هذا العالم الصائر إلى ما يشبه القرية الكبيرة.

الحواشي والإحالات

١- انظر في هذه الصلات: بحث د. جميل أحمد من القسم العربي بجامعة كراتشي (الباكستان) المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٧٥-المجلد الخمسون- الجزء الرابع، الصفحات ص ٧٧٧-٧٨٩، والبحث بعنوان: "الصلات اللسانية بين الهند والعرب". وانظر "فتوح البلدان" للبلاذري، ط(النهضة) ص٤٦١-٤٦٣ من القسم الثاني. وانظر "معجم الألفاظ الهندية المعربة" للدكتور محمد يوسف (من جامعة كراتشي) المنشور في مجلة اللسان العربي، الصفحات ص: ٢٨-٤٢ من المجلد التاسع، الجزء الأول، والصفحات من ١٢٢-١٣٨ من المجلد العاشر، الجزء الأول. وانظر بعض التفصيلات في كتاب الهند للبيروني (ط. زخاو)، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٢/٣٠٩.

٢-انظر معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس الرازي (ت ٣٩٥هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ): دخل.

٣-اللسان: دخل.

٤-نفسه، والجمهرة هي معجم "جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي (٣٢١هـ) وانظر تفصيلاً أكثر عن الدخيل في كتابنا "أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج" ص١٩-٢٤. منشورات مؤسسة النوري الطبعة الثانية -دمشق ١٩٩٣.

٥-تنسب بداية التصنيف في "غريب القرآن" إلى عبد الله بن عباس _ت ٦٨هـ) وهي، على الأرجح، أقوال دونت عنه بروايته، وانظر في ذلك "المعجم العربي" للدكتور حسين نصار، ج١/ ٣٩، دار مصر للطباعة، ط٢-١٩٦٨. وانظر "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي (ت٩١١هـ)، وقد سرد في الجزء الأول

ص١٤٩ أسماء المتقدمين ممن ألفوا في غريب القرآن، وبأسفل الصحائف إعجاز القرآن" للقاضي أبي بكر الباقلاني. ط دار المعرفة- بيروت.

ومع الغريب كثر الحديث عن "الأعجمي" في القرآن، وعمّا كان "بغير لغة العرب" فيه (الإتقان: ١٧٨/١). وينظر ثمة خلاف العلماء حول هذا الأعجمي الدخيل. ومع الغريب تطرق القوم إلى الحديث عن "اللغات في القرآن" وبهذا العنوان "اللغات في القرآن" وضع ابن عباس كتاباً (نشر برواية ابن حسنون المقرئ، وتحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٧٢. وهذا ما أفضى إلى الحديث عن فساد الألسنة وتنقية اللغة" كما ألمع مصنفو كتب لحن العامة في مقدمات مصنفاتهم.

٦-المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ص١٥ بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط. دار الكتب بمصر ١٩٦٩، وص ٩١ بتحقيق الدكتور: ف. عبد الرحيم، دار القلم- دمشق ١٩٩٠. والجواليقي هو أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر المتوفى سنة ٥٤٠هـ.

٧-مقدمة عبد الرحمن بن خلدون: ٣٧٩/١، نشر مكتبة مصطفى محمد بالقاهرة، بعناية مجموعة من العلماء.

٨-انظر: أثر الدخيل: ٢٤ (م.س).

٩-انظر مقدمة "المعرب" للجواليقي، ومادة (عرب) في اللسان، والجمهرة، والصحاح.

١٠-الصحاح: عرب. بتحقيق عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. ط-١٩٥٦م. وقال الزمخشري في "الكشاف": "إن معنى التعريب أن يجعل (الاسم) عربياً بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب". انظر: رسالة في تحقيق تعريب الكلمة الأعجمية" لابن كمال باشا الوزير (ت ٩٤٠هـ) ص٥٣. ضبط وتحقيق محمد سواعي. المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٩١.

١١-د. حسن ظاظا: كلام العرب من قضايا اللغة العربية" ص٧١. دار المعارف بمصر ١٩٧١م. وقال ابن كمال باشا الوزير: "من مذهبهم (يعني العرب) أنه إذا عرّب الاسم الأعجمي ردّ إلى ما يستعمل من نظائره في لغتهم وزناً وصيغة". انظر: تعريب الكلمة الأعجمية ص٥٥ (م.س).

١٢-انظر "الخصائص" لابن جني (ت٣٩٢هـ): ٣٥٧/١-٣٥٩، تحقيق محمد علي النجار، ط دار الكتب المصرية.

١٣-ديوان الأدب للفارابي (ت ٣٥٠هـ) ٨٤/٢ تحقيق د. أحمد مختار عمر، مراجعة د. إبراهيم أنيس. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م.

١٤-انظر: المعرب للجواليقي: ٤٤٨. قال محققه الدكتور/ ف عبد الرحيم: هو بالفارسية طبرزد، ومعناه: السكر الأبيض الصلب، وسمي بذلك لأنه ينحت بالفأس بسبب صلابته، فتبر: الفأس، و"زد" من "زدن" بمعنى دقّ وضرب.

١٥-انظر: المعرب: ٢٦٦. قال المحقق نفسه: النّزق: البقلة التي تسمى الحندقوق، وفي التهذيب (٣٠٣/٥): قال الليث: الحندقوق حشيشة كالقت الرطب،... وفي الصحاح: الحندقوق: نبت وهو النزق، نبطي معرّب. ولا تقل الحندقوقا، وأصله (حندقوقا) بالآرامية، عن سيغموند فرنكل: ١٤١.

١٦-انظر: أثر الدخيل: ٤٤ (م.س).

١٧-انظر الحاشية رقم (٥).

١٨-تنظر آراء بعض هؤلاء الباحثين في المراجع الآتية:

تيودور نولدكه: اللغات السامية ص٨ ترجمة د. رمضان عبد التواب. القاهرة ١٩٦٣. سبتينوموسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص ٥٠. ترجمة د. يعقوب بكر. بيروت ١٩٨٦. بييرروسي: مدينة إيزيس أو تاريخ العرب الحقيقي ص٤، ص١٨. تعريب فريد جحا. دمشق ١٩٨٠. ولمزيد من التفصيل ينظر بحثنا المنشور في مجلة "دراسات تاريخية" التي تصدرها جامعة دمشق، بإشراف لجنة إعادة كتابة التاريخ العربي. العددان ٣٣/٣٤ لسنة ١٩٨٩ ص١٦١ وما بعدها، من سلسلة أبحاث بعنوان "من تاريخ اللغة العربية". وقد اخترنا مصطلح "اللغة العربية القدمى" بدلاً من "الساميات" أو "السامية". وانظر "العرب في العصور القديمة" ص٤٤ وص٤٩ للدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى. وقد أفرد الدكتور توفيق سليمان لدراسة هذا الموضوع كتاباً برأسه بعنوان "أسطورة النظرية السامية" ط. دار دمشق ١٩٨٢. وكذا فعل أنور الجندي، وكتابه "نظرية الجنس السامي". سلسلة "في دائرة الضوء" رقم (١١) مصر.

١٩-اختار الدكتور علي فهمي خشيم تسمية اللغات "العروبية" أو اللهجات العروبية، بدلاً من الساميات أو السامية، وما اقترحناه لا يختلف عن هذه التسمية في جوهره أو من حيث الدلالة على المصطلح. انظر كتابي الدكتور خشيم: "آلهة مصر العربية" الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى ١٩٩٠، و"سفر العرب الأمازيغ". مطابع الفاتح، الطبعة الأولى ١٤٢٤-١٩٩٥- ليبيا.

٢٠-انظر ديوانه ص١٢ شرح وتعليق محمد حسين. المكتب الشرقي للنشر والتوزيع. بيروت -لبنان. المقدمة بتاريخ ١٩٦٨م.

٢١-انظر هذه القصيدة في الديوان ص٣٢٩، ومما جاء في مناسبتها أنها قيلت في مدح إياس بن قبيصة الطائي الذي كان والياً للفرس على العراق. والجلسان والبنفسج والسيسنبر والمرزجوش والشاهسفرم والياسمين والنرجس والمرو والسوسن... كلها أسماء بالفارسية لأنواع من الرياحين والورد. والهنزمن: عيد من أعياد النصارى (معرّب) والمخشَّم: الشديد السكر.

٢٢-للتدقيق في نسبة هذه الألفاظ إلى الفارسية يمكن الرجوع إلى الديوان نفسه، وإلى الكتب اللغوية الآتية: المعرّب من الكلام الأعجمي للجواليقي (طبعة دمشق ١٩٩٠) الألفاظ الفارسية المعرّبة لأدي شير الكلداني، (ط. المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت -١٩٠٨) معجم المعرّبات الفارسية في اللغة العربية للدكتور محمد التونجي. دار الأدهم للترجمة والنشر. دمشق ١٩٨٨ غرائب اللغة العربية للأب رفائيل نخلة اليسوعي (المطبعة الكاثوليكية. بيروت -لبنان ١٩٦٠). كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية للقس طوبيا العنيسي الحلبي (عني بنشره يوسف البستاني بمصر -١٩٣٢م، ط٢. كلام العرب للدكتور حسن ظاظا (م.س).

٢٣-انظر: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل" ص٩٦-٩٧ للدكتور أحمد السعيد سليمان، دار المعارف بمصر ١٩٧٩.

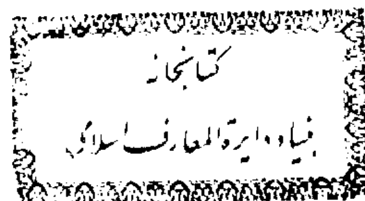
٢٤-انظر: مجلة اللسان العربي (تصدر في الرباط)، المجلد العاشر: ج١/١٢٢.

٢٥-مروج الذهب: ١/٣٣٦-٣٢٤، عن الموضع السابق.

٢٦-الموضع السابق نفسه.

٢٧-Albert Dauzat: Dictionnaire de la langue Francaise . LarOUsse. Paris 1938.

٢٨-لسان العرب/ خطط، والحاشية ٢٤، ص١٢٨ من المجلة المذكورة.



٢٩-انظر: بندلي جوزي: بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية. ص٣٣٤ من مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، الجزء الثالث - القاهرة عام ١٩٣٦م.
٣٠-مما لا شك فيه أن تسرّب الدخيل اليوناني إلى العربية استمرّ بقدر قليل عن طريق السريان الذين شهدت الحركة الثقافية العلمية نشاطهم في الترجمة والتعريب في بعض مراحل الخلافة العباسية.
٣١-انظر: معجم الألفاظ الهندية المعربة، ص١٣٠ من مجلة اللسان العربي، المجلد العاشر، الجزء الأول.
٣٢-انظر: "الساميون ولغاتهم" ص١٦١ للدكتور حسن ظاظا، دار المعارف بمصر ١٩٧١.
٣٣-انظر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص٤٠٦، لجلال مظهر، دار الرائد، بيروت- لبنان ١٩٦٧.
٣٤-انظر: غرائب اللغة العربية ص٢٧٧ (م.س).
٣٥-نفسه ص٢٧٨.
٣٦-السابق نفسه. وانظر أيضاً: كلام العرب للدكتور ظاظا ص٧٢.
٣٧-الفاخر، للمفضل بن سلمة ص١١٨-١١٩، تحقيق عبد العليم الطحاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤. ولعلّ في قول حنيفة سقطاً تمامه: ... بالرجل الذي فيه [قوة]؟.
٣٨-ينظر: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. تأليف محمد أحمد دهمان، دار الفكر بدمشق ١٩٩٠ (مرتب وفق تسلسل حروف الهجاء).
٣٩-هذه الألفاظ مقتبسة من "معجم الألفاظ التاريخية" السابق ذكره.
٤٠-لمزيد من التفصيل حول هذا المصطلح أو هذه التسمية ينظر "تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل" ص١٠٩-١١٢ (م.س)
٤١-معجم الألفاظ التاريخية ص١٥٤.
٤٢-وانظر: "الاشتقاق والتعريب" لعبد القادر المغربي ص٢٤، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٧.
٤٣-يطلق بعض المحدثين على مثل هذا التطور تسمية "التعابير المولّدة" وانظر أمثلة أخرى في كتاب "اللغة العربية كائن حي" لجرجي زيدان ص١٥ (ط. دار الهلال) وتاريخ اللغة العربية له نفسه ص٨٠-١٠٢-١٠٣، دار الحداثة -بيروت ١٩٨٠، ط١. وانظر خاصة "فقه اللغة المقارن" للدكتور إبراهيم السامرائي، الصفحات من ٢٨٦-٣٠٤، دار العلم للملايين- بيروت، ط٢- ١٩٧٨.
٤٤-وانظر كتابنا "في فقه اللغة العربية" الصفحات: ٢٠٢-٢٠٣-٢١٥، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٥.
٤٥-انظر: اللغة العربية كائن حي ص١٠٢-١٠٣.

◆◆◆

الاشتقاق النحتي وأثره في وضع المصطلحات

د. ممدوح محمد خسارة

"معنى النحت أن تؤخذ كلمتان، وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ، والأصلُ في ذلك ما ذكره الخليلُ من قولهم: حيْعَل الرجلُ إذا قال: حيَّ على....[1]. هذا ما وضعه ابنُ فارس من تعريفٍ لهذه الظاهرة اللغوية في العربية؛ وقد كرّره في كتابه (فقه اللغة) على ما نقل السيوطي من قوله: "العربُ تَنْحَت من كلمتين كلمةً واحدة، وهو جنسٌ من الاختصار، وذلك نحو: رجلٌ عبْشَمي، منسوبٌ إلى اسمين.. وهذا مذهبُنا في أنَّ الأشياءَ الزائدةَ على ثلاثةِ أحرف فأكثرُها منحوت، مثل قول العرب للرجل الشديد ضِبَطْر من ضَبَط وضَبَر... وفي الصِّلْدِم أنه من الصَّلْد والصَّدْم."[2].

أمّا المحدثون فقد زادوا التعريفَ السابقَ بعضَ التأصيل والتفصيل. يقول عبد الله أمين في تعريفه- بعد أن يسمّيه الاشتقاق الكُبار: "النحتُ في اللغة القَشْر والبَرْيُ والتَّرقيقُ والتسوية، ولا يكون إلا في الأجسام الصُّلْبة كالخَشَب والحَجَر ونحوهما. والنحتُ في اصطلاح أهل اللغة أخذُ كلمةٍ من كلمتَيْن أو أكثر مع المناسبةِ بين المأخوذِ والمأخوذِ منه في اللفظِ والمعنى معاً، بأن تَعمِدَ إلى كلمتين أو أكثر فتُسقِطَ من كلٍّ منها أو من بعضها حرفاً أو أكثرَ، وتضمَّ ما بقي من أحرفِ كلِّ كلمةٍ إلى الأخرى، وتؤلِّفَ منها جميعاً كلمةً واحدة فيها بعضُ أحرف الكلمتين أو الأكثر، وما تَدُلّان عليه من معان"[3].

أشكال النحت وحالاته:

آ- نحت فعلي من اسمين، وذلك بصياغة فعلٍ رباعي منهما على وزن (فَعْلَل)، نحو (بَسْمَل) إذا قال: بسم الله.

ب- نحت فعلي من جملةٍ وذلك بصياغةِ فعلٍ رباعي منها على وزن (فَعْلَل)، نحو (حَوْلَق) إذا قال: لا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله. وبَأْبَأَ إذا قال: بأبي أنتَ..

---

[1] ابن فارس/ مقاييس اللغة ١: ٣٢٨- ٣٢٩- وينظر: الخليل- العين : ٦٠- ٦١.

[2] السيوطي/ المزهر ١: ٤٨٢.

[3] عبد الله أمين/ الاشتقاق: ٣٩١. وينظر: تقرير لجنة النحت في مجمع القاهرة/ مجلة مجمع القاهرة ج٧: ٥١.

جـ- نحت اسميّ من اسمين نحو (حَبْرَمان) نحتاً من حبّ الرمّان و(الحَزْرَمَة) من الحَزْم والرأي.

د- نحت نسبيّ من عَلَمٍ مُركّبٍ إضافيّ: نحو عَبْقَسيّ من عبد القيس، وعبشميّ من عبد شمس، وتَيْمَليّ من تيمِ الله.. أو مركبٍ مزجي: نحو حَضْرَمي من حضرَموت. أو عَلَم كنية: نحو: بَلْحارث من بني الحارث، وبَلْعَنْبَر من بني العنبر.

وزاد بعضُهم النحتَ الوصفيّ، نحو (صِلْدِم) من الصَّلْد والصَّدْم.[4] وجعلَ منه آخـرون النحتَ الحَرْفيّ، وهو المُؤوّل في بعضِ أحرف المعاني، كما ذهب ابنُ جني إلى نحتِ (كَأَنْ: من الكاف وأَنْ؛ ولكنْ من لا وأنْ والكاف؛ وليْس من لا وأيْس)[5].

والذي يُهم من هذه الأنواعِ في التوليد هو النحتُ الفعلي والاسمي، بل إن بعضَهم أنكرَ النحتَ إلا في الأفعال حيث يقول: "إن النحت اتُّخِذ للأفعال لا للأسماء، أي إنهم كـانوا يقولـون: (سَبْحَل فلانٌ وحَوْقَل) ولـم يقولوا في العادة: (اعتاد فلانٌ السَّبْحَلَة والحَوْقَلَة) فالمصدرُ لم يكن مراداً في استعمالهم النحت"[6].

ولابد من التنبه بداءةً إلى أن مفهوم النحت قد تداخل مع مفهومين آخرين في العربية هما مفهوم الإلحاق ومفهوم التركيب المزجيّ.

أ- فمن جهة الإلحاق، نرى أن كثيراً ممّن دَرَسوا ظاهرةَ النحت قد خَلَطُوا بينها وبين ما يمكن أن نسمّيه بالإلحاق الدلالي، تمييزاً له من الإلحاق الصرفي الذي قد لا يحمل دلالـةً مـا، كقولهم إن (جَدْوَل) ملحَـقٌ بـه الواو لإلحاقه بجَعْفَر، والذي قال به ابنُ جني: "اعلم أن الإلحاقَ إنما هو بزيادة في كلمة تَبْلُغ بها زِنـةَ المُلْحَق به لضربٍ من التوسُّع في اللغة.. ولا يبقى بعد ذلك غرض مطلوب".[7]

وأول ما ظهر هذا الخلط بين المفهومين عند ابن فارس الذي قال مُمَثِّلاً للنحت: "فممّـا جـاء منحوتـاً مـن كلام العرب في الرباعي أوله باء (البُلْعوم) مجرى الطعام في الحلق، وقد يُحذَف فيقال: بُلْعُم، وغير مشكلٍ أن هذا مأخوذٌ من [بَلَع]، إلا أنه زِيدَ عليه ما زِيد لجنسٍ مـن المبالغـة فـي معنـاه"[8]. وظـاهرٌ هنـا أن النحتَ لـم يستوفِ الشرطَ الأساسي وهو الأخذُ من كلمتين، فما وقَع في هذا المثال لم يكـنْ أخـذاً مـن كلمتيـن، بـل زيـادة على كلمةٍ واحدة. وكنا نظن أن هذا المثال مفردٌ عنده بين مجموعةِ أمثلةٍ تُمَثِّل نحتاً على مذهبهِ كقولـه: "مـن ذلك (بُحْتُر): القصير المجتمع الخَلْق، فهذا منحوتٌ من كلمتين، من الباء والتاء والراء، وهو من بَتَرْتُـه فبُتِر، كأنه حُرِم الطول فبُتِر خَلْقُه، والكلمة الثانية: الحاء والتاء والراء، وهـو مـن (حَتَرْتُ) وذلـك ألا تُفضِـل على أحد، يقال: أحتَر على عياله أي ضيَّق عليهم، فقد صـار هـذا المعنـى فـي القصـير لأنـه لـم يُعْـطَ مـا أعطيـه الطويل"[9]. إلا أنه عاد وذكرَ في الباب التالي مباشرة ما يدل على أن زيادة أيّ حرفٍ في كلمـةٍ ولـو لـم يَكُـن مأخوذاً من كلمةٍ أخرى تُعَدُّ عنده من النحت. قال في (باب من الرباعي آخر): "ومن هذا الباب ما يجيء على وزنِ الرباعي، وهو من الثلاثي على ما ذكرناه، لكنهـم يَزِيـدون فيـه حرفـاً لمعنـىً يريدونـه مـن مبالغـةٍ، كمـا

---

[4] د. رمسيس جرجس| النحت في العربية| مجلة مجمع القاهرة ١٣: ٦٥ نقلاً عن ابن جني.

[5]: د. ابراهيم السامرائي| التركيب والبناء في العربية| مجلة المجمع العراقي ج٦: ٢٨٧.

[6] د. مصطفى جواد| المباحث اللغوية في العراق: ٨٨.

[7] ابن جني| المنصف ١: ٣٤.

[8] ابن فارس| مقاييس اللغة ١: ٣٢٩.

[9] المرجع نفسه.

يفعلون ذلك في (زُرْكُم وخلْبَن)، لكن هذه الزيادة تقع أولاً وغَيْرَ أول"[١٠].

ويبدو أن هذا الخلاف قديمٌ بين اللغويّين إذ كان الإمام أحمد بن يحيى ثعلب يرى في (زَغْدَب) أنه من (زَغَد) والباء زائدة، وكان محمد بن حبيب يرى في (عَنْسَل) أن أصله (عَنْس)؛ لكن ابن جني في الكلام على (بُعْثر بن لقيط قال: كأنه من معنى (الأبْعَث)، ولست أقول إن الراء زائدة كما قال أحمد بن يحيى إن الباء من (زَغْدَب) زائدة، لأنه أخذه من (الزَّغْد) وهو الهدير يَقْطَعه البعيرُ من حلْقه، هذا ما لا أستجيزه وأعوذُ بالله من مثله"[١١].

وعلى مذهب ابن فارس في الخلْط بين المنحوت والمزيد إلحاقاً سار الدكتور صبحي الصالح إذْ قال: "تمن الأفعال المنحوتة تصديراً بزيادة حرفٍ معبّر في أولها (بَحْظَلَ الرجلُ بَحْظَلَة): قفز قفزات اليَرْبوع، فالباء زائدة على حظَلَ"[١٢].

إننا وانطلاقاً من تعريف ابن فارس نفسه للنحت، لانَعُدّ أمثالَ هذه الحالة نحتاً، فإنْ هي إلا نوعٌ من الإلحاق الذي سنعقد له فقرة لاحقة.

ب- أمّا من جهة التركيب المزْجيّ فقد خلَطوا بينه وبين النحت أيضاً؛ وكثيراً ما استشهد الباحثون بكلماتٍ مثل (بَرْمائي ورَأسمالي) التي هي تراكيبُ مزجية وليست نَحتاً[١٣]. كما استشهدوا بمصطلحاتٍ مثل اللاأدرية واللامتناهي[١٤] واللاسلكي؛ وهذه ليست إلا تراكيبَ مزجيّة على حدِّ التركيب المزجي بأنه "ضَمُّ كلمتيْن إحداهما إلى الأخرى وجَعْلُهما اسماً واحداً إعرابا وبناءً سواءٌ أكانت الكلمتان عربيّتيْن أم معرّبتين"[١٥]. إننا نَعُدُّ نحو (صِلْدِم وضِبَطْر) من الإلحاق لا من النحت الوصْفي كما عدّها ابن فارس، وإن القول بنحت الرباعي من اسمين ثلاثيين ليس إلا من قبيل الغيبيّات اللغوية والتخمينات التي يُغذيها خيالٌ لغوي خصيب.

٢) النحت من السماع إلى القياس:

المتقدمون على أن النحتَ سماعي فيوقَفُ عند ما سُمع، وليس لنا أن نَنْحت؛ ولم يُنقَل عنهم ما يبيح قياسيّتَه، إلا شيئاً يسيراً ورد عن نُحاة متأخرين، فقد "قال الخضري في حاشيته على ابن عقيل: ونُقل عن فقه اللغة لابن فارس قياسيّته، ومثل ذلك نقل الأشموني"[١٦]. لكن عبارة ابن فارس في (فقه اللغة) كما نقلها السيوطي لا تنص على قياسيته، وهي: "العربُ تَنْحَت من كلمتين كلمةً واحدة، وهو جنسٌ من الاختصار وذلك نحو (رجل عَبْشَمي) منسوبٌ إلى اسمين.. وهذا مذهبُنا في أن الأشياءَ الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرُها منحوت". هذه العبارة لا تجيز القياس إلا على مذهب ابن فارس في أنّ ما فوق الثلاثي معظمُه منحوت.

وهو فرضيّة لا يُقرّه عليها غالبيةُ اللغويين، لأنه قد "ركب التعسُّف والشطَط في حمْل ما زاد على ثلاثة أحرف على النحت".[١٧] كما نقل السيوطي عن ابن مالك قياسيته، إلا أن عبارة التسهيل لا تقرّر قياسيته فهو

---

[١٠] ابن فارس| المقاييس ١: ٣٣٢.

[١١] د. أسعد علي| تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي: ١٧٦.

[١٢] د. صبحي الصالح| دراسات في فقه اللغة: ٢٨٥.

[١٣] محمود شلتوت ومصطفى الشهابي| تعليق على بحث النحت| مجلة مجمع القاهرة ج١٣: ٧٧.

[١٤] ساطع الحصري| في اللغة والأدب: ٨٧- ٨٨.

[١٥] ينظر: ثلاثة قرارات لمجمع القاهرة: مجلة مجمع دمشق ٤٠|٣ :٧١١.

[١٦] مجمع القاهرة| تقرير لجنة النحت| مجلة مجمع القاهرة ٧: ٢٠٣.

[١٧] مجمع القاهرة- تقرير لجنة النحت- مجلة مجمع القاهرة ج٧: ٢٠٣.

يقول: "قد يُبنى من جزأي المركّب (فَعْلَل) بفاء كل منهما وعينه، فان اعتلت عين الثاني كُمّل البناء بلامه أو لام الأول ونُسب إليه."[18]. وفي الصفحة ذاتها ينقل السيوطي منعَ قياسه عن أبي حيان، قال: "قال أبو حيان في شرحه: وهذا الحكمُ (أي حكم ابن مالك) لا يطّرد، إنما يقال فيه ما قالته العرب، والمحفوظُ منه: عَبْشَمي وعبدري ومَرْقَسي وعَبْقَسي وتَيْملي."[19].

هذا ما قاله القدماء عن النحت، وهو لا يُقرّر قياسيته، فماذا كان من المحدثين؟

إن اللجنة التي شكلها مجمعُ القاهرة سنة ١٩٥٣ والتي لا تَضُمُّ سوى واحدٍ من اللغويين على ما يبدو من أسماء أعضائها (إبراهيم الحمروش ومحمود شلتوت وأحمد زكي ومصطفى نظيف وعبد القادر المغربي)، لم تقترح قياسية النحت، بل قالت بجوازه في العلوم والفنون[20]. وعليه قرّر المجمعُ جوازَ النحت عندما تلجيء إليه الضرورة العلمية..[21]. ولعل هذا القرار المقيّد كانت وراءه آراءُ الأعضاء اللغويين، كالشيخ أحمد الاسكندري الذي هدّد بمغادرة الجلسة إن أُقرّ النحتُ وسيلةَ توليدٍ لغوي[22]. وفي سنة ١٩٦٥ وبعد ثلاثين سنة من أول طرحٍ لقضية النحت اتخذ مجمع القاهرة قراراً أكثرَ حَسْماً يقول فيه: "النحتُ ظاهرةٌ لغوية احتاجَتْ إليها اللغة قديماً وحديثاً، ولم يُلتزم فيها الأخذُ من كلّ الكلمات، ولا موافقةُ الحركات والسكنات، وقد وردَتْ من هذا النوع كثرةٌ تجيز قياسيَّته. ومن ثم يجوز أن يُنحَت من كلّ كلمتين أو أكثر اسم أو فعلٌ عند الحاجة، على أن يُراعى ما أمكن استخدامُ الأصلي من الحروف دون الزائد، إن كان المنحوتُ اسماً اشتُرِط أن يكون على وزنٍ عربي، والوصفُ منه بإضافةِ ياء النسب، وإن كانَ فعلاً كان على وزن (فَعْلَل أو تَفَعْلَل)، إلا إذا اقتضت غيرَ ذلك الضرورةُ، وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المنحوتة"[23].

لقد نجح أنصارُ النحت بتقييسه على الرغم من الإحساس العام بأن النحت ليس من أصول العربية، بدليلِ أن ابن جني لم يَعُدّه من أصولها ولا من خصائصها فلم يذكره في كتابه (الخصائص)[24].

أمّا لجنة اللغة العربية في المجمع العلمي العراقي، فقد كانت أكثرَ تشدُّداً في قرارها: "عدمَ إجازة النحت إلا عند عَدَم العثور على لفظٍ عربي قديم واستنفاد وسائل تنمية اللغة، على أن تلجئَ إليه ضرورة قصوى وأن يُراعى في اللفظ المنحوت الذوقُ العربيّ وعدمُ اللبس"[25].

٣) النحت لدى المحدثين:

لم يكثر الحديثُ والجدل في وسيلة من وسائلِ التوليد اللغوي كثرتَه حول النحت. لقد تَميَّز موقفُ أنصار النحت بالجَمْع بين النظرية والممارسة:

---

(18) السيوطي | المزهر ١: ٤٨٥.

(19) المرجع السابق نفسه.

(20) مجمع القاهرة | تقرير لجنة النحت | مجلة مجمع القاهرة ٧: ٢٠٣.

(21) مجمع القاهرة | قرارات الدورة (١٤) | مجلة مجمع القاهرة ٧: ١٥٨.

(22) د. محمد رشاد الحمزاوي | أعمال مجمع القاهرة: ٣٣٠.

(23) مصطفى الشهابي | المصطلحات العلمية في اللغة العربية: ٢٠٤.

(24) د. أحمد مطلوب | حركة التعريب في العراق: ١٧٤.

(25) المرجع السابق نفسه: ٨٦.

١- يُعَدُّ ساطع الحصري في طليعةِ المدافعين عن النحت وسيلةَ توليدٍ لغوي، يقول: قلّما رأينا إقداماً على الاستفادة من النحت بصورة فعلية، ونحن نعتقد أن الضرورةَ ماسةٌ لذلك، إننا نُعبّر عن كثير من المعاني العلمية بتراكيب متنوعة، فإذا كانت هذه التراكيب قصيرةً وسهلة فيمكننا أن نستمر في استعمالها على حالها، أمّا إذا كانت طويلةً صعبة فمن مصلحة العلم واللغة أن ننحتها لأجل تسهيل استعمالها وانتشارها"[26]. ومن منحوتاته: (قبْتاريخ) مقابل المصطلح الفرنسي (Prehistoire) أي (قبل التاريخ)، فيقال على مذهبه: الإنسان القبْتاريخي، وآثارٌ قبْتاريخيّة؛ وطريقته هنا هي اختزالُ الظروف، يقول: "وكذلك يمكننا أن ننحت كلمات (خارج، فوق، تحت) على شكل: (خا، فو، تح) ونقول: خامَدْرَسي وفوْسَوِي وتحْشُعوري[27]" بدل خارج المدرسي وفوق السوي وتحت الشعوري. ويرى ترجمةَ السابقة الفرنسية (Past) بالظرف (بُعيد) بدل (بَعْد) وبالتالي ترجمةَ ما رُكّب معها بكلمةٍ منحوتة نحو: (بُعَيْمَدْرَسي وبُعَيْجليدي وبُعَيْلُوغ)[28]. ومن منحوتاته غير الظرفية كلمة (السّرْمَنَة) لحالة (السّيْر في المنَام)[29]. وقد حاول الحصري أن يضع قواعد للنحت، مستنبطاً ذلك مما ورد عن العرب من نماذجه.

٢- وممن أجْلَب في الدعوة إلى النحت وأكثرَ من ممارسته الدكتور صلاح الدين الكواكبي، فهو بحكم تخصُّصه في الكيمياء كان أكثرَ تَقَبُّلاً لهذه الظاهرة من غيره، يقول: "فدفعتني الحاجةُ الملحة إلى النحت، مثلما فعَل الغربيون في مصطلحاتهم العلمية، لأني وجَدْت فيه حَلاً للمعضلة وتيْسيراً لاجتياز العقَبات التي تَعترض المؤلفَ والمترجم، وذلك لمرونةِ وسهولةِ الاشتقاق والوصفِ من الكلمة المنحوتة، وإليكم البرهان في المصطلحات العلمية التي وضَعتُها نحتاً لما يقابلها من الكلمات الإفرنجية وأكثرها مما ألفتْه الأسماع وشاع استعماله في البيئات العلمية:

خلْمَهة : تحليل خَلّي من (خلّ وإماهة).

حَمْضنَيل : حامض كحول، من (حمض ومانيل).

حَمْضنَيد : حامض ألدهَيد، من (حمض وغوليد).

حَمْضلون: حامض خلُوُن، (من حمض وخلُون).

غوْسَل : من (غول وعسل)، واشتق منها (مُغوْسَل)[30].

ثم يعرض الكواكبي في الجزأين ٣ و٤ من المجلد (٣٩) لمجلةِ مجمع دمشق (١٠٧) مئةً وسبعة مصطلحاتٍ كيماوية منحوتة على هذه الشاكلة.

٣- أما عبد الله أمين فيرى أن الكلمة المنحوتة التي توفّرت فيها شروطُ النحت "هي عربيةٌ على القاعدة التي وضعها المازني وتابعه عليها الفارسي ثم ابن جني وهي: (ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم)[31]..

---

[26] ساطع الحصري| في اللغة والأدب: ٨٧.

[27] المرجع السابق نفسه: ٨٩.

[28] المرجع نفسه: ٨٨.

[29] د. مصطفى جواد| المباحث اللغوية في العراق: ١٠١.

[30] صلاح الدين الكواكبي| النحت والمصطلحات العلمية| مجلة مجمع دمشق ٣٩/٣ :٥٠٨- ٥٠٩.

[31] عبد الله أمين| الاشتقاق: ٤٤٦.

ويُضيف أن "الكلمة المنحوتة على نحوٍ من الأنحاء السابقة هي خيرٌ من استعارة كلمة أعجمية بمعناها.. لأنها وإن لم توضع وضعاً لغوياً أصيلاً، فإنها قد وُضعت على أسسٍ عربية.."[32]. وتطبيقاً لقواعده في النحت فقد اقترح لبعض المركبات الإضافية أربعَ كلمات ليُصار إلى ترجيح بعضها، فاقترح:

لِفَحْم السكر : فَحْمَس وفَسكَر وفَحْسك وفَحكَر.

ولقلم الحبر : قَلْمَح وقَمْبَر وقَلْحَب وقَلْبَر.

ولِسمِّ الفأر : سَمْفَر وسَفْأر وسَمْأر وسَمْف.

ثم عرض بعضَ منحوتات مجلة مجمع القاهرة في علم الكيمياء نحو: كَبْنَحْس لكبريتور النحاس، وأزْأكْفَض لأزوتات الفضة.[33].

٤- وممَّن مارس النحت في المصطلحات العلمية لجانُ مجمعِ القاهرة ومن منحوتاتها: (رباط خلْفَمامي)[34] نحتاً من خلْفي وأمامي، وقالت عن المحاريات: (بَلْطَقَدَميّات) وعن الوَذَعيّات:(بطنقدميّات) وعن رأسيات القدم (رسْقَدميّات). وإن كان مؤتمرُ المجمع قد ردَّ هذه المنحوتات عندما عرضتْها عليه اللجنة المختصة.[35]. ومن منحوتات المجمع (شِبْقِلي) من شبه قِلْي و(حَلْمأ) من حَلّل الماء، و(فَحْمائيات) من فحْم وماء تعبيراً عن (carbohydrates)[36].

٥- وقد أفاد من النحت مصنِّفو معجم الرياضيات المعاصرة، فنَحتُوا (تَدَاكُل) من تشاكُل داخلي، ونَحتوا لمصطلح (إيزومورفزم): (تَماكُل) ولمصطلح (أوتومورفيزم): (تَدَاكُل)، ولمصطلح (هيومورفزم): (تَصاكُل).

وعقَّبوا على منحوتاتهم بقولهم: "ونكون بذلك قد جرينا مع الزملاء في قسم الكيمياء في جامعة دمشق حيث اختاروا كلمة (تَمَاكُل) المصطلح (ايزومورفزم)..[37].

٦- وممَّن بحث أو كتب مؤيداً استخدامَ النحت جرجي زيدان في كتابه (الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية)، وهو يذهب إلى وقوع النحت في الأفعال والأدوات أيضاً. ومنهم محمود شكري الآلوسي في كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب). وعبد القادر المغربي في كتابه (الاشتقاق والتعريب). ومصطفى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب).. و د. رمسيس جرجس فيما كتبَه في الجزء /١٣/ من مجلة مجمع القاهرة عام ١٩٦١. والدكتور أحمد عيسى في كتابه (التهذيب في التعريب)[38].

أما منْ عارض النحت فقد ذهب في معارضته مذاهب شتى:

---

[31] عبد الله أمين- الاشتقاق: ٤٤٦.

[32] المرجع نفسه: ٤٤١.

[34] مجمع القاهرة| مجموعة المصطلحات العلمية مجلد ٦ : ٧.

[35] المرجع نفسه: ٩.

[36] د. محمد رشاد الحمزاوي| أعمال مجمع القاهرة: ٣٣٤.

[37] د. صلاح أحمد وموفق دعبول والهام حمصي| معجم الرياضيات المعاصرة: ٧.

[38] د. أحمد عيسى| التهذيب في التعريب: ١١٩.

١- فالأب أنستاس ماري الكرملي يقول: "ولغتنا ليست من اللغات التي تقبل النحتَ على وجه لغات أهل الغرب[٣٩]." وقال في اعتراضه على خطة المجمع بعد أن ذهب معظمُ أعضائه إلى قبول النحت في هذا العصر: "لا أرى حاجة إلى النحت، لأن علماء العصر العباسي مع كل احتياجاتهم إلى ألفاظ جديدة لم ينحتوا كلمةً واحدةً علمية، هذا فضلاً عن أن العرب لم تنحت إلا الألفاظ التي يكثرُ ترددُها على ألسنتهم، فكان ذلك سبباً للنحت، وأما التي لا يكثر ترددها على ألسنتهم، فكان ذلك سبباً للنحت، وأما التي لا يكثر ترددها على ألسنتهم فلم يحكموا بنحتها"[٤٠] وتابعه على هذا الدكتور مصطفى جواد متعللاً مُعلّلاً بأنه "لا يصح التفريطُ في الاسم بإضاعة شيء من أحرفه، كأن يقال: (النَّفْسَجي) في النفسي الجسمي، أو (النفسَجِسْمي) ممّا يُبْعِد الاسم عن أصله[٤١].

٢- ونجح المجمعي مصطفى الشهابي بمعارضته النحتَ في استصدار قرار من مجمع القاهرة" بألا مجالَ للنحت ولا التركيبِ المزجي في تصنيف المواليد، ولا حاجة إليهما..[٤٢]. فالمُسْجَنيّات أو المُسْجَناحيات بدلاً من مستقيمات الأجنحة، وغُضْترُ غُنْفيّات بدلاً من غُضْترُوفيّات الزعانف، وأشباه هذه الرّطانات المستهجنة التي يَلْجا إليها بعضُ المؤلفين لا حاجةَ إليها البتةَ، وكلمتان هنا أصلحُ بكثيرٍ من كلمةٍ نابية تَشُذُّ عن التراكيب العربية ويَسْتَغلق فيها المعنى."[٤٣].

٣- ولا يرى أمين الخولي النحتَ من وسائل نماء اللغة، لأن نماءها إنما يكون "بزيادة داخلية ذاتية من كيانها وماديتها ولا بتعريبٍ من كلماتِ غيرها، ولا بنحتٍ مصطنَعٍ من كلماتها[٤٤]..

٤-وكان المعجمي المهندس وجيه السمان ميّالاً إلى معارضة النحت على الأغلب، لما في المنحوتات من مجافاة للدقة والوضوح، وهما أهمُّ خصائص اللغة العلمية، فهو يقول: "وفي اعتقادي أن النحت مستثقل على الأغلب، وينبغي ألاّ يستَعمل إلا عندما تدعو إليه الضرورة، ولاسيما عند ترجمة المصطلحات التي هي مركّبة في اللغات الأجنبية [٤٥]".. ويرى أن بعض الغموض في المصطلح مردُّه إلى النحت. وعاد إلى النحت في مقالةٍ أخرى فقال: "وعلى كلّ حال ينبغي أن يظلّ النحتُ قليلَ الاستعمال حديثاً، لأن اللغة العربية لا تتَقبّله بسهولة؛ وخيرٌ للمصطلح أن يتألف من كلمتين مضافتين أو من ثلاثِ كلمات أحياناً، من أن يُنْحَت نحتاً مُستَثْقَلا.... ومن العجيب أن بعض أصحابِ النظر في اللغة وممّن ألّفوا فيها مؤلفاتٍ حسنةً عالجوا النحت، فجاءَتْ منحوتاتُهم رديئةً سقيمةً لا يقبلها أحد[٤٦]".. واستشهد على ذلك بما اقترح لفَحْم السكر من منحوتات مثل: فَحْمَس، فَسكَر، فَحْسَك فحكَر ممّا كنا ذكرناه.

وممن عارض هذا اللونَ من الاشتقاق المستشرقُ (هنري فليش) الذي أنكر وجودَ النحت والعملَ به في

---

[٣٩] د. مصطفى جواد| المباحث اللغوية في العراق: ١٠٣.

[٤٠] -المرجع نفسه: ٨٨

[٤١] المرجع نفسه: ٨٨- ٨٩.

[٤٢] مصطفى الشهابي| المصطلحات العلمية في اللغة العربية: ١٦٦، ٢٠٥.

[٤٣] المرجع نفسه: ١٥٧.

[٤٤] د. أسعد علي| تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي: ١٢٥ (عن مشكلات حياتنا اللغوية).

[٤٥] وجيه السمان| الدقة والغموض في المصطلح العلمي| مجلة مجمع دمشق ٤٩|١ :٨٥.

[٤٦] وجيه السمان| النحت| مجلة مجمع دمشق ٥٧|٣: ٣٤٩.

اللغة العربية وقال: "إن نظام العربية يجعلُها غيرَ قادرة على وضع الكلمات المنحوتة بصورة سوية، ولا يمكنها كذلك وَضْعُ سوابق ولواحق جديدة، ذلك أن طريقتَها الأساسية في ابتكار المفردات هي التحْوير الداخلي[٤٧]"..

لكن مواقفَ هؤلاء العارضين كانت في غالبيّتها تتّسم بالتحفّظ أكثرَ منها بالإنكار. فلم يكن رائد هؤلاء المعترضين- ولاسيما المعرِّبين من العلميين كالشهابي ووجيه السمان- ردَّ هذه الظاهرة كليّةً بل التوجيهُ إلى حسن استخدامها كأداةِ توليدٍ لغوي، وإن كانت "أداةً صغيرةَ الأثر إذا ما قيست بالأدوات السائدة من اشتقاقٍ وتضمينٍ وتعريب[٤٨]"؛ وليس كما يُدّعى من أنها من أكبرِ الوسائل المُفْضية إلى نموّ اللغة وتقدّمها.

٤) ضوابط النحت وشروطه:

في محاولةٍ لتَفْعيل هذه الأداة وتحسينِ مردودها الاشتقاقي وضَعَ بعضُ اللغويين والمعرِّبين من الضوابط ما رأوْه ضرورياً للوصولِ إلى منحوت لغوي يخدم الإبانةَ والإفصاح دون أن يَخدِش الأسماع أو الأذواق.. ولقد استعملنا كلمة (ضوابط) بدلاً من قواعد لأنها لا ترتقي إلى أحكام القواعد القياسيّة.

وما نظن أن بالمستطاع وضعَ قواعد النحت، ليس لأنه لم تَوْضَع له قواعد حتى الآن [٤٩]، بل "لأنه لا سبيل إلى إيجاد قواعد للنحت يمكن تطبيقُها في كل الحالات[٥٠]".. ومن يتابع ما كُتِب حول موضوع النحت في مجمع القاهرة يستخلص "انعدامَ قواعدَ واضحة يُعوَّل عليها لوضع المنحوتات[٥١]".. وهذه الضوابط هي:

١- يُؤخَذ الحرفان الأوّلان من الكلمة الأولى والحرفان الأوّلان من الكلمة الثانية، وإذا كان الحرف الثاني في أيٍّ منهما معتَلاً تُجُووِزَ إلى الحرف الثالث نحو: عَبْشَمي من عبد شمس وعَبْقَسي من عبد القيس وحَصْكَفي من حصن كيفا.

٢- تُسقَط همزةُ الوصل عن النحت نحو: مُرْقَسي من امرئ القيس.

٣- تُسقَط ألف التعريف عند النحت نحو: عَبْدَري من عبد الدار.

٤- قد يُؤخَذ ثلاثةُ أحرف من الكلمة الأولى وحرفٌ من الثانية نحو: تَيْملي من (تيم الله)، وبَسْمَل من (بسم الله). ويُلْحظ أن الياء قد ثَبَتَت في (تيملي) لأنها ليست حرفَ مدّ هنا، بل حرف لين، فعُوملت معاملة الحرف الصحيح.

٥- المُعَوَّل عليه في النحت هو حروفُ التركيب الأصليّة، ولذا فإن الضمائر والحروف الزائدة المُتّصلة بكلماتِ التركيب تُسقَط عند النحت نحو: حَسْبَل من حسبي الله. وسَبْحَل من سبحان الله.

٦- قد لا يُؤخَذ من بعضِ كلماتِ التركيب أيُّ حرف، كما في (حَوْلَق) من قولهم: لا حولَ ولا قوة إلا بالله. فلم يُؤخذ من لفظِ الجلالة أيٌّ من حروفها.

---

[٤٧] د. محمد المنجي الصيادي| التعريب وتنسيقه في الوطن العربي: ٧٦.

[٤٨] مصطفى الشهابي- النحت في العربية| مجلة مجمع دمشق ٣٤|٣ :٥٥١.

[٤٩] د. رمسيس جرجس| النحت في العربية| مجلة مجمع القاهرة ١٣: ٦٣.

[٥٠] مصطفى الشهابي| تعليق على بحث النحت في العربية| مجلة مجمع القاهرة ١٣: ٧٧.

[٥١] د. محمد رشاد الحمزاوي| أعمال مجمع القاهرة: ٣٣٤.

٧- قد تُبقى حروفُ الكلمتين كلُّها وتتغيّر فيهما الحركاتُ والسَّكَنات فقط نحو: شَقَحْطَب من (شِقّ حَطَب).

وشذّتْ عن هذه الضوابط منحوتاتٌ مثل: دَرْبَخيّ نحتاً من دار البطّيخ، وسَقْزَني نحتاً مـن سوق مـازن، وكان الضابط يقتضي (دَرْبَطي وسَقْمَزي)[52].

ومهما كانت ضوابطُ النحت فلابد من توافر شروط هي:

١- ألا يَلْتقي في الكلمة المنحوتة حرفان متنافران كالذال والسين والهاء والعين، مما سنذكره مفصّلاً في فصل التعريب. وأضاف بعضُهم أن يكون في الكلمة الرباعية أو الخماسية حرفٌ من حروف الذلاقة [53]. ونرى أن هذا يعود لحروف التركيب المنحوت منه، وغالباً ما يتوافر هذا الشرط، لأن احتمال غياب حرف من حروف الذلاقة[54] التي هي أكثرُ من خُمس حروف الهجاء العربي، من تركيبٍ هو أمرٌ نادر، نحو قولنا: (قَطْعَصَة) لعمليّة قَطْع العَصَب- مثلاً- قياساً على من نحت (قَطْشَرة) لعملية قطع الشّريان[55].

٢- مراعاةُ الوزنِ العربي، وهو وزن (فَعْلَلَ) للفعل الرباعي، أمّا الاسم فقد يـأتي علـى أيّ وزنٍ عربي تستدعيه الحالةُ النحتية، فقد يأتي على (فَعْلَل) نحـو (حَبْقَر) مـن حَـب القَر، وهـو البَرَدُ، أو (فَعْلَلَة) نحـو البَلْكَفة والفَذْلَكة من (بلا كيف)، ومـن قولهم فـي الحسـاب: (فذلـك يكـون كـذا..) أو فَعْلَل منسـوباً نحـو: عَبْشَمي، أو فِعْوَل نحو جِلْوَز من جوز ولوز، أو فِعْلَول نحن مِشْلَوزٌ من مشمش ولوز...

٣- مراعاةُ ترتيبِ حروف كلمات التركيب المراد النحتُ منه؛ ولذلـك أنكر (ابنُ دحيـة) أن تكـون (الحَوْقَلـة) نحتاً من قولنا (لا حول ولا قوة إلا بالله) لأن الـترتيب يقتضـي أن يقـال: حَوْلَقـة. أمـا الحوقلـة فهـي مِشْـيَة الشيخ الضعيف[56]، على أن (الحوقلة) أُجيزت وشاعت. وعِيبَ علـى الخفـاجي ذِكـرُهُ (الطَّبْلَقـة) نحتـاً مـن (أطال الله بقاءك)، لأن الترتيب يقتضي أن يقال: (الطَّلْبَقة)[57]. كما خُطِّـىء مـن قـال (الجَعْفَلـة) نحتـاً مـن (جُعلت فداك)، وإنما هي (الجَعْفَدة) بحسب ترتيب الحروف ولتسويغ عدم التزامهم الترتيب نَسَبوا إلى أحد العلماء قولَه: إن عدمَ الترتيب يكون تَفَنُّناً[58].

وعلى الجملة فإنه لم يُوضَع ضابطٌ أو شرطٌ إلا وقد خُرق.

٥) موقفنا من النحت:

أما نحن فإننا نُنْكِر مع الشيخ أحمد الاسكندري أن يكون النحتُ وسيلةَ توليدٍ لغوي، ونُقِرّ بأنه كان وسيلة اختزالٍ ليس غيرا وأدلّتنا على ذلك ما يلي:

١- إن ابن فارس أكبرَ القائلين بالنحت، لم يَعُدّه وسيلةَ توليدٍ بل وسـيلة اختصـارٍ إذْ قـال: "العربُ تنحت من

[52] مجمع القاهرة| تقرير لجنة النحت| مجلة مجمع القاهرة ٧: ٢٠٦.

[53] عبد الله أمين| الاشتقاق| ٤٣٤.

[54] حروف الذلاقة هي (ف- ر-م- ل-ن- ب). وينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين ١: ٥١- ٥٢.

[55] د. رمسيس جرجس| النحت في العربية| مجلة مجمع القاهرة ١٣: ٦٦.

[56] مجمع القاهرة| تقرير لجنة النحت| مجلة مجمع القاهرة ٧: ٢٠٢ وينظر المزهر ١/٤٨٣..

[57] المرجع السابق نفسه ٧ : ٢٠١.

[58] المرجع نفسه: ٧: ٢٠١.

كلمتين كلمةً واحدة، وهو جنسٌ من الاختصار[٥٩] وكل المنحوتات المتداولة- ومعظمُها من بعد عصر الاحتجاج- لم يكن فيها معنى جديد، وإنما هي اختصارٌ لتركيبٍ طويل مألوف كأنْ يقال: عَبْشَمي بدل (عبد شمسي)، أو هي وسيلةٌ لإزالة اللَّبس كأن يقال (بَهْشَمي)[٦٠] بدل قولهم: (أبو هاشمي) نسبةً إلى (أبي هاشم) أحد أصحاب الفِرَق.

٢- إنّ ما استقرّتْ عليه العربيةُ هو الجذرُ الثلاثي، وقد صارت الثلاثيةُ من خصائصها، عليها بُنيت معاجمُها، وعليها بُني ميزانُها الصرفي، وعليها بنيت تقاليبُها الستةُ عند من يعتقدها، ويأنسُ بها لمعرفةِ معاني كلمات غريبة من الجذر ذاته. إن السليقةَ العربية أو الذهن العربي سرْعانَ ما يلْجأ إلى هذه الثلاثية لمعرفة الدلالات العامة لكلمةٍ ما، فعندما يمر بكلمةٍ مثل (ملاذات) مثلاً، يردها عفويّاً إلى الثلاثي (لاذ) الذي يعطيه المنطلق الدلالي للكلمة وما تحمله من معنى اللجوء إلى الشيء أو النزوع إليه أو الاحتماء به. وكذا عندما يَسمع كلمة (مُدَرْعة) فانه يردها عفويّاً- إن كان لا يعرف معناها- إلى الجذر الثلاثي (درع). هذه الطريقة من التحليل فرضتْها خصائص اللغة العربية على الذهن العربي، من هنا تبدأ مشكلتنا مع المنحوتات في أنها كَسْرٌ لهذه اللغة، فالإنسانُ العربي عندما يمر بكلمة مثل (النَّقْحَرة)[٦١]

لا يجدُ سبيلاً لفهمها إلا إعادتَها إلى الثلاثي فيجد أمامه (نَقَح أو نَقَر) وأين هذه الجذور مما أراده الناحتُ من تحميلها معنى (نَقْل الحروف) من اللغات الأجنبية إلى العربية. وكذا لو مَرّ بالنحيتة (صَلْكَل)[٦٢]، فان ذهنه سينصرف إلى الجذور (صلك، صكل) وأنى له أن يعرف أن مُراد الناحت بها هو (استأصل الكلية). فقد يُعترض علينا بأن شرح المصطلحات يبين المراد منها، وجوابُنا أننا نولّد كلماتٍ جديدة لنُفهِمَ ونُبين، ومتى احتاج المولّد- لفظاً حضارياً أو مصطلحاً- إلى تعريفٍ فَقَدَ مُسَوّغ توليده وهو الإيضاح والتبيين، ومن أهم شرائط اللفظ المولّد أن يشف- ولو يسيراً- عن دلالته.

٣- إن في النحت خروجاً على الخاصية الأساسية في اللغة العربية وهي الخاصيّة الاشتقاقية، لأن النحت تركيبٌ لَصْقي، وتحليلُ المنحوت بغية فهمه لا يكون بإرجاعه إلى جذوره وبنائه، بل بإرجاعه إلى جُزْأيْ أو أجزاء التركيب؛ وإنّ العَرَب عندما أرادوا التعبير عن المعاني المركبة لم يلجؤوا إلى النحت بل إلى الاشتقاق؛ لقد قالوا مثلاً (أَشْعَر) لمن كان غزيرَ الشعر أو كثيفه، لكن عندما أرادوا أن يُبيّنوا أن كثافة الشعر في الرأس قالوا: (شَعْرانيّ)، ولم يقولوا: (شَعْشي أو شَعْرَسي) نحتاً من شعر ورأس. كما يذهبُ بعضُ دعاة النحت المعاصرين.

٤- إنّ عقدَ مقارنة بين مصطلحاتٍ منحوتة وأخرى مركّبة وصفياً أو إضافياً تُبيّن ما هو أدخلُ في العربية منها. لقد وضع الأستاذ عبد الحق فاضل مجموعةَ مصطلحاتٍ حول صيانة الطبيعة في المجلد(١٢) من مجلة اللسان العربي بطريقتَيْ النحت والتركيب الإضافي والوصفي، فكان مايلي[٦٣]:

---

[٥٩] ابن فارس- الصاحبي: ٢٦٧. والمزهر ١|٤٨٦.

[٦٠] د. سليم النعيمي| النحت| مجلة المجمع العراقي ٢٣: ٩٠- ٩١.

[٦١] د. محمد رشاد الحمزاوي| أعمال مجمع القاهرة: ٦١٣.

[٦٢] د. رمسيس جرجس| النحت في العربية| مجلة مجمع القاهرة ١٣: ٦٦.

[٦٣] وجيه السمان |النحت| مجلة مجمع دمشق ٥٧|٣: ٣٥٦.

المصطلح المنحوت	المصطلح المضاف	المصطلح الأجنبي
كرة أرضية – الأغلِرضانيّة	الأغلفة الأرضانية	geasphère
نظام بيئي– التنظطبيعي	التناظمُ الطبيعي	ecosystème
كثافة سكانية– الكثاسكن	كثافة السكان	papulation denssity
مستوطن– وبائي– نُعتَوطن	نوع مستوطن	endemic
العمطبيعة	العوامل الطبيعية	naturacl fotor
المصطلاجدة	المصادر الطبيعية اللامتجددة	non renewcable resaurces

وعلى القارئ أن يحكمُ بنفسه على النحت طريقةَ توليدٍ وأداة تعبير، بالقياس إلى التركيب الوصفي أو الإضافي. إن ما رأيناه من أشكال النحت جَعَلَنا نظنّ كأن الناحتين يريدون إبطالَ المركّبات الإضافية والوصفيّة، وهي قياسيّةٌ ولا تحصى في لغتنا، وتعويضَها بصياغاتٍ نحتية ما ثبت منها في لغتنا لا يجاوز العشرات.

٥- إن أهمّ وظائف الكلمة هي الإبانة والتوضيح بل هي مهمة اللغة إجمالاً. وما رأيناه من المنحوتات أو معظمها يُلغي هذه الوظيفة الدلالية الميسورة للكلمة. وإن وضوحَ الدلالة في بعض المنحوتات ليس مردُّه إلى وضوح المنحوت بل إلى أحد أمرين:

آ- إمّا أُلفةُ بعض المركبات أو العبارات المنحوتة منها وتكرارُها على الألسنة، ممّا يجعل ذكرَ جزءٍ منها يستدعي معناها، وذلك كالنحيتات: بَسمَل وحَوقَل وعَبقَسي.

ب- وإما قلّةُ الحروف المحذوفة من المنحوتات كما في قولنا (كهرطيسي)، وكلّما قلّ الحذف كان المنحوت أوضحَ دلالةً. ولعلّ هذا علةُ قبول بعض المنحوتات الطريفة كقول الحصري (قبتاريخ)[11] نحتاً من (قبل التاريخ) و(غِبْلوغ) نحتاً من (غِبّ البلوغ)، فلم يُحذف من هذين التركيبَين الإضافيين إلا حرفٌ واحد هو اللام من (قبل) والباء من (غب).

٦- قلنا إنه كلّما قل الحذف من جزأيْ التركيب المنحوت منه كان معنى المنحوت أوضح، وانعدامُ الحذف يوصلنا إلى التركيب المزجي الذي هو أوضح دلالةً من النحت، فالنفسَجسْمي أوضح من النَفْسَجي. نحن لا نقول بالتركيب المزجي خاصيّةً من خصائص لغتنا، لكنه نوعٌ من التراكيب العربية المعبرة، وإن كانت أهميته ضئيلةً جداً في لغتنا العربية بالقياس إلى التركيبَيْن الوصفي والإضافي، ذلك لأن ما ورد منه لم يتجاوز أسماء أعلام كحضرموت وبعلبك، فهو يمثل متَارِكَ مرحلةٍ لغوية قديمة على الأرجح. لكنه على ما فيه، فهو أسلم مُركباً عند الضرورة من النحت.

٧- إذا كان مسوغُ النحت عند القائلين به هو قابليةَ المنحوت للاشتقاق والتصريف، فان هذا الاشتقاق لن يمُرّ دون إشكالات، فلو أردنا أن نشتق من (ماغول) فعلاً لوجب أن نقول (مَغوَل)، فماذا بقي من هذه الكلمة

[11] ساطع الحصري، آراء وأحاديث في اللغة والأدب: ٨٩.

ممّا ينم عن أصلها؟ ثمّ ألا يفرز هذا الاشتقاق كلمةً مُلْبِسةً مشتركة مع الفعل الممكن اشتقاقه من اسم العلم (المُغُول). نحن لا ننكر وجود المشترك اللفظي كما قدّمنا، لكننا نكرر أنه إذا كان بمكنتنا تجنّبه فإننا خيراً نفعل. ثم هَبْنا أردْنا الاشتقاق والتصريف من النحيتة (نَقْصَوَة) بمعنى نقل الأصوات عند ناحتها، فهل نقول (نقص) أم (نَقْصَى)؟ وهل في العربية أندرُ من هذا البناء، أو مثل هذا البعد بين لفظ الفعل وما أُريدَ له.؟ ولو أردنا أن نشتق من النحيتة (المُتبَرْجعين)[٦٥] فعلاً، أو نعيدها إلى أصلها فهل نقول (تبَرْجَع)؟ ومَن منّا يمكن أن يقدر أن معنى هذا الفعل هو: سَلَك مَسْلك سُكّان البروج العاجيّة؟

٨- أمّا ما شرطَه بعضُ الباحثين الوسطيّين من وجوب تحكيم الذوق اللغوي في المنحوتات، فما ندري من يملك المقدرة على تقييس الأذواق وتمييز ما تقبله الأذن العربية ممّا تنفر منه. إن بعضاً من كبار لغويّي العصر لم تَنَلْ منحوتاتُهم حظاً أكثرَ من الرفوف.

مُجْمَل ما خلَصْنا إليه أن النحت أداةُ اختصار واختزال لا أداةُ توليد لغوي، وإذا حَمَلتْنا الضرورةُ على ركوبه فما أوعرَه من مركب! يؤيد موقفَنا هذا أن المصطلحات المنحوتة في ثلاثة معجمات صادرة عن مكتب تنسيق التعريب هي معجم الفيزياء ومعجم النفط ومعجم الطب لا تضم إلا (١٣) ثلاثة عشر مصطلحاً منحوتاً من مجموع (١١٢٣٢) أحد عشر ألفاً ومئتين واثنين وثلاثين مصطلحاً، بنسبة لا تكاد تُذكر، تقرب من الواحد بالألف[٦٦]. وليس إنكارُنا للنحت سببُه أن ما ورد من منحوتات عربية لا يتجاوز الستين كلمةً، وصلت عند بعضهم إلى مئة وثلاث، وأن هذا العدد ليس من الكثرة بحيث يُقاس عليه، إذ إننا لا ننكر أبداً القياسَ على القليل في وضع المصطلحات، بل نحن مع ذلك كما قدمنا، ولكن سببُه أن أهم خصائص اللغات هي الإبانة والتوضيح، ولاسيما اللغة العلمية، وأيُّ مسلك لغوي يتعارض مع الإفصاح والوضوح فهو حريٌّ بالتخلي عنه.



◆◆◆

[٦٥] د. إبراهيم السامرائي | فقه اللغة المقارن: ١٥٥- والكلمات المنحوتة في بعض الكتاب المحدثين.

[٦٦] د. وجيه عبد الرحمن | اللغة ووضع المصطلح | مجلة اللسان العربي ١٩ | ١: ٧٣.

أهمية لغات الشرق القديم أو (اللغات السامية)[1] في دراسة النحو العربي

دراسة تطبيقية على (المفرد والمثنى والجمع)

الدكتور: إلياس بيطار
جامعة دمشق

لقد دلت الدراسات اللغوية المقارنة أن عدم استقرار (مفرد) الجنس (المذكر والمؤنث) في قواعد النحو العربي قد انعكس سلباً على ظاهرتي (المثنى) و(الجمع) فظهرتا بصورتين قلقتين وغير مستقرتين في اللغة العربية[2].

(المفرد)

تفرق اللغات السامية- بشكل عام- بين المفرد المذكر والمفرد والمؤنث فتجعل المذكر دون لاحقة محددة (zoro morpheme) في حين إنها تجعل للمؤنث لاحقة خاصة (Special morpheme) تعود في الغالب إلى نظام للتصنيف معقد جداً[3].

---

[1] المقصود بلغات الشرق القديم: اللغة العربية وشقيقاتها كالأكدية والأوغاريتية والعبرية والآرامية.. الخ. وهي ما زالت تسمى حتى اليوم في كتب اللغة (اللغات السامية) وقد استعملت هذه العبارة في المقالة كمصطلح ليس إلا، ريثما يتم الاتفاق على مصطلح بديل عن (اللغات السامية) في جميع أنحاء الوطن العربي.

[2] انظر كتاب: التطور النحوي للغة العربية، محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٩ برجشتراسر، أخرجه وصححه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب، الخانجي بالقاهرة، والرفاعي بالرياض، ١٩٨٢ ص١١٢ وما بعدها.

[3] ذهب بعض اللغويين العرب كذلك، إلى أنّ ظاهرة التذكير والتأنيث لا تجري في اللغة العربية على قياس مطرد، والمعول عليه في ذلك هو السماع. انظر مقدمة الدكتور رمضان عبد التواب لكتاب البلغة لابن الأنباري ٤٩- ٥٠.

وهذه اللاحقة هي (التاء) المسبوقة بالفتحة (-ا (a) -)[4] تفصل بين المذكر والمؤنث في (اللغات السامية) على النحو التالي:

	مؤنث		مذكر	
- الأكدية	شَرَّتُ	Šarrat- u (ملكة)	شَرُّ	Šarr- u[5] (ملك)
- الأوغاريتية	إِلاَتُ	ʾilātu (إلهة)[6]	إل	il (إله)
- العبرية	تحيت	Taḥtit (سيئة)	تحتي	Taḥti[7] (سيء)
- السريانية	بيشتا	bištā (سيئة)	بيشا	bišā (سيء) [8]
- إثيوبية	بئسيت	bəʾsit (امرأة)	بئسي	bəʾsi [9] (رجل)
عربية		Malikat (ملكة)		malik (ملك)

لكننا نرى أن شكل المؤنث في اللغات السامية قد ينأى في القانون المعمول به ليصبح قانوناً أوسع وأشمل بشكل يتحول معه كل من التذكير والتأنيث.إلى ظاهرة لا تحدها قواعد (اللغات السامية) الناظمة لها،

---

(4) هذه اللاحقة الدالة على التأنيث موجودة أيضاً في اللغة المصرية القديمة (s- ابن: S't- ابنة).

(5) كلمة (شَرُّ) الأكدية.بمعنى (الملك). تقابل من الناحية الاشتقاقية في اللغة العربية (الثري) من الثروة. أي العزة وكثرة المال والعديد من الناس. وفي الصحاح عن ابن السكّيت: يقال إنه لذو ثروة وثراء يراد به (ذو عدد وكثرة مال)، قال ابن مقبل

وثروة من رجال لو رأيتهم   لقلت إحدى حراج الجَرِّ من أُقُر

(6) ʾilātu: الاَتُ الأوغاريتية، زوجة الإله الأكبر (إيل) وهي إحدى كبيرات الآلهة في الهيكل الأوغاريتي السامي وربما هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مع (العزى).(أفرأيتم اللات والعُزّى) (النجم ١٩).

(7) كلمة (تحتي) العبرية.بمعنى (سيء ومنحط) تقابل من الناحية الاشتقاقية في اللغة العربية (تُحْتِي) جمع تُحُوت، الأرذال والسفلة. وفي الحديث(لا تقوم الساعة حتى تظهر التُحوتُ، وتهلك الوعول) قال ابن الأثير؛ جعل التُوت (مفرد تُحْتِي) الذي هو ظرف، اسماً، فأدخل عليه لام التعريف، وجمعه.

(8) كلمة (بيش) السريانية.بمعنى (سيء). تقابل في اللغة العربية من الناحية الاشتقاقية (بئس) من البؤس والشقاء. قال الفرزدق:

وبيضاء من أهل المدينة لم تَذُقْ   بئيساً، ولم تتبع حمُولة مُجحد

وعذابٌ بئيسٌ وبَئِيس، وبَيْئَسٌ، شديد. وفي التنزيل العزيز (بعذاب بئيس بما كانوا يفسُقون)(الأعراف ١٦٥). وبئس مهموز فعل جامع بأنواع الذم.

(9) كلمة (بئسي) الأثيوبية.بمعنى (رجل) تقابل في اللغة العربية من الناحية الاشتقاقية (بَئِسٌ).بمعنى (الرجل) الشجاع والشديد البأس من حذر (بُؤْسى). قال الشاعر ربيعة بن مقروم الضبي

وأجزي القروض وفاءً بها   ببؤسى بئيسى ونعمى نعيما

وربما كان سبب ذلك أن هذه الظاهرة تعود تاريخياً إلى المرحلة التي لم يكن فيها الجنس قد ترك دلالاته الواضحة على قواعد (اللغات السامية)، ولاشك أنها مرحلة سابقة فترة الاستقرار النحوي.

١- فمثلاً نرى أن التأنيث يحدد:

آ- بوساطة ألف ممدودة متبوعة بهمزة وزن (فعلاء) مؤنث (أفعل).

	مؤنث		مذكر	
عربي	-	صفراء	-	اصفر
عبري[10]	طوبا	Ṭôbâ (طيبةً)	طوب	ṭôb (طيب)
سرياني[11]	بيشا	bîšâ (سيئةً)	بيش	bîš (سيءٌ)

ب- أو بوساطة الألف المقصورة وزن (فُعلى) مؤنث (أَفعل) مثل صفرى مؤنث (أصفر).

عربي	-	صفرى
عبري	عسري	ʿesrê (عَشْرٌ)[12]
سرياني	عسري	ʿosrê (عَشْرٌ) [13]

ج- أو بوساطة الياء المفتوح ما قبلها (ay) مثل سلمى.

عربي	-	ليلى
عبري	ساراي	śāray (سيدةٌ)[14]
سرياني	تُعياي	tuʿyay (خلطة) [15]

---

[10] تقتصر العبرية والسريانية على الألف الممدودة فقط (â) لعدم وجود الهمزة في كل منهما.

[11] في العبرية والسريانية تمال ألف (فُعلى) فتصبح (ē).

[12] بينما نرى اللاحقة (e) في الإثيوبية لا تدل على التأنيث مثلاً. (army =sarwê) (beast = ʾarwe) (Time = gizê)

[13] كلمة (عسري) في العبرية والسريانية بمعنى (العدد ١٠). موجودة في اللغة العربية بنفس اللفظ والمعنى (عَشْرٌ) ولكن بعد إبدال السين شيناً حسب القاعدة.

[14] إن كلمة (ساراي) العبرية بمعنى تقابل في اللغة العربية من الناحية الاشتقاقية (السُّرُّ) فَرْجُ المرأة. ويقال: التقى السُّرانِ أي الفرْجان. جاء في حاشية (تاج العروس)، وشاهده قولها

لا يَمْدُدْ إلى سُرّي أحداً ... وإلى ما شاء مني فليمدّ

[15] جذر كلمة (تُعياي) السريانية والتي بمعنى (تَرَدُّدٌ وتَلَجْلُجٌ إلخ) مقابل في اللغة العربية من الناحية الاشتقاقية جذر (تَعْتَعَ): يقال تَعْتَعَ في الكلام، إذا تردد من حصر أو عي.
ومنه الحديث (الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه له أجران) أي يتردد في قراءته ويتبلد فيها لسانه. والتَّعْتَعَة. الفأفأة. يقال: وقعوا في تَعَاتِع، أي في أراجيف وتخليط نقله الجوهري.

٢- وتعرض اللغات السامية أسماء مذكرة لكن لها لاحقة مؤنثة مثل:

عربي	–	halifat	خليفة
عبري	قوهلة	qôhelet	اسم علم مذكر

٣- وهي بالمقابل تعرض أسماء مؤنثة لكن دون لاحقه مؤنثة:

عربي	–	nafs	نفس	–	ard	أرض
عبري	نفش	nepeš	نفس	إرص	'ereṣ	أرض
سرياني	نفشا	napša	نفس	أرعا	ar'a	أرض

في حين أننا نجد أن اللغة الأكدية في هذه الحالة ترتبط بلاحقة مؤنثة كما في الكلمتين (napištu) =(نفيشتو)(erṣetu)= (إريصتو) [١٦].

٤- كذلك نرى أن (اللغات السامية) تعرض سلسلة من الأوزان الاسمية تظهر على نحو جلي في الأكدية[١٧] وهذه الأوزان يظهر بعضها (بصيغة المؤنث) وبعضها الآخر (بصيغة المذكر)، لكن كلا الوزنين يستعمل للمذكر والمؤنث في آن واحد فمثلاً لدينا في الأكادية:

مذكر لفظاً		معنى مشترك	مؤنث لفظاً		معنى مشترك
rapšu	رَفشُ	عريض وعريضة	rapaštu	رَفَشتُ	عريض وواسعة
maškanu	مَشكَنُ	مسكن	maškantu	مَشكَنتُ	مسكن
tamhāru	تَمخَرُ	مواجهة مقابلة	tamhartu	تَمخارو	مواجهة مقابلة
taqurbu	تَقُرُب	اقتران	taqrubtu	تَقرُبتو	اقتران [١٨]

---

[١٦] واضح أن كلمة نفس العربية موجودة بنفس اللفظ والمعنى في السريانية والعبرية والأكدية والعربية ولكن بعد إبدال السين شيناً (أكادي، عبري، سرياني. نفش> عربي نفس) كذلك كلمة (أرض) العربية، ولكن بعد إبدال الضاد صاداً. لعدم وجود حرف الضاد إلا في اللغة العربية ولذلك سميت لغة الضاد، مع ملاحظة تطور الصاد إلى العين في السريانية. (أكادي . عبري. أرص > سرياني. أرعا> عربي . أرض).

[١٧] سلسلة الأوزان الأكدية:

وزن المذكر		وزن المؤنث	
qibir	قِبر	qibirt	قِبرتْ
maqbar	مَقبَرْ	maqbart	مَقبَرتْ
taqbir	تَقبِر	taqbirt	تَقبِرتْ

[١٨] كلمة (رفش) الأكادية ، بمعنى واسع وعريض، موجودة في العربية بنفس اللفظ والمعنى، جاء في (التاج) [رفش في الشيء رفوشاً : اتسع]. أما كلمة (مشكن) فهي تقابل (مسكن) العربية . وفعل (مَخرُ) الأكادي ، بمعنى (واجه وقابل) موجودٌ في

٥- كذلك نرى هذه الظاهرة في العبرية أيضاً[١٩]

مذكر لفظاً		معنى واحد	مؤنث لفظاً		معنى واحد
naqam	نَقامْ	النقام	neqamá	نقاما	النقام
na'on	ناعون	منزل ودار	ne'oná	نعونا	منزل ودار[٢٠]

ونلاحظ في العربية ظاهرة شبيهة بذلك مثل أب رؤوف ورحوم. وأم رؤوف ورحوم. وامرأة حامل ورجل علامة الخ...[٢١]

٦- إنّ أسماء أعضاء الجسم المزدوجة في (اللغات السامية) هي بشكل عام مؤنثة على الرغم من أنه لا يوجد في نهايتها علامة للتأنيث.

أكدية		عبرية		سريانية		أوغاريتية		حبشية		عربي
uznu	أُزْنُ	'ozen	أزن	'edná	إدنا	'udn	أُذنُ	'ezen	إزن	أذن

٧- الأعداد من (٣- ١٠) في (اللغات السامية)[٢٢] تستعمل (مؤنثة) دون أن تلحق بها علامة التأنيث: (خمس نساء) وتستعمل (مذكرة) على الرغم من وجود علامة التأنيث فيها: (خمسة رجال)[٢٣].

العربية بنفس اللفظ والمعنى. جاء في (التاج) تَنحرت السفينة تَنحَرُ وتَنحُرُ نَحراً ونُحُوراً. أي استقبلت الريح في جريها. وانتحر الفرس الريحَ. قابلها. كاستنحرها وتنحّرها: قال الراجز يصف الذئب

يستنحرُ الريحَ إذا لم يسمع ... بِمِثْلِ مِقراعِ الصَّفا المُوَقَّعِ

[١٩] أن التذبذب في تحديد المذكر والمؤنث في اللغات السامية قد انعكس على صياغة الجمع في مرحلة لاحقة لأن جمع التكسير غير الواضح الصياغة والجنس- كما سنرى- هو محصلة لكلمات غير واضحة الجنس في (اللغات السامية) وان كثرة أوزان جمع التكسير قد يكون أحد أسبابها كثرة أوزان المؤنث في (اللغات السامية).

[٢٠] الجذر العبري (نقم) موجود في اللغة العربية بنفس اللفظ والمعنى. أما (ناعون) العبرية بمعنى، بيت أو دار أو ملجأ .. الخ فهي من جذر (عَنَنَ). وهو يقابل في اللغة العربية جذراً بنفس اللفظ والمعنى أيضاً (عَنَنَ) ومنه العُنَّةُ بالضم أي (الحظيرة من الخشب) تكون على باب الرحل، تحبس فيها الإبل والغنم. ومن كلام العرب: (لا يجتمع اثنان في عُنَّةٍ) جمع عُنَنٌ. قال الأعشى:

ترى اللحم من ذابل قد ذَوَى ... ورَطْبٍ يُرَفَّعُ فوق العُنَنْ

[٢١] انظر مقدمة الدكتور رمضان عبد التواب لكتاب (البلغة) لابن الانباري ص ١١٤- ١١٥ وجاء في القرآن الكريم: الأعراف ٥٦/٧ "إنّ رحمة الله قريب من المحسنين" والعرب تقول أيضاً: امرأة قتيل وصديق.

قال جميل بثينة:

فليتَ كما كنّا تكون وأنتم ... صديق وإلا ما تبذلين زهيد

[٢٢] يستعمل معدودها مؤنثاً عندما تكون مذكرة ويستعمل معدودها مذكراً عندما تكون مؤنثة.

[٢٣] انظر المخصص لابن سيده ٩٨/٥ (باب العدد) حيث يقول:

- قد تستعمل علامة التأنيث في اللغات السامية لا لتحديد الجنس فحسب ولكن لتحديد المعنى أيضاً.

		أسماء مؤنثة	أسماء غير مؤنثة
١- المفرد	السريانية	zebattà - زبتّا (وقت)	zabnà - زبنا (فترة)
	العبرية	ʼoniyyà - أونيّا (سفينة)	ʼòni - أوني (أسطول)
	العربية	waraqatu (ورقةٌ)	Waraq (ورق)
٢- التصغير	السريانية	Yammeià= يميتا (بحرةٌ)	Yammà - يما (بحر)
	العبرية	melùnà - ملونا (كوخ)	màlòn مالون (خان)
	العربية	(baḥrat) (بحرةٌ)	baḥr (بحر)
		أسماء مؤنثة	أسماء غير مؤنثة
٣- النوع	العربية	صوفية	صوفي
	العبرية	ʼorehà - إريحا (قافلة)	ʼorèàḥ - أورئح (مسافر)
	السريانية	ṣufiyyat - صوفية (صوفية)	Ṣufiy - صوفي (صوفي) [٢٤]

وهكذا نرى في جميع (اللغات السامية) كلمات مشتركة لها مؤنث في معناها وليس من لفظها مثل رجل وأنثى وحمار وأتان[٢٥] الخ......إن تنوع عمل اللاحقة التي تدل على المؤنث تطرح تساؤلات عما إذا كانت قد وجدت أصلاً للمؤنث أم أنّ دلالاتها على التأنيث هي إحدى المهام التي أسندت إليها فيما بعد ضمن نظام تصنيف متعدد ومعقد لهذه اللاحقة لكن مما لاشك فيه أنّ عدم استقرار المذكر والمؤنث انعكس سلباً على ظاهرة المثنى في (اللغات السامية) عامة والعربية خاصة فكان(المثنى) ظاهرة غير ثابتة، أو محدودة، تترجح بين التردد والاحتمال.

(... وما بعد الاثنين من أسماء العدد من ثلاثة إلى عشرة تلحق هاء التأنيث إذا كانت للمذكر لأن أصل العدد وأوله بالهاء والمذكر أوّل فحملوه على ما يحافظون عليه في كلامهم من المشاكلة وتنزع منها الهاء إذا كان للمؤنث فيجري الاسم مَجرى عَنَاق وعُقاب ونحوهما من المؤنث الذي لا علامة فيه للتأنيث....).

[٢٤] إن كلمة (زبن) السريانية بمعنى المدة أو الوقت تقابل في اللغة العربية من الناحية الاشتقاقية كلمة(زمن) بعد الإبدال اللفظي، أي (قلب الميم باء . زمن > زبن) لتقاربهما في المخرج اللفظي. أما الكلمة العبرية (أُونيًا) بمعنى (سفينة) فتقابل في اللغة العربية من الناحية الاشتقاقية (إناء ، وآنية) مع الأخذ بعين الاعتبار (التطور الدلالي) للكلمة بين اللغتين العبرية والعربية، عبر الزمن ، والبيئة الجغرافية . أما كلمة (أُورِئح) العبرية ، بمعنى مسافر، فهي من جذر (راح) بمعنى رحل وسافر الموجود في اللغة العربية بنفس اللفظ والمعنى.

وأنتَ الذي عوَّدْتَ البذلَ راحلٌ   غداةَ غدٍ أو رائحٌ بهجير

[٢٥] المرجع المذكور في الحاشية رقم (٣) ص١١٦.

(المثنى)

لعل في مقدورنا القول: إن (التثنية) ظاهرة (عربية - سامية) قبل كل شيء، صحيح أنها موجودة في اللغتين اليونانية والسنسكريتية[26] ولها آثار في اللغات الجرمانية[27] لكنها تتجلى في أوضح أشكالها في (اللغات السامية) عامة، في الأكدية والأغارتية والعربية بشكل خاص.

١- ترد كلمة (اثنين) تسمية ليوم من أيام الأسبوع وكذلك في أسماء الأعداد أما (الاثنين) بكونها علماً على يوم من أيام الأسبوع، فهي من الأسماء العربية الإسلامية لأن العرب في جاهليتهم لم يطلقوا تسمية لكل يوم من أيام الأسبوع كما فعل الفرس وإنما أطلقوا على كل ثلاث ليال من كل شهر من شهورهم اسماً واحداً مستوحى من حال القمر وضوئه فيها[28] وكانوا يسمون يوم الاثنين (أهون وأوْهد وأهود)[29].

٢- أما (الاثنين) بكونها من أسماء العدد فربما تكون نقطة البدء لكن لاشك أن قسماً من (اللغات السامية) بما فيه العربية قد ضاع[30] لذلك لا يجد الباحث مادة وافرة يتخذ منها أدواته وأسبابه في البحث ليتوصل إلى رسم صورة واضحة وجلية لعديد من الظواهر التي ما زالت غامضة في اللغة العربية حتى الآن. على أية حال تبقى كلمة (الاثنين) كونها من أسماء العدد مادة ذات صور كثيرة في معجمات العربية. لكن المعنى الأصيل للمادة هو وجود شيئين أو طرفين متلازمين ومن هذه الفكرة جاء الفعل(ثنّى) في كل (اللغات السامية) بمعنى (طوى ولوى) فصار الشيء كأنه ذو شقين

آ- لكن المعنى الأصيل للمادة هو وجود شيئين أو طرفين متلازمين ومن هذه الفكرة جاء الفعل (ثنّى) في كل اللغات السامية بمعنى (طوى ولوى) فصار الشيء كأنه ذو شقين.

فمثلاً في:

الأكادية		العبرية		السريانية		الأوغاريتية		العربية	
Šamu	شَنُو	Šana	شْنَا	tno	تنوُ	tana	ثنا	ثنّى	-

لكن دراسة (اللغات السامية) تدل أنه يوجد لهذه الكلمة مفرد من لفظها ومعناها، ففي الأكدية ترد صيغة (واحد) (sten) للمذكر و (stet- stiat) للمؤنث.

وقياساً على ذلك يمكن الافتراض أن لكلمتي (ثنى) و(ثنتان) العربيتين اسماً مفرداً لم يألفه الاستعمال هو (ثن)[31].

---

[26] Gesenus, Hebrew Grammar (oxford) P. 244.

[27] Grim's Grammar 2nd. ed..p. 814.

[28] البيروني، الآثار الباقية طبعة ساخو ليبسك ص٦٣- ٦٤.

[29] ابن سيده، المخصص مج ٦، السفر التاسع، ص٤٦، الأيام والليالي والشهور للفراء ص٦.

[30] قال أبو عمرو بن العلاء (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لانتهى إليكم علم وشعر كثير) ابن الأنباري نزهة الألباء ص٣٣.

[31] يقول ابن سيده في المخصص مج٦، السفر التاسع، ص٤٦:
"والثاني الاثنان كأنه تثنية الاثن من التثنية وألفه وصل كانن على ما هو عليه قبل التسمية والجمع أثناء كأنهم جمعوا اثناً كأبناء وحكى سيبويه أن من العرب من يقول اليوم الثنى مُقرّ على لفظ الإفراد" أظن أن صواب الكلام في نص ابن سيدة هو "على ما هو عليه قبل التثنية) بدليل السياق.

٣- وقد شجع على هذا الافتراض تثنية كلمة (كل) في اللغات السامية بواسطة الألف فنراها تصبح في:

العربية	كلا		كلت[٣٢]	
في الأوغارتية	kl'â	كلتا	kl'atâ	كلتتا
في العبرية	kilayyim		كِلَيْم	
في الحبشية	(للمذكر) kilâtw	كلاتو	(للمؤنث) Kilâty	كلاتي

٤-المثنى في اللغات السامية وضع في الأصل للدلالة على الأزواج في الطبيعة كالأعضاء المزدوجة في جسم الإنسان وأسماء الأدوات والملابس المزدوجة[٣٣]... الخ غير أنه أصبح فيما بعد يعبّر عن التثنية مطلقاً، لكن المثنى بكونه موضوعاً نحوياً لم يبرز ،بشكل واضح، وفي جميع حالات إعرابه (الرفع والنصب والجر) إلا في (اللغات السامية) العتيقة المكتوبة بالخط المسماري كالأكدية والأوغاريتية إضافة إلى اللغة العربية المكتوبة بالخط الأبجدي، وإن دراسة هذه الظاهرة في تلك اللغات تبين أن علامة الرفع فيها كانت عبر التاريخ الألف والنون (ân) وأن علامة النصب كانت الألف الممالة والنون (ên) وأن علامة الجر كانت الياء والنون (in).

ويمكن تصور علامات المثنى في الأكادية والأوغاريتية والعربية على الشكل التالي:

		رفع	نصب	جر
علامات إعراب المثنى	أكادية	ألف ونون ân	ألف ممالة ونون ên	الياء والنون in
	أوغاريتية	ألف وميم âm	ألف ممالة وميم êm	الياء والميم im
قياساً	عربية	ألف ونون ân	ألف ممالة ونون ên	الياء والميم lm

مثلاً:

			علامة الرفع (الألف)		علامة النصب (الألف الممالة)		علامة الجر (الياء)	
Šarru (ملك)	شرّو	أكادية	Šarrân	شرّانو	Šarren	شرّين	Šarrin	شرّين
Ṭâbu طيب	طابُ	أوغاريتية	ṭâbâmi	طابام	ṭâbêmi	طابيم	ṭâbimi	طابيم
hadâ هذا	هذا	عربية	hagâni هذان		hagêni هذ(ے) ن		hagâyn هذين	

لكن التمييز بين حالتي النصب (ên) والجر (in) قد ضاع فيما بعد في الأكدية والأوغاريتية وربما في

---

[٣٢] قال أهل الكوفة: ان الألف في (كلا) و(كلتا) للتثنية والتاء للتأنيث (ابن الأنباري، الإنصاف المسألة ٦٢).

[٣٣] انظر المخصص لابن سيدة، مج٤، السفر ١٣ (كتاب المثنيات، باب ما جاء مثنى من أسماء الأجناس وصفاتها).

العربية (قياساً) وسيطرت الياء والنون (in) على الألف الممالة أي (ēn) < (in) وابتلعتها لأنها الحركة الأقوى وبذلك صارت [(الياء والنون. (in)]علامة النصب والجر في الأكدية والأوغاريتية والعربية بينما بقيت (الألف والنون= ān) علامة الرفع[٣٤]. لكن الياء والنون عادت فسيطرت مع مرور الزمن أكثر وأكثر حتى نراها في بعض اللغات المتأخرة نسبياً كالآرامية والفينيقية والعبرية تبتلع الألف والنون أيضاً لتصبح هي المسيطرة على حالات الإعراب[٣٥] كافة.

٥- أما في العربية فلم يبق من حالات نصب المثنى بالألف الممالة (ē) إلا رواسب كتابية قليلة.ونادرة[٣٦] جداً ولكن نظراً لطبيعة الكتابة العربية التي لا تملك رسماً لمثل هذه (الألف الممالة)[٣٧] كتبت ألفاً عادية مثل (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم) (طه ٦٣) والأصل فيها (ان (هذ(ē) ن) لساحران) قياساً على الأكدية والأوغارتية التي لايوجد نظام كامل لجميع حالات إعراب المثنى إلا فيها.

٦- لكن البحث في هذه الظاهرة اللغوية يؤدي إلى القول: إن ظاهرة المثنى التي برزت في العربية منذ أقدم العصور وحتى الآن لم تكن ظاهرة ثابتة القواعد محدودة الصورة فثمّة تردد وترجيح في صيغة المثنى نفسه وهي صيغة الفعل الذي أسند إليه فلم يتحمل هذا الفعل ضمير المسند إليه على هيئة التثنية ولتوضيح القول أكثر يمكن أن نشير إلى بعض الحالات التالية في اللغة العربية :

أ- في الضمائر المنفصلة اختفى ضمير المتكلم من المثنى واختفى أيضاً التمييز بين المذكر والمؤنث بالمقارنة مع المفرد والجمع.

متكلم للجنسين	أنا	؟	نحن
مخاطب	مذكر أنتَ مؤنث أنتِ	أنتما للمذكر والمؤنث	مذكر أنتم مؤنث أنتنّ
غائب	مذكر هو مؤنث هي	هما للمذكر والمؤنث	مذكر هم مؤنث هنّ

---

(٣٤) Sabatino Moscati: An Introduction to the comparative Grammar of the Semitic languages P. 93 Wiesbaden 1980.

(٣٥) تقلصت ظاهرة المثنى في اللغات السامية كثيراً حتى نراها في الآرامية والفينيقية والعبرية تستعمل على نطاق ضيق جداً وفي شروط خاصة وقد سيطرت الياء المفتوح ما قبلها لتشمل كل حالات الاعراب فصارت علامة الرفع والنصب والجر بينما نرى المثنى قد اختفى في كل من السريانية والحبشية ولم يعد يظهر في السريانية إلا في لفظتين (trēn= اثنان و tartēn = واثنتان) وكذلك (matēn)، وفي الحبشية أيضا لفظتان (Klētu= كلاتو). (Klē(ē) = كلاتي) و(ed ē = يدان).

(٣٦) من الملاحظ أن ألف المثنى الممالة لم تختف قبل أن تترك أثرها الواضح والباقي حتى الآن وهو (الفتحة) قبل ياء المثنى في معظم اللغات التي احتفظت منها مثل العبرية والآرامية والعربية متحدية بذلك الياء القوية التي تجر الحرف الذي قبلها عادة، مما استدعى وجود ما يسمى (نون الوقاية) في اللغة لتلافي جر الفعل الذي تتصل في آخره الياء.

(٣٧) تملك العربية ثلاث حركات طويلة هي (الألف والواو والياء) وثلاث حركات قصيرة هي (الفتحة والضمة والكسرة) ولا تملك حركة كتابية (للإمالة= ē) بالرغم من وجودها في تقاليد القراءات القرآنية.

وقد نتج عن هذا غموض واضح في الإسناد إلى الأفعال فعبارة (نحن نلعب) مثلاً تستعمل للمثنى والجمع. وعبارة (أنتما تلعبان) تستعمل للمذكر والمؤنث في حين أن الضمير (هما) يستعمل للمذكر والمؤنث معاً. لكن في حالة الإسناد يفرق بينهما فتقول (هما يلعبان) (هما تلعبان)....

ب- فعل الأمر في حالة المثنى: لا يفرق بين المذكر والمؤنث فنقول:

	مفرد	مثنى	جمع
مذكر	العب	العبا	العبوا
مؤنث	العبي	للمذكر والمؤنث	العبن

ج- وكذلك هو الأمر في حالة ضمائر المثنى (المتصلة) فنرى أن ضمير المثنى (المتكلم) قد اختفى.كذلك اختفى التمييز بين المذكر والمؤنث في المخاطب والغائب بالمقارنة مع المفرد والجمع.

الضمير	مفرد	مثنى	جمع
متكلم (للجنسين)	اسم: كتابي فعل: ضربني	؟ [38]	اسم: كتابنا فعل: ضربنا
مخاطب	(مذكر) كتابكَ/ ضربكَ (مؤنث) كتابكِ/ ضربكِ	كتابكما/ ضربكما للمذكر والمؤنث	مذكر/ كتابكم/ ضربكم مؤنث/ كتابكنّ/ ضربكنّ
غائب	(مذكر) ضربه/ كتابه (مؤنث) ضربها/ كتابها	كتابهما/ ضربهما للمذكر والمؤنث	(مذكر) كتبهم/ ضربهم (مؤنث) كتبهُنّ/ ضربهنّ

د- وقد نتج عن هذا غموض واضح في الاسناد إلى الأسماء والأفعال فعبارة (كتابنا) أو (ضربنا) مثلاً تستعمل للمثنى والجمع وعبارة (كتابكما) أو (ضربكما) تستعمل لخطاب المذكر والمؤنث. وتستعمل عبارة (كتابهما) أو (ضربهما) للغائب المذكر والمؤنث...الخ.

٧- لذلك لو فحصنا أقدم النصوص العربية التي يُطْمَأنُ إلى صحتها لرأينا أن المثنى لم يكن ثابت القواعد.

آ- فمثلاً في قوله تعالى: ﴿أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[39] نرى أن أحد المتعاطفين، وهو مسند إليه، في حالة الجمع بينما الفعل وهو طرف في الإسناد قد تحمل ضمير التثنية.

ب- أما في قوله تعالى ﴿كِلتَا الجنّتين آتت أكُلَها﴾[40] فلم تتم المطابقة وقد خرّجها النحويون بقولهم إن لفظ (كلا) و(كلتا) مفرد. وقد حُمِلَ على اللفظ في هذه الآية.

---

[38] تملك الأوغاريتية نظاماً كاملاً للضمائر المتصلة في المثنى ففي حين نرى العربية تفتقد (مثنى) المتكلم نرى الأوغاريتية بالمقابل تملك مثنى لكل من المتكلم (ny) والمخاطب (kumā) والغائب (humā) لكننا لا ندري كيف يلفظ الضمير المتصل لمثنى المتكلم لأنه فُقِد من جميع اللغات السامية ولم يظهر إلا في الأوغاريتية.

[39] الأنبياء ٣٠، وانظر أبو عبيدة مجاز القرآن ص٩.

[40] الكهف ٣٣، انظر السيوطي همع الهوامع ج١ ص٤١.

ج- أما في قوله تعالى: ﴿هذان خَصمَان اختَصَمُوا في ربِّهم﴾[11] فقد أُسنِد الفعل إلى ضمير الجمع المذكر دون أن يُسنَد إلى ضمير الاثنين وبذلك لم تحصل المطابقة، وهذا وجه من وجوه الكلام في الأسلوب القرآني.

د- وفي قوله تعالى ﴿والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُما﴾[12] حصلت المطابقة بين المسند والضمير في كلمة (أيدي) لكن كلمة (أيدي) نفسها جمع وليست مثنى.

هـ- أما في قوله تعالى: ﴿وإنْ طائِفَتَانِ مِنَ المؤمنينَ اقْتَتَلُوا فأصْلِحُوا بينهما﴾[13] فلم تحصل المطابقة لأنه أسند الفعل إلى ضمير الجمع المذكر. والضمير في الظرف هو ضمير المثنى.

و- أما قوله تعالى: ﴿فقَالَ لها وللأرض ائْتِيا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَالَتَا أتَيْنَا طائِعين﴾[14] أسند فعل (قال) إلى ضمير المثنى إشارة لقوله (لها) و(للأرْض) لكن هذا المثنى وصف بوصف الجمع المذكر العاقل في قوله (طائعين).

مما تقدم نخلص إلى القول: إن المثنى في جميع (اللغات السامية) ظاهرة غير مستقرة بشكل عام من ناحية القواعد وقد انعكس هذا على التطبيق لذلك كان تقلقل المثنى محصلة طبيعية لتقلقل قواعده. على أية حال يبدو أن العربية كانت حتى زمن نزول القرآن تُدخل (المثنى) في حيز الجمع وقد عومل كذلك في أمثلة كثيرة من القرآن الكريم كما ظهر من العرض السابق.

٨- أما ألف الإمالة (ē) فقد كانت علامة للنصب في المثنى في مرحلة ما من مراحل تطور اللغات المسمارية كالأكدية والأوغارتية ثم العربية قبل أن تبتلعها الياء نهائياً لتصبح هي علامة النصب والجر كما يلي:

أكادي أوغارتي عربي	رفع	نصب	جر
	ān	ēn	īn

أكادي أوغارتي عربي	رفع	نصب وجر
	ān	īn

هذه الألف الممالة (ē) صارت تكتب ألفاً طويلة (ā) في العربية فيما بعد، ربما لعدم وجود رسم خاص للألف الممالة فيها. وقد أدى إلى هذا الطمس عدم رجوع النحاة الأوائل إلى (اللغات السامية) لتتبع التطور اللغوي للغة العربية مما أوجد كثيراً من الغموض في تفسير الرواسب التي تعود إلى تلك الفترة الانتقالية، أي مرحلة تحول علامة النصب في المثنى (ē) التي تكتب ألفاً، إلى ياء. خاصة عندما شرع هؤلاء النحاة

[11] الحج، ١٩.
[12] المائدة، ٣٨، وانظر أبو عبيدة، مجاز القرآن ص٩.
[13] الحجرات ٩.
[14] فصلت ١١.

بقياس اللغة على نفسها ويفسرونها بنفسها بدل أن يستعينوا بعلم النحو المقارن و(باللغات السامية) شقيقات العربية.

وإذا كنا نغفر للنحاة الأوائل هذا نتيجة ظروفهم الخاصة وطبيعة المرحلة التي عايشوها فكيف لنا أن نغفره للغويين المحدثين خصوصاً بعد أن كشفت الحفريات الحديثة منذ مطلع هذا القرن لغات لم تكن معروفة قبل مثل (الأكدية- والآرامية- والايبلائية- والأوغارتية- والفينيقية..الخ).وهي كلها شقيقات للعربية وخير مساعد لها، وبعد أن وفرت المطابع الحديثة معاجم (للغات السامية) ومصنفات لقواعدها مفهرسة ومبوبة وجاهزة وهي تنتظر من يبحث عنها.فإذا رجعنا إلى الآية الكريمة (إنْ هذان لساحران) مثلاً نجد في كتب اللغة أن القراء كانوا وما زالوا يختلفون. فهذا يرفع ما ينصبه ذاك، وذاك يخفض ما يرفعه هذا[45] وقد حار الأوائل في تعليل هذه المشكلة، فزعم بعضهم أن في القرآن لحناً فقد روى أبو معاوية محمد بن خارم التميمي السعدي المتوفى ١٩٣ للهجرة عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام عن أبيه عن عائشة أنها قالت (ثلاثة أحرف في كتاب الله هن خطأ من الكاتب: قوله (إن هذان لساحران)[46] وهذه قراءة ابن كثير وحفص، أما أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر فقد قرآ (إنّ هَذَينِ لساحران) على الجهة الظاهرة المكشوفة وقد قرأ ابن مسعود (أنْ هذانِ لساحران) بفتح همزة إن وهي بمعنى (نعم)[47]. وقرأ أبيٌّ (إنْ هذان لساحران) بإسكان نون (إنْ) وقد تكلم النحويون في هذه واعتلوا لكل حرف منها[48] فقال بعضهم ببناء (هذان) وقال غيرهم بإعرابها[49]....الخ.

والقضية برمتها كما قلنا قضية تاريخية كانت فيها الألف الممالة في العربية (ې) علامة النصب في المثنى كما في الأكدية والأوغارتية لكنها كتبت فيما بعد في العربية ألفاً طويلة لعدم وجود رسم للألف الممالة في لغة الضاد.

٩- وقد بقيت في العربية رواسب من ذلك التاريخ السحيق لتلك الفترة الانتقالية التي تعود إلى وقت كانت فيه الألف الممالة (ې) هي علامة النصب قبل أنْ تطغى عليها الياء غير الآية الكريمة (إنّ هذان لساحران) والتي أصلها (إن (هذ(ې)ن) لساحران). ويمكن أن نذكر في هذا السياق بيتين من الرجز.

- (أحبُّ منك الأنف والعينانا)[50] وأصلها (والعيـ (ې) نا).

- (إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها) أي (غايتـ (ې) ها).

- أخذت الدرهمان واشتريت ثوبان)[51] أي (الدرهـ(ې) ـن) و(ثوبـ (ې) ين)....إلى آخره.

أما إذا كان التاريخ الذي بين أيدينا لم يتكلم عن تلك المرحلة الغابرة من عمر اللغة العربية فربما لقلة

---

[45] الطبري، تفسير ج ١٧ ص١٢٠.

[46] ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ص٥٠- ٥٢.

[47] الزمخشري، الكشاف ج٣ ص٦٧.

[48] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ص٣٦.

[49] الرضي الاسترابادي، شرح الكافية ج٢ ص١٧٢. (قال الاسترابادي: "ولزوم الألف في المثنى في، لغة بني الحارث بن كعب).

[50] الرضي الاسترابادي، شرح الكافية ج٢ ص١٧٢.

[51] ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ص٥٠ ابن فارس، الصاحبي ص٦٠ الذي في تأويل مشكل القرآن ص٥٠ هو (... وهي لغة بلحرث بن كعب يقولون: مررت برجلان وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه وركبت علاه..).

المصادر التي تبين تاريخ اللغة العربية ومسيرة تطورها وتطور لهجاتها.

وقد عرفنا أن شيئاً كثيراً من هذه الأسانيد قد ضاع وعفى عليه الزمان أضف إلى ذلك سوء تحري الرواه للهجات العربية مقيدة بالبيئة أو الإقليم وأخيراً محاولة إرساء العربية على هيئة لغة الصدر الأول للإسلام ممثلة بالقرآن والحديث واهتمام المسلمين بهذه اللغة، غيرة عليهم وتعصباً لهم.

١٠- على أية حال، لقد تفشت في اللغة العربية عناصر كثيرة من مادة كثيرة من مادة اللهجات الإقليمية ولعل جانباً مهماً من هذه الخلافات الإقليمية يبدو في كتب القراءات وربما لو تمت إعادة دراسة اللهجات العربية في ضوء اللغات السامية لأنتنا بعلم وافر عن تاريخ اللغة العربية، نحن بأمس الحاجة إليه وقد يعيننا على حلّ بعض الإشكالات التي كانت مثار خلاف عبر التاريخ بين النحاة عامة ليس في مسألة (المثنى) وإنما في مسألة (الجموع) أيضاً.

(الجمع)

تعتبر الجموع في اللغة العربية من المسائل المعقدة ولعل الاكتفاء بما جاء في كتب النحو واللغة حول هذه الظاهرة غير واف أو محقق للغرض الذي يصبو إليه علم النحو المقارن، لأن تدوين علوم اللغة العربية وصيرورتها على هذه الصورة من النضج لم يكن إلا في عصور متأخرة بالقياس إلى تاريخ اللغة الطويل، فقد جاء أنّ الذي وضع النحو هو أبو الأسود الدولي[52] (المتوفى ٦٩/٦٨٩) وهذا يشير إلى أنّ اللغة قطعت مراحل طويلة بحيث لم تسلّم للغوي سليقته، التي كانت تعصم لسانه من الزلل. أضف إلى ذلك أن اللحن والعجمة كانا قد تسربا إلى العربية حتى قبل هذا العصر.

فهذا (صهيب بن سنان النمري) وهو من صحابة رسول الله(ص) كان ينطق العربية متأثراً باليونانية لأن البيزنطيين كانوا قد اختطفوه وهو صبي فتأثر بذلك لسانه[53].

وما قيل عن صهيب، قيل مثله عن سحيم عبد بني الحسحاس الشاعر أنه كان يرتضخ لكنة حبشية[54] ربما كانت حبشية أو نوبية.

أما اللهجات فقد قضى عليها القرآن الكريم حيث ينكشف الستار لأول مرة عن عالم فكري تحت شعار التوحيد لذلك لم نستطع تحديد زمنها وإن يكن عهدنا بها قديماً جداً لكن كتب اللغة تشير إلى أجزاء من هذه اللهجات لا تؤلف إلا علامات يسيرة لها، وهي لا تتعدى العناصر الصوتية ولا تتجاوز مسائل الإبدال، على أن هذه لا ترسم صورة واضحة المعالم للغة الاقليمية، ولم يعدها علماء العربية شيئاً جديداً فالسيوطي يحشرها في باب (الرديء المذموم من اللغات)[55] كالكشكشة والكسكسة والتلتلة والعنعنة والفحفحة والعجعجة وغيرها، وهم لا يتفقون في نسبة كل من هذه إلى أصحابها الذين جرت ألسنتهم بها، فالعنعنة التي هي لغة قيس وتميم عند السيوطي، تعرض في لغة قضاعة عند الثعالبي[56] وفي اللسان غير هذا ، وربما علقوا اللهجة

---

[52] الجمحي: طبقات ١٢ ياقوت: إرشاد ٤/٢٨٠ ابن الأنباري، نزهة الألباء ٣- ١٣.

[53] ابن حجر الاصابة ٢/١٩٥، وقد جاء في البيان والتبيين ١/٧٢ أن صهيباً كان يقول: إنك هائن، يريد إنك خائن. (أي هالك).

[54] الجاحظ، البيان ١/٧١، وانظر الكامل ٢/٧٦٨ (ط. الدالي).

[55] السيوطي المزهر ١/٢٢١ وما بعدها.

[56] الثعالبي فقه اللغة (ط. بيروت) ص١٠٧ (في حكاية العوارض التي تعرض لألسنة العرب).

على واحدة لا تتعداها إلى غيرها، ومن ذلك (الاستنطاء) في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد، وقيس، والأنصار فهم يجعلون العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء مثل (أنطى) في (أعطى) لكن (أنطى) بالنون كلمة عربية أصيلة وليست لهجة بدليل وجودها في (اللغات السامية) الأخرى (بالنون) أيضاً مثلاً.

أكدية		أوغاريتية		عبرية		فينيقية		سريانية		عربية
nādanu	نَدانُ	ntn	نتن	nātan	ناتَن	ntn	نتن	natan	نَتَن	نطى

ولعل هذا، مايبين أن موضوع اختلاف اللهجات في الأقاليم والقبائل العربية غير متيسر للباحث.

١- غير أننا نستطيع أن نرصد عناصر لغوية قديمة جداً احتفظت بها اللغة العربية قد تدل على اختلاف اللهجات المحلية، ومن هذه العناصر (مادة الجمع) ولاسيما ما اصطلح علماء اللغة على تسميته (جموع التكسير) أي أنْ تجمع كلمةٌ واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع[57].

والمتتبع للأصول العربية قد يجد شيئاً غريباً في هذا الباب فالحِب (بكسر الحاء) وتعني المحبوب تجمع على (أحباب) و(حِبّان) (بكسر الحاء وتشديد الباء) و(حبوب) و(حِببة) (بكسر الحاء) و(حُب) (بضم الحاء)[58]، ولعل في هذا ما يدل أن هذه الصيغ ما هي إلا رواسب لهجات متعددة عند أقوام متعددة.

٢- لكن كثرة صيغ جموع التكسير في اللغة العربية ونموها وتطورها، أكثر من جميع (اللغات السامية) الأخرى تشكل ظاهرة تسترعي التأمل والنظر وقد تكون لها في اللغة العربية جذور أعمق من الاكتفاء بالقول بتعدد اللهجات، لكن قبل الغوص في جموع التكسير من الضروري أن نمر على الجمع المذكر السالم.

٣- لاشك أن الجموع السالمة قد أتت في مرحلة تالية لمرحلة التخبط الجنسي وعدم استقرار المذكر والمؤنث الذي ولَّد جموع التكسير أي في مرحلة صار الجمع فيها يصاغ بإضافة لاحقة على مفرده مذكراً كان أم مؤنثاً بحيث لو حذفت عاد الاسم سالماً كما كان وهذه اللاحقة هي واحدة في اللغات السامية ويمكن تصورها على الشكل التالي:

اللاحقة		أكادي	أوغاريتي	عبري	سرياني	حبشي	ملاحظات
الرفع	الواو ū	šurrū شرُّو	rp'um رفإم	حصان sūs سوس	سيء biš	عادل Ṣādiqi	في العبرية والسريانية
النصب والجر	الياء ī	šurrī شرّي ملوك	rp'im رفإم اشباح	sūsīm أحصنة سوسيم	بيش bīšīn بيشيم سيئات	صديق ṣādqān صادقان عادلون	سيطرت الياء والميم على جميع الحركات بينما في الحبشية سيطرت الألف والنون.

[57] انظر التطور النحوي، برجشتراسر، ص١٠٦ وما بعدها.

[58] اللسان والتاج مادة (حبب).

ويبدو أن نهايات الجمع هذه هي نتيجة لامتداد (الضمة) في حالة الرفع (والياء) في حالة الجر بينما نرى أن (الفتحة) قد امتدت إلى الألف في حالة النصب لكنها دمجت- فيما بعد- مع (الياء) في حالة النصب وبذلك احتلت الياء علامتي النصب والجر.

٤- لكن الأكدية تعرض مرحلة قد تكون مفقودة من (اللغات السامية) الأخرى وهي مرحلة بدء تحول (الألف) إلى (ياء) ثم اندامجها فيها أي الفترة التي بدأت تميل فيها الألف نحو الياء، لذلك نرى في النصوص البابلية والآشورية المتأخرة أن علامات جمع المذكر السالم في الأكادية هي[٥٩]

الرفع	ū = الألف	šarru	شرُو	<	šarrū	شرُوْ
النصب	ē = الألف الممالة	šarra	شرَّ	<	šarrrē	شرُو
الجر	ī = الياء	šarri	شرِ	<	šarrī	شري

٥- لم يبرز جمع المذكر السالم في جميع حالات إعرابه (أي الرفع والنصب والجر) إلا في (اللغات السامية) العتيقة المكتوبة بالخط المسماري كالأكدية والأوغارتية بالاضافة إلى اللغة العربية وإن دراسة هذه الظاهرة في اللغات السابقة تبين أن علامة الرفع كانت عبر تاريخ هذه اللغات الواو والنون (ūn) وأن علامة النصب كانت الألف الممالة (ē) وأن علامة الجر كانت الياء (ī).

علامات إعراب المثنى		رفع	نصب (الامالة)	جر
	أكادية	الواو = ū	ألف ممالة a > ē	الياء = ī
	أوغارتية	الواو = ū	ألف ممالة= a > ē	الياء = ī
قياساً	عربية	الواو= ū	ألف ممالة= a > ē	الياء= ī

٦- لكن التمييز بين حالتي النصب (ē) والجر (ī) قد ضاع فيما بعد في الأكدية والأوغارتية وربما العربية (قياساً) وشرعت في هذه الفترة الحركة الأقوى تسيطر على الحركة الأضعف، فسيطرت الواو (ū) على الإمالة (ē). أي تحولت الألف التي هي في تاريخنا اللغوي علامة النصب في جمع المذكر السالم في مرحلة ما من عمر اللغة العربية قياساً على الأكدية، إلى إمالة ثم إلى ياء (ā > ē > ī).

وقد بقيت بعض الشواهد النادرة التي تعود إلى تلك الفترة (اي المنصوبة بالألف الممالة) التي كتبت بالياء لعدم وجود حرف للإمالة في العربية مثل:

نحن اللذون صبحوا الصباحا   يوم النخيل غارة ملحاحا[٦٠]

وقوله تعالى (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) وكذلك قوله تعالى: (والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة)[٦١].

---

[59]An Introduction to the comparaticve Grammar of the Semitic Languages S. Moscati. Wiesbaden 1980 P. 87.

[٦٠] ابن عقيل، شرح الألفية ١/٧٣.

[٦١] سورة المائدة ٦٩، وسورة النساء ١٦٢، وانظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٥٦ وما بعدها. كذلك يرى ابراهيم أنيس في كتاب (أسرار اللغة ص ٢٠٦) أن هذا الجمع صيغتين موزعتين بين القبائل التي كانت تؤثر صيغة على أخرى، فمنهم من يؤثرون

٧- لا يمثل جمع التكسير المرحلة التي كانت فيها اللغة تعامل المذكر والمؤنث بالصيغة نفسها ولم يكن له قواعد محددة وواضحة (لصياغته) كالجمع السالم بنوعيه لذلك ضيّعت هذه الكثرة الكاثرة من جموع التكسير علماء اللغة والنحو الأقدمين. فذكروا أن جمع التكسير ما تغير بناء واحده كرجال وأفراس[12] لكنهم جعلوا (ركب) و(وفد) من أسماء الجموع ولو أنهما من (راكب) و(وافد) واعتبروا ما كان مفرده بالتاء التي تشير إلى الواحدة من أسماء الجنس[13] وذهب ابن يعيش إلى أن صيغ جموع التكسير أبنيةُ جمع على حسب واحده. فإذا كان الواحد خفيفاً، قليل الحروف قلّت حروف جمعه وحركات تكسيره، وإذا ثقل الواحد وكثرت حروفه، كثر ما يلحق جمعه، لما ذكرنا، من أن الجمع بزيادة على الواحد[14]. وقد قال جماعه من اللغويين إن الجمع فكرة مؤداها أن الزيادة في المعنى تعتمد على الزيادة في البناء[15] كذلك حار علماء اللغات الأوربيون في صيغ جموع التكسير هذه وطريقة بنائها فاعتبر بعضهم أن هذه الصيغ أسماء مفردة تضمنت معنى الجمع[16] وذهبت جماعة إلى القول: إن المقطع الذي يدخل حشوا في المفردة هو الذي يولد صورة الجمع[17] ومنهم من رأى أن الجمع في (اللغات السامية) عامة كلمة مجردة (abstract) الجنس (nature)[18]. لكن البحث المقارن في نحو (اللغات السامية) يمكّننا من القول: إن جموع التكسير التي تتأرجح بين التذكير والتأنيث في اللغة العربية تغيّبُ مرحلة بدائية جداً من تاريخ هذه اللغة وعمرها، لم يكن الجنس فيها بعد قد ترك دلالاته الواضحة وبصماته المميزة على قواعدها.

٨- يصاغ جمع التكسير بوساطة استعمال ميزان مختلف عن ميزان الكلمة في المفرد. ويمكن أن يعتبر إحدى ظواهر (اللغة السامية) الأم لأن أوزانه مستعملة في جميع (اللغات السامية) ولكن استعماله بشكل نظامي وواسع لا يوجد إلا في العربية والأوغاريتية والأثيوبية[19].لكن توجد في العبرية والسريانية والأكدية بعض الآثار المهمة والنادرة لجمع التكسير.

	جمع تكسير		المفرد		الملاحظات
عبري	rekeb ركب	ركبو	rökeb راكب	روكيب	
عربي	rakbu رَكْبُ		rakib راكب		واضح أن الجمع قد تم بتغيير صورة.
	qura	قرى	qaryat	قَرْيَة	المفرد وليس بإضافة لاحقة على الاسم

الصيغة بالواو في كل الحالات مثل (قبيلة تميم)، ومنهم من يؤثرون الصيغة بالياء مثل (سكان الحجاز ومنهم قريش) ثم خص النحاة الصيغة الأولى بالرفع والصيغة الأخرى بحالتي النصب والجر؟

(٦١) الرضي، شرح الكافية ٢/١٩٠.

(٦٢) سيبويه الكتاب ٢/٢٠٣.

(٦٣) ابن يعيش: شرح المفصل ٥/١٥.

(٦٤) البيضاوي: تفسيره (الطبعة الأوروبية).

(66) Wright, Arabic Grammar, London. 1862.

(67) Dillmann. Grammatik der aethiopischen sprache P. 237.

(68) E. Meyer, Die Bildung undd Bedeutung des pluriel in den semitischen und indogermanschen sprachen P. 16.

(69) An Introduction to the comparative Grammar of the semitic languages S. Moscati .Wiesbaden 1980 P. 89.

سرياني	قرى qurya	قُريا	قرية qerità	قريتا	الذي يبقى كما هو في حالة الجمع
	حمير hemrà	حمرا	حمار hemàrà	حمارا	
أكادي	suhrum صغيرون	صُخُرم	Ass. sahrum Bab. sehrum صغير	صَخْرُم صبخرم	

٩- يصاغ جمع المؤنث السالم في اللغات المعربة الأواخر بزيادة ألف وتاء مرفوعة في حالة الرفع ومجرورة في حالتي النصب والجر ما عدا العبرية حيث تتحول الألف إلى واو.

	الأكدية		أوغاريتية وعربية	حبشية	عبرية (ōt)[70]	سريانية	
رفع	àtu	šarràtum (شَرّاتُم) ملكاتٌ	ملكاتٌ malikatàn	sadqàt صَدَقَة	= bràkà (بركا) بركة ↓	= bišà (بيشا) سيء ↓	العبرية والسريانية غير معربتي الأواخر
نصب جرّ	àti	šarràtim (شَرّاتم) ملكاتٍ	ملكاتٍ malikatin	sàdqàt صَدَقَات	(براكوت) =bràkòt بركات	(بيشا) bišàt سيئات	

١٠- لكن اللاحقة الطويلة (ات) أصبحت في (اللغات السامية) علامة للجمعين معاً. أي امتدت لتجمع الأسماء المذكرة أيضاً.

الأكدية	(نهر) naru نرو جمعها nàeràtu (نارات) (فلاح) ikkàru جمعها ikkàratu (إكّارتو)	ملاحظات
عبرية	(قوس) qeše (قشي) جمعها qešàtòt (قشاتوت)	
أثيوبية	(ماء) may مي جمعها mayat (مايات) (مذكر)	
عربي	رجل رجال رجالات	

١١- في اللغات السامية أيضاً يمكن ان نلاحظ حالات لكلمات كثيرة مؤنثة في حالة المفرد لكنها تجمع جمعاً مذكراً.

	مؤنثة في المفرد		مذكرة في الجمع	
عبرية	(سنة) šenòt	شَنُوت	šànim	شانيم

(٧٠) تظهر في العربية بعض الجموع المبهمة التي تصاغ على الطريقة العبرية مثل كهنوت جبروت ملكوت..الخ.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

سريانية	gennetà (جنة)	جنتا	ganné	جنّي
عربية	ḥarrat = حرة (الأرض المحجرة)	-	ḥirrùna = حرّون و (ḥarràt = حرّات)	
أكادية	kabùtu رَوْثٌ	كبُوت	kabù	كبُو

١٢- كذلك نرى حالات لكلمات تجمع جمعاً مؤنثاً سالماً في حين أن مفردها ليست فيه علامة تأنيث (أي مذكر شكلاً).

	مفرد في المذكر		مؤنث في الجمع	
سريانية	ḥaqlà (حقل)	حقلا	ḥaqlàtà	حقلاتا
عربي	حساب		حسابات	
أكاديه	(طريق) ḫarrànu	خَرّانو	ḫarrànàtu	خَرّاناتو

هذه الظاهرة التي تطورت كثيراً فيما بعد لتغطي معظم (اللغات السامية) (أي جمع المفرد المذكر جمعاً مؤنثاً سالماً مثل قطار قطارات..الخ) تشجع على الافتراض أن الألف والتاء الطويلة لم تكن علامة للجمع المؤنث، وإنما علامة للجمع المذكر أيضاً.

١٣- كثير من الأسماء الثنائية تجمع في (اللغات السامية) بإضافة حرف ثالث إليها وهذا الحرف يكون بشكل عام هو حرف (الهاء) مثل

	مفرد ثنائي		يجمع بإضافة حرف ثالث عليه	
عبرية	àmà (أمة)	أما	àmàhòt	أماهوت
سرياني	šemà (اسم)	شِمَا	šemahé	شِمَاهي
عربي	šafat (شفة)		šifàh (شفاه)	شفاه
	sanat (سنة)		sanahàt (سنهات) sanawàt (سنوات)[٣١]	سَنَهات سنوات
	umm (أم)		'ummahat (أمهات)	

١٤- مما سبق يمكن القول: إن جموع التكسير سبقت الجموع السالمة وهي تُعيِّن مرحلة بدائية في تاريخ اللغة كان الجنس فيها يترجّح بين التذكير والتأنيث فكانت جموع التكسير ممثلة لتلك المرحلة القلقة من عمر اللغة قبل استقرار المذكر والمؤنث وبالتالي استقرار جمعها، وقد أبقت لغة القرآن هذه الناحية على كمالها وبيانها

[٣١] للمزيد. انظر سيبويه الكتاب ١٨ (الطبعة الأوربية).

(فالأنعام) وهي جمع تكسير جاءت في الآية الكريمة ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرةً نسقيكم مما في بطونه﴾[72].

- كذلك جاء في قوله تعالى: ﴿أو الطفلِ الذين لم يظهروا على عوراتِ النساء﴾[73].

- وكذلك قوله تعالى ﴿ويُنْشِيءُ السَحابَ الثقال﴾[74].

- وقوله تعالى ﴿والسحاب المُسَخَّر بين السماء والأرض﴾[75] فقد وصف السحاب في الآية الأولى بـ(الثقال) وهي جمع تكسير، في حين أنه وصفَ بـ(المسخر) في الآية الثانية على أننا نجد السحاب في آية ثالثة موصوفاً بالجمع ثم عاد عليه ضمير غائب مذكر مفرد كما في قوله تعالى:

﴿حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سُقْنَاه لِبَلَدٍ ميّتٍ فأنزلنا به الماء﴾[76].

- وكذلك قوله تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفُلْك المَشْحُون﴾[77].

- وقوله تعالى ﴿والفُلْكَ تجري في البحرِ بأمرِه﴾[78]

- وقوله تعالى ﴿حتى إذا كُنْتُم في الفُلْك وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طَيّبةٍ﴾[79].

- وقوله تعالى: ﴿وترى الفُلْكَ مواخر فيه﴾[80].

فقد وُصفت الفلك بوصفٍ مذكر وهو (المشحون) ثم أنثَ الفعل في الآية الثانية، وفي الآية الثالثة جاء المسند فعلاً مسنداً لنون الإناث، ونون الإناث ألصق بالعاقل من غير العاقل، وهذا تحقيق أكيد للتأنيث لكن اللغويين يقولون عن هذه الكلمة إنها(تقع على الواحد وعلى الجميع)[81].

وقال تعالى: ﴿وأَوْحَى ربّك إلى النحلِ أنِ اتّخِذِي من الجبال بيوتاً﴾[82] والفعل مسند إلى ياء المخاطبة.

وقال تعالى: ﴿كأنّهم أعجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِر﴾[83].

---

[72] سورة النحل ٦٦ جاء في المجاز لأبي عبيدة ١/٣٦٢ يذكر ويؤنث وقال آخرون: المعنى على النَّعَم لأن النعم يذكر ويؤنث كما في قول الراجز

أكلَّ عامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ يُلْقِحُه قومٌ وتَنْتِجُونَه

أربابُه نَوْكَى ولا يَحْمُونَه

والرجز لقيس بن الحصين الحارث كما في الكتاب ١/٥٣ والخزانة ١/١٩٦ والعيني ١/٥٢٩.

[73] سورة النور/٣١.

[74] سورة الرعد/١٢.

[75] سورة البقرة/ ١٦٤.

[76] سورة الأعراف/ ٥٧.

[77] سورة الشعراء/١١٩.

[78] سورة الحج /٦٥.

[79] سورة يونس/٢٢.

[80] سورة النحل /١٤.

[81] أبو عبيدة، مجاز القرآن١/ ٦٦، ٢٨٨.

[82] سورة النحل/٦٨.

[83] سورة القمر/ ٢٠.

وقال تعالى: ﴿والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد﴾[84].

والنخل في الآية الأولى وُصف بمذكر، وفي الآية الثانية وصف بجمع مؤنث ثم عاد إليه ضمير غائب مؤنث، لكن النحويين القدماء حملوا الجمع على التأنيث[85]. وعندهم أن زيادة علامة التأنيث في آخر الجمع، كالتاء والألف المقصورة والألف الممدودة، وإنما زيدت لتحقيق التأنيث[86] وعند المبرد أنّ كل جمع مؤنث، لكن كيف يمكن أن يتأول قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة﴾[87].وقوله تعالى ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعنَ أيديهن﴾[88] لاشك أن جميع ما عرض من النصوص القرآنية هذه تبين أن جموع التكسير في عصر النبوة لم تكن قد وصلت إلى حد القواعد المقررة، نتيجة عدم استقرار الجنس نفسه أي المذكر والمؤنث لذلك لم تتبع نظاماً مضبوطاً من حيث علاقتها بالضمائر والأفعال والوصف أو ما يمكن أن نسميه (السياق العام).

١٥- لكن ما ساعد على ازدهار جموع التكسير، ونموها في العربية دون (اللغات السامية) الأخرى ربما كان تعدد اللهجات الإقليمية، إذ من المعلوم أن بعض الأقاليم تستخدم المد، وقد ساعد هذا على نشوء صيغ متجددة من جموع التكسير فكلمة (تارة) تُجْمَع على (تيرٍ)، ولكنها تصبح (تيارا) باستطالة الفتحة[89] بل إن بعض الأقاليم تطيل في الحركات حتى تصبح مداً طويلاً فكلمة (أسُد) جمعت بضم الهمزة وإسكان السين أو ضمها، فإذا أشبع الضم على السين صار مداً وصارت الكلمة (أسود) ومثل هذا (أحبة) و(أحباء) وقد نتج عن ذلك سلسلة متوالدة من الجموع التي لم تتبع نسقاً معيناً وإنما تكونت من استعمال الناس وما درجت عليه ألسنتهم أو بعبارة أخرى إن هذه الصيغ لم تكن مقررة أو مبنية على قواعد ثابتة وإنما كانت سماعية تخضع لمألوف المتكلم في الاستعمال المحلي.

١٦- وفي قراءات القرآن مادة لغوية غزيرة.فقد جاء في قوله تعالى ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[90] وسُكارى (بضم السين) قرئت (سَكارى) (بفتح السين) و(سكرى) على أن يكون جمعاً[91] ولاشك أن الذي قرأ (سكرى) للدلالة على الجمع بجمع. المفرد (سكران) على (سَكْرى) مثل (هلكى) و(أسرى) و(جوْعى).ومثل (سُكارى) (كُسالى) فقد وردت في قوله تعالى ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾[92]. وقرئت بضم الكاف وفتحها[93] وهي جمع (كسلان) وقد جمع هذا على (كَسْلى) مثل (سكرى) في (سكران)[94] وقد قيل إن مفردها (كَسَل) بفتح فسكون أيضاً، وعلى هذا الوزن

---

(84) سورة ق ١٠.

(85) الزمخشري، المفصل ٨٣ (الطبعة الأوربية) وط. دار الجيل، بيروت ص١٩٨.

(86) المبرد، الكامل ٤ (الطبعة الأوروبية).

(87) سورة يوسف/ ٣٠.

(88) سورة يوسف/ ٥٠.

(89) الجوهري، الصحاح (تير).

(90) سورة النساء/٤٣.

(91) الزمخشري الكشاف ٥١٣/١.

(92) سورة النساء/ ١٤٢.

(93) الزمخشري النساء/ ١٤٣.

(94) اللسان مادة (كسل) وأبو عبيدة، المجاز ٢٦٦/١.

جاء (حوايا) جمعاً في (حوية) و(خطايا) جمعاً في (خطية) و(أيامى) جمعاً في (أيم) كما في قوله تعالى: ﴿إلاّ ما حَمَلتْ ظُهُورُهما أو الحوايا﴾[٩٥] وقوله تعالى: ﴿إنا آمنّا بربنا ليغفرَ لنا خطايانا﴾[٩٦] وقوله تعالى ﴿وانكحوا الأيامى منكمْ﴾[٩٧].

ومن هذه الصيغة (الأسارى) جمع في (الأسير) كما في قوله تعالى ﴿وإن يأتوكم أسارى تُفادوهم﴾[٩٨] وقرئت (أسارى) بفتح الهمزة و(أسْرى) كما في (سكرى)[٩٩] وقد وردت أسرى في مكان آخر من قوله تعالى: ﴿ما كان لنبيٍ أن يكونَ له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض﴾[١٠٠]. ومثل هذه الصيغة قوله تعالى ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾[١٠١] وقد قرئت (فرادى) و(فردى) جمعاً (لفرد) و(فردان) وقد رأينا أن مثل هذه الصيغة من صيغ الجمع تكون لعدة صيغ من المفرد، كما أنها تشترك مع صيغة أخرى هي (فعلى) وهذه الصيغة تقوم على مفرد من وزن (فعيل) في الغالب الكثير مثل (قتيل) و(قتلى) و(جريح) و(جرحى) وربما اشتركت هذه الصيغة، وهي صيغة جمع مع صيغة المفرد المؤنث وهي (فعلى) لمذكر هو (فعلان) مثل (سكران) و(سكرى).

١٧- هذه الأجزاء أو الرواسب اللغوية ذات الصيغ المعقدة والمتشابكة ربما هي خير دليل على (اللهجات المحلية) التي قد توغل في فعلها أكثر عندما تدخل (الإمالة) أيضاً فتعمل عملها فتصبح (كسالى) بإمالة الألف نحو الياء عند القائلين بالإمالة، وقد تمال أكثر حتى تغدو (ياء) كما في (صحارى) بالألف (وصحاري) بالياء.

١٨- وقد يكون لصيغ الجمع الواحدة أكثر من مفرد مثل (أكنّة) في قوله تعالى:

﴿أكِنّةً ان يَفْقَهُوه﴾[١٠٢] فمفردها (كنان)[١٠٣] و(كن)[١٠٤] وقولهم: (الحذافير) جمع (الحذفور) و(الحذفار)[١٠٥]. و(أظافير) جمع (ظفر) أو (أظفور).

١٩- أو جمعاً لصيغ متعددة من الجموع، ويسمى هذا في العربية (جمع الجمع). مثل جمع (الرجل) و(الرجال) على (رجالات). و(بلد) (بلاد) على (بلدان). والأقاويل والبيوتات إلخ فقد جاء في الاشتقاق لابن دريد (بيوتات العرب الثلاثة) ابن دريد، الاشتقاق) (الطبعة الأوروبية)٢٣٨.

٢٠- وعلى العكس فقد يكون للمفرد الواحد غير جمع مثل جمع كلمة (المُطْفِل) وهي امرأة ذات طفل على

---

[٩٥] سورة الانعام |١٤٦.

[٩٦] سورة طه |٧٣.

[٩٧] سورة النور |٣٦.

[٩٨] سورة البقرة| ٨٥.

[٩٩] الزمخشري الكشاف ١|١٦٠. اللسان (أسر).

[١٠٠] سورة الأنفال| ٦٧.

[١٠١] سورة الأنعام |٩٤ أبو عبيدة المجاز ١|٢٠٠.

[١٠٢] سورة الانعام |٢٥.

[١٠٣] أبو عبيدة، المجاز ١|١٨٨.

[١٠٤] اللسان مادة (كنن).

[١٠٥] اللسان مادة (حذف).

(مطافل) و(مطافيل) مثل قول أبي ذويب الهذلي (من الطويل):

وإنْ حديثاً منك لو تبذلينهُ ... جنَى النحل في ألبان عوذٍ مطافلِ[١٠٦]

مطافيلَ أبكارٍ حديثٍ نتاجُها ... تُشابُ بماءٍ مثلِ ماءِ المفاصلِ

مثل ذلك (المفاتح) و(المفاتيح) و(الدراهم) (الصيارف) و(الصياريف)[١٠٧] قال الفرزدق:(من البسيط)

تنفي يداها الحصى في كلِّ هاجرةٍ ... نفيَ الدراهيمِ تنقادُ الصياريفِ[١٠٨]

٢١- كذلك جاء في كتب اللغة أن هناك جموعاً لا واحد لها مثل (العبابيد) و(المذاكير) و(الأبابيل)[١٠٩] .

الخاتمة:

١- إن التزام جمع السالم المذكر بالواو والنون أو الياء والنون، إشارة إلى أنه أحدثُ عهداً من جمع التكسير، وإلى أنَّ الجنس قد بدأ يستقر في قواعد اللغة وبذلك بدأت في هذه اللغة مرحلة جديدة تخضع فيها القواعد المقررة بعيداً عن الشذوذ وتعدد الألسنة واللهجات.

٢- في هذه المرحلة بدأت تستقر (اللغات السامية) أيضاً مثل الأكدية والأوغاريتية والعبرية فنرى الأكدية تخلصت من الإمالة في حالة النصب واستقرت كالعربية على الواو للرفع والياء للنصب والجر بينما نرى العبرية تذهب إلى أبعد من ذلك فتتخلص نهائياً من جموع التكسير وتستقر فيها الياء لجميع الحركات في حالة الجمع بينما تركت النون واستبدلت بها الميم[١١٠].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

[١٠٦] الرضي، شرح الشافية ٤|١٤٥ وانظر ديوان الهذليين (ط. دار الكتب) ص ١٤٠- ١٤١.

[١٠٧] قد يكون كل زوج من صيغ (فعالل) و(فعاليل) (أفاعل) و(أفاعيل) (مفاعل) ومفاعيل) صيغاً متشابهة في الأصل لكن استعمال المد الحاصل من اشباع الكسرة عند أصحاب المد حولها إلى ياء فتكونت صيغة جديدة موازية للأول لكن بياء.

[١٠٨] من أبيات سيبويه ١|١٠ وديوان الفرزدق ٥٧٠ والخزانة ٤|٤٢٥- ٤٢٨ وفيها: ٤٢٧ (وقال لي علي بن سليمان: واحد الصياريف صيرف، وكان يجب أن يقول صيارف.. وعند الشنتمري الشاهد في الصياريف، قال: زاد الياء في الصياريف ضرورةً تشبيهاً لها بما جُمع في الكلام على غير واحد، نحو ذكر ومذاكير، وصبع ومسابيح..".

[١٠٩] صاحب اللسان يذكر للجمع الأخير ثلاثة مفردات هي (أبيل) بتشديد الباء و(أبول) بتشديد الباء وفتحها و (أبالة) بتشديد الباء أيضاً (اللسان مادة (أبل) بينما أدخله الزمخشري في باب (جمع ليس على زنته واحد) (الزمخشري المفصل (الطبعة الأوروبية)١٥).

[١١٠] ما زالت النون باقية في آثار نادرة في العبرية مثل :(ملاكين) جمع ملك (سفر الأمثال) ٣١|٣. (حطين) جمع حنطة (سفر حزقيال ٤|٩)، (مدين) القضاة (٥|١٠) (يامين) دانيال (١٢|١٣).gesenius, Hebrew Grammar P. 242

المراجع والمصادر الأساسية

آ- المراجع العربية:

١- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين. كمال الدين أبي البركات الأنباري- دار الفكر بيروت.
٢- الإيضاح في علل النحو للزجاجي، تحقيق الدكتور مازن المبارك. الطبعة الرابعة، دار النفائس، بيروت ١٩٨٢.
٣- التيسير في القراءات السبع للداني، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٤.
٤- الحجة في القراءات السبع، للإمام ابن خالويه، تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت ١٩٧١.
٥- الدراسات اللغوية عند العرب. محمد آل ياسين، مكتبة الحياة بيروت لبنان ١٩٨٠م.
٦- كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.
٧- لسان العرب لابن منظور، طبعة دار صادر، بيروت لبنان.
٨- لمع الأدلة في أصول النحو للأنباري، تحقيق سعيد الأفغاني مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧.
٩- مختصر شواذ القرآن من كتاب البديع (القراءات الشاذة) لابن خالويه. شرح براجستر، مكتبة المتنبي، القاهرة.
١٠- المزهر للسيوطي. تحقيق محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد النجار ومحمد أبي الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى- دار إحياء الكتب العربية القاهرة.
١١- معجم القراءات القرآنية، للدكتور عبد العال سالم مكرم والدكتور أحمد مختار عمر، الطبعة الأولى، مطبوعات جامعة الكويت ١٩٨٢م.
١٢- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ونسنك أرندجان فنسنك.
١٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي دار الكتب المصرية ١٣٦٤هـ.
١٤- المذكر والمؤنث لابن جني تحقيق وتقديم طارق نجم عبد الله، دار البيان العربي، جدة ط١/١٩٨٥.
١٥- المذكر والمؤنث لابن الأنباري تحقيق طارق عبد عون الجنابي، دار الرائد العربي، بيروت ط٢/١٩٨٦.
١٦- المقصور والممدود للفراء، حققه عبد الإله نبهان، ومحمد خير البقاعي دار قتيبة ١٩٨٣.
١٧- كتاب النوادر لأبي مسحل الأعرابي عني بتحقيقه عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١.
١٨- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي، دار المعرفة لبنان بيروت.

ب- المراجع الأجنبية:

1- Brown. F. Driver. S. R. Briggs. G.A.
A Hebrew and English Lexicon of the old Testament 1907.
2- Chali. W. Nassar. H.
Arabic Dictionaries and Annotated comprehenseve Bibliography 1971.
3- Dahood M. J: Proverbs and North West Semitic philology 1963.
4- De Moor J.C. Studeis in New Alphabetic Texts from ras shamra UF 1 (1969) pp. 167- 188.
5- Gardon. C.H. ugaritic Text Book. Grammar. Texts in transliteration cuneiform selections. Glossary. Indixes 1965.
6- Gray L.H. Introduction to semitic comparative Linguistics 1934.
7- Moscati. S. (ed). An Introduction to the comparative Grammar of the semitic languages 1964.
8- Rainey. A.F. observation on ugaritic Grammar UF 3 (1971).
9- Speiser. E.A: The terminative- adverbial in canaanite- ugaritic and Akkadian IEJ 4 (1954) PP. 108- 115.
10- Tomback. R.S: Acomparative Semitic Lexicon of the phoenician and qunic languages 1978.



تأثير الحضارتين و اللغتين، اليونانية و السريانية، في العلوم العربية

أ.د.محمد زهير البابا

مقدمة :

لم يكن للشعوب العربية، قبل ظهور الإسلام خبرة في دراسة العلوم الأساسية والتطبيقية . ولما بدأت الفتوحات الإسلامية تجتاز الأقطار المجاورة للجزيرة العربية لنشر الرسالة، استقرت بعض القبائل في تلك الأقطار، ناشرة ديانتها ولغتها . وكان من حكمة الرسول العربي الكريم الحض على مراعاة أهل الكتاب، واقتباس الحكمة وطلب العلم، من أي جهة وفي أي مكان . واستطاع المسلمون، منذ القرن الأول للهجرة نقل ما صادفوه من تراث علمي، يوناني أو فارسي أو هندي أو سرياني، إلى لغتهم، مستعينين ببعض التراجمة القاطنين في بلاد الهلال الخصيب، ممن يحسن إحدى تلك اللغات .

وخلال مدة لم تتجاوز ثلاثة قرون تمثلت الشعوب العربية علوم تلك الشعوب وإنجازاتها، وأضافت إليها حصيلة خبرة علمائها وتجاربهم، فبدأت العلوم العربية تنتشر بسرعة، وأصبحت مؤلفات علماء العرب والمسلمين من المراجع الأساسية لطلاب العلم، في شرق العالم الإسلامي وغربه، خلال العصر الوسيط .

وفي عصر النهضة الأوربية ظهرت طبقة من العلماء الباحثين، عرفوا باسم المستشرقين orientalistes، وكان هدفهم دراسة علوم الامم الشرقية وحضاراتها، لمعرفة مدى تأثيرها في الحضارة العالمية بصورة عامة، وحضارة أوربا بصورة خاصة . وكان من بينهم المتزمت الحاقد، الناكر لفضل العلماء العرب والمسلمين، كما كان منهم العالم المنصف والباحث المتعمق . ويعد المستشرق البلجيكي جورج سارتون من ألمع الباحثين عن تاريخ العلوم . نال شهادة الدكتوراه في علم التاريخ عام ١٩١١ م من مدينة Gand ببلجيكا.حاضر في عدة جامعات في أوربا، ثم انتقل الى شمال أفريقيا، وزار مصر ولبنان . أمضى عامين دراسيين في الجامعة الامريكية ببيروت، منكباً على دراسة اللغة العربية . وفي عام ١٩١٥ هاجر الى الولايات المتحدة حيث استقر، وتوفي فيها عام ١٩٥٣ م. أراد سارتون أن ينهل العلوم القديمة من منابعها الأصلية، فقام بزيارة عدد كبير من المكتبات والمتاحف العالمية، حيث اطلع على أقدم المخطوطات والأوابد المحفوظة فيها . وساعده على فهم مختلف علوم الشعوب العريقة بحضارتها إجادته لبعض اللغات القديمة، وخاصة اليونانية واللاتينية، وإلمامه ببعض اللغات الشرقية، وخاصة العربية والعبرية والسنسكريتية

والصينية، بالإضافة ألي معرفة تامة للفرنسية والإنكليزية والألمانية .

قام سارتون بوضع مجموعة من المؤلفات التاريخية، تتّبع فيها تطور العلوم، منذ ظهور الحضارة الإنسانية حتى عصره . وأوضح فيها كيف انتقل العقل البشري من التفكير الأسطوري، الذي كان يعتمد على الخيال والاوهام، والسحر والشعوذة، الى مرحلة التفكير الموضوعي، المبني على التجربة والقياس والمحاكمة العقلية .

بدأ سارتون بنشر أبحاثه التاريخية العلمية في مجلتين، وكان له الفضل في المشاركة بتأسيسهما في مدينة باريس، فصدرت الأولى منهما باسم ايزيس Isis عام ١٩١٢ م، وصدرت الثانية باسم أوزيريس Osiris عام ١٩٣٦ م، وكأنه كان يقرّ ضمناً أن منبع العلوم كان في أرض مصر .ولما كان هنالك كثير من المؤرخين، المتريّفين والمتزلفين والحاقدين، والناقلين للأخبار على لسان العامة، دون دراسة أو تدقيق وتمحيص، قد شوّهوا صفحات التاريخ عن قصد أو جهل، لذلك سعى سارتون لبيان الحقائق التاريخية، فسفه الرأي القائل بأن العلم بدأ في بلاد اليونان . وأثبت أن العلم اليوناني كان محصّلة لجهود مفكرين وتقنيين ظهروا في مصر وفي بلاد الرافدين . وأن هنالك حضارات أخرى ظهرت في الصين والهند وبلاد فارس، وكان لها أيضاً في تطور اللغة والعلوم اليونانية، قبل وبعد الاسكندر .

نشر سارتون هذه الأفكار في مؤلفه المشهور " المدخل الى تاريخ العلوم Introduction to the History of scincc. "، وذلك خلال الفترة الممتدة بين عامي (١٩٢٩-١٩٤٨ م) .

كان سارتون يخطط لوضع موسوعة شاملة لتاريخ العلم، بحيث تضم أربعة عصور :

التاريخ القديم -العصر الوسيط- عصر النهضة من القرن (١٥-١٧) -العصر الحديث من القرن (١٨-٢٠).

لكنه لم يستطيع أن ينشر قبل وفاته آلا المجلد الأول من موسوعته الذي ظهر باللغة الإنكليزية عام (١٩٥٢م)، وهو لا يحوي الا القسم الأول من التاريخ القديم. وقدّم قبيل وفاته للمطبعة أصول المجلد الثاني من القسم المذكور، كما قدم لجامعة هارفرد، التي كان يحاضر فيها، مكتبته الخاصة التي تضم جميع كتبه ومخطوطاته .

لقد جرى الاتفاق بين مؤسسة فرانكلين الاميركية للطباعة والنشر، وهي صاحبة الترخيص بطبع وترجمة كتاب تاريخ العلوم لجورج سارتون، وبين الادارة الثقافية بالجامعة العربية، على نقل هذا الكتاب الى العربية .

الا أن المؤسسة أرادت أن تأخذ هذه الترجمة طابعاً شبه دولي، فكونت لجنة من بعض علماء العالم العربي، للقيام والاشراف على هذا العمل، فصدرت الطبعة الأولى من المجلد الأول عن مطابع دار المعارف بمصر عام ١٩٥٧م وصدر المجلد السادس والأخير عام ١٩٧٢م .

يقول سارتون في مقدمة كتابه :" ومما أفسد فهم العلم القديم، كثيراً من الأحيان، ظاهرتان من الإهمال الذي لا يمكن التسامح فيه : الأول إهمال العلم الشرقي، فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الاغريق، فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد النهرين، وغيرهما من الأقاليم، فالعلم اليوناني كان إحياءً أكثر منه اختراعاً .

والظاهرة الثانية إهمال الإطار الخرافي الذي نشأ فيه العلم، لا الشرقي فحسب، بل اليوناني نفسه كذلك " ثم يقول في موضع آخر :" ومن الناحية الأخرى نجد غالباً أن الوثائق الخاصة بالعلم في مصر وبلاد النهرين أدقّ من وثائق العلم عند الإغريق ".

لمحة موجزة عن جغرافية بلاد الإغريق وتاريخها :

يطلق إلى سكان الجزر المنتشرة بالمئات في بحر إيجه، وعلى القاطنين قديماً على الساحل الغربي و الجنوبي من آسيا الصغرى، وفي جزيرة البيلوبونيز، اسم الإيجيين أو الهيلينيين، أو الإغريق . ويقول المؤرخين وعلماء الآثار أن أقدم حضارة نشأت في بحر إيجه كانت في جزيرة كريت . وتذكر الأساطير اليونانية أن الملك مينوس هو أول من اشتهر بإنشاء أسطول بحري، استطاع بواسطته السيطرة على جزر إيجه .

لم تكن الحضارة الإيجيه متشابهة في مختلف البقاع والأزمنة، وإذا كان لكل سكان جزيرة من جزرها عاداتهم وتقاليدهم، وكانت أهم تلك الجزر كريت، وفيها بلغت الحضارة المينوسية أوجها خلال المدة الواقعة بين القرنين السابع عشر والرابع عشر قبل الميلاد . وخلال القرنين التاليين اكتسحت بعض الشعوب البربرية، الآتية من الشمال والغرب، بلاد اليونان، وكان الشعب الدوري أقوى تلك الشعوب، لأنه جاء يحمل أسلحة مصنوعة من الحديد، استمدها من جيرانه الحيثيين، فاستطاع بواسطتها التغلب على اليونانيين، المسلحين بأسلحة برونزية.

من المعلوم أن التمايز الحضاري عند دراسة تاريخ مصر وتاريخ بلاد الرافدين الى تواريخ الأسر الحاكمة فيها . أما في بلاد اليونان فيعتمد بصورة خاصة على دراسة الادوات الفخارية والمزججة، وعلى فن الهندسة المعمارية، وغيرها من سمات الحضارة . وللحضارة الايجيه كتابتها الخاصة، أوبالأحرى هنالك عدة كتابات، وهي لما تزل مستعصية على كل محاولة لمعرفة رموزها .

وبعد زوال العصر المينوسي، المسيطر على البحر الإيجي، تنازع تلك السيطرة شعبان، وهما اليونانيون في الشمال، والفينيقيون في الجنوب . ويختلف هذا الشعبان بعضهما عن بعض كل الاختلاف، فالأول شعب آري، يتكلم اللغة الهندية الأوربية، والآخر شعب سامي يتكلم لغة هي أقرب إلى اللغتين العربية والعبرية .

المعجزة اليونانية : يقول العالم سارتون :" إن ثقافتنا الأوربية نابعة من أصلين إغريقي وعبري ولسنا نقول إنها أحسن ثقافة، ولكننا في بساطة نقول إنها ثقافتنا . والزعم بأنها بالضرورة أرقى الثقافات فيه خطأ وشرّ.وهذا الزعم هو أحد المصادر الرئيسة للمتاعب الدولية، لأنني إذا كنت أرقى من جيراني، فليس لي أن أقول ذلك، ولكن لهم فقط أن يقولوا ".

لقد سعى سارتون لبيان تطور العلم لدى الشعوب القديمة . وشرح مابين فروع العلم من علاقة متبادلة، ومابينه وبين الحكمة والفلسفة من صلة ... فالبشر قديماً وحديثاً يفهمون العالم على اشكال مختلفة . فبعضهم اكثر ميلاً الى التجريد العقلي، فيفكرون في خلق السماء والأرض، ووحدة الوجود، والكمال واللانهاية . وبعضهم يتمتعون بعقول تجسيدية وعملية، فيفكرون في حفظ الصحة، واكتشاف العقاقير والأدوية والأغذية . أو يهتمون بالزراعة أو التجارة أو عمران المدن، أو اختراع الادوات والآلات والأجهزة، التي توفر لهم العيش الرغيد .

لقد تحدث الأوربيون كثيراً عن المعجزة اليونانية، واعتبروها أبسط تعبير عما وصل إليه قدماء اليونان من علم وحضارة . وتجسد إعجابهم الأول بالملحمتين الشهيرتين، والمنسوبتين لشاعر أمي ضرير يدعى هوميروسHomèrus، عاش كما يقول المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodoteفي القرن التاسع قبل الميلاد .

روى هوميروس في ملحمته الأولى هجوم الاسطول الأثنيني على مدينة طروادة وتخريبها، وهي ملحمة الإلياذة، Iliade، وروى في الثانية منهما رجوع ذلك الاسطول الى أثينا، وبعد أن لاقى بحارة في طريقهم أشد الاهوال، وهي ملحمة الأوذيسة Odyssée .وكانتا انجازاً أدبياً وتاريخياً فريداً، لاجتماع صفات القدم والجمال، وكثرة عدد أبيات الشعر فيهما . ولكن هنالك ملاحم أبدعتها أمم شرقية لا تقل عنهما جمالاً، ومن أشهرها ملحمة جلجاميش، والتي سبق ظهورها في بلاد الرافدين قبل هوميروس بأكثر من الف عام .

التنافس بين اليونانيين والفينقيين :

يقول المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابون Strabon (٥٨ ق.م - ٢٥ بعد الميلاد) : إن الاسطول بدأ بالخروج الى ماوراء أعمدة هرقل (جبل طارق) بعد انتهاء حرب طروادة بقليل . وأخذ تجار مدينة صور، وكانت أهم مرفأ للفينقيين، يحمل بضائعهم، من منسوجات وأدوات زجاجية وخزفية ومعدنية، الى مدن بلاد الرافدين ومصر وشمال أفريقية . الا أن هذه البضاعة لم تكن من مبتكراتهم او إنتاجهم كما زعم سارتون.ولكنه اعترف بفضلهم باختراع أول كتابة تتألف من حروف.وقد ظهرت تلك الكتابة أواخر القرن الحادي عشر للميلاد . ولكن كان من الصعب على الشعوب الأخرى أن تقرأ اوتفهم كتابتهم . وذلك لأن عدد حروفها لا يتجاوز بضعة وعشرين حرفاً، واكثرها حروف ساكنة، وبعضها حروف صوتية طويلة الحركة . وهذا النوع من حروف الكتابة لا يزال مستعملاً في اللغتين العربية والعبرية .

وفي النصف الأول من هذا القرن اكتشف العالم الأثري كلود شيفر، في مدينة أوغاريت، الواقعة في رأس شمرة على الساحل السوري، شمال اللاذقية، كتابة أخرى تعود الى عام (١٢٠٠ ق.م)، أي أقدم من الكتابة الفينيقية، ولكن الحروف فيهما متشابهة بشكلها ونطقها وترتيبها . وعلى مرّ الزمان أخذ اليونانيون بحروف الكتابة الفينقية وأصلحوها، وذلك بإضافة رموز جديدة، تدل على حروف صوتية قصيرة الحركة .

تأثير الحضارة اليونانية في الحضارتين الفارسية والعربية :

تبين لنا مماسبق أن الحضارة اليونانية أثرت وتأثرت بالحضارات الشرقية، منذ القرن السادس قبل الميلاد، وبصورة خاصة في مصر على عهد الفراعنة، وفي سورية الطبيعية على عهد الفينيقيين .وازداد هذا التبادل الحضاري بعد حملة الاسكندر المقدوني، وقيام مدرسة الاسكندرية أولاً ثم مدرسة جنديسابور .

لقد ذكر هيرودوت (٤٨٤-٤٢٠ ق.م) انه كان يوجد في بلاد فارس كثير من الأطباء الأجانب .

وذكر قصة داريوس الأول (٥٢١-٤٨١ ق.م) الذي سقط عن ظهر فرسه فأصيب بالتواء في قدمه . ولما كان يوجد في بلاطه أطباء مصريون فقد استدعاهم لإسعافه . ولكن معالجتهم باءت بالفشل واشتد ألمه . ولما علم داريوس بوجود طبيب يوناني في مملكته يدعى ديموسيدس الكروتوني، استدعاه لمعالجته، ونال الشفاء على يده كما كان كيتسياس الكنيدوسي الطبيب الخاص للملك أردشير الثاني (٤٠٥-٣٥٩ ق.م)، وهو احد الملوك الاخمينيين في بلاد فارس .

وفي القرن الثالث للميلاد استولى على الحكم في تلك البلاد أسرة الساسانيين، وكان من أشهر ملوكهم سابور الأول، الذي حارب الدولة البيزنطية، ووصل إلى مدينة انطاكية ٢٦٠م، ثم أسر الامبراطور فاليريان بالقرب من مدينة الرها وتمكن من قتله . وساق حاشيته الى مدينة قريبة من الخليج، تقع في إقليم خوزستان، عُرفت باسم جنديسابور .وانشأ فيها بيمارستاناً (أي مشفى) أشرف على إدارته فيما بعد علماء من النساطرة السريان، الذين عملوا على ترجمة بعض المؤلفات اليونانية الى اللغة السريانية .

كانت بلاد فارس ملتقى طرق التجارة الذاهبة والآيبة بين الشرقين الأقصى والأدنى، فأصبحت مهداً لحضارة مهمة وقوة عسكرية مرهوبة الجانب في البر والحرب .ولكن الحرب التي كانت تستعر بينها وبين اليونان أولاً ثم بيزنطة بعد ذلك أنهكت قوتها وخرّبت مدنها واكبر تخريب حصل فيها كان على يد الاسكندر المكدوني، الذي أمر بحرق كثير من تراثها العلمي والديني . كما أمر بنقل وترجمة ما وُجد في خزائنها من الكتب الى اللغة اليونانية .وخرّب اجمل مدينة كانت فيها، وهي مدينة إصطخر، والمعروفة عند اليونان باسم برسبوليس Persepolis (أي مدينة الفرس) .

وفي أواسط القرن السابع للميلاد جاء العرب الى بلاد فارس، حاملين معهم رسالة الإسلام، فتحول الشعب الفارسي من عبادة الكواكب والنار إلى عبادة إله واحد . واستعاد حريته التي كانت مقيدة في ظل الاسرة الساسانية وحكامها الطغاة . وظهر بين الفرس علماء وباحثون في شتى ضروب المعرفة، فأغنوا اللغة العربية وعلومها، كما اختصّ بعضهم بالدفاع عن الدين الاسلامي .

اللغة اليونانية وأشهر فلاسفة اليونان :

يعد ابن النديم أول المؤلفين العرب الذين تكلموا بصورة واضحة عن اللغة اليونانية وحروفها وطرائق كتابتها . وتحت عنوان (الكلام على القلم الرومي) يقول في كتابه الفهرست :

" قرأت في بعض التواريخ القديمة ان اليونانيين لم يكن يعرفون الخط قديماً، حتى ورد رجلان من مصر احدهما يدعى قيمس والآخر أغنور .ومعهما ستة عشر حرفاً، فكتب بها اليونانيون . ثم استنبط أحدهما أربعة احرف فكتب بها، ثم استنبط آخر يسمى سمونيدس أربعة أخر فصارت أربعة وعشرين " ثم تكلم عن اشكال الكتابة بتلك الحروف فقال :" وسألت رجلاً من الروم، مراطناً بلغتهم، وكان يذكر أنه قد وصل الى المرتبة التي تسمى الإيطمولوجيا، وهو علم النحو الرومي، فقال :

المُتعارف الذي يستعمله الروم (البيزنطيون) في مدينة السلام(بغداد) ثلاثة أقلام:

الاول يقال له لبطون : ونظيره من أقلام العرب قلم الورّاقين الذي يكتب به المصاحف.

الثاني يسمى أفوسفيادون : ونظيره من أقلام العرب قلم الثُلث .

الثالث يسمى سوريطون : ومثله عندنا قلم الترسل الديواني، والذي تدغم فيه الحروف .

ثم عدّد ابن النديم اسماء الحروف اليونانية، وقسمها إلى مصوتة وغير مصوتة، وقال : إن اللسان اليوناني مستغن عن استعمال ستة حروف عربية هي (ح ـ د ـ ض ـ ع ـ ه ـ لا).ولما تكلم بعد ذلك عن فلاسفة اليونان قال :" سألت أبا الخير بن الخمّار، بحضرة أبي القاسم عيسى بن علي، عن أول من تكلم في الفلسفة قال زعم فورفوريوس الصوري في كتابه التاريخ، وهو سرياني، أن أول الفلاسفة السبعة هو

تاليس Thales بن ماليس الأمليسي (الملطي) وقال آخرون : أن أول من تكلم في الفلسفة بوثاغورس Pythagorus (الساموسي).

وقال فلوطرقس plutarque : إن بوثاغورس هو أول من سمّى الفلسفة philosophie بهذا الاسم .وله رسائل تعرف بالذهبيات، وإنما سمّيت بهذا الاسم لأن جالينوس كان يكتبها بالذهب إعظاماً لها وإجلالا . ثم عدد ابن النديم أسماء سبعة عشر فيلسوفاً يونانياً، مع ذكر لمحة موجزة عن حياة بعضهم، مع أشهر مؤلفاتهم. لكنه خصّ افلاطون وارسطاطاليس بكثير من التفصيل .

كان تاليس، كما يقول سارتون، أول الرياضيين والفلكيين الذين اشتهروا في بلاد اليونان (٦٢٤-٥٤٨ ق.م)، ويقال انه كان من أصل فينيقي رحل الى مصر طلباً للعلم، ويقال إن سبب شهرته أسطورة ذكرها المؤرخ هيرودت،وفحواها ان الحرب كانت في عهده مستعرة بين الليدي، وهم من اليونانيين القاطنين في آسيا الصغرى، وبين الفرس .

وفي عام ٥٨٥ ق.م حدث كسوف للشمس، فتوقف الفريقان عن القتال، وعُقد الصلح بينهما . وبما أن تاليس كان قد تنبأ بحدوث هذا الكسوف قبل وقوعه لذلك ذاع صيته كأشهر فلكي في البلاد . وتعزى لتاليس بعض الانجازات في علم الهندسة منها : ان قطر الدائرة يقسمها الى قسمين متساويين -زاويتا المثلث المتساوي الساقين متساويتان -اذا تقاطع مستقيمان فالزاويتان المتقابلتان بالرأس متساويتان -يتطابق المثلثان اذا تساوت فيهما زاويتان وضلع . ويقول سارتون : هل يمكن القول ان تاليس كان حقاً أول مهندس بالمعنى العلمي ام ان المصريين سبقوه الى ذلك ؟

اخبار سقراط بن سقراطيس (معناه ماسك الصحة):

وهو من اهل اثينا، مدينة العلماء والحكماء، بكلام لم يدروا منه كثير شيء . وكان زاهداً وخطيباً حكيماً. قتله اليونانيون لأنه خالفهم وخبره معروف .

ومن أصحاب سقراط أفلاطن، وبلغ كلاهما ثمانين سنة . وجاء في كتاب فلوطرخس Plutarque: ان افلاطن Platon معناه الفسيح، وأنه كان من أشراف اليونانيين .

توفي أفلاطن في السنة التي ولد فيها الاسكندر(٣٣٦ق.م)، وخلفه ارسطو طاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيليب Philippe أبو الاسكندر .. الف أفلاطن، على ماذكره ثاون الاسكندراني : كتاب السياسة، فسره حنين بن اسحق، كتاب النواميس، نقله حنين ثم أعاد نقله يحيى بن عدي . وقال ثاون :إن افلاطن يجعل كتبه أقوالاً يحكيها عن قوم، ويسمي ذلك الكتاب باسم المصنّف له، وعدد ابن النديم بعد ذلك اسماء مايزيد على ثلاثين كتاباً لأفلاطن .

اخبار ارسطاطاليس :

ومعناه محب الحكمة، الفاضل الكامل . وهو ابن نيقوماخس، ويرجع نسبة إلى أسقلبيارس الذي اخترع الطب اليوناني . اسطاغاريا Stagire . كان أبوه متطبباً للملك فيليب أبي الاسكندر .أما ارسطاطاليس فكان تلميذاً لأفلاطن، وأنه لما هاجر استاذه الى صقلية خلفه على دار التعليم Academia .. ويقال إنه نظر في الفلسفة بعد أن بلغ الثلاثين من عمره . وكان بليغ اليونانيين وأجل علمائهم بعد أفلاطن . ونظراً للصداقة

القائمة بينه وبين الملك فيليب فقد أوكل إليه أمر تربية ابنه الاسكندر.ولما تولى الاسكندر الملك بعد مقتل أبيه، أصبح أرسطو أقرب المقربين إليه، والناصحين والمرشدين له. وحينما توجه الاسكندر لمحاربة الفرس رحل أرسطو الى اثينا حيث اتخذ الليقيون Lycium مقراً له . ولما كان يسير فيه أرسطو مع طلابه، وهم يستمعون لأقواله لذلك أطلق عليهم إسم المشائين . توفي ارسطو أواخر أيام الاسكندر، وله من العمر (٦٦) سنة . وخلفه على التعليم ابن اخته تاوفرسطس Theophrastc فبقي مديراً لهذا المعهد من عام (٣٢٣ الى ٢٨٨) ق.م.

ذكر ابن النديم أسماء عدد كبير من مؤلفات أرسطو، كما ذكر أسماء من فسرها أو نقلها الى العربية . واشهر هذه المؤلفات ثمانية كُتب في الفلسفة و المنطق واللغة وهي :

١- القاطيغورياس : ومعناه كتاب المقولات، قام بشرحه تاوفرسطس وثامسطيوس وفورفوريوس الصوري ويحيى النحوي، ونقله الى العربية حنين بن اسحق وفسّره الفارابي وأبو بشر متي .

٢-الباري أرمينياس، أو كتاب العبارة، فسرها ثاوفرسطس وفورفوريوس والاسكندر الافروسي ويحيى النحوي . نقلها حنين الى السريانية ثم نقلها ابنه اسحق الى العربية . وفسرها ابو بشر متي والفارابي واختصرها حنين وابنه اسحق وابن المقفع والكندي وثابت بن قرة وأحمد بن الطيب السرخسي والرازي .

٣-الانالوطيقا أو كتاب القياس : وهو يتألف من جزأين، وفي كل منهما مقالتان نقل المقالة الاولى من الجزء الاول الى العربية تيادروس ويقال إن حنين أصلحه . ونقل حنين قطعة منه الى السرياني . وفسر ثامسطيوس المقالتين، وكذلك فعل يحيى النحوي وأبو بشرمتي .

٤-الابوديقطيقا، وهو الجزء الثاني من كتاب القياس . نقل حنين بعضه الى السريانية، كما نقل ابنه اسحق المقالتين الى السريانية، ونقل بشرمتي ما ترجمه حنين الى العربية . شرح ثاسطيوس المقالتين شرحاً تاماً وكذلك فعل الاسكندر الافرودسي ويحيى النحوي والكندي والفارابي .

٥-الطوبيقا، وهو كتاب المواضيع الجدلية : نقله اسحق الى السريانية ثم ترجمه يحيى بن عدي الى العربية.وفسر الاسكندر الافروسي ويحيى النحوي بعض مقالاته .

٦-السوفسطيقا:ومعناه الحكمة المموهة، نقله ابن الناعمة وأبو بشرمتي الى السريانية، وترجمه يحيى بن عدي الى العربية وفسره الكندي .

٧-الريطوريقا: ومعناه كتاب الخطابة،قيل إن اسحق بن حنين نقله الى العربية، وفسّره الفارابي .

٨-البويطيقا: ومعناه كتاب الشعر،نقله أبو بشرمتي من السريانية الى العربية، وكذلك فعل يحيى بن عدي، واختصره الكندي .

وأحصى بطليموس مؤلفات أرسطو في العلوم التطبيقية، فتجاوز عددها المئة، من أشهرها :

- كتاب في السماء والعالم أربع مقالات
- كتاب في الآثار العلوية أربع مقالات
- كتاب في النفس ثلاث مقالات
- كتاب فيما بعد الطبيعة (١٣) مقالة
- كتاب في طبائع الحيوان عشر مقالات
- كتاب في تناسل الحيوان مقالتان
- كتاب في الاعضاء التي بها الحياة أربع مقالات
- كتاب في النبات مقالتان

-كتب نعت الاحجار ومنافعها -كتاب في علم النجوم

-كتاب في الأنواء

تاريخ الطب اليوناني :

وفي باب ابتداء الطب قال محمد بن اسحق النديم صاحب الفهرست : إن اسحق بن حنين في تأريخه قال إن أهل مصر استخرجوا الطب، والسبب في ذلك أن امرأة كانت بمصر، مبتلاة بالغنظ (الكرب والهم) والزرْد (سقوط الأسنان). فكانت ضعيفة المعدة، وصدرها مملوء أخلاطا ردية، وكان حيضها محتبساً، فاتفق ان أكلت الراس Inula، فذهب غنها جميع ماكان بها، فاستعمل الناس هذا النبات لجميع الاوجاع . وقال آخرون : إن هرمس استخرج سائر الصنائع والفلسفة والطب . وبعضهم يقول أهل قو Con (وهي الجزيرة اليونانية التي نشأ فيها أبقراط) ... وذكر يحيى النحوي في تاريخه أن اسقلبيوس كان الأول في صناعة الطب، وأن بينه وبين وفاة جالينوس (٥٥٦٠) سنة، ثم ذكر أسماء عدد كبير من الاطباء اليونان الذين ظهروا خلال تلك . وكان من أشهرهم :

أبقراط Hippocrate :

وهو ابن ايراقليس : واليه انتهت رئاسة الطب في بلاد اليونان . تكلم عنه يحيى النحوي فقال إنه وحيد دهره، الكامل الفاضل، المبيّن والمعلم لسائر الأشياء، الطبيب الفيلسوف الذي يضرب به المثل : بلغ به الأمر إلى أن عبده الناس ... وهو أول من علّم الغرباء صنعة الطب، وجعلهم شبيهاً بأولاده، لما خاف على الطب أن يفنى من العالم . عاش خمساً وتسعين سنة، وتوفي مخلفاً ثلاثة أولاد وهم : ثاسلوس اودراقن والابنة مايا ارسيا .

ثم ذكر ابن النديم بعد ذلك أسماء كتب ابقراط، ومافسره جالينوس منها، وماترجمه حنين بن اسحق ومدرسته الى السريانية أو العربية، وهذه الكتب هي : عهد أبقراط -الفصول-تقدمة المعرفة- الامراض الحادة -الكسر -الابيديميا-الاخلاط-القاطا (حانوت الطبيب) -الماء والهواء (والأمكنة) -طبيعة الإنسان .

وبعد وفاة ابقراط (٣٧٧ ق.م) عن عمر يتجاوز الثمانين عاماً، خلفه في التدريس وممارسة الطب صهره بوليب Polypc . ويقال بأنه شارك بتأليف بعض مؤلفات ابقراط ومنها كتاب طبيعة الانسان، كما اشتهر الابن الاكبر لابقراط والمدعو Tessalus بكونه الطبيب الخاص لملك مقدونية أركيلوس .

وتوالى بعد ذلك ظهور أطباء آخرين من نسل أبقراط، بلغ عددهم (٢٣) طبيباً منهم ثلاثة يحملون أسم أبقراط . وكان ابقراط الرابع طبيباً لروكسانا زوجة الاسكندر الكبير . ويعد الطبيب دراكون الثالث،ابن ابقراط الرابع، آخر طبيب ظهر من هذه العائلة، التي حافظت على مبادئ عميدها، والطرق التي كان يسير عليها في مداواة المرضى والعناية بهم .

تطور العلوم والفلسفة اليونانية في مدينة الاسكندرية :

كانت العلاقات التجارية والثقافية بين مصر الفرعونية وبلاد اليونان قديمة العهد . وازدادت هذه العلاقات رسوخاً بعد حملة الاسكندر على بلاد الشرق الأوسط وبنائه لمدينة الاسكندرية. حكم الاسكندر الكبير بلاد اليونان عام ٣٣٦ ق.م، بعد مقتل أبيه فيليب الثاني ملك مكدونية . وبعد أن تغلب على داريوس

ملك الفرس عام ٣٣٣ ق.م اتجه الى سورية، ثم تابع طريقه الى مصر حيث أمر ببناء مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق.م. ولما توفي الاسكندر بعد عودته من بلاد الهند عام ٣٢٣ ق.م اقتسم كبار ضباطه البلاد التي استولى عليها. فأنشأ سلوقس الأول مملكة على ساحل الدجلة عام ٣٠٥ ق.م، شملت العراق وشمال سورية، وجعل عاصمتها انطاكية ـ واستمر حكم اسرته حتى عام ٦٤ ق.م وأنشأ البطالسة او اللاجيديون، مباشرة بعد وفاة الاسكندر، مملكة في مصر دام حكمها ثلاثمئة عام. وكان آخرملوكها بطليموس السادس عشر، وهو ابن الملكة كليوبطرا السابعة من يوليوس قيصرامبراطور روما، وقد حكم مصر من عام ٤٧ الى عام ٣٠ ق.م.

استعان الملوك البطالسة بالعلماء والأطباء اليونان، الذي وفدوا على مدينة الاسكندرية، كما نقلوا إليها علماء مدرسة هيليوبوليس (عين شمس) . وكان ستراتون Straton تلميذاً لتيوفراسطس، ابن اخت ارسطو وتلميذه ايضاً، جاء مع الوافدين الى الاسكندرية فمهد اليه بتأسيس متحفها Museum، ومكتبتها المشهورين.ويقول المؤرخ الروماني أولوجل Aulugelle : ان مكتبة الاسكندرية كانت تضم مايقرب من سبعمائة ألف مجلد . أما المتحف فكان بمثابة جامعة تضم عدة معاهد، وكان يؤمها نحو أربعة عشر ألف طالب . وتضم هذه الجامعة عدة أبنية، في كل واحدة منها قاعة فسيحة لتعليم الطب او الفلك او العلوم الرياضية والهندسة او الكيمياء . كما يوجد في بعضها مدرجات يقوم فيها الأطباء بتشريح جثث من حكم عليهم بالاعدام من المجرمين . وفي تلك المدرجات كان الطبيبان هيروفيل وايرازيسترات يقومان بالتشريح المقارن لجسم الانسان والحيوان . زفي مدرسة الاسكندرية ظهر علماء السيمياء Alchimie، وكان الهدف منه تحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة، أي الى فضة او ذهب .

ومن علماء الاسكندرية الأوائل إقليدس Euclide، وهو عالم بالهندسة والرياضيات وواضع اسس الهندسة المسطحة عاصر بطليموس الأول في مصر، ودرس في مدينة الاسكندرية . وهو صاحب النظرية التي تقول أن الأرض ثابتة وتقع في مركز العالم .

العلوم والفلسفة اليونانية في العصر الروماني :

بعد وفاة الاسكندر تحولت بلاد اليونان إلى مقاطعات متنازعة، فاستنجد بعضها بالدولة الرومانية الناشئة. وهذا ماساعد على بسط نفوذ تلك الدولة،وسقوط مدينة أثينا بيدها (عام ١٤٦ق.م).كان الرومان أدنى حضارة من اليونان، وكانوا بأشد الحاجة للأطباء والجراحين لمداواة جنودهم أثناء الحرب .لذلك لجؤوا الى الأطباء اليونان وأولوهم ثقتهم، وإن كانوا لا يحبونهم ولا يحترمونهم لكونهم من طبقة الرقيق. وظهرت في مدينة روما حانات كان يعمل بها أطباء يونان، يقومون بتحضير الأدوية . لكن بعض الرومانيين ظلّوا يفضّلون اللجوء الى السحرة والدجّالين وبائعي الاعشاب حسب العادة .

– ومن الاطباء اليونان الذي رحلوا الى روما طلباً للرزق أسكلبياد Asclepiade (١٠٤-٤٠ ق.م) أسس في روما مدرسة حاربت افكار من سبقه من الأطباء وآراءهم واعتمد في مداواته على : الالعاب الرياضية،والمعالجة بالماء، والتدليك، وشرب الخمر، وشاع ذكره في روما لأنه أنعش رجلاً أصيب بالموت الكاذب .

– ومن الاطباء اليونان الذين عاصروا ظهور المسيحية ديسقوريدس Discorides ولد في مدينة عين زرب شمال سورية . عمل في الجيش الروماني في عهد الامبراطور نيرون (٥٤-٦٨ م). وكان أثناء تنقلاته

يجمع النباتات الطبية ويدرس صفاتها وخواصها الدوائية . ألف كتاباً عُرف باسم المادة الطبية، وهو يضم نحو (٩٥٠)عقاراً او دواءً مركباً، منها نباتي أو حيواني او كيميائي . وترجم كتابه هذا من اليونانية الى العربية الطبيب اصطفان بن باسيل، وأصلح ترجمته حنين بن اسحق .

– وفي أوائل القرن الثاني بعد الميلاد ولد الطبيب اليوناني جالينوس Galinus، في مدينة برغام بالقرب من إزمير . تعلم الحساب والهندسة والمنطق والفلسفة في بلده.ولما بلغ العشرين من عمره رحل الى الاسكندرية حيث تعلم الطب . ولما عاد بعدها الى بلده عيّن طبيباً جراحاً في مدرسة لتعليم المبارزة . ثم سافر الى روما عام (١٣١م) حيث استقر وصار من مشاهير الاطباء .

كان جالينوس معجباً بآراء ابقراط ومؤلفاته، لذلك قام بتفسير جميع ما ألفه . واتخذ نظرية الاخلاط الأربعة وهي الدم والبلغم، والهواء والتراب وطبائعها الأربع وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة أساساً للمداواة الضدية التي كان يتبعها أبقراط . واعتبر الروح هي المسيطرة على الجسد . قام بتشريح جسم الانسان ووصف أعضاءه الخارجية والداخلية، وقال ان صورة كل عضو تتلازم مع طبيعة عمله، وان الطبيعة حكيمة لا تخطىء .ومن الأعمال التي قام بها جالينوس تحضير بعض الأدوية . وتعد مؤلفاته في التشريح، وفي علمي الأدوية المفردة والمركبة، وتحضير الاشكال الصيدلية . وبما أن آراء جالينيوس وأفكاره تنسجم مع مايقوله رجال الدين المسيحي وعلماء المسلمين، لذلك اطلق عليه اسم الطبيب الملهم والفاضل .

ومن علماء مدرسة الاسكندرية المشهورين بعلم الفلك بطليموس القلوزي Ptotemus claudius وكان عالماً رياضياً وجغرافياً أيضاً . عاش في زمن الأمبراطور ماركوس اوريليوس (١٦١-١٨٠)م . ولد في صعيد مصر بالقرب من مدينة طيبة، ثم انتقل الى مدينة الاسكندرية . ألف أشهر كتاب في علم الفلك في زمنه، وهو المعروف باسم المجسطي، ويعني المجموع الكبير Almagest.

كان علم الفلك عند بطليموس مبنياً على الأرصاد، سواء منها ما قام به هو نفسه، أوماورثه عن اسلافه من الفلكيين البابليين والمصريين والإغريق . واستخدم في أرصاده أدوات فلكية، كالكرة التي تمثل الفلك والآلة التي أصلحها لقياس أبعاد النجوم . ولم تكن الوظيفة الرئيسة لهذه الآلات تسجيل الارصاد فقط، وانما كان الغرض منها الوصول الى التفسير الرياضي للوقائع التي تكشف عنها الأرصاد وربطها بعضها ببعض .
ومن مشاهير مدرسة الاسكندرية فيلسوف يوناني من أصل يهودي يدعى فيلون Philon، ولد في الاسكندرية عام ١٣ ق.م وتوفي عام ٤٥م. لقد ظهر خلال الفترة الممتدة بين القرن الاول قبل الميلاد والقرن الثاني بعده تيار غزا الفكر الفلسفي اليوناني، ويعد فيلون أول فيلسوف يميز التيار الجديد الذي حاول أصحابه أن يجددوا الفلسفة الأفلاطونية،ويرفعوا التعارض بين الروح والمادة .

كان لترجمة كتاب التوراة الى اللغة اليونانية في مدرسة الاسكندرية ظهور نزاع قوي بين الفلسفة والدين، أو العقل والنقل ـ ويقول الدكتور بدوي، في كتابه الأفلاطونية الجديدة، عند الكلام عن فيلون :

" يمتاز فيلون، عمن سبقه من المفكرين اليهود، بأننا نجد لديه لأول مرة الحقيقة الدينية، وقد وضعت في صيغة فلسفية، فهو يؤمن كل الايمان بأن الاسفار الخمسة التي نزلت على النبي موسى لابد أن تكون صادرة عن وحي إلهي، والا لما استطاعت البقاء تلك المدة الطويلة ... ولكنه كان الى جانب آخر شديد العناية بالفلسفة اليونانية، التي غزت عقول المفكرين في ذلك العصر، ويرى أنها هي الأخرى تعبر عن الحقيقة ... لكن الأقوال الدينية أكمل وأتم، وما الفلسفة الا خادم للدين ".

جاء بعد فيلون فيلسوف روماني يدعى أفلوطين Plotin، قطنت عائلته في مصر بين عامي (٢٠٥-٢٧٠) م، درس خلالها في مدينة الاسكندرية . ثم ذهب بعدها الى روما حيث قام بتدريس فلسفة هي مزيج من أسس الفلسفة اليونانية القديمة ومبادئ الدين المسيحي الجديد .

لقد استطاع افلوطين أن يفصل فصلاً تاماً بين الخالق الأول وبين الأشياء، فهو الذي جعل الوجود المادي شيئاً صادراً عن الوجود الأول أي وجود الإله . وأن يبين في دقة وإحكام كيفية صدور الموجودات عن الله، ويبين كذلك آثار هذه القوى الإلهية في المخلوقات، ويرتب ذلك ضمن نظام منطقي معقول . لذلك أطلق على فلسفته هذه اسم الافلاطونية الحديثة . لأن افلاطون هو أول من عني من فلاسفة اليونان بالدين، وتبعه بعد ذلك تلميذه أرسطو ومن جاء بعده من الرواقيين .

ترجمة العلوم اليونانية الى اللغة العربية :

لم يكن للعرب قبل الاسلام علوم يعتد بها . وترجع علومهم الطبيعية و الطبية الى ما أوحت به الملاحظات العابرة والتجربة اليومية، وماقضت به ظروف الحياة وأسباب العيش، كمعرفة مطالع النجوم ومغاربها، وأنواء الكواكب وأمطارها . واستعمال بعض الاعشاب المنتشرة في جزيرة أو المستوردة لمعالجة بعض الأمراض البسيطة . ولما جاء الاسلام وجه أنظار المسلمين الى ما في الكون من عجائب وفوائد، ودعاهم للبحث والنظر . لقد امتدت فتوحات العرب شرقاً وغرباً، منذ صدر الاسلام فاتصلوا عن قرب بالحضارات القديمة والمعاصرة، ووقفوا على علوم لا عهد لهم بها . وكانوا على درجة عالية من الوعي فلم يمسّوا المؤسسات العلمية والدينية التي كانت قائمة لأهل الكتاب، لهذا تابع من بقي من علماء مدرسة الاسكندرية ابحاثهم، كما تابعت مدرسة جنديسابور وحران وغيرهما رسالتهم في نشر العلم والترجمة . وانطلق العلماء من تلك المدارس الى البلاد العربية، بناء على الخلفاء والأمراء، أو طلباً للرزق الذي انفتحت أبوابه أمام الجميع .

قام بعض هؤلاء الوافدين، الى جانب ممارسة مهنة الطب، بترجمة بعض المؤلفات الفلسفية أو العلمية من إحدى اللغات الشرقية أو الغربية، وخاصة اليونانية والسريانية . وهكذا تمت ترجمة بعض المؤلفات في الكيمياء والطب منذ العصر الأموي تحت إشراف خالد بن يزيد بن معاوية، الذي أنشأ أول خزانة للكتب في مدينة دمشق.

ومنذ القرن الأول للهجرة ظهرت بين الكوفة والبصرة دراسات لغوية ودينية ؛ إلا أن الحركة العلمية لم يبدأ نشاطها الفعلي إلا في القرن الثاني . ثم أخذت تنمو وتترعرع طوال قرون أربعة، فامتد نشاطها بحيث شملت علوماً وفنوناً كثيرة، معتمدة في أول الأمر على الترجمة، ثم تحولت الى شرح أو نقد أو تلخيص وكان ذلك نتيجة لتمثل علوم كثيرة تمت على يد أعلام أمثال الكندي والرازي والبيروني والبتاني وابن سينا والفارابي وغيرهم . ويقول الدكتور العوا في كتابه حقيقة إخوان الصفا :

" إن سيطرة الشعب العربي على شعوب متنوعة الحضارة والعقائد الدينية سببت احتكاك ثقافات عديدة بعضها ببعض . وكان من نتيجتها أن دخل الاسلام بعد الفتح أفراد من ديانات مختلفة،وكان بعضهم علماء في ديانتهم .فلما اطمأنوا واستقروا على الدين الجديد أخذوا يقارنون بين تعاليم الاسلام وتعاليم دينهم القديم ويثيرون مسائل ومشاكل، ويطرحون تعليلات بعيدة عن الاسلام " .

كان الجهاد العربي، في ظل الدولة الأموية، منصرفاً لتوسع الحكم واستقراره، لذلك لم يكن هناك مجال للتفكير في هذه الأمور .ولكن استقرت أمور المسلمين في العصر العباسي، وبدأت حركة الترجمة على نطاق واسع، للمؤلفات العلمية والفلسفية لأعلام اليونان، تولد علم جديد، كان يمثل أحسن تمثيل حاجة أكثر المواطنين، ويعرف هذا العلم في تاريخ الفلسفة عادة باسم (علم الكلام).

ثم يقول الدكتور العوا " كان اسم (المتكلمون) يدل في أول الأمر على من يجعل مسألة مختلف فيها، من مسائل الاعتقاد، موضوع برهنة جدلية، مقدماً براهين نظرية لدعم القضايا التي يعرضها . ولكن سريعاً ما تعدّل هذا الاصطلاح فأصبح يدل على اولئك الذين يعملون من المسلمات الدينية الإسلامية قضايا يجب أن تكون مقبولة حتى من الأدمغة المفكرة . وكانت من نتيجة ذلك أن ظهرت في أوائل القرن الثاني للهجرة نواة لفرقة المعتزلة بقيادة الحسن البصري ... ثم تابع المسيرة بعده تلميذه واصل بن عطاء، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لها ..لقد اعتبر بعض المؤرخين حركة المعتزلة إصلاحاً دينياً، واعتبرها آخرون دفاعاً عن الدين الاسلامي ".

تأثير العلوم واللغة السريانية في العلوم واللغة العربية

من المرجح لدى كثير من المؤرخين أن موطن الكنعانيين كان جزيرة العرب،وأن نزوحهم من هذه الجزيرة حدث بين القرنين الثلاثين والخامس والعشرين قبل الميلاد، ثم انتشروا بعد ذلك في جميع انحاء سورية وفلسطين . ويقول العالم ولفنسون " لم ينص التاريخ على أن سورية كانت مأهولة بأحد قبل الكنعانيين، ولكن يغلب الظن أن بعض مناطق سورية وفلسطين كانت مأهولة ببعض الأقوام منذ أقدم الأزمنه".

لم تكن حضارة الشعوب التي كانت تقطن في الجزيرة العربية وبلاد الرافدين معروفة بصورة جلية قبل منتصف القرن التاسع عشر . ولكن بعد هذا التاريخ قامت بعثات أثرية من الدول الغربية بالتنقيب عن الآثار في التلال المنتشرة جنوب العراق وشماله، وعلى ضفتي الفرات، والساحل السوري، والتي يقدر عددها بنحو (٧٠٠-١٠٠٠) تل . فعثرت على مدن منغمسة في التراب، وهي تضم قصوراً ملكية ومساكن تحيط بها أسوار عريضة متعددة الأبواب . كما وجدوا فيها مكتبات وغرف جمعت فيها تماثيل بأحجام مختلفة، ورقماً طينية منقوشة بالخط المسماري، ومدونة بعدة لغات . واستطاعت تلك البعثات الأثرية، بالتعاون مع اساتذة اللغات الشرقية في أوربا فك رموز تلك الرقم . وبنتيجة تلك الأبحاث تبين لهم أن بلاد الرافدين كان يقطن فيها، منذ حوالي الألف الخامس قبل الميلاد شعبان متعايشان : السومريون، وكانوا يشكلون أغلبية السكان في جنوب البلاد، وهم من أصل آري غالباً، والأكاديون، وكانوا يسيطرون على أواسط البلاد، وهم من أصل سامي .

كانت اللغة السومرية لغة الأدب والعلم والتجارة، وبها دونت أكثر الألواح المسمارية حتى القرن الثاني قبل الميلاد.أما اللغة الأكادية فكانت اللغة العامية الشعبية، لكنها استطاعت بكثرة ألفاظها ومعانيها، وسهولة قواعدها والاشتقاق منها، أن تسود البلاد بعد ذلك.

ظلت اللغة الأكادية،واللغتان المشتقتان منها وهما البابلية والأشورية، سائدة في بلاد الرافدين قرابة ألفي عام.وعندما تأسست الدولة الكلدانية،أو البابلية الحديثة، أخذت اللغة الآرامية تحل محل اللغة الأكادية وذلك حوالي عام ٥٣٩ ق.م.

قام علماء اللغات السامية،ومنهم الاستاذ ولفنسون، بدراسة ومقارنة بين حروف وألفاظ ومعاني تلك اللغات،وقواعد النحو فيها،فوجدوا شبهاً كبيراً بينها وبين اللغة العربية.وهذا ما دعا العالم Springer الى القول أن جميع البابليين والآشوريين والآراميين والفنيقيين وغيرهم هم عرب،هاجروا من جزيرتهم كلما امتلأت الجزيرة بهم،أو أجدبت على أثر انحباس المطر.أماسكان سورية فمن المرجّح أنهم كانوا من الكنعانيين،نزحوا أيضاً من الجزيرة العربية قبل عام ٢٥٠٠ق.م ثم انقسموا الى شعوب وقبائل فكان منهم العموريون (الاموريون)والحويون الجرجاشيون واليبوسيون،وأطلق اليونانيون على الكنعانيين الذين سكنوا الساحل السوري اسم الفينقيين.وانشأ العموريون عدة ممالك في سورية والعراق،وكان من اشهرها مملكة ماري،ومملكة يمحاض (حلب)،ومملكة بابل في عهد حمورابي،ومملكة اوغاريت،ومملكة إيبلا.

وقبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد استوطنت بعض القبائل الرحل ضفاف وادي الفرات الأوسط،حيث ظهرت قوميتها ولغتها،وعرفت باسم الشعب الآرامي.وأطلق العموريون على أفراد هذه القبائل اسم الأخلامو، ويعني الرفاق أو الخلاّن.

أسس الآراميون عدة دويلات في بلاد الهلال الخصيب،وكان من أشهرها إرم عاد في بلاد الاحقاف.وإرم فدان في مدينة حرّان،وإرم ذات العماد في دمشق.وكانت الأخيرة اهم تلك الدول،تأسست آواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد،وامتد نفوذها من نهر الفرات شمالاً الى وادي اليرموك جنوباً.

العلاقة بين اللغتين الآرامية والسريانية:

انتشرت اللغة الآرامية في جميع دويلات الهلال الخصيب عن طريق التّجار الآراميين،فأصبحت لغتهم،حوالي القرن الخامس قبل الميلاد،لغة التجارة والحضارة،وفاقت بذلك جميع شقيقاتها من اللغات السامية،حتى أن السيد المسيح،وهوعبراني الأصل تكلم بها،كما أن بعض أسفار العهد القديم دونت باللغة الآرامية.وبانتشار هذه اللغة انتشرت الأبجدية الفينقية،لأن الآراميين كانوا من أوائل من اقتبسها.وتفرقت اللغة الآرامية الى عدة لهجات محلية،منها النبطية والتدمرية ولهجة سكان الرها Edessa.ولما انتشرت المسيحية بين الآراميين في سورية اصطفى رجال الكنيسة لهجة الرها لعذوبتها، وصارت تعرف باسم اللغة السريانية منذ القرن الثاني للميلاد.

كان لظهور الديانة المسيحية في بلاد الشرق دعم لانتشار اللغة السريانية فيها.ويقول الدكتور حتي في تاريخه:" كانت اللغتان اليونانية والسريانية تستعملان في العبادة وأداء الطقوس الدينية منذ عهد الرسل.وبعد أن ارتقت انطاكية الى مركز الصدارة في الجزء الذي كان يتكلم اهله اليونانية،بدأت مدينة الرها بالارتقاء الى مكانة مشابهة في البلاد التي تتكلم السريانية.وأصبحت أقدم مركز للمسيحية في شمال سورية وبلاد الرافدين".

وحينما انتشرت الديانة المسيحية بصورة رسمية،في أوائل القرن الرابع للميلاد، فرضت اللغة السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية في كثير من الكنائس الشرقية،ولاسيما تلك التي كانت تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح.كان المثقفون من السوريين في ذلك الوقت يتكلمون إحدى اللغتين الأوربيتين:اليونانية أو اللاتينية،فمنهم من اهتم بتعلم اللغة اللاتينية أملاً بالحصول على احدى الوظائف المرموقة في الدولة الرومانية،أما الذي فضلوا دراسة العلوم والفلسفة ففضلوا تعلم اللغة اليونانية.وتمسك عامة الشعب باللغة السريانية باعتبارها اللغة القومية للبلاد.ويقول أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام:

" كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تُعلّم فيها العلوم السريانية واليونانية،وكانت هذه المدارس تتبعها مكتبات".وكان يشرف على تلك المراكز العلمية رهبان النساطرة واليعاقبة.

لقد أظهر النساطرة براعة فائقة في تعلم اللغات،لذلك كانوا خير الوسطاء في نقل الثقافة اليونانية والسريانية الى اللغة العربية عن طريق الترجمة.وكانت اللغة السريانية هي همزة الوصل غالباً بين اللغتين،اليونانية والعربية.ويعود الى النساطرة الفضل في تأسيس بيمارستان جنديسابور، الذي تخرج فيه كثير من الأطباء السريان والفرس،وكان من أشهرهم أسرة بختيشوع،وما سويه الخوزي وابنه يوحنا، وسابور بن سهل،وحنين بن اسحق وابنه وطلابه.

واشتهر من اليعاقبة سرجيوس الراسعيني، الذي كان فيلسوفاً وطبيباً وعالماً بالكيمياء والفلك،ذهب من بلده رأس العين الى الاسكندرية،حيث اتقن اليونانية،ودرس مختلف العلوم.ثم قام بترجمة بعض مؤلفات ابقراط وجالينوس الى اللغة السريانية،وتوفي عام(٥٤٦م).

مانقله المترجمون من اللغتين اليونانية والسريانية:

يقول العالم روزنتال في كتابه (استمرار علوم الاغريق القدماء في الاسلام):" ليس يكفي الدافع النفعي العملي والنظري ليعلل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية الى اللغة العربية،بل لابد من فهم موقف الدين الاسلامي ذاته من العلم.وموقفه هذا كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب،بل للحياة الإنسانية في جميع جوانبها.وموقف الاسلام هذا كان هو الدافع الأكبر في السعي وراء العلوم".

إن أكثر الباحثين يقولون:إن حركة الترجمة،بصورة منتظمة بدأت مع بداية الخلافة العباسية،أي في منتصف القرن الثاني للهجرة، وبلغت ذروتها بين القرنين الثاني والثالث،بعد تأسيس دار الحكمة على يد المأمون.ومما لاشك فيه أن أكثر اهتمام المترجمين والباحثين العرب والمسلمين كان منصباً على العلوم ذات الاهمية في الحياة العملية،وخاصة:الطب والصيدلة والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والهندسة وعلم النجوم(التنجيم)وعلم الهيئة(الفلك).لقد أحصى ابن النديم أسماء أشهر من قام بنقل هذه العلوم الى اللغة العربية،فتجاوز عددهم الثلاثين.وكان لحنين بن اسحق وابنه اسحق الفضل في نقل أكبر عدد من المؤلفات الطبية والفلسفية من اليونانية الى العربية.

ظل العلماء العرب،كما يقول الدكتور سزكين،حتى أواسط القرن الثالث للهجرة،يعدون أنفسهم أشبه بتلامذة لقدماء العلماء والفلاسفة اليونان،وظلوا يكنون لهم الاحترام والتقدير.فكان أبقراط أباً للطب والأطباء،وأرسطو المعلم الأول للفلسفة والمنطق،وجالينوس الطبيب الملهم الفاضل.

لقد تحلى العلماء العرب والمسلمون بالأمانة العلمية،والتي تتجلى بذكر المصادر التي يستقي العالم منها معلوماته، دون تحريف أو انتحال.كما كان لهم الفضل في حفظ أسماء علماء،ينتمون لقوميات مختلفة،اقتبسوا من مؤلفاتهم المفقودة في الوقت الحاضر،فأحيوا ذكرهم.

ومن مميزات العلماء العرب والمسلمين النقد البريء من التجريح،وتصحيح الأفكار والآراء الخاطئة.ولم يقتصر ذلك على علم معين،فمثلاً في علم الطب انتقد موفق الدين البغدادي جالينوس لأنه قال بأن الفك الأسفل يتألف من عظمين، والصواب من عظم واحد،كما انتقد ابن النفيس جالينوس أيضاً لأنه قال بوجود فتحة بين البطينين في القلب،ولجهله بوجود الدورة الدموية الصغرى.

ومما يجب ذكره أن كثيراً من المؤلفات اليونانية المزيفة أو المنحولة ظهرت في بيزنطة بعد انتشار المسيحية.

فقد عمد بعض الباحثين إلى وضع مؤلفات مقتبسة من أفكار علماء اليونان الأوائل،ونسبوها إليهم سعياً وراء الربح والشهرة.وبما أن المترجمين، من سريان وعرب،قد أتقنوا نقل المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية،فقد استطاعوا كشف هذا التزييف، بالاعتماد على اختلاف اسلوب ولغة قدماء العلماء اليونان عن اسلوب ولغة المحدثين.

التقارض بين اللغة العربية واللغتين السريانية واليونانية:

قام البطريرك ماراغناطيوس أفرام الأول عضو مجمع اللغة العربية بدمشق،بتحرير عدة مقالات نشرت في مجلة المجمع بين عامي ١٩٤٨-١٩٥١م- ثم جمعها في كتاب نشر تحت اسم (الألفاظ السريانية في المعاجم العربية).

لقد قام خبطته بدراسة لغوية متعمقة للألفاظ السريانية والدخيلة،مما استعمله العرب واقتبسوه من لغات الشعوب المجاورة لهم،ومنها الفارسية والآشورية والعبرانية، وبلغ مجموع تلك الألفاظ (٦٦٠) لفظة،منها(٣٥٢) لفظة سريانية بحتة،و(٢٧) لفظة يرجح أنها من أصل سرياني،و(٤٣)لفظة اتفقت فيها السريانية والعبرية و(٤٤) لفظة اتفقت فيها الآشورية والسريانية والعبرانية والعربية،ولدى تدقيق مجمل تلك الألفاظ تبين أن فيها (٧٠) لفظة تدل على اسماء نباتات،و(٥٠) لفظة تدل على مصطلحات طبية،وأدوات تستعمل في الصيدليات أو المنازل و(٣٥) لفظة هي أسماء حيوانات أو طيور أو مواد معدنية .

وفي عام ١٩٦٩م نشر البطريرك ماراغناطيوس يعقوب الثالث، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق أيضاً كتاباً عنوانه (البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية) ذكر في مقدمته مايأتي :" اللغتان الشقيقتان، السريانية والعربية،تفرعتا عن الدوحة السامية الكبرى،لكي تظل الواحدة في معزل عن الأخرى دهراً طويلاً،ثم تصب الواحدة على الأخرى،متلاقيان لتعيشا متعانقتين متآزرتين متقارضتين".ثم قال بعد ذلك:"لقد تشابهت في كلتا اللغتين مئات من الألفاظ معنى ولفظاً،وهي إما مما توارثناه عن اللغة الأكادية، او مما استقرضته كل منهما من الأخرى".

أما اليونانية فهي لغة بعيدة كل البعد عن اللغة العربية،ولكن نظراً لأن اللغةالعربية تمتاز بوفرة ألفاظها ومعانيها،وسهولة الاشتقاق منها،فقد استطاع أوائل التراجمة إيجاد ألفاظ ومصطلحات تؤدي معنى الألفاظ والمصطلحات المنتشرة في المؤلفات الفلسفية والعلمية،والتي قاموا بنقلها من اليونانية الى العربية.ولكن تعذر عليهم إيجاد أسماء كثير من مفردات الأدوية من نباتات أو حيوانات أو معادن لم يعرفها العرب فعربوها.ونجد ذلك واضحاً في كتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار.

◆◆◆

ظواهر لهجية في لهجات

د. عبد الإله نبهان

لا تخطئ عين الناظر في المعجم العربي وكتب النحو وكتب شروح الشعر القديم أو الكتب المبسوطة في القراءات القرآنية مثل هذه العبارات:وهي لغة تميم.. وهذه لغة الأزد.. وتنسب إلى أزد شنوءة وهذه "ما" الحجازية... فإذا أحببت أن يتقصى الأمر إلى حدوده البعيدة قدمت له كتب فقه اللغة العربية" المصنفة حديثاً ثبتاً لما كتب من دراسات مستقلة في كل لهجة من اللهجات القديمة، فهذان كتابان في لهجة تميم(١)، وتلك أطروحة جامعية في لهجة طيء(٢)، وذاك كتاب كبير في "اللهجات العربية في التراث"(٣)، وهذا فصل من كتاب في لهجة تميم(٤).. ثم يبرز أمامه معجم حديث نخل المعجمات القديمة واستخرج مافيها من الألفاظ المنسوبة إلى قبائل بأعيانها، فتجد فيه جميع مانصت عليه المعجمات القديمة بأنه من لغة جرهم أو تميم أو الأزد أو أهل اليمن أو كنانة أو الأشعريين أوهذيل أوثقيف أو قريش(٥).. وهكذا.. فهل يوحي هذا -أي تلك الدراسات وهذا المعجم- بأن اللهجات العربية القديمة قد جمعت ودرست وبيّنت خصائص كل لهجة على حدة؟

إنّ الجواب حسب المعطيات الظاهرة يجب أن يكون بالإيجاب، وذلك لأنك عندما ترى بحثاً مطبوعاً بعنوان "لهجة تميم" مثلاً، تتصور وجود مادة تامة ودراسة مكتملة قام بها الباحث صاحب الكتاب ليقدم معلومات مؤكدة وصورة واضحة عن اللهجة التي هي موضوع البحث.. لكنك ما إن تفحص هذه الدراسات التي تناولت اللهجات القديمة، وتنظر إليها بعين النقد، وتجيل فكرك في معطياتها وتناقش طريقة معالجتها للمادة اللغوية، حتى تُحسّ أن لبْساً ما في هذه الدراسات.. وانّ مايقدم إليك إنما هو ظواهر لهجية وليس لهجة، ويمكن أن أبيّن صحة هذا الادّعاء فيمايلي من البحث.

أطلق قدماؤنا على اللهجة مصطلح "اللغة"(٦) فإذا قالوا: لغة تميم أو عُمان أو الأزد فإنما يعنون بذلك لهجة تميم أو عُمان أو... غير أن استعمال المصطلح تحدّد في عصرنا فأصبحت العلاقة بين اللغة واللهجة هي علاقة العام بالخاص، فاللهجة خاصة واللغة عامة، وبناءً عليه فإن عدداً من اللهجات يمكن أن ينتمي إلى لغة واحدة، ويمكن أن تعرّف اللهجة بأنّها "مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة"(٧) ولن نلتفت هنا إلى رأي بعض اللغويين الذين اتجهوا إلى إنكار اللهجات(٨)، لأننا نرى في إنكار وجود اللهجات ضرباً من المغالطة والمكابرة، لأن الواقع اللغوي التاريخي والواقع اللغوي الحالي الذي هو امتداد على نحو ما للتاريخي يؤكد وجود الظواهر اللهجية في العربية وفي غيرها من اللغات أيضاً(٩)، وقد أيّد ذلك أنطوان ماييه بقوله:"من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات، كلّما رأينا عدداً من الخطوط التي تفصل بين الخصائص ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبي، فهناك لهجة

محددة في كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة، وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين، فإنه يبقى أن كلاً منهما تتميز في مجموعها ببعض السمات العامة التي لا توجد في الأخرى"(١٠) .أما العلاقة بين اللهجة واللغة فهي علاقة الخاص بالعام كما أشرنا "لأن بيئة اللهجة هي جزء من بيئةٍ أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكلٍ منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض وفهم مايدور بينهم من حديث فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللغات "اللهجات" وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة، فاللغة تشتمل عادةً على عدة لهجات لكل منها مايميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات"(١١).

وتشير كتب "فقه اللغة" عندما تبحث في اللهجات القديمة إلى لهجة قبيلة ما أو منطقةٍ ما، وأعتقد أن الأمر أضيق من ذلك، بمعنى أن ما يسمونه "لغة أهل الحجاز" أو "لغة يمانية"أو" لغة تميمية" ربما كان لهجة جانب من اليمن أو ناحية من نواحي الحجاز، أو بعض قبائل من "تميم"، فكما أنه لا يجوز علمياً أن نقول لهجة سورية أو مصرية فإني أتصور أنه لا يجوز أن نقول لهجة الحجاز ولا لهجة اليمن.. لأن في سورية عدداً كبيراً من اللهجات، فكل مدينة لها لهجتها، ثم هناك لهجات القرى ولهجات البدو.. ومن هنا يظهر اخفاق المحاولات التي جرت للتقعيد لما سمّي بالعامية السورية(١٢) مثلاً وذلك نظراً لعدم وجود مايسمّى بالعامية السورية.. وقياساً للغائب على الشاهد نقول إنه لا يمكن أن يكون للحجاز لغة " لهجة" واحدة نظراً لاتساعه، ولا يمكن أن يكون التميميون في العصر الذي جمعت فيه اللغة على لهجة واحدة نظراً لانتشار تميم في أصقاع متباعدة وسكناها في مدن مختلفة واختلاطها بشتى القبائل العربية وغيرها(١٣).. هذه بعض الموانع على المستوى النظري تجعلنا نرى فيما يطلق عليه "لغة الحجاز" أو "لغة الأزد" أو ماشابه ذلك تعميماً لايمكن إقراره علمياً.

نعود الآن إلى الطريقة التي جمعت فيها مواد هذه اللهجات وسجلت ظواهرها فنقول: إن اللهجات القديمة لم تُجمع إذ لم يقصد أحد لجمعها، فنحن نعرف مثلاً أن أبا سعيد السكري(١٤) جمع ديوان هذيل وفسّره، لكنّ السكري لم يجمع لهجة هذيل في مدوّنة ولا كان يقصد إلى ذلك.. كلّ ما في الأمر أن الشعر الذي جمعه السكريّ ورواه وردت فيه ظواهر لغوية نسبت إلى هذيل.. فهل يجوز أن نستند إلى هذه الظواهر المحددة لنطلق عليها لهجة هذيل مع العلم أن الشعر المجموع قد ورد بالعربية الفصحى..؟ !

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٥) قد صنف كتاب العين، ونصّ فيه على المهمل والمستعمل في لغة العرب، وأورد فيه شواهد كثيرة من كلام العرب وأمثالهم وشعرهم وعلى مثاله سار المعجميون من بعده، سواء اتبعوا طريقته في الترتيب أو خالفوا ذلك.. المهم في الأمر أن محاولة الجمع والاستيعاب للغة مع مراعاة ترتيب مااشتملت على ذكر للهجات التي كانت تسمّى "لغات" لكنّ هذه اللهجات كانت تُذكر عَرَضاً بمناسبة ورود شاهد أو ذكر مثل أو قراءة قرآنية، ومع كثرة المعجمات العربية القديمة واتساعها فإننا لا نعرف معجماً خصص للهجةٍ من اللهجات، بل إن ماذكر في المعجمات المتقدمة من اللهجات أخذ يتكرر في المعجمات اللاحقة من غير ما إضافةٍ ذات فائدة وكذلك الأمر في كتب النحو ومطولاته وكتب تفسير القرآن الكريم، بمعنى أن الشاهد الذي ينتمي للهجةٍ معينة يتعاوره النحاة ويدور في كتبهم، فنحن مثلاً نجد البيت:

فقلت ادعُ أخرى و ارفع الصوت جهرةً ... لعلّ أبي المغوار منك قريب(١٦)

في معظم كتب النحو واللغة شاهداً على الجر بـ"لعل" في لهجة عُقيل، كذلك نجدهم يوردون بيت الفرزدق:

كم عمةً لك يا جرير وخالةً   فدعاء قد حلبت عليّ عشاري(١٧)

وذلك بنصب تمييزكم الخبرية على مقتضى اللهجة التميمية، ويقولون إن طيئاً تقول:"حَوْثُ" (١٨) في حيث، وإن بعض العرب يورد الظرف المبنيّ "حيث" معرباً. وهنا يوردون قراءة مَنْ قرأ (من حَيْثِ لا يعلمون)(١٩) وهذه الشواهد تتكرر، وقد يوهم تكرُرها كثرتها، لكنها في حقيقة الأمر محدودة محصورة بمواضع.

إن سبب محدودية ذكر اللهجات والاقتصاد في إيرادها يعود إلى أن اللغويين اتجهوا إلى جمع اللغة الفصحى، واتجه النحاة إلى التقعيد لها متمثلةً على نحوٍ خاص لديهم في عربية القرآن الكريم، وماكان لهم أن يلتفتوا عن ذلك إذ لاأسباب تدعو ولا موجبات توجب، فما الذي يدعوهم مثلاً لجمع مدونة لهجية لهذيل أوطيء؟! إنما تهمهم هذه الفصحى التي هي خلاصة نقيّة، وذروة لما انتهت إليه اللهجات المتعددة في تطورها الطويل(٢٠)، لقد تجلّت في لغة واحدة هي أشد نصاعةً وصفاءً ودقةً من اللهجات المتباينة، وبها تخاطبوا في محافلهم ودوّنوا علومهم.. لذلك نجد أنّ كل ماورد لدى اللغويين والنحاة مما له علاقة باللهجات إنما ورد عرضاً في سياقٍ يقتضيه، ولم يقصدوا إليها قصداً.. فإذا ما أراد احدهم تفسير كلمة(زقا) أورد قراءة ابن مسعود (إن كانت إلاّ زقية)(٢١) وهنا يقولون: الزقية هي الصيحة بلغة هذيل.. ولولا هذه القراءة لما نصّوا على معنى الزقية في لغة هذيل ولا التفتوا إليه.. وقل مثل ذلك عندما يمرون بالآية(ماهذا بشَراً)(٢٢) برفع(بشر) ونصبها، فإنهم يتحدثون عن(ما) تميمية وأخرى حجازية...

إن الدراسة العلمية للهجةٍ من اللهجات إنما تعتمد المنهج اللغوي الوصفي التحليلي الذي يستهدف تسجيل أهم الظواهر اللغوية لهذه اللهجة وذلك من النواحي النحوية والصرفية والصوتية ومواضع النبر.. وتشرحها وتوضحها وتضع لها منظومة قاعدية مستنبطة منها مع دعم ذلك بالتعليلات الممكنة للظاهرة، ومثل هذه الدراسة تتطلب الملاحظة المباشرة مما يقتضي الاختلاط بالناطقين بهذه اللهجة في مجالسهم وأسواقهم ومشاهدهم واختيار الراوي أو بالأحرى الرواة الذين عنهم تُتلقى اللهجة وتسجّل في أشرطة التسجيل.. وإذا كان موضوع الدراسة لهجة عربية معاصرة فإنه يمكن مقارنة هذه اللهجة بالعربية الفصيحة من حيث الأصوات وتركيب الجملة والقلب والإتباع لينظر مدى التوافق والتقارب ومدى الاختلاف والتباين.. أو ليرى فيما إذا كانت هناك صفة عامة أوصفات في هذه اللهجة قد حفظ مايشابهها من اللهجات العربية القديمة في ظواهرها المحفوظة مما يدعو إلى القول حينئذٍ إن اللهجة المعاصرة ذات أصول تمتد إلى تلك اللهجة القديمة..

يفهم من كل ما تقدم أن الدراسة المنهجية للهجةٍ من اللهجات إنما تنصب على لهجةٍ حيّة تتكلمها مجموعة بشرية في زمن معين ومنطقة محددة، فكيف إذن تقدّم لنا الدراسات عن لهجات قبائل أصبح وجودها تاريخياً(٢٣) ولم يبق من لهجاتها إلا ظواهر حظيت بالتسجيل غير الدقيق مصادفة من غير ما قصد؟! أيمكن أن تكون تلك الدراسات في صميمها مطابقة لما يوضع من عناوين؟!

لبيان هذا الأمر يمكن ان نختار دراسةً من تلك الدراسات التاريخية للهجات وننظر فيها ثم نعرض لدراسة حديثة للهجة ما تزال قائمة لنرى الفرق بين الدراستين. وقد اخترت دراسة منشورة في كتاب هي "لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة"(٢٤) لا لأعرضها وإنما لأقف لدن مفاصل منها معلقاً حيث يستحسن ذلك.

ذهب الدارس مستعيناً بمصادره محتجاً بها إلى أن القراءات القرآنية "كانت مصدراً أصيلاً من مصادر دراسة اللهجات العربية القديمة ذلك انها تكاد تكون المرآة العاكسة لما كان عليه الواقع اللغوي في الجزيرة العربية قبيل الإسلام وبُعيده"(٢٥) ومع ان هذا الكلام ليس لصاحب الدراسة فإنه يتبناه على مافيه من تعميم وإنشائية وبُعْدٍ عن المنهجية التي تقتضي الاستقراء، وإني لأتساءل كيف يمكن أن تكون مرآة عاكسة في شبه قارة فيها عشرات القبائل المتباعدة في المكان واللهجة.. إضافة إلى أن بعض هؤلاء القراء يقرؤون بقراءات لا علاقة لها بلهجة بيئتهم.. ومثّل الباحث لهذا الأمر بعبد الله بن كثير المكي(٢٧) الذي كان يهمز في حين أن لهجة أهل مكة لا تعرف الهمز، ثم أورد قراءات لقراء مختلفين وردت على لهجة بني تميم منهم عبد الله ابن مسعود(٢٨) أورد له في قراءته أربعة مواضع على لهجة تميم مع انه هذليّ، وأورد لعاصم بن بهدلة(٢٩) خمس قراءات في خمسة مواضع.. ثم ذكر أحد عشر موضعاً لقراء مختلفين على لهجة تميم.. واختار الباحث مجموعة من كتب القراءات والتفسير وقدم لنا إحصاءً عن المواضع التي ذكرت فيها لهجة تميم. فقد ذكرت ثلاث عشرة مرّة في كتاب "لغات القرآن" لابن حسنون(٣٠) ومثلها في كتاب "ماورد في القرآن الكريم من لغات القبائل" للقاسم بن سلام(٣١)، وست مرات في" مختصر شواذ القرآن" لابن خالويه(٣٢) وإحدى عشرة مرة في"المحتسب" لابن جني(٣٣) وست مرات في الكشاف للزمخشري(٣٤) وثلاثين مرّة في "زاد المسير" لابن الجوزي(٣٥) وثماني وأربعين مرة في"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي(٣٦).. فهل تكفي مثل هذه القراءات المنسوبة إلى لهجة تميم لتكون"مرآة عاكسة" ؟!!

وانتقل الباحث ليتحدث عن لهجة تميم في شعراء بني تميم، فوجد نفسه أمام شعر قيل بالعربية الفصحى فرأى أنه من الصعب تتبع اللهجة في شعر بني تميم "لأن هذا الشعر لم ينظم بلهجة بعينها وإنما بالعربية الأدبية، فإذا كان لابد للشاعر أن يتأثر بلغة بيئته فإن ذلك التأثر يبقى محدوداً جداً، إضافة إلى أنّ هذا الشعر جاء مكتوباً، وذلك يعني اختفاء كثير من الميول اللهجية فيه كالإمالة والحركات التي تميل إليها لهجة الشاعر"(٣٧) وبناءً على ذلك "فإنه يكون من الصعب جداً البحث عن خصائص لهجة تميم في أشعار التميميين كعبدة بن الطبيب وعلقمة الفحل وجرير والفرزدق أو غيرهم من الشعراء لأنّ أشعار هؤلاء جميعاً نظمت بالعربية الأدبية.."(٣٨) ورأى أن في الرجز الذي هو أقرب إلى الأشعار الشعبية تظهر فيه بعض الخصائص اللهجية "ومن ثمّ أمكن القول إن أرجاز رؤبة والعجّاج قد تكون ذات نصيب حسن في الألفاظ التميمية غير أنّ من الصعوبة بمكان تحديد هذه الألفاظ، ذلك أنها وصلتنا بلا عزْوٍ مما يعني أننا لا نستطيعُ الركونَ إليها في دراستنا... ويبدو أنّ كلّ ما نستطيع الركون إليه منها ذلك الذي ورد في كتب الأقدمين معزواً إلى لهجة تميم.."(٣٩) وضرب بعد ذلك سبعة أمثلة وردت فيها ألفاظ نُصّ عليها على أنها تميمية كقول العجاج.

وأَنْـزَفَ العَـبْرَةَ مَـنْ لاقَـى العِبَـرْ

قالوا: أنزف لغة تميم، وأهل الحجاز يقولون: نزف(٤٠)

ثم ذكر أن بعض الشعراء من غير التميميين (استعملوا اللهجة التميمية في أشعارهم)(٤١) وضرب ثلاثة أمثلة وعلل هذه الظواهر بأنّ هذه الألفاظ التميمية صارت جزءاً من العربية الأدبية وذلك نظراً لانتشار التميمية وتأثر الشعراء النجديين وخلص إلى مايلي" وخلاصة القول أنه لايمكننا الركون إلى الشعر في دراسة اللهجات ومنها لهجة تميم، ذلك أنّ هذا الشعر لايمثل لهجةٍ بعينها وإنما انتشرت فيه خصائص لهجات كثيرة، وإذا كان لنا أن نركن إليه فليس إلا للقليل منه الذي عزا القدماء ألفاظه إلى لهجات بعينها.."(٤٢)

وفي الفصل الذي عقده عن الأصوات الصامتة في اللهجة التميمية وجد أنّ أهمّ ظواهر الأصوات الحلقية في هذه اللهجة هي تحقيق الهمز والمبالغة فيه، كذلك هناك ظاهرة "العنعنة" أي قلب الهمزة عيناً كما في قولهم: أعنّ = أنّ، وأشار إلى ظاهرة إبدال الهمزة من كلّ واوٍ مكسورة كقولهم في وسادة: إسادة، وفي وعاء: إعاء(٤٤). ومن هذه الظواهر قلب السين صاداً في طائفة من الألفاظ: سراط = صراط. سيقل = صيقل. سخب = صخب(٤٥).. وهذه الظاهرةالأخيرة لم تنسب إلى تميم على نحو عام وإنما نسبها بعضهم إلى بني العنبر من تميم وبعضهم إلى عمرو بن تميم... وطبيعي أنني لن أتف لدن كل عنوان في الدراسة ولكني سأخص الجيم والشين بشيء من الكلام: رأى الباحث أن الجيم "لم تتخذ في لهجة تميم وضعاً مستقراً فهي تارة جيم عربية، وأخرى تنزع إلى أن تكون شيناً، وثالثة تكون فيها ياءً "(٤٦) ويعلل الباحث عدم استقرار الجيم في لهجة تميم بقوله:"إنها ورثت ذلك من اللغات السامية" (٤٧) وذكر أن قلب الجيم شيناً وصل في شاهد واحد، أما قلب الياء جيماً فقد نسب إلى بني سعدمن تميم أو ناس من تميم، ولايتمّ هذا إلا بالوقف، ومثّل له بالأبيات المشهورة في كتب اللغة:

خالي عُويفٌ وأبو علِجّْ — المطعمان اللحم بالعشجّْ

وبالغداة فِلَقَ البرنجّْ — يُقلع بالود والصيصجّْ (٤٨)

ولن أقف عند ظاهرة الكشكشة لأنها مختلفٌ فيها على نحو كبير، فقد ضاعت أصواتها وبقيت صورتها في كتابات اللغويين الذين يكتبونها شيناً، وربما كانت في حقيقتها بين الكاف والشين.. وليس لدينا رمزٌ كتابيٌ يؤدي هذا الصوت...

وانتهى الباحث إلى أنّ لهجة تميم كانت تميل باطّراد إلى تجانس الأصوات مما أدى إلى ظهور طائفة من الظواهر اللغوية كالإتباع والإمالة والمعاقبة وكسر حرف المضارعة وقلب السين صاداً والجيم ياءً.. وعلل تأثر الأصوات بعضها ببعض بسرعة بني تميم في كلامهم وهي صفة عرفت عن لهجات أهل البادية عامة..

وتناولت الدراسة الحركات في لهجة تميم فبحث في الإتباع الذي يعني أن بعض الحركات تؤثر في بعض "وهي ظاهرة من ظواهر التطور في حركات الكلمات فالكلمة التي تشتمل على حركات متباينة تميل في تطورها إلى الانسجام بين الحركات حتى لا ينتقل اللسان من ضم إلى كسر إلى فتح في الحركات المتوالية وعلى هذا الأساس فإن هذه الظاهرة تدخل في باب المماثلة أيضاً "(٤٩) وقد وجد الباحث هذه الظاهرة في لهجة تميم وذلك بنصّ سيبويه:"... في لغةِ تميم وذلك قولك: لِئيم بكسر اللام وشِهيد وسِعيد ونِحيف ورِغيف وبِخيل وشِهد بكسر الشين والهاء- ولِعِب وضِحِك .. أما أهل الحجاز فيجرون جميع ذلك على القياس"(٥٠) ورأى الباحث أنّ سبب اطراد الإتباع في هذه الألفاظ هو وجود حروف الحلق فيها.. أما في صيغة فَعالى مثل

سُكارى وكُسالى وغُيارى فإن بني تميم يُتبعون الفتحة الفتحة فيقولون: سَكارى وكَسالى وغَيارى.. إلاّ أنّ ذلك لا يطّرد لانّ "الإتباع عند تميم في حالات إتباع الضمة الضمة أو الفتحة الفتحة كان بهذه الألفاظ بعينها وليس ظاهرة عامة"(٥١). ويحدثنا الباحث عن الإمالةفي اللهجة التميمية دون تحديد واضح لمواضع الإمالة فيها ، بل إنه يذكر أسباب الإمالة وموانعها كما ذكرها سيبويه مكتفياً بذلك.. ثم يحدثنا عن كسر حرف المضارعة سوى الياء في الثلاثي المبنيّ للفاعل إذا كان الماضي على "فَعِل" -بكسر العين- وذلك في لهجة تميم وكل اللهجات العربية القديمة إلا لهجة الحجاز كما يقول. وبناء على هذا فإن تميماً يقول: أنا إعلمُ ونحن نِعلمُ وانت تِعلَمُ.. لكنّ هذه الظاهرة كمانص الباحث نفسه غير خاصة بتميم فلا خصوصية لها بها.. اما في باب المعاقبة فإن تميماً تجنح إلى الياء بوجه عام مقابل جنوح أهل الحجاز إلى الواو، وتعني المعاقبة الحالات التي تتعاقب فيها الياء مع الواو في العربية الفصحى كما في: طيبى = طُوبى.. فبنو تميم يقولون: فليت البرّ أقليه قلياً وأهل الحجاز يقولون قلوته أقلوه قلواً.. وتميم تقول: القصيا وأهل الحجاز يقولون: القصوى، وتميم تقول: ييجل ييجع والحجازيون يقولون: يوجل يوجع .وينقل تفسير سيبويه لهذه الظاهرة باستثقال التميميين الواو التي بعد الياء المفتوحة وكراهتهم قلب الواو ياءً من غير كسر ماقبلها، لكنّ الباحث مايلبث أن يستدرك بأنه وجد أمثلة أخرى تميل فيها تميم إلى الواو في المعاقبة بينما يميل أهل الحجاز إلى الياء، فالتميميون يقولون: قلنسُوة والحجازيون يقولون: قلنسية ، كما أن بعضهم نسب"حَوثُ = حيثُ" بالواو إلى تميم. وتقول تميم: ضحوت للشمس أضحو إذا برزت لها، وغيرهم يقول: ضحيت... الخ ويخلص إلى تصور مفاده أنّ تميماً تميل إلى الكسر كما في: مِطرف ومِصحف ومِغزل ومِجسد والوِتْر والوِلاية. لكن هذه الأمثلة لاتخص تميماً كافةً، فمها مانسب إلى بني يربوع من تميم ومنها مانسب إلى بني سعد منها أيضاً.

والطريف في الأمر هنا أن الدكتور إبراهيم أنيس(٥٢) والدكتور أحمد علم الدين الجندي(٥٣) من بعده كانا قد استنتجا قبل الباحث المطّلبي أن لهجة تميم تنزع في أغلب الأحيان إلى الضم واستدلال على ذلك بطائفةٍ من الألفاظ التميمية المضمومة الفاء أو العين قابلاً بها طائفة من الألفاظ الحجازية المكسورة أو المفتوحة وفسّرا ذلك بأن البدو بطبيعة حياتهم يميلون إلى الخشونة وأن الضمّ من الخشونة(٥٤) .. وعلق المطلبي على هذا الرأي بقوله "والواضح أنّ هذا التعليل تعليل منطقي يخرج عن التعليل اللغوي الذي يرى أنّ للغة منطقها الخاصّ بها(٥٥)

فنحن نرى هنا ان دارسي اللهجة نفسها يختلفون في إقرار ظاهرة هامة وأساسية تتعلق بميل اللهجة إلى الضم أو الكسر، وكل منهم له شواهد تدعم رأيه.. ومثل هذا الموقف يوحي ضمناً بأن هذه الدراسات اجتهادية غير موضوعية، وأن المادةَ موضوع الاستقراء والاستنباط مشتتةٌ وغير دقيقة، وهذا يعني غياب المدوّنة اللهجية التي يمكن بموجبها بناء الأحكام وتوثيقها. فإذا ماانتقلنا إلى مبحث الأفعال ومباحث الصرف فإننا نجد الواقعات نفسها.. ففي مبحث النبر يرى الباحث أنّ مبحث النبر في لهجة تميم لايمكن أن يكون دقيقاً "لاننا لانستطيع ادّعاء وضوح سمعيّ في كلمات وصيغ وصلتنا مكتوبة"(٥٦)

وفي مبحث الخصائص النحوية جمع الباحث ماورد في كتب النحاة من أحكام تتعلق بما نسب إلى لهجة تميم مما له علاقة بالإعراب والبناء أو المنع من الصرف أو تصريف هلمّ على: هلما، هلموا ، هلممن.. لكنّ تصريفها هذا ليس وقفاً على التميمية إنها لغة أهل نجد أيضاً..

ومن الأحكام التي يجب التوقف عندها والتنبه إليها ماذهب إليه الباحث بأن تميماً تنصب الجزأين(المبتدأ

والخبر) بـ "إن وأخواتها" وأورد في ذلك ثلاثة شواهد من الشعر أولها قوله:

إذا اسودَّ جنح الليل فلتأتِ ولتكنْ　　　خطاكَ خفافاً إن حرّاسنا أسدا (٥٧)

وثانيها قول الآخر :

قد طرقت ليلى بليلٍ هاجعا　　　ياليت أيام الصبا رواجعا (٥٨)

وثالثها قوله:

كأنَّ أذنيه إذا تشوفا　　　قادمةً أو قلماً محرفا(٥٩)

وعلّق على هذه الشواهد بقوله:" ولا نستطيع تعليل نصب الجزأين عندهم إلا بكونه اسلوباً لهجياً خاصاً، ويظهر أنّ هذا الأسلوب كان قليل الاستعمال وربما كان محدوداً ببعض التميميين ذلك لأنه لم يصل إلينا سوى هذه الأمثلة القليلة التي لايمكن أن تكون دليلاً على استعمالٍ واسع كما ان بين أيدينا من أشعار التميميين يوضح حقيقة أنهم لم يستعملوا هذا الأسلوب في أشعارهم" (٦٠)

وأرى أن مثل هذا الأسلوب لايجوز حمله على التميمية ولا على غيرها، وإنه حريّ أن يحمل على الضرورة التي تحفظ ولايقاس عليها ولاسيما أن أخبار "إن وأخواتها" في هذه الشواهد جاءت كلها في قصائد منصوبة الرويّ فنصبت، ولا يمكن أن ننسب مثل هذا الشذوذ إلى لهجة بني تميم، لأن قوانين اللهجة لا توضع بتصيّد شاهد من هنا واقتناص عبارة من هناك.. وإن دراسة اللهجة لايكون مرجعها الشعر وإنما هو واحد من مراجعها.. ويؤخذ الشعر بجمهوره وبالخصائص الغالبة فيه لا بما وقع فيه الاضطرار وألجأت إليه ضرورات الشعر ومضايقه، فإذن لا يمكن الأخذ بهذه الأبيات شواهد على نصب أسماء إن وأخبارها لا في لهجة تميم ولا غيرها

أما على مستوى دلالة الألفاظ فقد اختصت اللهجة التميمية بان بعض الألفاظ وردت فيها بدلالة معينة تخالف ماوردت عليه في لهجات أخَر، وهذا أمرٌ طبيعي، مع وجوب الإشارة إلى أن هذه الألفاظ صالحة لان يُبْحَثُ فيها من حيث اختصاصها بالتميمية أو اشتراكها بينها وبين غيرها أو كونها مما اشتملت عليه العربية الفصحى..

نخلص من هذا كلّه إلى أنّ دراسة هذه اللهجة القديمة التي خصّتها المصادر بعناية لم تحظ بها غيرها قد جاءت ناقصة مبتورة متناقضة مع غيرها، فشعر تميم لا يمكن الاعتماد عليه ونبرها لا يمكن دراسته، والأحكام المستنبطة هي أحكام احتمالية.. فكيف يسوغ لنا أن نسمّي هذا الفتات لهجة؟!

أليس من الأقرب للصحة والمنهجية أن نسمّي الدراسة بـ"ظواهر لغوية في لهجة تميم"..

ويمكن أن ننتقل الآن لنلقي نظرة متفحصة على دراسة لهجية منهجية للهجةٍ معاصرة لأحياء يعيشون في أيامنا، وبين يديّ على سبيل المصادفة دراسة في "لهجة شمال المغرب: تطوان وماحولها"(٦١) مع معجم لهذه اللهجة طبع مستقلاً عنها، ولديّ دراسة أخرى هي "لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط"(٦٢) وسأختار الثانية للحديث عنها.

دراسة لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط لم تعتمد إشاراتٍ وردت في الكتب ولا أقوالاً رددها الرواة

ولا أحكاماً استنبطها النحاة و"هذه الإشارات لاتكفي في وصف لهجة"(٦٣)

حدد الباحث منطقة البحث أولاً: إنها إقليم ساحل مربوط، وهي المنطقة الشمالية من صحراء مصر الغربية، وتمتد من غربي الإسكندرية حتى الحدود الفاصلة بين مصر وليبيا وتمتد شمالاً إلى البحر الأبيض المتوسط وجنوباً إلى هضبة الصحراء الليبية المعروفة بصحراء الدفة. وسكان هذه المنطقة هم قبائل بدوية مترابطة ماعدا قليلاً منهم، وهم يتسمّون باسم كبرى قبائلهم "قبائل أولاد علي"(٦٤).

هذه الدراسة قدمها الدكتور عبد العزيز مطر وقدم لها بقوله إنها "دراسة لغوية وصفية تحليلية تسجل أهم الظواهر اللغوية للهجة من النواحي الصوتية والصرفية والنحوية وتشرحها وتضع القواعد التي تخضع لها هذه الظواهر، وقد عللتُ لما أمكن تعليله منها وقارنت -بعد الوصف والشرح- أحياناً بين مسالك اللهجة ومسالك العربية الفصحى، أو بين مسالك اللهجة ومسالك غيرها من اللهجات العربية الحديثة والمنهج الذي سلكته في تسجيل اللهجة هو منهج الملاحظة المباشرة الخارجية بشكليها الإيجابي والسلبي، والملاحظة غير المباشرة عن طريق التسجيلات الصوتية التي قمت بها....

وقد اقتضاني جمع المادة اللغوية وتسجيل اللهجة أن أقيم بين هؤلاء البدو واتردد عليهم في فترات مختلفة خلال عامي١٩٥٨-١٩٥٩ وقد شملت زياراتي المنطقة كلها تقريباً من العامرية غربي الإسكندرية إلى السلوم التي تبعد عن الإسكندرية بستة وخمسمائة كيلومتر.. وفي هذه الزيارات اختلطت بالبدو وشهدت مجالسهم وأسواقهم وانتخبتُ منهم رواة لغويين تلقيت عنهم اللهجة، وقد دوّنت في ملحق البحث اسم كل راوٍ وموطنه والقبيلة التي ينتمي إليها والنص الذي تلقيته عنه"(٦٥)، ثم درست المادة اللغوية ضمن ثلاث مراتب:

١-مرتبة الصوت

٢-مرتبة الصرف

٣-مرتبة النحو

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

فنحن إذن هنا أمام دراسة ميدانية عملية تعتمد السماع المباشر وتسجيله ثم تسلط على المادة مباضع البحث والاستنتاج، فمما نذكره من ذلك أن الباحث تطرق إلى وصف أصوات اللهجة حرفاً حرفاً كما سمعها وعاينها مستعيناً بمصطلحات علم الأصوات وبرموز كتابية وضحها في مقدماته، فهو يعرض لكل حرف ويحدد مخرجه ويذكر صفاته ويقدّم تعليقات مفيدة على الحرف إذا كانت له وضعية ما في تلك اللهجة.. ففي حرف "الثاء" المثلثة ينصّ على أنّ بدو هذه المنطقة يستخدمون هذا الحرف فيقولون: يبعَث، يحْرث،.. كثير، ثوم، يثلث = ثالث على حين أن معظم اللهجات العربية المعاصرة قد تخلّت عن هذا الصوت مستبدلةً به التاء أو السين(٦٦).. ويقول في حديثه عن "الجيم" إن جيم البدو في ساحل مربوط شديدة التعطيش وتشبه صوت الجيم في اللهجة العربية في سورية(٦٧)، كما لا حظ أن البدو في هذه المنطقة قد احتفظوا بحرف الذال فهم يقولون: يذبح، ياخذ، يكذب، ذهب.. في حين نرى أنّ كثيراً من اللهجات العربية المعاصرة قد تخلصت من صوت الذال واستبدلت به الدال أو الزاي(٦٨)....

ثم تحدث الباحث عن الإمالة في لهجة الإقليم المذكور مستخدماً أمثلة من لهجتهم مستنبطاً منها قواعدها.

وليس من غرضي عرض هذه الدراسة عرضاً استقصائياً وإنما اتجهت إلى الاكتفاء بالأمثلة الدالّة على الدراسة العلمية المنهجية ..

بعد أن عرض الباحث لنظام الجملة وصيغ الأفعال قدّم نصوصاً حيّة سمعها من بدو المنطقة، فالنص الأول رواه البدوي "زيات جاب الله" أمّي، عمره خمس وثلاثون سنة.. وكتب النص بلهجة البدوي كما نطقها، واستعان الكاتب على ذلك برموز فسّرها في أول كتابه، ثم أورد طائفة من الأمثال المتداولة في المنطقة ثم ذكر قصائد ومقطوعات نظمت باللهجة نفسها في مناسبات مختلفة.. وألحق الباحث ببحثه معجماً دلالياً للمفردات التي وردت في نصوص اللهجة التي دونها الباحث فكان يورد اللفظ كما ورد ويورد أصله العربي الفصيح ومعناه الذي ورد عليه في المعجمات. فمثلاً يذكر كلمة هَلْ. قال: يقولون "هَلي" أي أهلي، أسرتي، وأقاربي، وتأتي بمعنى أصحاب مثل "هلي" أي أهلي، أسرتي، وأقاربي، وتأتي بمعنى أصحاب مثل "هل النجّع" وأصلها العربي " أهل" وجاءت في المعجمات للمعنيين. في الصحاح: الأهل: أهل الرجل وأهل الدار(٦٩)..

وفي "ترس" يذكر استعمالهم: ترّاس مقابل: الراكب، يقولون:"فيرس وترّاس ما يترفعوش" = فارس وراجل لا يترافقان. أي لا يتساويان.. وهنا علّق الدكتور مطر بقوله: أصل الترّاس في اللغة صاحب الترس الذي يستتر به في القتال، فربما أريد به أولاً مايقابل الفارس في الحرب، ثم أريد به مايقابل الفارس مطلقاً(٧٠) ..

وكان من نتائج هذا البحث أن قدم دراسة للهجة حيّة مع محاولة ربطها بما عرف من ظواهر مماثلة في اللهجات العربية القديمة، فمن ذلك على سبيل المثال ماقدمه الباحث في وصف تراكيب لهجة ساحل مريوط:"الفعل المتقدم على المسند إليه الظاهر يشتمل في اللهجة على واو الجمع إن كان المسند إليه مذكراً أو مثنىً مذكراً، وعلى نون النسوة إن كان المسند إليه جمع مؤنث أومثنىً مؤنثاً وهي اللهجة العربية القديمة المعروفة بلغة "أكلوني البراغيث" وقد رويت عن طيء أو أزدشنوءة، وربما كانت هذه اللغة من آثار اللغة الآرامية كما ذكر الدكتور أنيس فريحة"(٧١)..

المهمّ في الكلام أن الدراسة اللهجية لا يمكن أن تتم علمياً إلا بالمنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة بما يوفره تقدّم العلم من أدوات مُعينة في البحث، لذلك رأينا الدراسات اللغوية للهجات المعاصرة تأتي مقنعةً في وصفها للهجة واستنباط قواعدها لأن ذلك إنما يتمّ استناداً إلى سماع مباشر وملاحظة شخصية، أما الدراسات اللغوية التي اتجهت دراسة اللهجات العربية القديمة وبذلت جهداً جهيداً في جمع المادة من الكتب وتصيّد الأحكام والشواهد فإنها جاءت قاصرة عن الغاية، عاجزة عن تصوير تلك اللهجة، إنها دراسات غير متكاملة تقتصر على تقديم ظواهر لهجية طفيفة رواها الرواة في الكتب، أو أشار إليها اللغويون والنحاة.. فالدارس لم يسمع اللهجة التي يدرسها ولا يملك مدوّنةً عنها.. لذلك ترى دارسي اللهجات العربية القديمة يناقض بعضهم بعضاً كما رأينا في عزوهم تميماً إلى الميل إلى الضم، في حين أن بعضهم زعم أنها تميل إلى الكسر.. لذلك كله أرى أنه من باب الادّعاء أن نزعم أننا ندرس لهجة تميم أوطيء أو الحجاز أو غيرها وأنه علينا من باب العلم والتواضع فيه أن نقول إننا نجمع ماذُكر لنا من ظواهر هذه اللهجة القديمة أو تلك.. أي إن دراستنا لأي لهجة قديمة ستكون مجرد جمعٍ لما ذكرته المعاجم أوكتب شروح الشعر أو مطولات النحو.. وفرق كبير بين هذه الدراسة وبين الدراسة العلمية الميدانية، إضافةً إلى أنني أظنّ أنّ أي باحث في لهجات القبائل لا يستطيع أن يقدّم لنا نصاً في عدة أسطر مكتوباً أومنطوقاً بأصوات اللهجة التي درسها لأنه في الأصل لم يسمعها ولا يمكن له أن يدرك إدراكاً شاملاً طبيعتها في الاستعمال. ولا أحب أن يفهم من هذا البحث أني أثبط الهمم عن دراسة اللهجات القديمة وأدعو إلى صرف النظر عنها، فهذا مما لا يخطر لي ببال، ولكنني أنبه وأشير إلى أن

دراسة هذه اللهجات لا تعني ضبطها ولا الإحاطة بها وإنما هي تجميع أحكام وردت فيما يمس الظاهرة أو تجميع مفردات نسبت إلى هذه اللهجة أو تلك وهذا بعيد جداً عن الدراسة الحديثة التي تتجه إلى الدراسة الميدانية العملية للجهات.لذلك قلنا إنها ظواهر لهجية لا لهجات.

الإحالات والتعليقات

(١) صدر كتابان في لهجة تميم أولهما "لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة" لغالب فاضل المطلبي صدر عن وزارة الثقافة والفنون ببغداد سنة١٩٧٨. والثاني صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ولا أذكر مؤلفه ولا تاريخ نشره.

(٢) هي أطروحة نال بها الدكتور عبد الفتاح محمد درجة الدكتوراه من جامعة دمشق.

(٣) اللهجات العربية في التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندي. صدر عن الدار العربية للكتاب بطرابلس بليبيا سنة١٩٨٣ في مجلدين.

(٤) انظر على سبيل المثال والأمصار للدكتور جميل سعيد والدكتور داود سلوم. صدر عن المجمع العلمي العراقي في مجلدين سنة١٩٧٨ .

(٦) هذا أمر شائع في معجمات اللغة والكتب اللغوية والنحوية القديمة. وانظر كتاب "فصول في فقه العربية" للدكتور رمضان عبد التواب ص٧٤

(٧) المرجع السابق: ٧٢ وقد نقله وعزاه إلى كتاب في اللهجات العربية١٦ للدكتور إبراهيم أنيس.

(٨) انظر المرجع السابق:٧١

(٩) قال بيتر رونتش: إن أحد الأمور التي يعرفها الجميع عن اللغات هو أن لها لهجات مختلفة، وتلفظ اللغات بشكل مختلف من قبل أشخاص في أماكن جغرافية مختلفة، ومن طبقات اجتماعية مختلفة وذوي أعمار مختلفة وخلفيات تعليمية مختلفة.

انظر كتاب الصوتيات وعلم الأصوات الكلامية في اللغة الإنكليز:٨

(١٠) انظر "فصول في فقه العربية" :ص:٧١،٧٢

(١١) المرجع السابق: ٧٢

(١٢) قام بهذه المحاولة عام١٩٢٥ مارون غصن في كتاب سماه "حياة اللغات وموتها: اللغة العامية. نشر في المطبعة الكاثوليكية ببيروت١٩٢٥ في٦٠ صفحة.

(١٣) لهجة تميم: ٣٩

(١٤) أبو سعيد السكري الحسن بن الحسين٢١٢-٢٧٥هـ شرح ديوان الهذليين. ونشر هذا الشرح بتحقيق عبد الستار أحمد فراج ومراجعة محمود محمد شاكر بدار العروبة بالقاهرة /ب ت/

(١٥) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي١٠٠-١٧٠هـ .وكتابه نشر تاماً بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور مهدي المخزومي وصدر عن دار الرشيد ببغداد

(١٦) البيت لكعب بن سعد الغنوي في رثاء أخيه أبي المغوار. انظر البيت في مغني اللبيب برقم٥٢٥و٨٠٩وخزانة الأدب٤: ٣٧٠

(١٧) البيت في سيبويه ١ :٢٥٣و٢٩٣و٢٩٥ وفي مغني اللبيب برقم٣٣٧

(١٨) مغني اللبيب ١٧٦:١

(١٩) سورة الأعراف ١٨٢:٧ وانظر مغني اللبيب ١٧٦:١

(٢٠) انظر:"فصول في فقه العربية":٧٦ ومابعدها

(٢١) الآية "إن كانت إلا صيحة" سورة يس ٢٩:٣٦ قال صاحب اللسان: الزقية: الصيحة. روي عن ابن مسعود انه كان يقرأ "إن كانت إلا زقيةً واحدةً"

(٢٢) سورة يوسف ٣١:١٢ . انظر معجم القراءات القرآنية ١٦٧:٣

(٢٣) بل إن ابن خلدون في أيامه لم يستطع أن يتقصى القبائل العربية التي شاركت في الفتح ثم تحضرت واكتفى بأن قال :"....هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية، فأكلتهم الأقطار المتباعدة، واستلحمتهم الوقائع المذكورة فلم يبق منهم عشير يعرف ولا قليل يذكر..."

عن كتاب لهجة شمال المغرب:٤٢

(٢٤) انظر التعليق رقم(١)

(٢٥) لهجة تميم: ٥٨

(٢٦) إرشاد الفحول: ٤٦و٤٧

(٢٧) عبد الله بن كثير المكي (٤٠-١٢٠هـ) أحد القراء السبعة

(٢٨) عبد الله بن مسعود الهذلي. صحابي. نظر إليه عمر يوماً وقال: وعاءٌ ملئ علماً توفي عام٣٢هـ

(٢٩) عاصم بن بهدلة: عاصم بن أبي النجود الكوفي، أحد القراء السبعة. توفي سنة١٢٧هـ

(٣٠) ابن حسنون: عبد الله بن الحسين. توفي سنة٣٨٦وكتابه "اللغات في القرآن" حققه الدكتور صلاح الدين المنجد ونشره بالقاهرة (مطبعة الرسالة١٩٤٦) ثم نشر دار الكتاب الجديد ببيروت١٩٧٢

(٣١) القاسم بن سلام: أبو عبيد الهروي من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه توفي سنة٢٢٤هـ ولا أعرف كتابه المشار إليه.

(٣٢) ابن خالويه: الحسين بن أحمد. توفي سنة٣٧٠هـ . وكتابه المشار إليه نشره برجستراسر في المطبعة الرحمانية بمصر سنة١٩٣٤

(٣٣) ابن جني: أبو الفتح عثمان بن جني. توفي ببغداد سنة٣٩٢هـ. وكتابه(المحتسب) نشر في القاهرة بتحقيق علي النجدي ناصف ود.عبد الحليم النجار ود.عبد الفتاح اسماعيل شلبي سنة١٣٨٦هـ.

(٣٤) الزمخشري: محمود بن عمر (٤٦٧ -٥٣٨هـ) وكتابه "الكشاف" له طبعات عديدة

(٣٥) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي. توفي عام٥٩٧هـ . ونشر كتابه "تقويم اللسان" بتحقيق الدكتور عبد العزيز مطر بدار المعرفة بالقاهرة سنة١٩٦٦

(٣٦) القرطبي: محمد بن أحمد. توفي سنة٦٧١هـ . طبع تفسيره المذكور في دار الكتب المصرية بالقاهرة.

(٣٧) لهجة تميم: ٦٨

(٣٨) المرجع السابق: ٧٣

(٤٠) المرجع السابق: ٧٤

(٤١) المرجع السابق: ٧٥

(٤٢) المرجع السابق: ٧٦

(٤٣) يوردون في هذا الموضع شاهداً لذي الرمة. قال صاحب المغني١: ١٩٨: وذلك أن بني تميم يقولون في نحو "أعجبني أن تفعل: عن تفعل" قال ذو الرمة:

أعَنْ ترسَّمتَ من خرقَاءَ منزلةً ماء الصبابة من عينيك مسجوم

(٤٤) وردت في قراءة ابن جبير في سورة يوسف١٢: ٧٦. انظر معجم القراءات القرآنية٣: ١٨٤

(٤٥) انظر أمثلة كثيرة من هذا الضرب في كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي٢: ١٧٢ ومابعدها

(٤٦) لهجة تميم: ٩٧

(٤٧) المرجع السابق: ٩٧

(٤٨) الرجز في كتاب الإبدال١: ٢٥٧ وهو متداول في كتب النحو واللغة.

(٤٩)لهجة تميم: ١٢١

(٥٠) المرجع السابق والموضع نفسه

(٥١) المرجع السابق: ١٢٤

(٥٢) وذلك في كتابه" في اللهجات العربية"

(٥٣) وذلك في كتابه"اللهجات العربية في التراث"

(٥٤) عن كتاب لهجة تميم: ١٤٢

(٥٥) المرجع السابق: ١٤٢

(٥٦) المرجع السابق: ٢١٤

(٥٧) البيت في مغني اللبيب برقم٤٨

(٥٨) الرجز في مغني اللبيب برقم٥٢٢ وهو في سيبويه١: ٢٨٤ وهو للعجاج

(٥٩) الرجز في مغني اللبيب برقم٣٤٤ قال محقق المغني: الرجز لمحمد بن ذؤيب العماني في وصف فرس وينسب لأبي نخيلة يعمر بي حزن الحماني(ت١٤٥هـ) ولا يستشهد به لاضطراب الروايات ولتأخر قائله العماني عن زمن الاحتجاج..

(٦٠) لهجة تميم: ٢٥٢و٢٥٣

(٦١) لهجة شمال المغرب "تطوان وماحولها" للدكتور عبد المنعم عبد العال. نشر بالقاهرة سنة١٩٦٨ وصدر عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. وعن الدار نفسها في العالم نفسه صدر "معجم شمال المغرب. تطوان وماحولها" للمؤلف نفسه(وزارة الثقافة)

(٦٢) وهي دراسة للدكتور عبد العزيز مطر صدرت بالقاهرة سنة ١٩٦٧ عن دار الكاتب العربي (وزارة الثقافة).

(٦٣) لهجة البدو: ٥

(٦٤) المرجع السابق: ١٢

مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٦٥) المرجع السابق: ٦
(٦٦) المرجع السابق: ٤٤
(٦٧) المرجع السابق: ٤٥
(٦٨) المرجع السابق: ٤٦
(٦٩) المرجع السابق: ٣٠٢
(٧٠) المرجع السابق: ٣٠٦
(٧١) المرجع السابق: ٢٦٢

أهم مراجع البحث

-الإبدال. أبو الطيب اللغوي. تحقيق عز الدين التنوخي. المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٠

-إرشاد الفحول إلى تحقيق من علم الأصول . محمد بن علي الشوكاني. مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٧هـ

-حياة اللغات وموتها. الخوري مارون غصن-المطبعة الكاثوليكية. بيروت١٩٢٥

-دراسات في فقه اللغة. د.صبحي الصالح. المكتبة الأهلية. بيروت١٩٦٦

-الصوتيات وعلم الأصوات الكلامية. بيتر رونش. ترجمة خالد حداد. دار الرواد. حلب.ب ت في اللغة الإنكليز ا

-فصول في فقه العربية. د.رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة١٩٨٠

-لسان العرب. ابن منظور. طبعة دار صادر . بيروت

-اللهجات العربية في التراث. د.أحمد علم الدين الجندي. ليبيا١٩٨٣

-لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط . د. عبد العزيز مطر. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة. وزارة الثقافة١٩٦٧

-لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة. غالب فاضل المطلبي. وزارة الثقافة والفنون. دار الحرية للطباعة. بغداد١٩٧٨

-لهجة شمال المغرب تطوان وماحولها" د. عبد المنعم سيد عبد العال. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة. وزارة الثقافة١٩٦٨

-معجم لغات القبائل والأمطار. د. جميل سعيد و د. داود سلوم. المجمع العلمي العراقي١٩٧٨

-معجم القراءات القرآنية.د.عبد العال سالم مكرم و د.أحمد مختار عمر. جامعة الكويت١٩٨٢-١٩٨٥

-مغني اللبيب. ابن هشام الأنصاري. تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ومراجعة سعيد الأفغاني دار الفكر. دمشق - بيروت١٩٧٩. طبعة خامسة.

❖❖❖

كتب الغريب:

(غريب القرآن)، (غريب الحديث)... (غريب اللغة)

- بين حقيقة معنى (الغريب) في واقع التأليف -

د. محمد كشّاش

توطئة

للألفاظ اللغوية أثرها في حياة الإنسان، فهي إحدى أدوات التواصل التي يعبر بها عمّا في الجنان بواسطة اللسان، لأنّ اللفظ يجسد ما في النفس. قال الشاعر: (من الكامل)

لا يُعْجِبَنَّكَ مِنْ خطيبٍ خُطْبَةٌ ... حتى يكونَ مع الكلامِ أصيلا

إنّ الكلامَ لفي الفؤادِ وإنّما ... جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا[1]

ويرتقي دور الألفاظ مع تطور الحياة الفكرية وتقدم العلوم. ويبرز ذلك حين تصبح الألفاظ أوعية الفكر ومظهره. إذ لولاها لما وصلت العلوم والمعارف من السابق إلى اللاحق شيء.

ولما كانت الألفاظ خزائن المعاني وحاضنة المعارف، توقف عليها الكثير من الأمور، إذ بفهمها فهم مدلولها وتحصيل ما تحويه من معان، ولهذا كانت مقدمة على المعاني عند العلماء. ذكر الإمام مجد الدين بن الأثير ما يلزم لمعرفة علم الحديث، قال: أحدهما معرفة ألفاظه، والثاني معرفة معانيه. ولا شك أن معرفة ألفاظه مقدمة في الرتبة، لأنها الأصل في الخطاب، وبها يحصل التفاهم، فإذا عرفت ترتبت المعاني عليها، فكان الاهتمام ببيانها أولى"[2].

وتقديراً لأهمية الألفاظ، اشترط الأئمة في الفقيه معرفتها، والإلمام بها، نقل عنهم قولهم:

---

[1] نسبه ابن هشام إلى الأخطل، ولم أعثر عليه في ديوان طبعة دار صادر، بيروت، ينظر، ابن هشام: شرح شذور الذهب (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١٠، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م)، ص٢٨.

[2] مجد الدين بن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر (تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، لا. تا)، ج١ ص٣.

(إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غنى لأحد منهم عنه. وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي. فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل كلمة عربية، أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدا"[3].

وتوسع العلماء في تقدير معرفة اللغة إلى درجة أعلى، حين رفعوا تكليف تعلمها والإلمام بها إلى مرتبة "فرض الكفاية"، قال ابن حزم: "وأما النحو واللغة ففرض على الكفاية.. لأن الله يقول:

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبَيِّنَ لهم﴾[4]، وأنزل القرآن على نبيه عليه السلام بلسان عربي مبين، فمن لم يعلم النحو واللغة، فلم يعلم اللسان الذي به بيّن الله لنا ديننا وخاطبنا به ومن لم يعلم ذلك فلم يعلم دينه، ومن لم يعلم دينه، ففرض عليه أن يتعلمه، وفرض عليه واجب تعلم اللغة والنحو"[5]

وحقيقة الأمر أن الألفاظ تؤدي دوراً جليلاً في حياة الإنسان اجتماعياً وفكرياً.. فإذا ما أصابها الزلل واعتراها الخطل، تعطل دورها وخفيت دلالتها، فبات الإنسان في حيرة من أمره. ولا غرابة بعد ذلك أن ينشد البحتري: (من الكامل).

بـاللفظِ يقْرُبُ فهمُهُ في بُعْدِهِ ... عنّا ويبعُدُ نيْلُهُ في قُرْبِهِ(6)

ولعظم أهمية الألفاظ، أعارها علماء العربية عنايتهم من الدراسة والجمع، فكانت بواكير المؤلفات اللغوية تدور حول الألفاظ، من هذه المؤلفات كتب "غريب القرآن"، وفي طليعتها كتاب عبد الله بن عباس (ت68هـ /687م)، الذي عدّ اللبنة الأولى في بناء المعاجم العربية[7] ثم توالى التأليف في هذا اللون من اللغة، فعرف كتاب غريب القرآن لأبي عبيدة، وكتاب غريب القرآن لمؤرج السدوسي، وكتاب غريب القرآن لابن قتيبة، وكتاب غريب القرآن لأبي عبد الرحمن اليزيدي، وكتاب غريب القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي.. وسواها[8].

وامتد هذا النوع من التأليف اللغوي إلى الحديث النبوي، فكان منه كتاب غريب الحديث لأبي عبيدة، وكتاب غريب الحديث للأصمعي، وكتاب غريب الحديث للنضر بن شميل وكتاب غريب الحديث لقطرب

---

[3] احمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة (وحققه وقدم له مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران، بيروت 1383هـ - 1964م)، ص64. وإلى مثله ذهب ابن حزم. يراجع ابن حزم: رسالة التلخيص لوجوه التخليص (ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط2، 1987م)، ج3 ص163.

[4] سورة إبراهيم، الآية 4.

[5] ابن حزم: رسالة التلخيص لوجوه التخليص (ضمن رسائل ابن حزم) ج3 ص162.

[6] البحتري: الديوان (دار صادر، بيروت، لا.تا) ج2 ص335.

[7] ذكر أحد الدارسين أن "طليعة المعجم العربي جاءت مع الإسلام، وأول من حمل رايتها عبد الله بن عباس في كتابه "غريب القرآن" الذي كان يؤدي ما تؤديه المعجمات للسائلين". ينظر احمد عبد الغفور عطار: الصحاح ومدارس المعجمات العربية (لا.تا مكة المكرمة، 1410هـ - 1990م)، ص63. ومثل ذلك قال محمد حسين آل ياسين: "يعد التأليف في غريب القرآن أول ما ظهر من فنون التأليف اللغوي، وذلك أنه نسب لابن عباس كتاب في هذا الموضوع. يراجع، محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ط1، 1400هـ- 1980م)، ص146.

[8] ينظر تفصيل ذلك، ابن النديم: الفهرست (دار المعرفة، بيروت، لا. تا)، ص56-53.

وكتاب غريب لابن الأعرابي.. وغيرها[٩].

وتعدت مؤلفات العلماء في الغريب حدود القرآن والحديث إلى اللغة نفسها، عرف من كتبها غريب اللغة للدار قطني (علي بن عمر)[١٠]، وتفسير الغريب لبزرج بن محمد العروضي، وغريب الحديث والكلام الوحشي للأصمعي، وغريب الأسماء لأبي زيد الأنصاري... وغيرها.[١١]

كتب الغريب: حقيقتها وفحواها

برز اهتمام العرب بلغتهم عندما بدؤوا نشاطهم الأول في جمع ألفاظها في مصنفات حملت - كما سبق - اسم "الغريب". ودارس العربية والباحث فيها يشنف سمعه مصطلح "الغريب" فيفهم منه للوهلة الأولى - انسجاماً للمسمى مع اسمه[١٢] -أنه يدور حول الألفاظ الغريبة المتعارف على سماتها في العرف اللغوي - البلاغي. فهل ضمت هذه المصنفات في ثناياها الألفاظ الغريبة؟؟ وما هو الغريب المقصود فيها؟؟.

وتوخياً للدقة، وتوضيحاً للطرح، لا بد من القاء الأضواء على مادة "غريب" في العرف اللغوي، وفي المعنى الاصطلاحي، ثم موازنته بما جاء في مؤلفات الغريب، للخروج بالرأي الصائب والحكم الأسدّ، وهنا يثار تساؤل مفاده، ما هو الغريب؟؟

الغريب في اللغة البعيد عن وطنه، جمعه غرباء. قال الشاعر: (من الطويل)

إذا كوكبُ الخرقاء لاح بسُحرةٍ   سهيلٌ، أذاعت غزلَها في الغرائب[١٣]

وقالت العرب: "كَذَفَتْهُ نوى غَرْبة، أي بعيدة".[١٤] كما جاء في استعمالهم: "أصابه سهْمُ غَرْب وسَهْمٌ غَرَبٌ، أي لا يدري راميه.[١٥] واشتقوا من مادة (غريب) أفعالاً، قالوا: "اغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه"[١٦] وفي الحديث المنسوب إلى النبي(ص): "اغتربوا ولا تُضْوُوا"[١٧]

من خلال المعاني المتقدمة، يلاحظ أن مادة (غريب) تحمل في أصولها معنى البعد من الأنس، والانفراد عن أبناء الجنس، لذلك استعاروا منها صورة تشبيهية نقلوها لمن الفرد عن أهله ولا ناصح له، قالوا: "وجه

---

[٩] يراجع ابن النديم: الفهرست، ص١٢٩-١٣٠.

[١٠] ينظر، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، مج ٢ ص١٢٠٨.

[١١] جمع محمد حسين آل ياسين قدراً كبيراً من مؤلفات "غريب اللغة". يراجع محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب. ص١٦٦.

[١٢] قالت العرب: "لكل مسمى من اسمه نصيب"، فسموا "يحيى" ليكون له من اسمه نصيب، فيطول به العمر، ينظر، محمد محيي الدين عبد الحميد: منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب (حاشية شذور الذهب)، ص٣٧٤ حاشية (١٩٤).

[١٣] ابن منظور: لسان العرب (دار صادر، بيروت ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م) مج١ ص٦٣٩، مادة (غرب).

[١٤] الزمخشري: أساس البلاغة (دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ص٤٤٧، مادة (غرب).

[١٥] الفيروز ابادي: القاموس المحيط (دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م)| مج١، ص١١١، مادة (غريب).

[١٦] الإمام الرازي: مختار الصحاح (دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٩م) ص٤٧٠| مادة (غرب).

[١٧] لم أعثر على هذا الحديث في كتب الصحاح، ولا في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ينظر، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث (رتبه ونشره د.أ.ي ونسنك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٤٣م)| ج٣، ص٥٩٤، مادة (ضوى).

كمرآة الغريبة لأنها في غير قومها فمرآتها أبداً مجلوّة لأنه لا ناصح لها في وجهها"[18] ومن هنا ظهر المعنى الاصطلاحي.

الغريب في الاصطلاح هو "الغامض من الكلام، وكلمة غريبة"[19] ويقال: "تكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره، وقد غربت هذه الكلمة أي غمضت فهي غريبة، ومنه مُصنف الغريب"[20] وأوضحوا المقصود من الكلام الغريب، بقولهم: "وكلام غريب بعيد عن الفهم"[21] . بعد ما سبق، يلاحظ أن الكلام الغريب، أو الغرابة في اللفظة "كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة"[22]

أعار علماء العربية اللفظ الغريب عنايتهم من الدرس والبحث، فميزوا بين نوعين من الغريب،[23] الأول أن تكون الكلمة وحشية لايظهر معناها، فيحتاج في معرفتها إلى أن ينقّر عنها في كتب اللغة المبسوطة، كما روي عن عيسى بن عمر النحوي أنه سقط عن حمار، فاجتمع عليه الناس، فقال: ما لكم تَكَأْكَأتم عليّ تكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني، أي اجتمعتم، تنحوا. والثاني أن يخرج لها وجه بعيد كما في قول العجاج: (من الرجز)

وفاحماً ومَرْسِناً مسرَّجاً[24]

قال العلماء معلقين: "فإنه لم يظهر ما أراد بقوله مسرجاً" حتى اختلف في تخريجه، فقيل هو من قولهم للسيوف سُرَيْجيّة منسوبة إلى قَيْن يقال له سُرَيْج، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي، وقيل إنه في البريق كالسّراج".

ثم وضع علماء العربية والبلاغة معايير وأقيسة، ارتكزوا فيهما بين اللفظ الغريب وما يقابله من فصيح[25].

وبهذا الإيضاح لمادة "غريب" تجلى المقصود منها في عرف اللغويين والمتخصصين في حقل الدراسة اللغوية. وبكلمة "الغريب" مرادف للحوشي والشارد والنادر. قال السيوطي: "معرفة الحوشي والغرائب والشواذ والنوادر هذه الألفاظ متقاربة، وكلها خلاف الفصيح."[26]. فهل راعى المصنفون في "غريب القرآن" و"غريب الحديث" و"غريب..." مقصود مادة "غريب"، فضموا في خضم مؤلفاتهم الشاذ والنادر والحوشي؟؟

---

[18] الزمخشري: أساس البلاغة، ص٤٤٧، مادة (غرب).

[19] ابن منظور: لسان العرب، مج١، ص٦٤٠، مادة (غرب).

[20] الزمخشري: أساس البلاغة، ص٤٤٧ مادة (غرب).

[21] الفيومي: المصباح المنير (مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م) ص١٦٩، مادة (غرب).

[22] الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات (مكتبة لبنان، بيروت، ط جديدة، ١٩٨٥م)، ص١٦٧، مادة (غرابة).

[23] ينظر، السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها (شرحه وضبطه وصححه.. محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار الجليل، بيروت لا.ت) مج١ ص١٨٦، والقزويني: الايضاح في علوم البلاغة (شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط٥ ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م)، ج١- ص٧٦.

[24] العجاج: الديوان (تحقيق عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٧١م)، ج٢ ص٣٤.

[25] ينظر معايير الفصاحة، القزويني: تلخيص في علوم البلاغة (ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لا.ت) ص٢٤-٣٦.

[26] السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مج١ ص٢٣٣.

استناداً إلى ما ترمي إليه الكلمة، أم ذهبوا مذهباً مغايراً؟!

إن مؤلفات الغريب التي اتخذناها نماذج في دراستنا تجيب، فليس بها صمم، ولا تعي عن الكلام، ففي شواهدها تكمن الحقيقة، وفي موادها الخبر اليقين.

جاء في غريب ابن عباس مادة "عزين"، ثم اثبت معها الشرح التالي[٢٧]، قال: "فقالا: يا ابن عباس أخبرنا عن قول الله عزّ وجلّ ﴿عن اليمين وعن الشمال عِزِين﴾[٢٨] قال: عزين: الحلق الرفاق.

قالا: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول عبيد بن الأبرص، وهو يقول: (من الوافر).

فجاءوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حولَ منبرِهِ عزينا[٢٩]

ويتجاوز أبو عبد الرحمن بن اليزيدي أسلوب ابن عباس الحواري، فيأتي على شرح المادة اللغوية مباشرة من دون تطويل وتعليل، يوضح ذلك قوله في الآية الكريمة: ﴿لاريْبَ فيه﴾[٣٠]: لا شك فيه[٣١].

وقد يحكي ابن اليزيدي في غريبه القراءات واللغات في أثناء شرحه، كما في "يُلْحِدون" الواردة في قوله عز وجل ﴿وذَروا الذين يُلْحِدونَ في أسمائه﴾[٣٢]، وقال: "يَلْحدون ويُلْحِدون: لغتان، يجورون، والالحاد: الجور عن القصد، والمُلْحِد: المائل عن الحق، وإنما سُمّي اللحدُ لأنه في ناحية القبر، وإذا كان في وسطه سمّي ضريحاً"[٣٣].

وتابع الراغب الأصفهاني في غريبه اللفظة، فشرحها موضحاً معناها في كل موضع جاءت فيه، أي بحسب استعمالها في القرآن الكريم. من أمثلته ما جاء في مادة "كنز" قال: "الكنز جعلُ المال بعضه على بعض وحفظه وأصله من كنزت التمر في الوعاء، وزمن الكناز وقت ما يكنز فيه التمر، وناقة كناز مكتنزة اللحم.

وقوله: ﴿والذين يَكنِزون الذهبَ والفضة﴾[٣٤]، أي يدخرونها وقوله: ﴿فذوقوا ما كنتم تَكنِزون﴾[٣٥].

وقوله: ﴿لولا أُنزِلَ عليه كنزٌ﴾[٣٦]، أي مال عظيم، ﴿وكان تحته كنزٌ لهما﴾[٣٧] قيل كان صحيفة علم[٣٨].

---

[٢٧] عبد الله بن عباس: غريب القرآن في شعر العرب - سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس (تحقيق محمد عبد الرحيم وأحمد نصر الله، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م)، ص٢٨.

[٢٨] سورة المعارج، الآية ٣٧.

[٢٩] نسبه ابن عباس في غريبه لعبيد بن الأبرص، ولم أعثر في ديوانه، دار صادر، بيروت..

[٣٠] سورة البقرة، الآية٢

[٣١] ابن اليزيدي: غريب القرآن وتفسيره (تحقيق د. عبد الرزاق حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ -١٩٧٨م) ص١٩.

[٣٢] سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

[٣٣] ابن اليزيدي: غريب القرآن وتفسيره، ص٦٧.

[٣٤] سورة التوبة، الآية ٣٤.

[٣٥] سورة التوبة، الآية ٣٥.

[٣٦] سورة هود الآية ١٢.

[٣٧] سورة الكهف، الآية ٨٢.

[٣٨] الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن (تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لا.ت) ص٤٤٢، مادة (كنز).

وذهب أصحاب الحديث في غريبهم مذهب أصحاب "غريب القرآن"، فراحوا يفسرون مواد الحديث اللغوية التي اسموها "غريباً". من شواهد ذلك تفسير مادة "سبخ" في غريب الهروي، جاء فيه: "... في حديثه عليه السلام حين قال لعائشة وسمعها تدعو على سارق سرق لها شيئاً، فقال: لا تسبّخي عنه بدعائك"[٣٩]. قال الأصمعي، قوله: لا تسبخي، يقول: لا تخففي عنه بدعائك عليه. وهذا مثل الحديث الآخر من دعا مَنْ ظلمه فقد انتصر؟ وكذلك كل من خففَ عنه شيء فقد سُبِّخَ عنه. قال: يقال: اللهم سبّخ عني الحُمّى، أي سلّها وخففها. قال أبو عبيد: ولهذا قيل لقطع القطن إذا نُدِفَ: سبائخ، ومنه قول الأخطل يصف القناص والكلاب: (من البسيط).

فأرسلوهنّ يذرينَ التّرابَ كما ... يذري سبائخَ قُطنٍ ندفُ أوتار[٤٠]

يعني ما يتساقط من القطن..."[٤١]

ومثل هذا صنيع ابن الأثير في كتابه "النهاية" وقال في باب "الباء مع الواو" "بوأ" "أبوءُ بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي" "أي التزم وأرجع وأُقِرُّ، وأصل البواء اللزوم ومنه الحديث: "فقد باء به أحدهما" أي التزمه ورجع به. ومنه حديث وائل بن حجر: "إن عفوتَ عنه يبوء بإثمه وإثم صاحبه" أي كان عليه عقوبة ذنبه وعقوبة قتل صاحبه، فأضاف الإثم إلى صاحبه، لأن قتله سبب لإثمه. وفي رواية "إن قتله كان مثله" أي في حكم البواء وصارا متساويين لا فضل للمقتص إذا استوفى حقه على المقتص منه[٤٢]

ويستمر ابن الأثير في هذا الحال، يعرض الأحاديث المختلفة التي استعملت فيها مادة "بوأ" شارحاً مفسراً معانيها المختلفة، ذاكراً لغاتها بحسب ما وردت في حديثه (ص)، كما في الحديث "عليكم بالباءة" يعني النكاح والتزوّج. يقال فيه الباءة والباء، وقد يقصر، وهو من المباءة: المنزل، لأن من تزوج امرأة بوّأها منزلا. وقيل لأن الرجل يتبوأ من أهله يستمكن كما يتبوأ من منزله[٤٣]

ولم يذهب أصحاب "غريب اللغة" مغاضبين رافضين منهج أصحاب غريب القرآن وغريب الحديث، بل احتطبوا بحبلهم وساروا على هديهم، ففسروا ألفاظ العربية من دون قصد تمييز بين عربي فصيح أو نادر غريب، يشفع ذلك ما جاء فيه "المسلسل في غريب لغة العرب" قال في شرح مادة "الحال" في قول امرئ القيس: (من الطويل)

سموتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها ... سموّ حبابِ الماءِ حالاً على حالِ[٤٤]

---

[٣٩] الحافظ أبو داود السجستاني: سنن أبي داود (إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الحديث، حمص- سوريا، لا.تا) مج٥ ص٢١٢-٢١٣، كتاب الأدب باب فيمن دعا على من ظلمه.

[٤٠] الأخطل: الديوان (ط. بيروت، ١٨١٩م)، ص١١٥.

[٤١] أبو عبيد القاسم بن سلام: غريب الحديث (طبع بمراقبة د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن - الهند ط١، ١٣٨٤ هـ -١٩٦٤م) ج١ص٣٣-٣٤.

[٤٢] ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، جزء ١ ص١٥٩.

[٤٣] ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١ص١٦٠.

[٤٤] امرؤ القيس: الديوان (دار صادر، بيروت، لا.تا)، ص١٤١.

الحال: الطريقة، والطريقة: الدُّبّة، والدُّبّة: القارة، والقارة: الأكمة، والأكمة: العنز، والعنزُ: العُقاب، والعقاب: الراية، والراية: الحقيقة، والحقيقة: ما تحقُّ عليه الحفيظة، والحفيظة: الحميّة، والحميّة: الأنفةُ، والأنفةُ: العبدُ، والعبدُ: الجربُ، والجربُ: الدِّرْسُ، والدرس: الثوب الخلق، والخَلِقُ: النهّج، والنهْج: الطريق القاصد، والقاصد: الكاسرُ، والكاسرُ: البازي[15]وهكذا يبدأ بتفسير المادة ثم ينتقل من مرادف إلى آخر ...مشكلاً سلسلة من الألفاظ اللغوية، كل واحد يشترك في المعنى مع سابقه.

واستعمل شُراح الدواوين مصطلح "غريب" في شروحهم، قصدو به ما قصد أصحاب غريب القرآن وغيره، من تفسير الألفاظ وشرحها. من أمثلة ذلك ما جاء في شرح قول المتنبي: (من المنسرح)

كتيبةٌ لستَ ربّها نَفَلٌ   وبلدةٌ لستَ حَلْيَها عُطُلُ[16]

قال العكبري في شرحه: "الغريب، الكتيبة: الجماعة من الخيل والنفل: الغنيمة، والعطل: التي لا حلى عليها(17)

بعد استقراء النماذج المتقدمة ومدارستها، يمكن القول أن المؤلفين في الغريب قصدوا في مادة "غريب" شرح المواد اللغوية في الموضوع المخصص، ولم تكن وجهتهم استخراج غريب اللغة المراعى في الاصطلاح اللغوي عند أهل الصرف والبلاغة. وهذا النهج في التسمية يدعو إلى التساول وإعادة النظر في أسماء كتب "غريب اللغة"، إذ كان القصد منها تفسير ألفاظها من دون تمييز بين لفظ وآخر.

اسم "الغريب" بين النقد والتوجيه:

استناداً إلى ماسبق من أمثلة وشواهد، يلاحظ أن اسم "غريب" قد أطلق جزافاً على الألفاظ اللغوية في حقل من حقول المعرفة الموضوعة للشرح، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف... ولم يقع التمييز فيها بين عربي فصيح وغريب وحشي نادر، أو غريب مستغلق نافر، على الرغم من أن معنى الغريب الظاهر للدارس من خلال اسم الكتاب هو غير ما عالجوا ولنخلص بعد ذلك إلى القول: إن الاسم الأدق والأصوب هو: "شرح أو تفسير ألفاظ القرآن"، "وشرح ألفاظ الحديث" وسواهما ففي هذا الاسم انسجام بين الاسم المسمى، وطرد عن مضمون الكتاب كل احتمال معنى يشد أزر ما نقوله، جملة من الأدلة.

١-إن محتويات مؤلفات "الغريب" ليست من الغامض النافر، بل مما عرفه العربي واستعمله ووعاه، يقوي ذلك المقولة التي كان يرددها ابن عباس في تفسير مواده، وهي "هل تعرف العرب ذلك". من شواهده تفسير "الوسيلة" في قوله تعالى: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾[18] قال ابن عباس رداً على نافع "الحاجة"[19]،

---

[15] محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي: كتاب المسلسل في غريب لغة العرب (قدم له وحققه وعلق عليه الأستاذ محمد عبد الجواد وراجعه الأستاذ ابراهيم الدسوقي البساطي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨١م)، ص٢١٤-٢١٥.

[16] المتنبي: الديوان بشرح العكبري (ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٨م)، ج٣ص٢١٧.

[17] العكبري: التبيان في شرح الديوان (ضبطه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٨م)، ج٣ص٢١٧، حاشية (٣٣).

[18] سورة المائدة الآية ٣٥.

ثم سأله: "أتعرف العرب ذلك؟"، أجابه: نعم، أما سمعت عنترة العبسي، وهو يقول: (من الكامل)

إنّ الرجالَ لهم إليكِ وسيلةٌ   إنْ يأخذوكِ تكحّلي وتَخضّبي[٥٠]

٢-إن بعض ما جاء في كتب الغريب لهو من الألفاظ العامة التي يشترك في معرفتها جمهور أهل اللسان العربي، وهو مما يدور في الخطاب تناقلوه فيما بينهم وتداولوه، وتلقفوه منذ الصغر لضرورة التفاهم. من أدلة ذلك ما أثبته الراغب الأصفهاني في غريبه، من نحو "غنم" قال في تفسيره: "الغَنم معروف، قال تعالى: ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ [٥١]، والغنم إصابته والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم[٥٢] ويشبهه أيضاً ما جاء في "غريب القرآن" لأبي حيان الأندلسي، قال: "شجر" في الآية: ﴿ ومن الشجر ومما يعرشون ﴾[٥٣] وما قام على ساق[٥٤] ، وغيرها من الألفاظ اللغوية المعروفة المتداولة كـ "زوج" و"صيد" [٥٥]، فهل هذا غريب مستغلق؟؟

٣-إن إطلاق مصطلح "غريب" على ما جاء في القرآن يتناقض مع البيان الإلهي لأن ما جاء في القرآن فصيح بعيد عن الغرابة والشواذ، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿بلسان عربي مبين﴾[٥٦] وقوله: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[٥٧] وكذلك ما جاء على لسان الرسول (ص) أنا أعْرَبُكم، أنا من قريش ولساني لسان بني سعد[٥٨] فهل لغة القرآن غريبة مبهمة، أم ما أودع في كتب الغريب قصد به شرح المفردات وتفسيرها؟!

٤-إن أصحاب مصنفات "الغريب" قصدوا تفسير الألفاظ حقيقة لا البحث عن الغريب في عرف البلاغيين كما توحي التسمية، يقوي ذلك اعتراف أصحاب المصنفات أنفسهم في حقيقة عملهم... قال الراغب الأصفهاني في مقدمة غريبه، يوضح خطته ويصور منهجه: "وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني مفردات الفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه... وقد استخرت الله تعالى في املاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي، فنقدم ما أوله الألف ثم الباء"[٥٩] ويشبهه ما نقل عن أبي عبيد

---

[٤٩] ابن عباس: غريب القرآن، ص٢٩.

[٥٠] عنترة: الديوان (تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٦، ٣٠٤١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) ص٢٧٣.

[٥١] سورة الأنعام الآية ١٤٦

[٥٢] ينظر، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٣٦٦، مادة (غنم).

[٥٣] سورة النحل، الآية ٦٨.

[٥٤] يراجع أبو حيان الأندلسي: ترتيب تحفة الأديب بما في القرآن من الغريب، (تحقيق وترتيب وتقديم د. داود سلوم ود. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب ومكتبة النهضة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م) ص١٠٧.

[٥٥] ينظر، أبو حيان الأندلسي: ترتيب تحفة الأديب بما في القرآن من الغريب، ص٩٠وص ١٢٦..

[٥٦] سورة الشعراء الآية ١٩٥.

[٥٧] سورة يوسف الآية ٢.

[٥٨] ابن سعد: الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت، لا.تا)، ج١ ص١١٣، وفي السيرة النبوية: (أنا أعربكم أنا قرشي استرضعت في بني سعد بن بكر) ينظر ابن هشام: السيرة النبوية (تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار القلم، بيروت، لا.تا)، ج١ ص١٧٦.

[٥٩] الراغب الأصفهاني المفردات في غريب القرآن، ص٦.

في مقدمة كتابه: "قال أبو عبيد في فضائله حدثنا هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن ... عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر، قال أبو عبيد يعني كان يستشهد على التفسير" [٦٠] ففي كلام ابن عباس وأبي عبيد دليل على أن المقصد شرح مفردات القرآن. ولهذا علق أحد الدارسين على عمل أصحاب الغريب بقوله: "غير أننا نعرف أن ابن عباس كان يُسأل عن معاني مفردات القرآن، وأنه كان يفسرها تفسيراً لغوياً، مستشهداً على ما يقوله بالشعر العربي القديم"[٦١]

٥-إن عمل أصحاب الغريب عمل معجمي، غايته شرح معاني المفردات وتوضيحها بعامة، لا حصر الغريب، يصدق ذلك قول ابن قتيبة في مقدمة غريبه: "قد كنت زماناً أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث، وأن الناظر فيه مستغنٍ به، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ما تركته نحواً مما ذكر أو أكثر منه، فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر...، وأشبعت ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر، وكرهت أن يكون الكتاب مقصوراً على الغريب، فأودعته من قصار أخبار العرب وأمثالها، وأحاديث السلف وألفاظهم ما يشاكل الحديث أو يوافق لفظه لفظه، لتكثر فائدة الكتاب، ويمتع قارئه، ويكون ذلك عوناً على معرفته وتحفظه"[٦٢] وهذا النهج الذي ذكره ابن قتيبة هو نهج أصحاب المعاجم الذين يفسرون المادة ويذكرون اشتقاقها ومصادرها... يوضح ذلك قول ابن منظور في مادة "عرب": "العُرْب والعَرَب جيل من الناس معروف، خلاف العجم.. وتصغيره بغير هاء نادر. العُرَيب تصغير العرب... والعربُ العاربة: هم الخُلص منهم، وأخذ من لفظه فأكد به... والعربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً... والتعريب بعد الهجرة: هو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب، بعد أن كان مهاجراً... والعربية: هي هذه اللغة. واختلف الناس في العرب لِمَ سموها عرباً فقال بعضهم: أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان"[٦٣]

إنها أدلة سقناها لتكون البيان والحجة والبرهان على صحة ما نذهب إليه. ولهذا نقول مجدداً إن الاسم الأدق لمؤلفات الغريب هو "شرح مفردات...".

وتبقى إشكالية أخرى عالقة، وهي لماذا سمى أصحاب المصنفات كتبهم "بالغريب" مع أن مادة "غريب" لا تختزن في مضامينها معنى الشرح والتفسير والتوضيح؟ ما سرُّ هذه التسمية؟ وهل أطلقت مجازاً لتحمل معنى التفسير؟

الحقيقة أن "الغريب" لم يطلق مجازاً على معنى الشرح والتوضيح، لفقدان الشرعية في اللغة التي تسمح له بهذا الجلوح المعنوي؛ لأن المجاز "أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب"[٦٤] كما في قول معاوية بن مالك: (من الوافر)

إذا سقط السماءُ بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا [٦٥]

---

[٦٠] ينظر، السيوطي: الاتقان في علوم القرآن (المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م)، ج١ص١١٩-١٢٠.

[٦١] يراجع، محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب، ص١٤٧.

[٦٢] ابن قتيبة: غريب الحديث (تحقيق د. عبد الله الجبوري، وزارة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٦-١٩٧٧م)، ج١ص٥.

[٦٣] ابن منظور: لسان العرب، مج ١ ص٥٨٦، مادة (عرب).

[٦٤] ينظر: ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه (تحقيق د. محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط١ ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م)، ج١ص٤٥٦.

[٦٥] المفضل الضبي: المفضليات (تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط٦، ١٩٧٩م) ، ص٣٥٩.

أراد للسماء المطر، لقربه من السماء.

والغريب أيضاً ليس مما يقارب الشرح والتوضيح ولا سبباً منه، ولم يجر استعمال "الغريب" على سنن العرب الأخرى كوصف الشيء بما يقع فيه أو يكون منه، كما في قولهم: "ليلٌ نائم" أي ينام فيه، و"ليل ساهر" أي يسهر فيه [٦٦] فهم وإن قصدوا ألفاظاً يقع فيها الإغراب والإبهام، إلا أنهم جمعوا في بطون مؤلفاتهم ألفاظاً متداولة معروفة على كل لسان.

يبقى الأمر موضع إشكال، وهو يتطلب تدبراً واجتهاداً واستناداً إليهما ننفذ إلى أن العلماء الذين ألفوا في "الغريب" لم يجهلوا معنى الغريب، ولكن هناك ملابسة يمكن على ضوئها تفسير مذهب العلماء في التسمية، وهي:

١-إن ألفاظ العربية -بعد اجتماع العربية في لغة قريش- لم تحمل الدلالة الواحدة عند القبائل المختلفة. فقد تحمل لفظة معنى في قبيلة، ومعنى مخالف في أخرى، يتوضح معنى الاختلاف- كمثل- من خلال مادة "قرء" قال المبرد: أهل الحجاز يرون "الإقراء" الطهر، وأهل العراق يرونها الحيض، وأهل المدينة يجعلون عدد النساء الأطهار [٦٧] ولهذا اعتور العربية الإغراب والكل، نتيجة اجتماع القبائل. فلفظة تتداول على لسان قوم، تعتبر غريبة لدى قوم آخرين، وقد ألمح ابن فارس إلى ذلك، قال: "كل هذه اللغات مسمّاة منسوبة وهي وإن كان لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كلٌّ. ومن الاختلاف اختلاف التضاد، وذلك قول حمْيَر للقائم: ثِبْ أي اقعد" [٦٨]

٢-إن العرب- في أحيان كثيرة- لا يفهمون كلام بعضهم بعضاً، وبخاصة عندما تتكلم كل قبيلة لغتها الخاصة بها؛ لأن كل لغة تختلف عن غيرها من لغات القبائل بأمور [٦٩]... يدعم ذلك ما روي عن الإمام علي بن أبي طالب "كرم الله وجهه" أنه سأل رسول الله "ص" حين كان يخاطب وفد بني نهد، قال: "يا رسول الله نحن بنو أبٍ واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال: أدّبني ربي فأحسن تأديبي، ورُبيتُ في بني سعد. فكان "ص" يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلاً منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون" [٧٠]

استناداً إلى هذه الملابسة اللغوية الحاصلة من اجتماع القبائل العربية - وبخاصة بعد الإسلام- أصبحت اللفظة المتداولة في وسط عربي غريبة لدى الآخرين. ومن هنا يبرز سبب استعمال مصطلح "غريب" في أسماء المصنفات فالغرابة نسبية، ولهذا يمكن القول إن حد الغرابة في اللفظة يتغير بتغير القبيلة لما تصدق عليه الغرابة من الألفاظ في قوم وعصر لا تصدق عليه في قوم آخرين وبعد حين.

نخلص من التماس عذر تسمية "الغريب" لنضع توجيهين بميدان دارس العربية، والباحث فيها، الأول

---

(٦٦) يراجع، الثعالبي: فقه اللغة وأسرار العربية (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لا. ت) ص٦١٦.

(٦٧) ينظر، المبرد: الكامل (حققه وعلق عليه د. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م) مج١ص٣٦٠-٣٦١.

(٦٨) ينظر، أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (حققه وقدم له مصطفى الشويمي، مؤسسة أ.بدران، بيروت، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م)، ص٥٠-٥١.

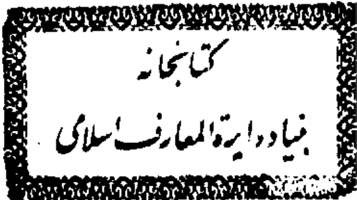
(٦٩) عقد ابن فارس فصلاً في كتابه أوضح فيه وجوه اختلاف لغات العرب.. يراجع، أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص٤٨-٥٠.

(٧٠) ينظر ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١ ص٤.

لغوي وهو اتساع مادة "غريب" لتشمل معنى آخر في أحشائها سوّغها لها المؤلفون في الغريب، وهو معنى الشرح والتوضيح اللذين يؤديهما مصطلح "معجم" و"قاموس". والثاني أكاديمي يقتضي أخذ الأمور بشيء من الاحتراز عند التعامل مع مصادر العربية. فما حمل اسم الغريب ليس ضرورة أن يبحث في ألفاظ غريبة في القياس والاستعمال، غير مأنوسة، بل هو أشبه ما يكون بقاموس لغوي. وكذلك الالتفات إلى غيرها من المصادر والتريث في الحكم على مضمونها، لا الانجرار في الحكم عليها حملا على اسمها... من أمثلة ذلك كتاب الخليل بن أحمد رحمه الله الموسوم "الجمل في النحو" فللوهلة الأولى يُظن أن مباحثه تدور حول مصطلح "الجملة" في العربية، وأنواعها وأقسامها.. وسواها من الأمور التي تفرضها التسمية ولكن الفحوى غير ما دل عليه العنوان، بل هو كتاب- كما صرح به صاحبه- "فيه جملة الإعراب إذ كان جميع النحو في الرفع والنصب والجر والجزم وقد ألفنا هذا الكتاب وجمعنا فيه جمل وجوه الرفع والنصب والجر والجزم وجمل الألفات، واللامات، والهاءات، والتاءات، وما يجري من اللام ألفات"[31]

إنها محاولة تقويمية في مسيرة مؤلفات التراث العربي، تؤتي أُكُلها ثماراً يجنيها الباحث في الحقل اللغوي، عن طريق الاهتداء بنورها عندما يعشو في ثنايا المصنفات والمؤلفات فيدخر جزءاً من وقته وجهده، وذلك حين يحدد مصادره بدقة، وهو يعرف محتوياتها. لا يضلله اسم لا ينطبق على مسماه، ولا مصنف يخالف عنوانه فحواه... فانطلاقة الباحث الأولى الصحيحة تؤدي في النهاية إلى نتائج صحيحة دقيقة، يصدقه قول الشاعر: "من الوافر"

إذا ضيّعتَ أوّلَ كلِّ أمرٍ ... أبتْ أعجازُه إلا التواءَ[32]


كتابخانه
بنیاد دایرة المعارف اسلامی



(31) الخليل بن أحمد: كتاب الجمل في النحو (تحقيق د. فخر الدين قباوة)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405هـ -1985م) ص33.

(32) ينظر، أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين (حققه وضبط نصه د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1401هـ -1981م)، ص156.

مصادر التراث الصوتي العربي

د. أحمد عزوز

مقدمـة:

اهتم العرب بالقرآن الكريم حفظاً وتلاوة وشرحاً وتفسيراً منذ نزوله على الرسول الأمين محمد (ص)، وأصبح المنهل الذي لا ينضب لكل دارس للغة العربية.

وازدادت العناية به لما دخلت الأقوام المختلفة الأجناس إلى الإسلام التي كان من آثارها فشو اللحن وتسربه إلى الألسنة وبخاصة إلى التنزيل الحكيم.

وكان من نتائج هذه العناية ظهور علم التجويد الذي حافظ على النطق السليم لأصوات القرآن الكريم، إذ تحدث المجودون عن مخارج الحروف ووصفوها وصفاً دقيقاً، وبينوا علاقتها بما يجاورها مع توضيح أثر هذا التجاور، مما يدل على ذوقهم المرهف وشفافيته، فجاءت جوانب كثيرة من دراستهم علمية ودقيقة.(١)

ونمت الملاحظات الصوتية إلى أن أصبحت معالجة في علوم اللغة المختلفة، تسهم في تفسير كثير من مشكلاتها، أدت إلى إعجاب المستشرقين * بها، فأشادوا بجهود علماء العربية في هذا الميدان، كما استفاد الغربيون منها وأصلوا عليها فروعاً عديدة مكنهم منها ظهور الآلات الدقيقة والتحليل الصوتي في المختبرات، والتطور التقني الذي شهده القرن وبخاصة ابتداء من الستينيات.(٢)

وقد ارتكزت هذه الدراسة على قطبين أساسيين هما: علم الأصوات النطقي والسمعي وعلم وظائف الأصوات، اللذان عولجا تحت مظلة واحدة، إذ كلاهما يدرس الصوت اللغوي، والعلاقة بينهما شديدة والفصل بينهما صعب الحصول.

وتحسن الإشارة إلى أن البحث الصوتي العربي لم يضمه مصدر واحد، ولم يتناوله عالم واحد، ولكنه تناثر بين طيات مصنفات علوم العربية المختلفة، الصوتية منها والنحوية الصرفية، والبلاغية، والتجويدية وإعجاز القرآن والمعاجم، "وتعدد العلماء الذين شاركوا في إقامة صرحه وتوطيد بنيانه"(٣) وكل ذلك يدل على "عناية القدامى وتعلقهم بهذا الميدان لأهميته وأثره الفعال في تفسير كثير من الظواهر اللغوية"(٤)

ومن الأعلام الذين ضربوا بسهم وافر في عدة نواح من الدراسة اللغوية، وكانت لهم اليد الطولى في تأسيس التراث الصوتي، والذين لا تزال تفتخر بهم الأمة العربية: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، وسيبويه (ت١٨٠هـ)، وقطرب (٢٠٦هـ)، وابن جني (ت٣٩٢هـ) وابن سينا (ت٤٢٨هـ) وابن سنان الخفاجي

(ت٤٦٦)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، والسكاكي (ت٦٢٦هـ)، إلى غيرهم من الأفذاذ، والعلماء الأجلاء الذين واصلوا المسيرة العلمية عبر القرون، شعوراً بمسؤولياتهم تجاه أمتهم وأجيالها لتكب على تعلم لغتها وتدارسها والاعتزاز بها.

ومن المصنفات التي تعد مصادر صوتية:

المعاجم العربية:

تعتبر المعاجم العربية من مصادر التراث الصوتي، لأنها زخرت بفيض هائل من الفكر الصوتي عند العرب.

وقد تناولت القضايا الصوتية إمّا في المقدمة أو في ثنايا المادة اللغوية المجموعة.

ويرجع الفضل في الدراسة الصوتية إلى الخليل بن أحمد الذي وضع الأسس الأولى لعلم الأصوات العربية، ويتجلى ذلك من مقدمة "العين" حيث يقول محققا المعجم: "في هذه المقدمة بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدّة من عصر الخليل"(٥)

وبذلك احتل هذا المعجم مكانة سامية في اللغة العربية باعتباره أول معجم عربي، إن لم يكن أول معجم عالمي، ينظر بطريقة علمية دقيقة اعترف بها في ميدان الدراسات اللغوية المعاصرة، اهتدى إليها الخليل بفكره الثاقب وموهبته النادرة وعلمه الواسع.

وجاء تأليف معجمه مناسباً لمدارج الجهاز الصوتي انطلاقاً من الحلق إلى الشفتين، وذلك تبعاً لطريق مخرج الكلام الذي ينطلق بطبعه من الداخل إلى الخارج، فكان الخليل يتذوق الحروف بفتح فمه ثم ينطق بالألف ويظهر الحرف نحو: "أبْ- أتْ- أعْ- أغْ(٦) إلى نهاية كل الحروف، فتم اختياره بداية الترتيب بالعين التي جعلها أول الكتاب ثم ما قارب منها، الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها، فتوصل إلى الترتيب التالي: ع،ح،هـ، خ، غ، ق، ك، ج،ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ث، ذ، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، أ، ي، الهمزة"(٧)

وقد رسم الخليل الطريقة التي "يمكن بها معرفة مخرج الصوت، وكان في ذلك موفقاً كل التوفيق إلى حدّ أن علم الأصوات الحديث يعترف بكثير من آرائه ومقاييسه الصحيحة"(٨)

وممّا قاله الخليل إن "أقصى الحروف كلها العين ثم الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء، ولولا هتّة في الهاء.. لأشبهت الحاءَ لقرب مخرج الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض"(٩)

ويرى الفراهيدي أن "الألف في اسْحَنْكَ واقشعرّ واسْحَنْفَرَ واسْبَكَرّ ليست من أصل البناء. وإنما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً وسُلّماً للسان إلى حرف البناء، لأن اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل، إلا أن دَحْرَج وهَمْلَج وقرطس لم يحتج فيهن إلى الألف لتكون السُلّمَ، فافهم إن شاء الله"(١٠)

ويتحدث عن سمات البناء اللغوي، مبيناً أن كلام العرب مبني على أربعة أصناف، الثنائي، والثلاثي والرباعي والخماسي، ومقرراً أن الكلمة الرباعية والخماسية إن لم تكن تحتوي على حرف من أحرف الذلاقة

أو الأحرف الشفوية فهي ليست من الكلام العربي. حيث يقول: "فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلاق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر"(١١)

إلى غير ذلك من الأفكار والتعليلات والابتكارات التي ظلت نبراساً، وهدياً لعلماء اللغة والنحو والصرف والعلوم الإنسانية بصفة عامة(١٢)

ولقد تناقلت المعاجم الأفكار الصوتية التي قررها الخليل، وخاصة تلك اتبعت منهجه في التأليف، أي وفق النظام الصوتي، أو التقليبات الهجائية مثل الجمهرة لابن دريد. الذي تعرض إلى قضايا صوتية كنسج الكلمة وبنائها، والأصوات التي تأتلف والتي لا تأتلف حيث بين أن القاف والكاف لا تأتلفان في كلمة إلا بوجود حواجز، وأشار أيضا إلى أن تباعد الحروف في المخرج يؤدي إلى خفة البناء خلاف التقارب الصوتي الذي يؤدي إلى ثقل الكلمة على اللسان.

وتحدث أيضاً عن صفات الأصوات كالرخاوة والإطباق والشدة، وتعرّض إلى نسبة تردد الأصوات في اللغة العربية، إذ رأى أن أكثر الأصوات استعمالاً في اللغة العربية هي الواو والياء والهاء وأقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم(١٣)

ويبدو أن إبراهيم أنيس قد انطلق من مثل هذه الفكرة لدراسة روي الشعر، والبحث عن نسبة تردد الأصوات، معلّلا ذلك بكثرة الجهد الذي يتطلبه صوت ما، أو قلته(١٤)

المصنفات النحوية الصرفية:

يقوم كثير من أصول النحو العربي على أسس صوتية كتفسير كثير من الآثار الإعرابية التي تطرأ على الكلمات.

فلقد حوت المصنفات النحوية الصرفية بين ثناياها كثيراً من ملامح التراث الصوتي العربي، وضمت دراسة مسهبة للمنحى الفسيولوجي المتعلق بكيفية تكوين الأصوات وإصدارها، وما ينجم عن ذلك من تنوع في صفاتها.

فقد خصص النحاة بعض الأبواب في كتبهم للدراسة الصوتية وخاصة حين تعرضهم لباب الإدغام أو الحديث عن قواعد الإعلال والإبدال.

وكتاب سيبويه شاهد عدل على ذلك، وكذا المفصل للزمخشري، والجمل للزجاجي وغيرها من المصادر التي لا تخلو من الإشارة إلى الملاحظات الصوتية.

فسيبويه- مثلاً- أشار إلى كثير من الخصائص الصوتية، واتسم تصنيفه بالدقة والشمول، تناقلته التآليف العربية بعده، وهي معلومات مأخوذة من دون شك عن أستاذه الخليل وإن كان لا يتحدث عن ذلك إطلاقاً.

يتعرض في موضوع الإدغام إلى الأصوات فيقول: " هذا باب عدد الحروف العربية، ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها.

فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين،

والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو"(١٥)

ويضع سيبويه ستة عشر مخرجاً لحروف العربية، وما يلفت الانتباه هو أنهن يضع الهمزة والألف في مخرج أقصى الحلق وفي وسطه العين والحاء،(١٦) وهو يخالف في ذلك الخليل الذي جعل العين والحاء أقصى الحلق، وجعل الهمزة مع الواو والألف والياء.

ويتناول صفات الأصوات من جهر وهمس وشدة ورخاوة ومنحرفة، ومكررة ولينة وهاوية ومطبقة ومنفتحة، (١٧) ويختم ذلك بقوله: "وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالاً لما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك"(١٨)

فلم يخل مصنف في النحو لم يتعرض إلى القضايا الصوتية وهذا للعلاقة التي تربط العلمين.

ولقد قدم بعض النحاة القدامى الشرح اللغوي للحركات متصلاً بالجانب الفسيولوجي والكيفية التي يتم بها نطقها، ومن أولئك الزجاجي حيث يقول في "باب القول في معنى الرفع والنصب والجر من طريق اللغة":

"..فنسبوا الرفع كله إلى حركة الرفع لأن المتكلم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى ويجمع بين شفتيه وجعل ما كان منه بغير حركة موسوماً أيضاً بسمة الحركة لأنها هي الأصل.

والمتكلم بالكلمة المنصوبة يفتح فاه، فيبين حنكه الأسفل من الأعلى، فيبين للناظر إليه كأنه قد نصبه لإبانة أحدهما عن صاحبه.

وأما الجر.. ومن سماه منهم من الكوفيين خفضاً، فإنهم فسروه نحو تفسير الرفع والنصب لانخفاض الحنك الأسفل عند النطق به، وميله إلى إحدى الجهتين.

وأما الجزم فأصله القطع.. فكأن معنى الجزم قطع الحركة عن الكلمة.. وكان المازني يقول: الجزم قطع الإعراب"(١٩)

وأشارت تلك المصنفات ولاسيما في الميدان الصرفي إلى كثير من الملامح الفونولوجية التي تتعلق بتجاور اللبنات المكونة للصيغة، وما يطرأ على بنية الكلمة العربية المعربة من تغيرات: إما في التصرفات المختلفة (من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث، وتصغير، ومبالغة، ونسب، وماض، ومضارع، وأمر..الخ) وإما عند وقوعها في درج الكلام في سياقات صوتية معينة (كالإدغام والوصل)(٢٠)

ومن المصادر الصرفية التي عالجت مباحث صوتية متعددة كالإعلال والإبدال والقلب والإدغام، وغيرها، الشافية لابن الحاجب (ت٦٤٦هـ).

وبذلك عدت المؤلفات النحوية الصرفية من المصادر الصوتية العربية.

المصنفات الأدبية:

ناقشت المصنفات الأدبية كثيراً من القضايا الصوتية، ولاسيما الجانب النطقي أو الفسيولوجي منها، ومن هذه المصنفات "البيان والتبيين" للجاحظ.

فلقد تعرّض إلى تعريف الصوت حيث قال: "هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت"(٢١)

ويتناول موضوعاً ذا صلة وثيقة بالأمراض الكلامية أو العيوب النطقية التي أصبحت علماً مستقلاً في العصر الحديث لما له من مختصين ومعاهد ومستشفيات تعالج فيها هذه الأمراض.

فهو يرد بعضها إلى السرعة كاللفف أي أن يدخل المتكلم الكلام بعضه في بعض، وبعضها الآخر إلى عيوب عضوية كسقوط الأسنان، (٢٢) فيحدث صفير في الكلام، وبالتالي لا تقبله الأذن.

"ومن خلال العيوب الصوتية كاللثغة وغيرها يتوصل إلى دراسة التقطيع الوظيفي، فالألثغ مثلاً عندما يقطع كلمة "مضر" يقول "مضي" بإخراج الراء من مخرج الياء، لنقصان في آلة النطق، وعجزه في أداء الصوت، مع أنه يقصد "مضر"، لأن السامع الذي يسمع مضي يفطن للعاهة، ويصحح الخطأ الصوتي، ويفهم كلامه بالاعتماد على التقطيع المألوف"(٢٣)

وذكر أن الأصوات التي تدخلها اللثغة هي القاف والسين واللام والراء فتقلب القاف إلى طاء، والسين إلى ثاء، واللام إلى ياء أو كاف، والراء إلى غين أو ياء.

وتحدث الجاحظ عن اللكنة التي تظهر في كلام الأعجمي الذي ينطق باللغة العربية كنطق السندي الجيم زايا، والنبطي الزاي سيناً والعين همزة.

وأشار أيضاً إلى البناء الصوتي للكلمة العربية، وإلى ما يأتلف في نسجها وما لا يأتلف، أي ما عرف بالتنافر والتلاؤم، حيث قال: "فأما في اقتراق الحروف، فإن الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف، ولا الطاء.. بتقديم، ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين والضاد ولا الذال.."(٢٤)

مصنفات البلاغة وإعجاز القرآن:

لما كانت العلاقة جد وثيقة بين البلاغة والأصوات في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة، فلا غرو أن تضم المصنفات البلاغية وإعجاز القرآن بين ثناياها حديثاً عن الأصوات، ومناقشات ترتبط بصميم الميدانين الفوناتيكي والفونولوجي، وخاصة حين تعرضها للفصاحة وما يرتبط بتنافر وائتلاف الحروف.

ومما يمكن الاستشهاد به، على سبيل التوضيح لا الحصر جميع ما ورد في المصنفات العديدة، ما جاء في "سرّ الفصاحة" لابن سنان الخفاجي الذي يرى أنه كلّما تباعدت مخارج حروف اللفظة حسن وقعها على السمع، وكلما تقاربت قبح، فذكر ذلك في قوله: "إن الحروف وهي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر. ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة في العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة"(٢٥)

وفي هذا المجال يوازن الرمّاني بين قوله تعالى:"ولكم في القصاص حياة" وقول العرب "القتل أنفى للقتل" فقال: "وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ بأن الخروج من الفاء إلى اللام (في القصاص) أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام (القتل أنفى) وكذلك الخروج

من الصاد إلى الحاء (القصاص حياة) أعدل من الخروج من الألف إلى اللام (أنفى للقتل).

وقد تناول أيضاً التأليف اللفظي، وقسمه إلى متنافر ومتلائم، وذكر أن السبب في التلاؤم مردّه إلى تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً، وأما التنافر فسببه مثلما ذكر الخليل يعود إلى البعد أو القرب الشديد بين مخارج الأصوات، فإذا بعدت الأصوات كانت بمنزلة الطفر، وإذا قربت القرب الشديد كانت بمنزلة المشي المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان وردّه إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال.(٢٦)

وقد ضم كتاب إعجاز القرآن للباقلاني كثيراً من المباحث الصوتية، بقصد تحليل آيات القرآن، وبيان أوجه إعجازه، فذكر ما يتعلق بفواتح السور، وسرّ اختيار حروف معينة لها، فمما قاله:" إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

والذي تنقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها- أقسام، نحن ذاكروها: فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسة، وأخرى مجهورة. فالمهموسة منها عشرة وهي الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفاء، والتاء والصاد والسين.

وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة. وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور. وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء. لا زيادة ولا نقصان"(٢٧)

ويقول الباقلاني عن البدء بحروف (ألم): "لأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعاً، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها تأخذ في الشفة، فنبّه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه إنما أتاهم بكل منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين ويشبه أن يكون التصنيف وقع في هذه الحروف دون الألف، لأن الألف قد تلغى، وقد تقع الهمزة وهي موقعاً واحداً"(٢٨)

إلى غير ذلك من النماذج ذات الصلة بالميدان الصوتي والتي يجدها الدارس في هذا المصدر القيم.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى "مفتاح العلوم" للسكاكي الذي يعد مصدراً بلاغياً ولكنه لم يغفل الجانب الصوتي، إذ بدأ به كتابه، فتعرض إلى مخارج الحروف وصفاتها، ومما يثير الإعجاب أنه رسم جهاز النطق ووضع ضمنه مخرج كل حرف، على الرغم من أنه لم تكن لديه الأجهزة العلمية التي يستعين بها لرسمه.

وهكذا حوت تلك المصادر البلاغية وإعجاز القرآن مجالاً خصباً للبحوث الصوتية، يمكن للدارس الإفادة منها لفهم كثير من أسرار اللغة العربية.

علم القراءات والأداء القرآني:

تعد مصنفات التجويد من أهم مصادر التراث الصوتي، بل منابعه الأولى التي أدت دوراً مهماً في الحفاظ على النطق السليم لأصوات اللغة العربية.

لقد كان علماء القراءات من أحرص القوم على تناول المباحث الصوتية في مؤلفاتهم التي ضمت كثيراً

من الخصائص والمصطلحات الصوتية مثل الإشمام والإشباع والاختلاس والمد، والتفخيم والترقيق ونحوها، كما وضعوا رموزاً كتابية تمثلها(٢٩)

وجمع هذا التناول للمادة الصوتية بين النظري والتطبيق "لعرض لمخارج الحروف وصفاتها وتقسيماتها وفق ذلك، والملامح الأدائية لها في السياقات المختلفة والتجاورات المتنوعة"(٣٠)

وما يعرف عن مراحلها الأولى هو أن أوّل من استخدم هذا المصطلح قريباً من معناه هو ابن مسعود الصحابي الذي كان ينصح المسلمين بقوله: "جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات" ويروى أنه كان يتفنن في تجويده وترتيله، وأن الرسول (ص) كان يجهش بالبكاء حين يسمع القرآن الكريم بترتيل ابن مسعود.(٣١)

ولعلّ تقنين قواعد القراءة القرآنية جاءت استجابة لدعوة ابن مسعود، فأصبح كل كتاب في القراءات يشتمل على مباحث في مخارج الحروف وطريقة نطقها وكذلك صفاتها المختلفة كما فعل ابن الجزري في مؤلفه "النشر في القراءات العشر"(٣٢)

ومن الكتب المهمة التي وصلتنا في هذا المجال: الحجة لابن خالويه والحجة لأبي علي الفارسي والمحتسب لابن جني.

المصادر الصوتية:

على الرغم من تناثر الدراسة الصوتية في مصادر مختلفة من التراث العربي، وكثرة العلماء والباحثين في هذا الميدان، إلا أنه لم يظهر مصدر مستقل يجمع شتات القضايا الصوتية وضم متفرقاتها إلا في فترة متأخرة من مسيرة البحث اللغوي العربي، وذلك على يد ابن جني في كتابه "سرّ صناعة الإعراب"، ولدى ابن

وقد يرجع سبب هذا التأخر إلى "طبيعة المنهج اللغوي قديماً في معالجة جوانب الدرس اللغوي بين دفتي المصدر الواحد، إذ لم يكن هناك فصل دقيق بين فروع الدراسات اللغوية"(٣٣)

ويعد ابن جني أول من نظر إلى المبحث الصوتي على أنه علم قائم بذاته، وأنه أول من استعمل مصطلحاً لغوياً للدلالة على هذا العلم ما زلنا نستعمله إلى الآن وهو علم الصوت، وكان على حق حين قال:" وما علمت أن أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع"(٣٤)

بمعنى أن كتابه لم يكن جمعاً لآراء السابقين وأفكارهم، وإنما تميز بالإضافات الجادة، تعبر عن نظرته العلمية الصائبة ودقتها الفائقة، "وتبين أنها دراسة لغوية مهمة يجب على عالم اللغة أن يضعها في الاعتبار"(٣٥)

ومما يثير الإعجاب في هذه الدراسة اهتمام ابن جني بالجانب العملي التطبيقي كما يلاحظ ذلك في المختبرات الحديثة المعتمدة على الآلات والأجهزة المتطورة.

فقد شبه الحلق بالناي (المزمار)، وشبه مدارج الحروف ومخارجها بفتحاته التي توضع عليها الأصابع، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق صوت لا يشبه صوت صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب سماعنا هذه الأصوات المختلفة(٣٦)

ويربط ابن جني بين علم الأصوات وعلم الموسيقى، فيقول: "إنّ علم الأصوات والحروف له تعلّق، ومشاركة للموسيقى، لما في صنعته الأصوات والنغم"(٣٧)

وعلى العموم يمكن تلخيص محتويات الكتاب في العناصر التالية:

١. إعطاؤه المفهوم اللغوي للصوت والحرف، والفرق بينهما.

٢. ذكره لعدد الحروف الهجائية العربية وترتيبها وذوقها. والحديث عن مخارجها وبيان صفات الحروف وتقسيمها أقساماً مختلفة.

٣. التغير الذي يطرأ على بنية الكلمة فيؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف.

٤. ائتلاف الحروف بعضها مع بعض لتكوين الكلمات، وأثرها في فصاحة اللفظ التي ترجع إلى تباعد مخارج الأصوات.

أما ابن سينا فقد ركز في رسالته "أسباب حدوث الحروف" على الجانب الفيزيائي والتشريحي أكثر مما ركز على الجانب اللغوي، بسبب تخصصه الذي اشتهر به والثقافة التي نهل منها، فقد كان فيلسوفاً حكيماً وطبيباً خبيراً.

فهو يعرف الصوت بقوله: "أظن أن سبب الصوت القريب تموج الهواء دفعة وبقوة وبسرعة من أي سبب كان"(٣٨)

ويحيل بهذا التعريف إلى البحث في ظاهرة فيزيائية هي الموجات الهوائية، والسبب القريب هو تموج الهواء والسبب البعيد هو علة تموج الهواء المتمثلة إما في القرع وإما في القلع.

ويقول عن الحرف: "هو هيئة للصوت عارضة لها، يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزاً في المسموع"(٣٩)

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

وقد اشتملت الرسالة على ستة فصول تضمنت ما يلي:

١. حديثه عن سبب حدوث الصوت والحرف.

٢. خصص هذا الفصل لمخارج الأصوات ومحابسها، ويقدم فيه صفات الأصوات منها الثقيل والحاد، خفوت الصوت وجهره، الصوت الأملس، والصلب المتخلخل.

٣. يعرض فيه مكونات الحنجرة واللسان.

٤. يبين ابن سينا في هذا الفصل كيفية صدور كل صوت من أصوات العربية، ويصف العملية العضوية في إنتاجه، ويرتب الأصوات بحسب مخارجها على شاكلة الخليل بن أحمد.

٥. تحدث فيه عن أصوات سمعها في لغات أخرى غير العربية مثل السين الزائية والزاي السينية والزاي الظائية والفاء الشبيهة بالباء.

٦. أما الفصل الأخير، فقد جعله لكيفية إنتاج أصوات بحركات غير نطقية كالشين التي تسمع عن نشيش الرطوبات والطاء التي تحدث عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان.

والرسالة درة ثمينة استطاع أن يولج بها ابن سينا علم الطبيعة إلى علم اللغة، فكشف عن أسرار

غامضة مازالت من صميم الدراسة المعاصرة كظاهرة التموج الفيزيائية وكثافة الهواء في كل موجة وشكل الموجة وما يترتب عنه من صوت.

وهكذا يكون قد انفرد بحقائق له فيها فضل السبق والاكتشاف بعد الخليل وسيبويه وابن جني على عكس أولئك الذين أعادوا صياغة ماقاله أمثال هؤلاء العلماء. وفي ذلك يقرر إبراهيم أنيس: "ولما وقفنا على هذه الرسالة منذ بضع سنوات استرعى انتباهنا أنها تعالج طرفاً من الدراسة الصوتية اللغوية علاجاً فريداً يختلف اختلافاً بيّناً عن علاج سيبويه وأمثاله من علماء العربية"(٤٠)

وأخيراً يتضح مما سبق أن الدراسة الصوتية العربية تناثرت في مصنفات عديدة ومتنوعة، إذ يعثر عليها الدارس في مصادر التجويد والبلاغة وإعجاز القرآن والنحو والصرف والمعاجم العربية.

ولا يكاد يجد الباحث مصدراً مستقلاً في هذا المجال إلا ما جاء على يد ابن جني في "سر صناعة الاعراب" وابن سينا في "أسباب حدوث الحروف".

الهوامش:

١- ينظر د. عبد الغفار هلال حامد، أصوات اللغة العربية، مطبعة الجبلاوي القاهرة مصر ط٢- ١٩٨٨ ص:١٤٠.

* يقرر فيرث: "إن علم الأصوات شب ونما في أحضان لغتين مقدستين هما العربية والسنسكريتية"، ويعلن برجستراسر سبق العرب للغربيين في الدراسة الصوتية قائلاً: لم يسبق الغربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق وهما أهل الهند- يعني البراهمة- والعرب".

٢- ينظر د. عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، مصر ط١ ١٩٨٨ ص: ١٧.

٣-٤- المرجع السابق ص:١٧.

٥- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي. مؤسسة دار الهجرة ط٢- إيران ١٤٠٩ هـ. ج١- ص:١٠.

٦- الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج١، ص:٤٧.

٧- المصدر نفسه ج١، ص:٤٨.

٨- د. عبد الغفار هلال حامد، أصوات اللغة العربية ص:٩.

٩- الخليل بن أحمد، العين ج١، ص: ٥٧.

١٠- المصدر نفسه ج١، ص:٤٩.

١١- المصدر نفسه ج١، ص:٥٦.

١٢- ينظر د. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: ٥، ١٩٧٥، ص: ١٠٤- ١٠٥.

١٣- ينظر د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط٤، ١٩٨٢، ص: ٩٣.

١٤- ينظر، إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط٤- القاهرة ١٩٧٢- ص: ٢٤٨.

١٥- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢، ج٤، ص:٤٣١.

١٦- المصدر نفسه ج٤- ص:٤٣٢.

١٧- المصدر نفسه ج٤، ص ٤٣٥- ٤٣٦.
١٨- المصدر نفسه ج٤، ص: ٤٣٦.
١٩- أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٥٩، ص:٩٣- ٩٤.
٢٠- ينظر. عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي، ص: ١٩.
٢١- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ط: ٣، ج١، ص: ٧٩.
٢٢- المصدر نفسه ج١، ص: ٦٩.
٢٣- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣، ص: ١١٢.
٢٤- الجاحظ، البيان والتبيين ج١، ص: ٧٩.
٢٥- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، شرح عبد المتعال الصعيدي، محمد علي صبيح وأولاده، الأزهر، القاهرة، ١٩٦٩، ص: ٥٤.
٢٦- عن الرماني، النكت في إعجاز القرآن، عن د. عبد الغفار هلال حامد، أصوات اللغة العربية، ص: ١٣.
٢٧- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص٤٤.
٢٨- المصدر نفسه، ص: ٤٦.
٢٩- ينظر، د. محمود السعران، علم اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ص: ١٠١.
٣٠- د. عبد المنعم، عبد الله محمد، المقطع الصوتي، ص: ٢٦.
٣١- ينظر د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: ٩٣.
٣٢- ينظر ابن الجزري، الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، دار الكتاب العربي، جزءان.
٣٣- د. عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي، ص: ١٨.
٣٤- أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، القاهرة، مصر ج١، ص: ٦٢.
٣٥- د. عبد الغفار هلال حامد، أصوات اللغة العربية، ص: ١٠.
٣٦- ينظر ابن جني، سرّ صناعة الإعراب ج١، ص:٩.
٣٧- المصدر نفسه ج١، ص:٩.
٣٨- ابن سينا، علي الحسيني- أسباب حدوث الحروف، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، مكتبة الكليات الأزهرية، ص: ٨.
٣٩- المصدر نفسه، ص: ١٠.
٤٠- د. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: ١٣٧.

أحمد عزوز
أستاذ مكلف بالدروس
بمعهد اللغة العربية وآدابها
جامعة السانية وهران



الكتابات العربية الجنوبية في سورية

(النقوش الصفائية)

بقلم: منى المؤذن

تنتشر الكتابات العربية المشتقة من الأبجدية المسندية، والمنقوشة على الصخور في شبه الجزيرة العربية والأردن وجنوب سورية، وتجري لها الآن مسوحات ودراسات لحفظها وتوثيقها، وقد وزعت وقسمت إلى الكثير من الأنواع ولكل نوع عدد من الفروع، وغالباً ما تنسب هذه الفروع إلى الأماكن التي تواجد فيها، فالثمودية مثلاً وهي نوع من الخط المسند لها فروعها فيقال الثمودية الحجازية والثمودية التبوكية والثمودية النجدية، ولكن بشكل عام كل هذه الأنواع تتميز أولاً بأنها عربية وتنسب إلى العرب العاربة[1]، وهي تتألف من ٢٨ حرفاً فهي في عدد أحرفها تقابل أبجديتنا الحالية، كما أن هناك تشابهاً واضحاً في شكل الحرف بين الأنواع المتعددة ولكن بدرجات متباينة، وأن الحرف الواحد في كل نوع يمكن أن يأخذ أكثر من شكل وقد يصل إلى ستة أشكال (راجع الجدول رقم ١-٢).

والذي يساعد على معرفة الحرف القراءة ومعرفة الكلمة من خلال النص، والدراسات الجارية الآن لهذه الأنواع في سورية تنحصر في الجنوب في المنطقة الشرقية لجبل العرب، وتمتد من جبل أسيس شمالاً وحتى قرية اسعنا جنوباً. ومن جبل العرب شرقاً وحتى صحراء الزلف غرباً، وتتركز الكتابات في هذه المنطقة في مجموعة من الأودية، أهمها واديان متوازيان هما: وادي الغرز ووادي الشام اللذان يصبان في بحيرة الرحبة، أما باقي النصوص فإنها تتوزع على مسافات بعيدة مثل موقع رجم المره وموقع جبل أسيس وخربة الامباشي وغدير الدرب.. وغيرها.

وهكذا تم تحديد ١٣٣ موقعاً منها ٣٦ موقعاً كانت قد حددت سابقاً من قبل الرحالة والعلماء والمكتشفين الأوائل والباقي تم تحديده حديثاً، هذا يعني أن عدداً كبيراً من المواقع الجديدة سوف تدرس نصوصها

[1] ورد في تاج العروس العرب بالضم خلاف العجم، والأعراب منهم بالفتح سكان البادية، والعرب العاربة: هم الخلص منهم وأخذ من لفظه فأكد به كقولك ليل لا يل والعرب المستعربة أو مستعربة دخلاء، قال أبو الخطاب بن دحية المعروف بذي النسبين (العرب أقسام الأول عاربة وعرباء وهم الخلص وهم تسع قبائل من ولد ارم بن سام بن نوح وهي عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار ومنهم تعلم اسماعيل عليه السلام العربية، والقسم الثاني المستعربة وهم بنو اسمعيل ولد معن بن عدنان بن أود."

وستعطي أضواء جديدة على تاريخ المنطقة.

أما بالنسبة لنوعية هذه الكتابات فقد وجدنا عدداً محدوداً من النقوش الثمودية واليونانية واللاتينية والعربية الشمالية وهي لا تتجاوز العشرات، أما ألوف النقوش فهي صفائية، وسأحصر البحث هنا في هذا النوع من الكتابة.

-أهم من بحث في الكتابات الصفائية في سورية:

أول من بدأ الكشف عن النقوش الصفائية هو الانكليزي سيرل جراهام Cyril Graham وذلك سنة ١٨٥٧م فهو الذي جمع نقوشاً وقدمها إلى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن وحدد أماكن وجودها، وقام بعده الألماني يوهان فتز شتاين Johann Wetzstein عام ١٨٥٨ برحلة إلى جنوب سورية ونسخ ٣٧٩ نصاً وألف كتاباً عن آثار المنطقة في سهل حوران والجبل ونشر عدداً من هذه النقوش.

أما في عام ١٨٨٢ قام جوزيف هاليفي Joseph Halevy بنسخ عدد من النصوص وهو الذي أطلق عليها اسم الكتابات الصفائية نسبة إلى مكان وجودها في تلول الصفا المحيطة بالصبة البركانية الأساسية، كما أنه تعرف على ستة عشر حرفاً من أبجديتها.

كما أن العالم الفرنسي دوسو R.Dussaud نشر ١٨٢ نقشاً في مجلة سيريا العدد العاشر سنة ١٩٢٩.

أما الذي تمكن من الكشف عن جميع الحروف الصفائية، ووضع القواعد الأساسية في هذه الكتابة هو العالم الألماني إنوليتمان Ennolittmann، فقد قام مع بداية القرن الحالي بالتعاون مع جامعة برنستون بحملة في الأعوام ١٩٠٤ وحتى ١٩٠٩، وقام بنشر نقوش عددها ١٣٠٢ في مجلة سيريا العدد الرابع سنة ١٩٣٤.

وقد نشر ركمنس G.Rycmans مجموعة من النصوص من وادي الرشيدة في مجلة Melanges Syriens قدمها له دوسو، أما أكبر مجموعة فقد نسخها موريس دونان Dunandوزوجته وقد نشرت ركمنس مع مجموعة من الكتابات الصفائية في جامع النقوش السامية Cqrpups Inscrptionum Semiticarum ويمكننا القول بأن العمل في هذا الميدان توقف في سورية منذ عام ١٩٢٠ إلى أن تشكلت بعثة أثرية سورية - بريطانية في عام ١٩٩٥، بادارة مشتركة من قبل السيدة منى المؤذن والسيد مايكل ماكدونالد[٢]، وقد عملنا في الموسم الأول كما ذكرت سابقاً على تتبع مسيرة المكتشفين الأوائل وتعرُّف المواقع التي زاروها مع اكتشاف مواقع جديدة، وتحديد الجميع على خرائط مفصلة وذلك تمهيداً للمواسم القادمة، مع تصوير جميع النقوش المنسوخة وإدخال جميع المعلومات في الحاسوب.

أما في موسم عام ١٩٩٦ فقد انحصر العمل في موقع العيساوي وتم تسجيل معظم نصوصه، و لايضاح العمل بالأرقام فإن مجموع ما نشر سابقاً عن هذا الموقع هو ٤٧٨نصاً، أما مادوناه في هذا الموسم فهو ١٨٨٩نصاً، وعلينا أن نتابع العمل مستقبلاً لكي نكمل توثيق جميع نصوص هذا الموقع فقط.

---

[١] وكان أعضاء البعثة السورية في موسم عام ١٩٩٥، السيد حسين زين الدين والسيد غازي علولو والآنسة دينا بكور، أما البعثة البريطانية فكانت مؤلفة من الدكتورة ليلى نعمة والطبوغرافي السيد رينيه سرهان.

-الموسم الثاني في عام ١٩٦٩ كان الفريق السوري مكوناً من السيد حسين زين الدين والآنسة ريم الصالح، أما الفريق البريطاني فهو مؤلف من الدكتورة ليلى نعمة والدكتورة خيرالدين كينغ.

النقش على الصخر:

نقشت الكتابة الصفائية على الحجر البازلتي القاسي بأداة حادة وصلبة ويأخذ الخط مظاهر متعددة منها المزوى ومنها اللين ومنها شبه المزوي ومنها الحروف المنقلبة ٩٠درجة، أما أسلوب التنفيذ فإما التطريق المباشر أو غير المباشر ويغلب على الحرف عندها أن يكون عريضاً وواضحاً، أو بالحز بأداة حادة ويكون الحرف رفيعاً وصغير الحجم غالباً، ولايضاح جميع ما ذكرت يمكن دراسة ما نقش على الصخرة التالية وهي من موقع خربة الامباشي[٣] وما نقش عليها يوضح معظم مظاهر الحرف الذي أشرت إليه سابقاً.

(١)يعشم بن عبر (الحروف شبه مزواة ومنقلبة ٩٠درجة)

(٢) لمسكئيل بن قدم (الحروف مزواة ومنفذة بالتطريق غير المباشر)

(٣) لعذبئيل بن كت (الحروف ذات مظهر لين ومنفذة بالحز)

(٤) لكت بن سبر (الحروف ذات مظهرين ومنفذة بالتطريق)

عند طرف الصخرة نجد سبعة خطوط ينتهي كل منها بدائرة.

(الصورة رقم ١)

أسلوب النص الصفائي:

إن النصوص الصفائية بشكل عام يمكن القول بأنها تذكارية والنسب هو الموضوع الأساس الوارد فيها ومن النادر أن نجد نصاً لا يبدأ بالتنسيب. وكما هو معروف فقضية النسب شيء هام جداً للإنسان العربي وهناك نصوص وصل فيها النسب إلى الجد السادس، أما الأسماء الواردة فمنها ما هو معروف إلى الآن وقريب من أسماءنا مثل (نصر، آدم، عبد، أمير، حاج، خالد، عمر، مطر، أوس، ...الخ)، ومنها ما هو غريب مثل (حملج، أبشمن، عضمضت، حضب، نغفت... الخ) ويمكن أن نأخذ المثال التالي وهو من موقع الامباشي والنص مؤلف من اسمين (سعد بن ثعر) ونلاحظ أن الاسم الأول مألوف جداً أما الثاني فهو غريب بالنسبة لنا (الصورة رقم ٢).

وهناك أسماء استعيرت من أسماء الحيوانات مثل (نمر، عقاب، نسر، ورل، ضب، أسد، مهر، حوت...).

كما نجد أسماء دينية مركبة وهي ثلاثة أنواع الأول يقرن باسم الله مثل (عبدله= عبد الله) وسعد- لـه= سعد الله) (وهب- له= وهب الله) والنوع الثاني مضاف إلى اسماء آلهة أخرى مثل اللات (وهب لت= وهب اللات).

أما النوع الثالث وهو الأكثر تداولاً إضافة اسم الله بلفظ (ال)مثال ذلك (عبدئيل= عبد اللـه) و(خرئيل= خير الله) و(سمعئيل= اسماعيل) و(خللئيل= خليل الله... الخ.

وإذا ابتعدنا عن الأسماء الدينية فإننا نجد الأسماء التي لها صيغة الصفة مثل (سكران وسهران وحميان

---

[٣] لقد تم تزويدي بمجموعة من صور النقوش الصفائية المكتشفة في خربة الامباشي والتي قدمها لي مشكوراً الاستاذ أحمد طرقجي الذي عمل بالتنقيب في هذا الموقع، وسأقوم بنشر هذه المجموعة مستقبلاً إن شاء الله، والنص يحمل الرقم ٨٤.

ونازل وفالح وثابر وشاهر... الخ).

وينتهي التنسيب إلى ذكر القبيلة ويعبر عنها بكلمة (آل) وقد وجدنا أن هذا اللفظ يستعمل أيضاً عند ذكر الرهط أو الفخذ أو البطن أو العمارة أو القبيلة ولعل من أكبر القبائل الصفائية قبيلة وهبئيل والنص التالي[4] سيوضح ما ذكرت:

النص:

(لغيرئيل بن سالم غيرئيل بن حوت ذآل زمر ذآل كن ذآل صنف ذآل وهبئيل ورعي هضأن سنة نجي ثيم بن أنعم هدر وتنظ بشنا وهام [...] هنمرت وتنظر هسمي فهبعل سمن روح.. وعور..." (الصورة رقم ٣).

المعنى:

"لغيرئيل بن سالم بن غيرئيل بن حوت من فخذ زمر من بطن كون من عمارة ضيف من قبيلة وهبئيل الذي رعى الأغنام سنة نجمي يثم ابن أنعم في هذه الديار وخاف الأعداء وهام (...) في منطقة النمارة ونظر إلى السماء (وعاربه) فياسيد السموات فرّج عنه (...) وعمى (....).

وكان العلماء يعتبرون أن القبائل الكبرى الأساسية التي ينسب لها الصفائيون هم آل وهبئيل وصنيف وعوذ واعتمدوا[5] في ترتيبهم هذا بأن جد وهبئيل وصنيف وعوذ قد وصلوا إلى مراتب الآلهة وحديثاً وبعد اكتشاف هذا النص نلاحظ بأن صنيف تنطوي نسباً تحت وهبئيل لذا فإننا نرى الآن بأننا يمكننا أن نطلق عليهم اسم الوهبئيليين -العوذيين نسبة إلى أجدادهم.

بعد ذكر النسب يقوم الكاتب بإيراد جملة قصيرة يحدد فيها الحدث الآتي الذي يقوم به مثل الرعي أو الانتجاع، أو أنه حط رحاله في هذه الديار التي نقش فيها النص، أو أنه نجا من الأعداء ويمكن في هذه الحالة ذكر الروم، وبأن أغلب النصوص تتوضع على رجوم حيث يتم دفن الميت ويقوم المشاركون في هذه العملية بنقش أسمائهم على الحجر ويصرحون بأنهم قاموا بعملية الرجم.

-يستعمل في الصفائية فعل وجم بمعنى رجم -على فلان، ويمكن أن نذكر فيها حالته النفسية حيث يذكر بأنه رجم وهو حزين أو يائس أو ترح.. الخ.

هذا لا يعني أن فعل "وجم" يستعمل فقط في حالة الدفن، ولكن يمكن إيراده في حال اعتبار الشخص في عداد المفقودين مثال ذلك النص التالي وهو من موقع زملة[6] ناصر: (الصورة رقم ٤).

"لشامت بن صعد بن شأس ووجم على أنعم وعلى أمة وعلى صحرت وعلى بنت أخيه المسبية"

"لشامت بن صعد بن شأس الذي وضع رجوماً على أنعم وعلى أمة وعلى صحرت وعلى بنت أخيه المسبيه".

---

[4] سينشر هذا النص إن شاء الله في الحوليات الأثرية السورية وهو يحمل الرقم MU٣٢١ وهو من نصوص موقع العيساوي.

[5] راجع كتاب سورية الجنوبية حوران، مقال "د. ميلك بعنوان النقوش والكتابات الصفائية ص٢٧٩.

[6] النص يحمل الرقم ٤٦ من موسم عام ١٩٩٥م.

أي أن شامت بن صعد قد تعرض أهله للغزو فقام بدفن أنعم وأمه وصحرت وكذلك وضع رجماً لبنت أخيه علماً بأنها سبيه وليست في عداد الأموات.

وبشكل عام فإن النصوص كما ذكرت سابقاً بأنها تذكارية مشحونة بالعاطفة أما النصوص الوثائقية مثل تحديد ثمن فرس أو شراء أمة أو تحديد ملكية.. الخ فإنها نادرة.

بعد ذكر الجملة الخبرية يمكن أن نجد نصوصاً يذكر فيها كلمة وسنة، وذلك لتحديد التاريخ، ولكن من الصعب استعمال كلمة تحديد هنا، لأن الصفائيين في معظم النصوص لم يعتمدوا تاريخاً معيناً كالتاريخ السلوقي مثلاً الذي اعتمده التدمريون ولكنهم أرخوا بحدث هام بالنسبة لهم مثل "سنة قتل معن" أو سنة قبر ارامي" أو "سنة نجا أنعم" وهناك تواريخ ليست بالهامة مثل "سنة رعي القطعان". ولكن في بعض الحالات القليلة جداً يمكن استعمال عدد معين للدلالة على التاريخ وهذه الأعداد تتبع تاريخ بصرى، ومن الأمثلة الجيدة التي وجدت في تل العيساوى نص ورد فيه التاريخ كالتالي "سنة أرخت عشرا[٣]". ونلاحظ هنا استعمال كلمة "أرخت" لتحديد الزمن وهذا من النصوص الفريدة في العربية حيث يعود للقرن الثاني الميلادي ويذون فيه كلمة تأريخ لتحديد السنة.

كما نجد نصوصاً مؤرخة مجازاً مثل "سنة حرب النبط" أي أنها سنة ١٠٥م، وإجمالاً فإن النقوش الصفائية تعود للقرن الأول قبل الميلاد وللقرون الأول والثاني والثالث الميلادية.

ويمكن أن ينتهي النص بعبارات الدعاء التي تطلب عادة من الالهة، أما أسماء هذه الأرباب والآلهة فهي اللات وترد (لت او ألت) وهي مؤنث (إل) و(إل) يقصد به الله وهو اله السماء، وهناك الرضي والرضو وهي آلهة مذكرة ومؤنثة وخاصة بالأرض، وهناك ذكر للاله "دشر" أو "نشر" وقد ورد عند الانباط باسم ذو الشرى.

ولديهم اله القوافل ويدعى شيع القوم وقد وجد هذا الاله عند التدمريين. أما الاله الأكبر فهو بعل شمين وصيغته عند الصفائيين (بل- سمن)، كما نجد لديهم عبادة الجد الأكبر للقبيلة وهو بمثابة الحامي لها مثل "جد وهبئيل" و"جد ضف" و"جد عوذ"،، وقد ورد اسم اله جديد في تل العيساوى وهو "شيع نو[٨]"، الذي عبد هذا الاله في جنوب سورية ولدينا تمثال له يعود إلى القرن الثاني الميلادي وفي تدمر أيضاً.

أما الدعاء بحد ذاته فهو إما طلب للسلامة أو الغنيمة أو الجزاء أو القبول أو الراحة والتفريج أو النجاة أو المساعدة الهناء أو الحلم والأناة وكل ذلك لمن لا يطمس النصوص أو الرسوم، أما الادعية المعاكسة لها فهي العمى والخرس والعرج والرجم والحزن والثأر لمن يشوه الرسم ويطمس الكتابة.

وبشكل عام يمكن القول إن هذه العناصر التي ذكرتها سابقاً وهي التنسيب والنص والتأريخ والدعاء نادراً ما تأتي في نص واحد وعندها نعتبره نموذجاً أما في معظم الأحيان فإننا نجد عنصراً أو عنصرين فقط.

الرسوم على الصخور:

بقي أن نذكر أن هذه النقوش ترافق برسوم منفذة من قبل الكتبة أنفسهم وغالباً ما يتم الرسم قبل الكتابة

[٣] النص يحمل الرقم MU٣١٩

[٨] ورد اسم هذه الاله في النص رقم MU ٦٩٠

حيث نرى الأحرف تتداخل مع الرسم أو تحيط به، ولعل أهم العناصر المرسومة هي الشمس والجمل والسبب واضح فالشمس ملازمة لهذا الإنسان طوال النهار والجمل من الحيوانات الصبورة التي تشاركه هذه الطبيعة القاسية. لاحظ النص التالي[9] "لزفف بن أوس -ال بن سخر بن سمك- ال هخطط" (الصورة رقم ٥)، حيث نجد النص تحيط به الكتابة وهو عبارة عن راع ومعه جملان.

أما باقي المواضيع فهي مشاهد من حياتهم اليومية مثل حراثة الأرض وقطف الثمر ورعي القطعان وملاحقة الحيوانات البرية أو ترويضها. ولعل الحيوانات من أكثر ما رسم ويمكن إيراد ما وجدنا من رسوم كالتالي:

الجمل (هنالك جمال بسلم، وجمال بسلمين)[10]

والحصان والثور والغزال والكلب والنسر والنعامة والعقرب والأفعى والفيل [11] والأسد والبقر الوحشي والحمار، ومن مواقفهم التي خلدت بهذه الرسوم أيضاً عمليات الغزو والقتال. (انظر اللوح رقم ١). الذي يحوي مجموعة من هذه المشاهد).

ولا بد من القول بأن هذه الرسوم رغم صعوبة تنفيذها على الصخر فهي والعية جداً فنحن لا نرى أشكالاً خرافية ولا مشاهد لأساطير ميثولوجية ولا تصوير الآلهة أبداً بل مشاهد تنبض بالحياة والحركة والحيوية على الرغم من كونها رمزية جداً فهي لا تتناول التفاصيل لأي شكل من الأشكال فإذا رسم إنسان مثلاً فإنه يحدد برأس وجذع وأطراف في وضع وحركة معينة، أما الملابس أو تفاصيل الوجه أو غطاء الرأس، فلا نجد شيئاً من هذا، إلا في حالات نادرة.

وعلينا أن ننوه بأن هذه الكتابات والرسوم قد انتقلت من جيل إلى آخر عن طريق التلقين بين الآباء والأجداد إلى الأبناء، ولم نجد ما يدل على تعليم مقصود عن طريق المدارس، علماً بأنه قد تم اكتشاف أول أبجدية صفائية مدونة في سورية في موقع[12] المشبك ١٦ (انظر اللوح ٢)

أما الأبجدية الثانية فقد وجدت في موقع[13] العيساوي ٤٠، ونلاحظ بأن الأبجديتين لا تعتمدان على الترتيب الأبجدي وإنما على تقارب الشكل بين الحروف وذلك لتسهيل عملية التعليم.

وصفوة القول إن هذه الكتابات هي تذكارات بأسلوب رسائل سريعة. أما عن علوم الصفائيين ومعارفهم وآدابهم فلم نجد شيئاً، وهذا لا يعني طبعاً أنها غير موجودة، لكن هذا دليل على أنهم يتمتعون بذاكرة ممتازة تحفظ جميع ما توصلوا إليه، فهذه القبائل كان لها دورها الحضاري الكبير في المنطقة، وسلقوم مستقبلاً بالقاء المزيد من الأضواء على تاريخهم وثقافتهم ومكانتهم من خلال متابعة نقوشهم ورسومهم، وذلك من قبل البعثة السورية - البريطانية التي أشرت إليها خلال البحث، أرجو ذلك وشكراً.

---

[9] النص يحمل الرقم MU١٤٩

[10] هذا يدل على العلاقات التجارية بين هذه المنطقة وأواسط آسيا.

[11] صورة الفيل نادرة وقد وجدت في العيساوي MU١٦٦

[12] تم اكتشاف هذه الأبجدية من قبلي في موسم ١٩٩٥ وهي تحمل الرقم MU١٢

[13] تم اكتشاف الأبجدية الثانية من قبل حمو الدين كيغ في موسم ١٩٩٦.

المصادر والمراجع:

١. ولفنسون تاريخ اللغات السامية، ١٩٨٠.

-مجموعة بحوث أثرية بإشراف ج، م دانتزر، سورية الجنوبية حوران.

-د. علي أبو عساف، الحوليات الأثرية السورية ١٩٧٢.

-د. محمود محمد الروسان، القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة (تتمة المرجع).

-مجموعة النقوش المنسوخة من قبل منى المؤذن ومايكل ماكدونالد عام ١٩٩٥و ١٩٩٦ مع التقارير الأولية.

1- Corpus Lnscriptionum Semiticarium tomus1

2-D . enno littmann : syria - publication of the princeton university archaeological Expeditions to Syria 1904 -5 and 1909, Division iv.

3-M. Macdonald , M. Muazzin et nehme, nehme, les inscriptions safitique de syrie, cent quarante après leur dècouve the crnib , 1996, pages 435-494.

□□

الأبجدية الصفائية

	م		ا
	ن		ب
	س		ج
	ع		د
	غ		ذ
	ف		هـ
	ص		و
	ض		ز
	ق		ح
	ر		ط
	ش		ظ
	ت		ي
	ث		ك
	خ		ل

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

	ثمودي	لحياني	سبئي
ا			
ب			
ج			
د			
ذ			
هـ			
و			
ز			
ح			
خ			
ط			
ظ			
ي			
ك			
ل			
م			
ن			
س			
ع			
غ			
ف			
ص			
ض			
ق			
ر			
ش			
ت			
ث			

المفردات العربية في اللغة الألبانية: نظرة في إسهام المستشرق الألباني طاهر دزداري

د. محمد م. الأرناؤوط

بالمقارنة مع اللغات الأوربية المجاورة تعتبر اللغة الألبانية (سواء الشعبية أو الأدبية) غنية بالمفردات العربية نتيجة للظروف التاريخية التي ربطت ألبانيا والألبان خلال القرون الستة الأخيرة بالشرق والإسلام. فقد امتد الحكم العثماني في ألبانيا منذ مطلع القرن الخامس عشر، مع أن الصلات العثمانية- الألبانية، تعود إلى الربع الأخير للقرن الرابع عشر، وانتشر الإسلام بالتدريج وسط الألبان حتى أصبح يمثل دين الغالبية في القرن السابع عشر. ونتيجة لما يمكن تسميته بـ"تشرق" الثقافة الألبانية دخلت المفردات العربية (بالإضافة إلى المفردات التركية والفارسية) وزادت زيادة كبيرة حتى أصبحت النصوص الأدبية أيضاً مليئة بهذه المفردات(١).

ومع تطور الدراسات الألبانية (الألبانولوجيا) أخذ بعض العلماء في الاهتمام بهذه المفردات ونشر الدراسات حولها. وخلال مئة عام، أي منذ ف. ميكلوسيتش F. Miklosich أ. جوفاني A. Xhuvani و أ. دسنيكايا A. Desinckaja و أ. تشاباي E. Qabaj و أ. كوستالاري A. Kostalari ول. مولاكو L. Mulako وغيرهم(٢)، كانت المفردات العربية تدرج ضمن ما يُسمى "التركيات" أو المفردات التركية في اللغة الألبانية turqizmat، على اعتبار أن هذه المفردات دخلت اللغة الألبانية من خلال اللغة العربية.

وقد حاول الباحث مناقشة ذلك وتمييز هذه المفردات العربية في دراسة نشرت قبل حوالي عشرين سنة في عدد خاص من مجلة "المعرفة" السورية. وفي هذا الإطار حاول المؤلف عرض الأرضية التاريخية، وإبراز التواصل المباشر للألبان مع اللغة العربية من خلال الإسلام والاتصال المباشر والترجمة، وأهم المجالات التي انتشرت فيها هذه المفردات، مع مصير هذه المفردات بعد التطورات السياسية التي لحقت بالألبان(٣). وقد أعقبت هذه المحاولة دراسة أخرى للمفردات العربية في نتاج كاتب ألباني معاصر (سنان حساني) لما لذلك من مغزى خاص بالنسبة للإطار المكاني والزماني والثقافي والسياسي(٤).

وبعد نشر هذه الدراسة أتيح للمؤلف الإطلاع على "موسوعة حلب المقارنة" للمرحوم خير الدين الأسدي، التي أصدرت حينئذ، حيث نشر بعد ذلك دراسة مطولة بعنوان "إسهام الأسدي في الكشف عن

المفردات العربية في اللغات البلقانية"(٥). وفي الواقع أن هذه الدراسة كانت تركز على إسهام رائد للمرحوم الأسدي (١٩٠٠- ١٩٧١) في هذا المجال، حيث أنه ركز أكثر على وجود المفردات العربية في اللغة الألبانية بالمقارنة مع اللغات البلقانية الأخرى. وهكذا نجد في قائمة المفردات العربية في اللغات البلقانية (كما وردت لديه: الرومانية والقرواطية والبلغارية واليونانية والألبانية) ١٢٦ مفردة أبرز وجود معظمها (٨٨ مفردة) في اللغة الألبانية.

وفي غضون ذلك (١٩٨٨) أتيح للمؤلف أن يزور "معهد اللغة والأدب" التابع لأكاديمية العلوم في تيرانا، وأن يطلع على إسهام عالم آخر في هذا المجال، ألا وهو المستشرق الألباني المرحوم طاهر دزداري Tahir Dizdari (١٩٠١- ١٩٧٢)، والذي لم يأخذ حظه من الشهرة خارج ألبانيا بسبب عدم وفاقه مع النظام الحاكم آنذاك.

وقد ولد ط. دزداري في مدينة شكودرا Shkodra بشمال ألبانيا في عائلة ذات تقاليد ثقافية قومية. فقد كان والده نصوح دزداري أديباً وصحفياً معروفاً على المستوى القومي، واشتغل بجمع التراث الشعبي الألباني مما أثر لاحقاً على توجه الفتى طاهر نحو هذا المجال. وقد بدأ طاهر دراسته بمدينته في المدرسة العسكرية العثمانية حيث تعلم التركية والعربية، ثم تابع دراسته (بعد نهاية الحكم العثماني في ١٩١٢) في المدرسة اليسوعية حيث تعلم هناك الإيطالية والفرنسية.

وفي ١٩٢٠ بدأ ط. دزداري عمله الوظيفي في إدارة الدولة الألبانية الجديدة وتدرج في العمل حتى أصبح مديراً لمنطقة بوكا Pukn في ١٩٣٩، حين تعرضت ألبانيا للغزو الإيطالي. وبسبب مقاومته حينئذ للغزو الإيطالي اعتقل ونفي إلى أحد معسكرات الاعتقال في إيطاليا، حيث بقي هناك إلى سنة ١٩٤٢، وخلال ١٩٤٣- ١٩٤٤، بعد استسلام إيطاليا وانسحاب قواتها من ألبانيا، بدأ ط. دزداري بشكل منظم في جمع التراث الشعبي الألباني والكتابة في الصحف والمجلات الألبانية حول الإسلام والثقافة الشرقية، وأخذ ينشر أولى مقالاته حول المفردات الشرقية في اللغة الألبانية مستهلاً ذلك في ١٩٤٤ بـ"المفردات الإيرانية في اللغة الألبانية".

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وتسلم الحزب الشيوعي للسلطة، جال ط. دزداري أرجاء البلاد خلال ١٩٤٥- ١٩٥١ لجمع التراث الشعبي من أفواه الناس. ولكن في ١٩٥١ سجن عدة شهور للاشتباه به فيما سُمّي حينئذ بمحاولة الاعتداء على السفارة السوفييتية. ومع أنه بُرّىء من التهمة إلا أن علاقته مع النظام لم تعد على ما يرام(٦).

وتفيد المعطيات المتوفرة لدينا أن ط. دزداري قد استمر في الاهتمام الجدي بالمفردات العربية وغيرها من المفردات الشرقية في اللغة الألبانية خلال الخمسينات بعد أن تفرغ تماماً للبحث العلمي والتأليف. وقد أصبح هذا الموضوع شغله الشاغل طيلة العشرين سنة اللاحقة، أي حتى وفاته في عام ١٩٦٢، حيث أتيح له أن يجوب أرجاء البلاد ويتصل بالناس في مختلف مواقعهم وأن يسجل من أفواههم مباشرة المعطيات التي كانت تهمه.

ويُلاحظ هنا أن ط. دزداري لم يأخذ بالمصطلح الشائع حتى ذلك الحين، أي "التركيات" أو المفردات التركية، بل فضّل أن يستخدم مصطلح "الشرقيات" Orientalizmat أو المفردات الشرقية في اللغة الألبانية التي تضم العربية والتركية والفارسية. ونظراً لإضلاعه في هذا المجال فقد نشرت له مجلة "دراسات فيلولوجية"

خلال ١٩٦٠- ١٩٦٦ عدة حلقات من المفردات الشرقية في اللغة الألبانية التي كان يجمعها وينسقها ويعلق عليها(٧). وبعد نشر هذه الحلقات انضم ط. دزداري للعمل في "معهد اللغة والأدب" حيث تفرغ هناك لإكمال مشروعه الحياتي "المفردات الشرقية في اللغة الألبانية"، الذي أنجزه قبل وفاته بقليل في أيار ١٩٧٢. وقد تجاوز هذا المعجم الموسوعي الألفي صفحة وتضمن حوالي ٤٥٠٠ مفردة من اللغات الشرقية التي دخلت واستقرت في اللغة الألبانية.

وفي الحقيقة لدينا بعض الشبه بين هذا المعجم الموسوعي وبين "موسوعة حلب المقارنة" للمرحوم الأسدي. فقد كانت فكرة الموسوعة في البداية عند الأسدي أقرب إلى المعجم الذي يهدف إلى الكشف عن جذور اللهجة الحلبية في اللغات الأخرى، إلا أن ثقافة الأسدي الواسعة حولت العمل إلى موسوعة بما أضافه من الأمثال والحكم والنوادر الخ. وفي المقابل كان المرحوم دزداري يطمح إلى وضع معجم للمفردات الشرقية في اللغة الألبانية، يتتبع فيه جذور هذه المفردات في اللغات الأخرى (العربية والتركية والفارسية)، إلا أن ما أضافه أيضاً من الأمثال والحكم والنوادر الألبانية التي تستعمل فيها تلك المفردات الشرقية حول هذا المعجم إلى موسوعة مصغّرة عن التراث الشعبي الألباني.

وفي هذا العمل الموسوعي وضع المرحوم دزداري المفردات حسب التسلسل الأبجدي في اللغة الألبانية، حيث كان يحلل كل مفردة ابتداءً من توضيح أصلها وما لحقت بها من تغيرات صوتية في الألبانية حسب المناطق التي تستخدم فيها، وينتقل إلى شرح معانيها إذ كان لها أكثر من معنى، ويستشهد على ذلك بالأمثال والحكم والنوادر. وكمثال على غنى هذا المعجم الموسوعي ومنهج المؤلف في استعراض المفردات الشرقية (العربية) نقدم هنا ترجمة كاملة لمفردة واحدة:

"آلة alet-i (ع) تستخدم في ألبانيا الجنوبية والوسطى، ولكن في ألبانيا الشمالية تضاف إليها الهاء h في البداية وتشدد اللام ' في الوسط لتصبح hallat.

١- أداة لإنجاز عمل ما، أداة لازمة لممارسة مهنة ما في الصناعة والزراعة والعمليات الطبية الخ. وفي الأمثال الشعبية يقال "الشغل للآلة والمديح لصاحبها" Hallati punon e izot llavddohet ويقال "كل قليلا واعمل كالآلة" Ha pak e ban hallat.

٢- العضو التناسلي للرجل.

٣- في المفهوم المجازي تستخدم بمعنى أداة أو لعبة، ويقال في الأمثال الشعبية "لا تكن أداة بيد فلان أو علان" Mos ubën hallati i njanit e tjetrit"(٨).

وتجدر الإشارة إلى أن المرحوم دزداري جمع على هذا النحو ٤٤٠٦ مفردة تغطي الجوانب الإدارية- التاريخية والحياتية- الثقافية، أي ما كان يُستخدم ولا يزال إلى حد ما في القاموس الشعبي في بعض المناطق الألبانية وما يستخدم الآن في اللغة الأدبية بعد أن استقر في المعاجم الحديثة. وفيما يتعلق بأصول هذه المفردات الشرقية فقد توزعت حسب المرحوم دزداري كما يلي:

١٤٦٠ مفردة عربية.

١٧٣٢ مفردة تركية.

٥٠٥ مفردة فارسية.

٧٢ مفردة مركبة عربية- فارسية.

٤٣٣ مفردة مركبة عربية- تركية.

٢٧ مفردة عربية(٩).

وعلى الرغم من ضخامة العمل المبذول خلال ثلاثين سنة وأهمية هذا المعجم الموسوعي، سواء باعتباره تعبيراً تاريخياً عن العلاقات الثقافية بين الألبان والشرق/ الإسلام أو مرجعاً مهماً للمشتغلين في وضع المعاجم الحديثة والباحثين في التراث الشعبي، إلا أن مصيره كان كمصير صاحبه حيث عاني من الإهمال والعزل ولم يطبع حتى الآن منذ تسليمه في ١٩٧٢! والمثير في الأمر أن هذا المعجم الموسوعي الذي طالما انتظره المعنيون لم يعد سراً، حيث أفاد في وضع "معجم اللغة الألبانية الحالية" الذي صدر في تيرانا سنة ١٩٨٠ وأشير إليه في المقدمة ضمن المراجع التي اعتمد عليها المشتغلون في وضع هذا القاموس. وقد أفاد منه بشكل خاص الباحث الألباني المعروف أكرم تشاباي E. Qabyj في وضع كتابه المشهور "دراسات اتمولوجية في حقل الألبانية"(١٠) الذي صدر في تيرانا سنة ١٩٨٩، حيث استشهد بالمرحوم دزداري على الشكل التالي:

١- في الجزء الثاني A- B ١١١ مرة.

٢- في الجزء الثالث C- D ١٠٨ مرة(١١).

وفي الواقع إن تغييب مثل هذا المعجم الموسوعي طيلة هذه العقود لا يمكن فهمه إلا بطبيعة النظام السائد وسياسة النظام في تلك السنوات بالذات (نهاية الستينات وطيلة السبعينات). فطبيعة النظام الشمولي السابق في ألبانيا (١٩٤٥- ١٩٩١) كانت تسمح في أحسن الأحوال بـ"تغييب" المثقف وهو على قيد الحياة وذلك بعدم السماح له بالنشر في الصحف والمجلات أو بنشر مؤلفاته(١٢). ومن ناحية أخرى فقد أدت سياسة النظام بعد "الثورة الثقافية" إلى حد "إلغاء الدين" في سنة ١٩٦٧ والعمل على "تغييب" الدين تماماً من الكتب ومن الوعي. ولذلك لم يكن النظام ينظر بارتياح حينئذ إلى المرحوم دزداري وأمثاله من المهتمين بالعلاقات الثقافية- التاريخية مع الشرق/ الإسلام، وإلى موضوع "الشرقيات" في اللغة الألبانية بالتحديد، فقد كانت معظم المفردات العربية تتعلق بالثقافة الشرقية والإسلامية، وهذا ما كان يمكن أن يحفظ هذه المفاهيم في أذهان الناس، ولذلك تمّ التوجيه بالتقليل قدر الإمكان من هذه المفردات في المعاجم اللغوية التي وضعت ونشرت في تلك السنوات كـ"معجم اللغة الألبانية الحالية" وغيره(١٣).

وفي تلك الظروف الصعبة جاء التكريم للمستشرق دزداري، الذي كان يعاني من إحباط شديد، من الخارج حين وُجّهت له الكوليج دو فرانس دعوة للمشاركة في المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين في باريس خلال تموز ١٩٧٢. إلا أن الموت خطفه في أيار ١٩٧٢ وحرمه من المشاركة في مثل هذا المؤتمر الدولي بالموضوع الأثير إلى روحه- المفردات الشرقية في اللغة الألبانية، وعلى كل حال إن التكريم الوحيد الممكن للمستشرق دزداري، الذي قضى جل حياته يبحث في هذا المجال، إنما يكمن في إصدار هذا المعجم الموسوعي الذي طال انتظاره(١٤).

الهوامش

(١) للمزيد حول هذا "التشرق" في الثقافة الألبانية ونتائجه بما في ذلك تزايد المفردات العربية في اللغة الألبانية انظر كتابنا: الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٣.

(2) F. Miklosich., Die turkischen Elemente in den sudes- und- osteuropqiscchen Sparchen 1-2 1884-1890, A. Xhuvani. Per pastertine" egjuhes. Tirane 1966 A. Krajani Hyrja e truqizamave ne shqipen dhe perpjekjet per zevendisimin e tyre. Studime filologjike. no I. Tirane 1965. E. Cabaj. Per njeshtrezim kronologjik te huazimeve turke te shqipes. strudime filologjike, no. 2. Trirane 1975. A. Kostallari." Reth depertimit te turqizmave ne gjuhen shqipe." Gjurmime albanologjike. no 8. Prishtine" 1977.

(٣) اللغة العربية في اللغة الألبانية، مجلة "المعرفة" عدد ١٧٨، دمشق ١٩٧٦- ص١٧٢- ١٨٣.

(٤) مغزى المفردات العربيةفي رواية سنان حساني "بدأ العنب ينضج"، مجلة "الموقف الأدبي" عدد١٩٦ ، دمشق ١٩٨٧، ص.٩٦-١٠٨.

(٥) إسهام الأسدي في الكشف عن المفردات العربية في اللغات البلقانية، مجلة "مجمع اللغة العربية الأردني" عدد ٤٨، عمان ١٩٩٥، ص ٢١١- ٢٦١.

(6) Sulejman Cerkezi, "Tahir Dizdari- Gjuhetar dhe orientalist I shquar". Dituria islame no. 51, Prishtine 1993. PP. 12-13.

(7) T. Dizdari, Huazime orientalizmash ne shqip". Buletini i Universitetit Shteteror te Tiranes- Seria e shkencave shoqerore, no. 1. Tirane 1960.

(8) Tahir Dizdari, Orientalizmat ne gjuhen shqipe, doreshkrim ne Institutin e Gjuhes e letersise. P. 18 .

(9) Gerkezi, P. 13, Nasuf T. Dizdari. "RReth doreshkrimit "Orientalizmat ne gjuhen shqipe "te Tahir Dizdarit" in: Feja. Kultura dhe tradita islame nder shqiptaret. Prishtine 1995, P. 334.

(10) Eqrem Cabej. Studime etimologjike Ne fushe te shqipes. Tirane 1989.

(11) Cerkezi, P. 13, Dizdari. P. 331.

(١٢) تكفي الإشارة هنا كنموذج إلى أحد أهم أعلام الأدب والنقد في ألبانيا فائق كونيتسا F. Konica، الذي كان أول من ترجم "ألف ليلة وليلة" في اللغة الألبانية، طبلة ١٩٥٤- ١٩٩١.

(13) Akademia e shkencave. Fjalori I gjuhes shqipe, Tirane 1980.

تجدر الإشارة إلى أن المجلة الفصلية "برلا Perla" التي تصدرها المؤسسة الثقافية "سعدي الشيرازي" في تيرانا، والتي تعنى بالصلات الثقافية الفارسية- الألبانية، قد بادرت منذ عددها الأول (١٩٩٦) إلى نشر المفردات الفارسية من هذا المعجم واستمرت في ذلك حتى العدد الأخير من سنة ١٩٩٧(٨ حلقات). وبهذا يتجدد الأمل في أن تبادر مجلة أخرى إلى نشر المفردات العربية أيضاً.

❖❖❖

عالمية اللغة العربية

محمود الأرناؤوط

لا يختلف اثنان من الدارسين في العالم العربي ومواطن الاستشراق في جميع أنحاء العالم بأن اللغة العربية تعد واحدة من أهم اللغات العالمية في عالمنا المعاصر، نظراً لماتتمتع به من ماضٍ عريق وجذور قوية ثابتة، وحاضر لا يقل أهمية عن ذلك الماضي بحال من الأحوال، لموقع الأمة العربية في وسط الكرة الأرضية ولاهتمام شعوب الأرض كافة، وبنسب مختلفة، في دراسة تاريخ هذه الأمة العريقة واستكشاف العوامل التي أدت في الماضي إلى تربع الأسلاف على عرش الثقافة العالمية دون منازع قروناً عدة، بحيث أصبح لزاماً على كل دارس في تلك القرون تعلّمها وفهم مقاصدها وقوانين كتابتها وإدراك أبعاد ألفاظها ليكون في عداد العلماء المشاركين في صنع الحضارة في عالم الإسلام المترامي الأطراف، فانضوى تحت لوائها طواعية علماء كبار من أبناء الشعوب التي تم تحريرها على أيدي جيوش الفاتحين من العرب في عهد الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من أعيان الدول وقادتها خلال قرون العزّة والمنعة، يوم أن كان سلطان الدولة العربية قد بلغ حدود الصين وأواسط آسيا الصغرى شرقاً، والمغرب وموريتانيا ومالي غرباً، وجنوب أوروبة شمالاً، وأواسط إفريقية جنوباً، الأمر الذي جعل الحرف العربي سيّد الحروف المكتوبة والمنطوقة في عالم تلك الأيام، فأصبحت اللغة العربية الأهم بين لغات شعوب الأرض قاطبة، وغدت لغة العلم والثقافة والحضارة، فأثرت بذلك في بنيان لغات شعوب عدة ولاسيما لغات شعوب الأمم الكبرى في تلك الحقبة من الزمن، كالفارسية، والتركية، والأوردية، وغيرها، وبلغ هذا التأثير مداه الواسع باستخدام تلك الأمم فيما بعد الحرف العربي في كتابة لغاتهم والتعبير عما يدور في خواطرهم من شؤون العلم والثقافة، وكان تأثير العربية في بعض الشعوب الأخرى أهم كثيراً كشمال إفريقية وأواسطها، فطبعت العربية شؤون العلم والثقافة في تلك الرقعة الفسيحة بطابعها، وهكذا غدت العربية إحدى أهم اللغات العالمية على مسرح العالم القديم، وتبع مراحل القوة والسلطان في الدولة العربية اهتمام أولي الأمر بترجمة مؤلّفات علماء الأمم المتقدمة في ذلك الوقت، واهتمام علماء تلك الشعوب بالعربية لمعرفة مايدور في هذه الدولة الكبيرة العريقة من شؤون التأليف والبحث والبنيان الحضاري ككل، فترجمت كتب الجهتين على أيدي مجموعة من العلماء الكبار من كلا الطرفين،وأصبح للعلم والثقافة أسواق رائجة في حواضر العرب الكبرى، كبغداد، ودمشق، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وقصدت تلك الحواضر من علماء الأمم الأخرى وعلى نحو مستمر، واستمرت مراحل الفتح الإسلامي لبلدان جديدة في بلاد ماوراء النهر، وصقلّية، وبعض الجهات من أواسط القارة الإفريقية.

ثم شكّل سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين صفحة جديدة من صفحات انتشار العربية، فوصلت بذلك

إلى واحدة من أهم المدن الأوروبية الكبيرة الموغلة في الحضارة والقدم، وتبع ذلك سقوط حواضر أخرى كثيرة في شرق أوروبة على أيدي العثمانيين، كصوفيا، واشقودره(١) واسكوبيا، وسرايفو، وبلغراد، وقبرس(٢)، وسالونيك، وغيرها، ووصل العثمانيون إلى قسم كبير من النمسا، وحوصرت فيينا لفترات طويلة وكانت عاصمة لامبراطورية عظيمة في ذلك الوقت ودقت أبوابها بقوة. وأسهم ذلك في وصول العربية إلى تلك البقاع، على اعتبار أنها لغة الدين الإسلامي، وأنه لابد لمن يتّبع هذا الدّين على نحو صحيح من معرفة العربية بشكل سليم، فأقيمت المدارس في تلك البقاع وسواها، وانتشرت العربية انتشاراً واسعاً في معظم تلك المدن، وفي غيرها أيضاً من المدن الأصغر مساحة والأقل شأناً، وبلغ الأمر ببعض أهل العلم من المتنورين، من أبناء تلك المناطق أن فكروا باعتماد الحرف العربي في أبجديات لغات بعض الشعوب البلقانية، تقليداً لما فعله العثمانيون من قبل حين اعتمدوا الحرف العربي في أبجديتهم الشهيرة، وكان من بين أصحاب تلك المحاولات الكاتب رجب فوكا(٣).

أبجدية رجب فوكا للغة الألبانية



الأبجدية الألبانية الحالية مع ما يقابلها من أبجدية فوكا العربية

a	ا	m	م
b	ب	n	ن
c	خ	nj	ـن
ç	چ	o	و
d	د	p	پ
dh	ذ	r	ر
e	اء	rr	ر
ë	z	s	س
f	ف	sh	ش
g	غ	t	ت
gj	گ	th	ث
h	هـ	u	و
i	اي	y	ۆ
j	ي	v	ڤ
k	ق	z	ز
q	ك	x	ظ
l	ل	xh	ج
ll	ڵ	zh	ژ

وهكذا أصبحت العربية لغة عالمية وازداد اهتمام الأوساط العلمية العالمية بها، ونشطت مراكز العلم وقلاعه في عموم أوروبة لدراسة العربية على أيدي فئة من المتبصرين من علماء تلك الشعوب وأبنائها والنظر في أنجح الوسائل لإيقاف مدّ الإسلام الجارف نظراً لما كان يمثله من خطر على حضارتهم وثقافتهم من وجهة نظرهم. وظهرت من بعد ذلك مراكز استشراق في بلدانْ أوروبية مختلفة، أصبح لها أهداف أخرى غير دراسة العربية وشؤون حضارة الإسلام ومايتصل بذلك، فتحولت طلائع المستشرقين من الجيل الثاني إلى مستشارين لحملات عسكرية كثيرة وجُهت إلى بلدان عربية مختلفة (٤)

وأخيراً فعلى الرغم من مراحل الضعف التي أصابت بنيان الأمة في فترات مختلفة، فإنه لا أحد في عالمنا العربي وفي الأوساط العلمية والأكاديمية العالمية ينكر على لغتنا العربية العريقة عالميتها وتأثيرها في لغات عالمية كثيرة، وأنها صاحبة أهم تراث إنساني تتبارى الأمم المتحضرة في اقتنائه، ودراسته، والمحافظة عليه، والاستفادة منه بقدر الإمكان.

الهوامش:

١- وكانت في ذلك الوقت العاصمة الإدارية لألبانيا قبل أن تحتل تيرانا هذا الموقع في العصر الحديث.

٢- هذا الرسم الصحيح لاسم هذه الجزيرة. انظر معجم البلدان (٤/٣٠٥)، وتعرف الآن بـ (قبرص).

٣- انظر على سبيل المثال البحث الذي كتبه الدكتور محمد موفاكو في كتابه "الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية" ص(٤٨-٥٩)، الصادر عن سلسلة عالم المعرفة في الكويت عام ١٩٨٣.

٤- انظر في تفاصيل هذا الأمر ومايتصل به في ما كتبه العلامة محمود محمد شاكر في كتابه الهام "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" الصادر عن سلسلة كتاب الهلال في القاهرة عام ١٩٨٧ ، وهو من أهم الكتب التي يجب على كل مثقف قراءتها. وفي ما كتبه العالم اليوسنوي الفاضل الدكتور أحمد سمايلوفتش في كتابه الهام "فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر" ص (١١٩-١٢٥)، لأنه عرف أهداف المستشرقين وخبرها من الداخل وقص حكايتها على القارئ العربي من خلال كتابه هذا الصادر عن مطابع دار المعارف في القاهرة عام ١٩٨٠.



ندوة اللغة العربية

معالم الحاضر و آفاق المستقبل

دمشق ٢٦-٢٩/١٠/١٩٩٧

د. محمد حسان الطيان

أقام مجمع اللغة العربية بدمشق ندوة للغة العربية عنوانها: "اللغة العربية معالم الحاضر وآفاق المستقبل" شارك فيها نحو من خمسة وعشرين باحثاً من الأقطار العربية الشقيقة، ومن القطر العربي السوري، وحضرها لفيف من العلماء والباحثين من أعضاء مجمع اللغة العربية وأساتذة الجامعة.

وقد عقدت الندوة في قاعة المحاضرات في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق في المدة من ٢٦/١٠/ حتى ٢٩/ ١٠/ ١٩٩٧. واستُهلت بحفل افتتاح تمّ في مكتبة الأسد الوطنية تحت رعاية الدكتورة صالحة سنقر وزيرة التعليم العالي، وكانت الكلمة الأولى فيه للأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق، والكلمة الثانية للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب رئيس المجمع السوداني ممثلاً للوفود المشاركة، ثم ختمت السيدة الوزيرة راعية الندوة بكلمة رحبت فيها بالضيوف العلماء ورجت لهم التوفيق والسداد في ندوتهم.

حدّد القائمون على الندوة مسارَ بحوثها في محاور خمسة هي:

١- مشكلة الأداء في اللغة العربية.

٢- التعريب والمصطلح.

٣- تيسير مباحث العربية.

٤- المعجم العربي.

٥- مستقبل اللغة العربية.

واستجابت البحوث لهذا فتناولت محاور الندوة على نحوٍ استغرقها، وطرح فيها العديد من وجهات النظر، إذ تعاقب على كل محور غير ما بحث، فكان في ذلك غنىً للمحور، وتوسعٌ في مناقشة ما يمكن أن يرد فيه من أفكار. هذا وقد توزعت بحوث الندوة على ستّ جلسات علمية، تمّ في أولها انتخاب الأستاذ

الدكتور شاكر الفحام رئيساً للندوة والأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر مقرراً لها . ثم بدأ إلقاء البحوث المشاركة تباعاً ، وخصص وقت في آخر كل جلسة للمناقشات والمداخلات والتعقيبات.

وسأعرض فيما يلي لعناوين البحوث في كل محورٍ مقتصراً في العرض والتحليل على بحثٍ متخيّرٍ من كل محور منها بما يقتضيه المقام في هذا المقال:

المحور الأول: مشكلة الأداء في اللغة العربية

والمراد من هذا المحور تحديداً أسباب الضعف في أداء العربية الفصحى وبيان أنجع الوسائل للقضاء على هذه الأسباب بغية الوصول إلى سلامة في الأداء وتمكّن من العربية. وقد ألقيت فيه البحوث التالية:

١- مشكلة الأداء في اللغة العربية، أسباب الضعف ووسائل العلاج . للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب رئيس مجمع اللغة العربية في السودان ورئيس مجلس جامعة الخرطوم- من السودان.

٢- مشكلة الأداء في اللغة العربية. للأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر الأستاذ في جامعة دمشق، ورئيس قسم اللغة العربية فيها سابقاً- من سورية.

٣- مشكلة الأداء في اللغة العربية. للأستاذ الدكتور مسعود بوبو رئيس الموسوعة العربية وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق - من سورية.

٤- مشكلة الأداء في اللغة العربية للأستاذ الدكتور محمد مختار ولد أباه أستاذ الدراسات الإسلامية في دار الحديث الحسنية بالرباط- من موريتانيا.

٥- مشكلة الأداء في اللغة العربية. للأستاذ الدكتور محمود أحمد السيد الأستاذ بكلية التربية بجامعة دمشق، والمدير الأسبق لإدارة التربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- من سورية.

٦- مشكلة الأداء في اللغة العربية في المغرب . للأستاذ الدكتور محمد بن شريفة الأمين العام لأكاديمية المملكة المغربية . من المغرب.

٧- الإعلان وأثره في اللغة العربية. للأستاذ الدكتور عصام نور الدين أستاذ العلوم اللغوية بالجامعة اللبنانية – من لبنان.

في محاضرته "مشكلة الأداء في اللغة العربية، أسباب الضعف ووسائل العلاج " تناول الدكتور مسعود بوبو مفهوم الأداء فبيّن أنه لا يقتصر على الإيصال والتلاوة والإتقان وإنما يتجاوز ذلك إلى كل ما من شأنه أن يؤثّر في اللغة العربية نطقاً وكتابةً وتعبيراً، مما يجعل المشكلة تتصدر همومنا العلمية والتعليمية وتمتد حتى تلامس الخطر القومي.ومن ثمّ بحث الدكتور بوبو عن أسباب المشكلة وحاول تحديدها موسّعاً من دائرة هذه الأسباب ومخرجاً لها عن حيز الاقتصار على المدرسة أو الجامعة أو التعليم عموماً ، فهو يشرك كل هذه المؤسسات بالمسؤولية ويبرز جانباً آخر له تأثير كبير في ضعف الأداء وهو غياب الحافز القديم على إتقان العربية، فقد كانت العربية مطلباً حيوياً أثيراً... وكان تحصيلها استجابة لمتطلبات العقيدة الإسلامية ، وهو خير سبيل لصون لغة القرآن من فساد الألسنة.

وبعد ذلك عرض الدكتور بوبو لمحاولات التجديد والتيسير في النحو قديماً وحديثاً وأشار إلى أسلوب

تناول المادة العلمية الذي يجري بطريقة إلقائية أو إملائية تلقينية كالقوالب الثابتة من جهة المدرّس، وحفظية خالصة من جهة المتعلّم، من غير حوار أو محاكمة أو استفسار، وبمعزل عن التذوق وتفجير الطاقات الكامنة... وجعل من أسباب الضعف في الأداء أيضاً تأثر بعض الأقطار العربية لغوياً بالاستعمار ، وازدحام بعض الأقطار بالدخلاء الأجانب:

" في هذا المضطرب زاحم العربية الدخيلُ واللغات الهجينة والتعدّد اللغوي فوق ما تعانيه من ازدواج لغوي وجهل وأمية أحياناً ، فخفت جهارة صوتها القديم"

ثم عرض الباحث لمظهر من أعظم مظاهر هذا الضعف في الأداء يتجلّى في وسائل الإعلام، حيث مثّل بأمثلة عملية تبدّى فيها مبلغ الجناية على العربية لدى بعض العاملين في الإعلام: " فإنّ هناك ضعفاً ملحوظاً في الأداء اللغوي الإعلامي: قراءة، وإلقاءً، وصياغة أخبار وافتتاحيات، وتعليقات، وتحقيقات، ضعف يصل حدود الخطأ في القرآن الكريم...".

ولم يغفل الباحث ما للحكومات والهيئات والمؤسسات العلمية من عناية باللغة القومية تبدّت في إقامة ندوات واجتماعات ومحاضرات وبحوث، ومواجهة الغزو اللغوي بالحدّ من تفشّي التسميات الأجنبية.

وقد أشار إلى الإجراءات التنفيذية التي تفرض العقوبات على المخالفين معتبراً هذه الإجراءات محرّضاً لفعل شيء في طريق صون لغتنا ، وداعياً إلى عدم قصر المسألة على جهة معينة، بل لابدّ من تحمل المسؤولية كاملة واشتراك كل المؤسسات (العلمية وغير العلمية) في هذه المسؤولية.

هذا وقد ختم الدكتور بوبو بحثه بجملة من الحلول نشير إلى أبرز ما جاء فيها:

١- البدء بحملة لتعميم القراءة في خطة منهجية شاملة.

٢- إخراج الكتب التعليمية مشكولة الكلم، والحرص على تخيّر النصوص فيها، مما يمتع ويفيد من القديم والحديث، مع تعزيز منهج حفظ النصوص.

٣- العمل على إرساء تقاليد الأداء اللغوي السليم في المؤسسات والإعلام، وتعميم الخطاب بالعربية الفصيحة قدر الإمكان، وتدريب الأجيال على ذلك.

٤- التركيز على النحو الوظيفي، واستقراء النصوص واستخلاص الأحكام بالتأمل والمحاكمة لا بالوعظ والعقاب.

٥- إخضاع فكرة تسهيل النحو لضوابط موضوعية حتى لا يؤول الأمر إلى التخلّي عن أصالة العربية وأسسها.

٦- إخضاع الكتب والمناهج التعليمية إلى اختبارا وتقويم، وعقد دورات جادّة مطولة للمدرّسين بغية إعدادهم الإعداد المطلوب، والتركيز على التكامل في تحصيل العربية، نحواً وصرفاً وبلاغة وإملاءً وأساليب....

٧- قصر التجديد اللغوي أو التطور اللغوي على أرباب اللغة العالمين بها.

٨- الإقبال على استخدام التقنيات الحديثة كالحواسيب والمخابر اللغوية وبرامج المعلوماتية الحديثة في الترجمة وتخزين المعاجم أو تصنيف القواعد....

المحور الثاني : التعريب والمصطلح

تناول هذا المحورَ بحوثٌ أربعة هي:

١- المصطلح العربي في عصر العولمة: للأستاذ الدكتور أحمد محمد الضبيب- من المملكة العربية السعودية.

٢- نحو منهجية للتعريب اللفظي . للدكتور ممدوح خسارة المدرّس في جامعة الكويت- من سورية.

(وقد اعتذر عن عدم الحضور ولكن بحثه وزّع على المشاركين).

٣- التعريب والمصطلح . للأستاذ شحادة الخوري الخبير السابق في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- من سورية.

٤- من تاريخ التعريب والمعرّب : تقريب الشيخ طاهر الجزائري - تهذيب الدكتور أحمد عيسى للأستاذ الدكتور عزّ الدين البدوي النجار- من سورية.

في بحثه "المصطلح العربي في عصر العولمة" نبّه د. أحمد الضبيب على الخطر المحدق بالعربية في عصرنا هذا عصر العولمة (Mondialisation ويقصد بها جعل الشيء في دائرة اهتمام العالم أجمع وفي متناول أهله أجمعين)، ليعالج الجانب الأكثر خطورة وهو المصطلح العربي، داعياً إلى مواجهة هذا السيل الجارف من المصطلحات الدخيلة باستنفار قدرات لغتنا العربية في كلّ مجال قبل أن نستقبل الدخيل ونضمه إلى معجمنا اللغوي.

وقد استعرض جملة من الجهود التي بذلها علماء عصر النهضة وخالفوهم من المجمعيين، وهي جهود تراوح بين دعوة إلى إحياء المصطلح العربي القديم، وتساهل وتوسع في استعمال الدخيل، ليخلص إلى أن الاتجاه عند معظم المتأخرين يسير نحو الترجمة الحرفية والتعريب دون تتبع للأصيل من الألفاظ في ثنايا كتب التراث، وضرب لذلك أمثلة، اقتصر على واحد منها وهو مصطلح ورد في معجم مصطلحات النفط ونصته:" ادفع وتسلم " ترجمة للمصطلح الإنكليزي: Caccy Cash and . يقول:" وعندي أن هذه الترجمة الحرفية لا تجري على العرف العربي، بل إن العجمة بادية عليها وكان بالإمكان ترجمة المصطلح "بالمناجزة" وهو مصطلح يستعمله فقهاء المالكية في أبواب المعاملات المالية، ويعنون به قبض العوض عند العقد . ويقول العرب: بعته ناجزاً بناجز أي يداً بيد....".

مما يؤكد أن الترجمة - إن وجدت- يمكن أن تعدّ مرحلة أولى يلجأ إليها كسباً للوقت ولا بد أن تتبعها مرحلة تالية يردد العلماء والمختصون واللغويون النظر فيما ترجم من مصطلحات كي يصوبوا ما قد يكون اعتورها من قصور، ويضعوها في مكانها من اللغة العربية السائغة، فالمصطلح الأصيل المستمد من التراث أو ذلك المسكوك بالوسائل المتاحة للغة من قياس أو اشتقاق أو مجاز يجب أن يكون الهدف الأسمى لوضع المصطلح العربي.

يعرض الباحث بعد ذلك للشبهات التي واجهت هذا النوع من المصطلح الذي يدعو إليه فيناقشها واحدة واحدة مفنّداً ما جاء فيها من ادعاءات لا تثبت عل النظر.

ويختم بحثه بربط مشكلة المصطلح بمشكلة أكثر خطورة وأشد تأثيراً وهي مشكلة البحث العلمي الذي لم يأخذ بعد مكانه اللائق به عندنا. ثم يوصي بأمور أبرز ما جاء فيها:

١- بثّ الوعي اللغوي بين أبناء الأمة وإيقاظ غيرتهم على اللغة.

٢- إنشاء مؤسسات متخصصة في حقول الترجمة تشبه بيت الحكمة العباسي.

٣- تكوين أجيال من العلماء مزدوجي اللغة تمكنوا من ناصية العلم ومن اللغتين العربية والأجنبية .

٤- تيسير المادة اللغوية العربية بتصنيف التراث اللغوي في كل العلوم حسب المعاني والاستعانة بالحاسوب لتذليل ذلك.

المحور الثالث: تيسير مباحث العربية:

النحو، والصرف، والبلاغة، والعروض، والإملاء

تناول هذا المحورَ بحوثٌ تسعةٌ هي:

١- إحياء العروض . للدكتور محمد حسان الطيان مدرّس اللسانيات في جامعة دمشق والباحث في مركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق.- من سورية.

٢- العروض بين اللسانيات والإيقاع . للدكتور إسماعيل الكفري رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دمشق (سابقاً) - من سورية.

٣ - تيسير البلاغة. للأستاذ الدكتور أحمد مطلوب الأمين العام للمجمع العلمي ببغداد- من العراق.

(وقد وزّع البحث على المشاركين دون أن يلقى لاعتذار الأستاذ الباحث عن الحضور).

٤- نحو تيسير قواعد اللغة العربية. للأستاذ الدكتور أحمد حامد عضو مجمع اللغة العربية الفلسطيني ببيت المقدس- من فلسطين. (وقد وزّع البحث على المشاركين دون إلقاء أيضاً لتخلّف صاحبه عن الحضور).

٥- تيسير مباحث النحو والصرف. للأستاذ الدكتور سامي عوض رئيس قسم اللغة العربية بجامعة تشرين باللاذقية- من سورية.

٦- نظرات في قواعد الإملاء العربية. للأستاذ الدكتور عمر الدقاق رئيس اللغة العربية بجامعة حلب (سابقاً) - من سورية.

٧- إعادة صوغ قواعد العربية. للأستاذ يوسف الصيداوي الباحث المعروف وصاحب البرنامج التلفزيوني (اللغة والناس) - من سورية.

٨- إعادة بناء مفاهيم النحو. للأستاذة الدكتورة حورية الخياط أستاذة طرائق تدريس اللغة العربية بكلية التربية بجامعة دمشق- من سورية.

٩- العلل التعليمية وأهميتها في النحو العربي. للدكتور سعد الكردي مدرس النحو والصرف بجامعة البعث بحمص - من سورية.

ونظراً لكثرة بحوث هذا المحور فسأعرض لاثنين منها:

الأول بحثي " إحياء العروض" الذي مهّدتُ له بعرض أسباب صعوبة هذا الفن، فذكرت منها:

١- إغفال الصلة بين العروض والموسيقا والنغم والإيقاع.

٢- التوسل إلى تقطيع الأبيات بوضع الإشارات المختلفة التي تمثل المتحرك والساكن ولا تفيد شيئاً في معرفة الوزن.

٣- ربط تعلم العروض بفهم البحور التي لا تجدي شيئاً في تيسير معرفة الوزن.

٤- مواجهة الطالب بحشد من المباحث والمصطلحات العروضية المتداخلة.

٥- البدء بالصعب من البحور والتدرج نحو الأسهل.

ثمّ بيّنت أن في تجنب أسباب الصعوبة هذه تيسيراً لتعليم العروض وتذليلاً لكثير من العقبات المعترضة طريقه، وأوليت السبب الأول اهتمام البحث الأساسي فحاولت أن أعيد الصلة القديمة بين العروض والغناء من جهة، وبين العروض والإيقاع من جهة أخرى.

أمّا الغناء أو النغم فقد أوضحت أن كل بحر من بحور الشعر المشهورة يمكن أن ينطبق على أغنية محفوظة أو أكثر، فيغنّي كما تغنّي، أو ينطبق على نشيد محفوظ فيُنشد كما يُنشد، ومن ثمّ تكون هذه الأغنية أو النشيد بمنزلة المفتاح لهذا البحر، فإذا ما حاول الطالب أداء بيت من الشعر ينتمي إلى هذا البحر على لحن تلك الأغنية طاوعه اللحن وانقاد له الغناء ، وإذا كان البيت من بحر آخر تأبّى عليه اللحن ولم ينقد له الغناء. وقد ضربت مثالاً على ذلك بالبحر المتدارك الذي يمكن أن ينطبق على لحن قصيدة " يا ليلُ الصبّ" بأداء فيروز ، أو لحن قصيدة " مضناك جفاه مرقده" بأداء الموسيقار محمد عبد الوهاب، أو لحن قصيدة" يا صاح الصبر وهى مني" بأداء الأستاذ صباح فخري.

وأما الإيقاع فيقتضي أن نقابل كل حرف متحرك بنقرة، وكل حرف ساكن بعدم النقرة، فإذا تتابعت الحروف المتحركة تتابعت النقرات ، وإذا جاء الساكن انقطعت، فتفعيلة: (فاعلن) تقابلها النقرات: تك تتكْ، و (فعولن) تقابلها : تتكْ تكْ وهكذا. وما أيسر أن نطبّق ذلك على البيت التالي:

زرنـــا يومـــاً قومـــاً عُرُبـــاً   قـــالوا أهـــلاً ســـهلاً رحبـــا

تكْ تكْ تكْ تكْ تكْ تكْ تكْ تـكْ   تكْ تكْ تكْ تكْ تكْ تكْ تكْ تـكْ

ولا يقتصر الإيقاع على معرفة تقطيع البيت- بعد معرفة بحره غناءً- وإنما يعين إلى ذلك على تحديد ما اعتراه من جوازات، وما أصابه من علل وزحافات.

والبحث الثاني الذي سأعرض له في هذا المحور هو بحث الأستاذ يوسف الصيداوي:" إعادة صوغ قواعد العربية" الذي قصد منه إلى قراءة تراثنا النحوي واستلال القاعدة منه خالصة " من كل ما يحيط بها من تشعب الأراء وكلّ ما يلابسها من التحيز لهذا المذهب أو ذاك . ثم إعادة صوغها بأسهل الألفاظ وأقربها وصولاً إلى العقل. وهو عمل شاقّ طويل، وجهد مبارك عظيم، أمضى الباحث فيه نحواً من خمس سنوات، انقطع فيها إليه انقطاع المستغرق المفتون- على حدّ تعبيره- ثم بيّن مخطط عمله مشيراً إلى أنه كسر كتابه على ثلاثة أقسام:

الأول: فيه قواعد العربية، خالصةً من كل ما عداها وسماه (الكفاف) ليطابق اسمه مسمّاه.

والثاني : نماذج فصيحة، تلحق بكل بحث، بيّن فيها موضع القاعدة، وبسطها.

والثالث: تبينّ لما استرشد به من المعالم والصُّوى، في ذهابه نحو القاعدة، ودفاع عن تجنبه ما تجنب ، وأخذه بما أخذ، مع ذكر للمصادر والمراجع. وسمّاه (الصُّوى إلى الكفاف).

وعرض الأستاذ الباحث لخمسة نماذج من كتابه ، نقتصر هنا على واحد منها وهو (المستثنى بـإلاّ) فنيه منبهةً على ما وراءه:

* المستثنى اسم يذكر بعد (إلاّ) مخالفاً ما قبلها نحو: (جاء الطّلاب إلاّ خالداً).

وهو منصوب قولاً واحداً، غير أنه إذا سبقه نفي أو شبهه، جاز مع النصب، إتباعه على البدلية مما قبله.

حُكمان:

الأول: قد يتقدم المستثنى على المستثنى منه، نحو: (لم يسافر إلاّ خالداً أحدٌ).

والثاني : قد يأتي المستثنى ولا صلة له بجنس ما قبله ، نحو : (وصلَ المسافرُ إلاّ أمتعتَه).

تمّ البحث فهذه هي قواعد المستثنى بـ (إلاّ) تامّةً.

المحور الرابع: المعجم العربي

رمى هذا المحور، كما جاء في نصّ ما تدور حوله الندوة من محاور، إلى وصف المعجمات المتوافرة في الوقت الحاضر، وبيان ما فيها من مآخذ، ووضع مشروع معجم عربي حديث يفي بجميع المتطلبات.

وقد تناول موضوع هذا المحور بحوثٌ أربعة وهي:

١- المعجم العربي. للدكتور جورج متري عبد المسيح المشرف على القسم العربي في دائرة النشر والمعاجم في مكتبة لبنان. من لبنان.

٢- المعجم اللغوي المنشود بين معاجمنا القديمة والحديثة. للأستاذ محمود فاخوري أستاذ النحو والصرف في قسم اللغة العربية بجامعة حلب- من سورية.

٣- المعجم العربي اللااشتقاقي. للأستاذ الدكتور عبد الإله نبهان الاستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة البعث في حمص - من سورية.

٤- المعجم الحاسوبي للعربية. للأستاذ مروان البوّاب رئيس مجموعة اللغة العربية في المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا بدمشق- من سورية.

ولما كان هذا البحث الأخير مشتركاً بين المحور الرابع والخامس فسأقتصر في العرض عليه بعد ذكر بحوث المحور الخامس.

المحور الخامس : مستقبل اللغة العربية

والمراد من هذا المحور دراسة وسائل تحديث اللغة العربية، واستغلال الإمكانات التقنية، ومنها الحاسوب ، لتستطيع هذه اللغة مسايرة التطور العلمي والتقني المتسارع.

وقد تناول موضوع هذا المحور بحوثٌ أربعة وهي:

١- اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين. للأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة- من مصر.

٢- الحاسوب في خدمة اللغة العربية. للأستاذ الدكتور محمد مراياتي مدير المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا بدمشق (سابقاً) - من سورية.

٣- المعجم الحاسوبي للعربية. للأستاذ مروان البوّاب.

٤- أبواب الفعل الثلاثي. دراسة لغوية تحليلية إحصائية باستخدام الحاسوب . للأستاذ الدكتور محمد جواد النوري نائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني ببيت المقدس- من فلسطين.

وهذا أوان الكلام على المعجم الحاسوبي.

عرّف الأستاذ الباحث مروان البوّاب المعجم الحاسوبي بأنه معجم للغة العربية يعمل بالحواسيب الشخصية على اختلاف أنواعها ، يحتوي على بيانات وجداول وقواعد تمكنه من عرض جميع المعارف المعجمية بسهولة ويسر، كما تمكن من إجراء عمليات بحث متنوعة . فهو بذلك يلبّي حاجة المعلمين والمتعلمين، والمختصين ، وغير المختصين على حدٍّ سواء.

ثم ذكر الأستاذ الباحث أهم مزايا هذا المعجم ، فمن ذلك : تضمنه جميع المعجمات المطبوعة، وقدرته على تصريف الأفعال والأسماء في جميع حالاتها الصرفية، وإيراده جميع المفردات القياسية والسماعية ، واعتماده في عرضه للمعارف اللغوية على الوسائل الحاسوبية الحديثة Multmedia، ومما يمتاز به أخيراً سهولة التعامل وسرعة الأداء.

أما ما يتعلق بالنقاط التي ينبغي مراعاتها عند أعداد المعجم الحاسوبي ، فقد عرض الأستاذ الباحث ثلاث نقاط هي:

١- حسم أوجه الخلاف بين المعجمات، واعتماد الراجح واستبعاد المرجوح.

٢- استغراق المعجم جميع مواد العربية، والشواهد والأمثلة والتراكيب اللغوية والعبارات الاصطلاحية.

٣- تحديد المعارف الصرفية والنحوية والدلالية ، كلزوم الفعل وتعديته، ونوع الكلمة، وجموع التصحيح والتكسير، والاستعمال الصحيح للكلمة.

ثم ختَم البحثَ بعرض إحصاء للأفعال العربية في المعجم الحاسوبي، ذكر فيه طائفةً من النتائج الإحصائية تعكس دقة العمل في هذا المعجم وجانباً من وجوه الإفادة منه.

لقد أتت بحوث الندوة أكلها على خير وجه، إذ عرضت لكل ما جاء في محاور الندوة من موضوعات،

وكان الخير كل الخير في تعاقب أكثر من بحث على موضوع واحد، إذ أتاح المزيد من الإغناء وتعدد وجهات النظر، ومن ثم الخروج بمقترحات تغطي جميع الجوانب المطروقة. ولا شكّ أن في اجتماع هذا اللفيف من العلماء والباحثين على اختلاف أوطانهم وثقافاتهم ومواردهم النفعَ العميمَ للعربية في حاضرها الزاهر ومستقبلها المشرق.

وبعد انتهاء أعمال الندوة عقدت جلسة ختامية للمقررات والتوصيات ترأسها الأستاذ الدكتور شاكر الفحام نوقشت فيها التوصيات والمقترحات التي انتهت إليها الندوة ، وفيما يلي نصها الكامل:

أولاً :توجيه الشكر العميق إلى مجمع اللغة العربية والقائمين من أعضائه بتنظيم الندوة تقديراً للجهود التي بذلت في الإعداد للندوة وتنظيمها.

ثانياً : يسعى مجمع اللغة العربية بدمشق بالتعاون مع اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في تأليف لجنة من كبار المختصين في البلاد العربية مهمتها تأليف مرجع ميسر لقواعد النحو والصرف والإملاء بمعزل عن تشعب الآراء والتعقيد ، ثم إخراجه في طبعة رخيصة الثمن ليكون في متناول الناشئة والطلاب.

ثالثاً : يسعى مجمع اللغة العربية بدمشق بالتعاون مع اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في تأليف لجنة من المختصين بالتراث العربي لوضع كتاب يضم مختارات من كتب التراث موزعة على جملة المعارف الإنسانية لتعريف الباحثين والطلاب بعيون التراث العربي. وإصدار هذا الكتاب في طبعة رخيصة ليكون في متناول المعنيين بالتراث العربي.

رابعاً : بذل مزيد من العناية في أعداد مدرس اللغة العربية، وتقويم أساليب تعليم اللغة العربية باستغلال الوسائل التقنية الحديثة والوسائل السمعية والبصرية ، وإقامة ندوات لمدرسي اللغة العربية تطلعهم على أنجع طرق التدريس وتدريبهم على استعمالها.

خامساً : السعي في جعل اللغة العربية المبسطة تعلم في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية وتشجيع الأطفال على استعمالها والتماس الوسائل المعينة على تعليمها لهم. وكذلك تشجيع الطلاب في المراحل الثانوية والعالية على استعمالها.

سادساً : السعي لدى وزارة الإعلام في الأقطار العربية ولدى المسؤولين فيها لتوجيه مؤلفي المسلسلات والمسرحيات المذاعة أو المتلفزة إلى استخدام اللغة العربية المبسطة فيما يؤلفونه، وكذلك الحد من طغيان العامية في الإعلانات التي تنشر في الصحف أو تعلن في الشوارع.

سابعاً : إلزام المحال التجارية والمطاعم ودور الملاهي والمؤسسات العامة والخاصة وغيرها باستعمال الألفاظ العربية في تسمية محالّهم وعدم اللجوء إلى اللغات الأجنبية.

ثامناً : مطالبة الحكومات العربية باتخاذ القرارات التنفيذية الحاسمة بتعريب التعليم العالي والجامعي تعريباً كاملاً . دون إغفال إلزام الطلاب في مختلف الكليات والمعاهد العلمية بتعلم إحدى اللغات الأجنبية الحية.

تاسعاً : توجيه المعلمين والمدرسين في مراحل التعليم كافة إلى استخدام اللغة العربية المبسطة في مختلف المواد الدراسية لدى إلقائهم دروسهم ومحاضراتهم، وتشجيع طلبتهم على استخدامها.

عاشراً : حث المجامع اللغوية العلمية العربية على بذل مزيد من العناية في وضع المصطلحات العلمية والتقنية وفي مختلف مناحي المعرفة باستخدام المنهجية السليمة في وضعها واستخدام جميع الطرائق المتاحة كالاشتقاق والوضع والتعريب والنحت وغيرها.والسعي في توحيد هذه المصطلحات بالتعاون مع اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، ثم إصدار هذه المصطلحات الموحدة في كتب أو نشرات توزع على أوسع نطاق ولا سيما وزارات الاعلام مع التماس الوسائل الكفيلة باستخدام هذه المصطلحات في جميع المؤلفات والكتب المترجمة ووسائل الإعلام المختلفة.

حادي عشر: أن يعمل اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في إصدار معجم اشتقاقي حديث يفي بجميع المتطلبات على أن يراعى فيه سهولة المراجعة وتطور دلالات الألفاظ واستقصاء ما أقرّ من المصطلحات الموحدة وفاءً بحاجة الباحث المعاصر.

ثاني عشر: الاستفادة من الحاسوب والوسائل التقنية الحديثة في المجامع العربية واتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية لاختزان جميع الألفاظ العربية والمصطلحات والمواد المعرفية وتسجيلها في الاسطوانات والحافظات وأجهزة التسجيل لتمكين الباحثين من الاستفادة منها بطريقة ميسرة سريعة.

ثالث عشر: السعي في إصدار معجمات متخصصة في مختلف العلوم والمعارف وكذلك إصدار معجم تاريخي يبين تطور دلالات الألفاظ منذ العصور القديمة حتى الوقت الحاضر.

رابع عشر: دعوة المجامع اللغوية العلمية العربية إلى متابعة عقد ندوات حول اللغة العربية تعالج مشكلاتها ومستقبلها

خامس عشر: إيصال توصيات هذه الندوة إلى المسؤولين في الأقطار العربية كافة ومناشدتهم السعي في إنفاذها.

سادس عشر: جمع بحوث هذه الندوة وإصدارها في كتاب يوزع على أوسع نطاق لتتم الاستفادة منها.

سابع عشر: توجيه الشكر إلى الحكومة السورية لعقدها هذه الندوة في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق وتحملها نفقاتها وعنايتها باللغة العربية وسعيها في ارتقائها، وتوجيه برقية شكر إلى القائد حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية لرعايته الكريمة للغة العربية وعلمائها.

إنّ ما بذله مجمع اللغة العربية بدمشق من جهودٍ في سبيل عقد هذه الندوة والعمل على إنجاحها ، والسهر على متابعة بحوثها وتوزيعها كاملة على جميع المشاركين قبل إلقائها لخليق بالثناء والتقدير ، كيف لا وقد استنفر في سبيل ذلك كل الجهود، واستنفر كل الطاقات، بدءاً برئيسه الأستاذ الدكتور شاكر الفحام ونائبه الدكتور إحسان النص وأعضائه الموقرين، وانتهاء بكل عامل فيه، فلهم جميعاً كل الشكر على ما بذلوه خدمة للعربية وصوناً لها، وإبقاءً على رايتها خفاقة عالية في دنيا العروبة والإسلام.

❖❖❖



عالمية الخط العربي

معصوم محمد خلف

الخط العربي من أجمل فنون العرب والمسلمين، فالكتابة العربية التي تتميز بحروف [illegible] طيعة ولينة في تعاملها مع الخطاط، هي بالطبع طبيعية في تعاملها مع الشعوب التي اتخذت من أشكال الكتابة العربية منهجاً ثقافياً لها. والذي عزز ذلك اتخاذها الإسلام ديناً تهتدي به.

فهو الانطلاقة الأولى للمسلمين الأوائل الذين فتحوا البلاد والأمصار، ينشرون الدين الإسلامي الحنيف في كل بقاع الأرض ومعهم لغتهم العربية السامية التي تمكنت من زرع جذور الإبداع والخصوصية لهذه الرسالة الخالدة. فقضت على كثير من اللغات وحلّت محلها وأصبحت هي اللغة الرئيسية التي استخدمها أهل البلاد الأصليون، فكتب بها الإيرانيون والسلاجقة والعثمانيون والأكراد والطاجيك والأوزبك وأهل بلاد الحبشة وكشمير وغيرهم.

وإنّ مجموع حركة الخط وما يتولد عنها من إشعاع موسيقي مطابق لشاعرية ساعية نحو اللامرئي كل ذلك يحدد إيقاع النص بالنسبة ليد الخطّاط المبدعة.

وقد استطاع هذا الفن أن يملك قيمة جمالية وتشكيلية عالية، إضافة إلى كونه قيمة تعبيرية. وهذا ما رمى إليه "الصولي" عندما قال: ومن فضل حُسن الخط أن يدعو الناظر إليه إلى أن يقرأ وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول".

وهو أجمل خطوط لغات الأرض كلها. واللغة العربية أجمل لغات الإنسان وحسبها جمالاً وشرفاً أن اختارها الله سبحانه وتعالى لغة الوحي ولغة القرآن الكريم ولغة النبوّة الخاتمة.

والخط العربي هو وعاء الأدب فيزيده رونقاً وجمالاً فهو يحمل جميع العناصر الفنية ويضم جمالاً إلى جمال ورونقاً إلى رونق،

إنه فن رائع ملتصق باللغة العربية، غني بالبهاء والرواء، وقد يرى بعضهم أنه باب من أبواب الرسم. ولا شك أن له صلة بالرسم ولكنه باب متميز عن أي باب من أبواب الرسم الأخرى، ذلك لأن الخطاط لا يملك في يده غير القلم البسيط وهذا القلم مسطرته وهو قسطاسه الذي يعيّن به أحجام الحروف، فهذا القلم يقوم بأداء كل وظائف الآلات الأخرى التي يمتلكها الفنانون في سائر الفنون الأخرى.

فهو يتميز بوظيفته وطبيعته وارتباطه بأشرف لغة وأكرم أدب وكأنه أصبح بهذا الارتباط جزءاً من الأدب، وإذا لم يره بعضهم شكلاً من أشكال الأدب فهو باب من أبواب اللغة العربية، خاص باللغة ذاتها. فهو تاج الفنون الإسلامية ومرتكزها.. تزدوج فيه المعاني بالأشكال وتأتلف فيه الحكمة بالفن وتجتمع فيه الفائدة بالجمال.

ويؤكد الشاعر الفنان خالد الفيصل بن عبد العزيز، أن أول ما يميز مسيرة الحرف العربي أنها رحلة وجدانية يستشعر المتتبع لها دفء الإيمان، وتوهج الرسالة وصدق الانتماء فالحروف ليست قطعاً جامدة ولكنها كائنات حية تنبض بمشاعر الفنان المسلم وتعكس إصراره وتفانيه لتحقيق أعلى درجات الإتقان والإحسان، فالحروف لا بد أن ترتقي إلى مستوى التعبير عن الرسالة، رسالة الخلاّق البديع إلى الناس أجمعين.

لقد نقل عن خليفة رسول الله، عمر بن الخطاب، رضي الله عنه قوله: إن الرّجل ليكلمني في الحاجة فأرده عنها وكأنني أقضم حبّ الرّمان الحامض، لبغض استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب، فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه".

وردّ الوالي عبد الله بن طاهر، مظلمة أحدهم لأنها لم تستكمل نفسها في خط جميل وكتب:

/أردنا قبول عذرك فقطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطّك، ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك، أو ما علمت أن حُسن الخط يناضل عن صاحبه ويوضح الحجة ويمكّنه من درك الغاية/.

والإمام الشيخ محمد عبده يقول: "إذا كان الرسم ضرباً من الشعر الذي يرى ولا يسمع، والشعر ضرباً من الرسم الذي يسمع ولا يرى، فالخط هو اليد الشاعرة التي تسمع وترى".

من هذه الشواهد يتضح لنا أن الأقلام نظام للأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

وقالوا: إن القلم أحد اللسانين، وهو المخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، من معان معقودة بحروف معلومة مؤلفة مسموعة، ولا ألسن محدودة، ولا حركات ظاهرة، خلا قلم حرّف باريه قطته ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليردّ ما انتشر عنه إليه، وشقّ رأسه ليحتبس المداد عليه، فهنالك استمد القلم بشقه ونثر في القرطاس بخطه حروفاً أحكمها التفكير، وجرى على أسلته الكلام الذي سداه العقل، فلفظته الشفاه ووعته الأسماع من أنحاء شتى من صفات وأسماء.

يقول فيلسوف علم الاجتماع ابن خلدون: إن السمع أحد الأسس لتعلم اللغات. إذ عن طريقه ينغرس الحس اللغوي السليم ليصبح ملكة طبيعية في الإنسان، وسبيل ذلك غرس الإيقاع لدى المتعلم وذلك يحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا يفيد حصول الملكة بالفعل في محلها".

فحين تروح العين تتأمل ذلك الانسياب العذب للخط التعليقي الفارسي، وكأنه سيلٌ من ندى، أو تتأمل الخط الثلثي الذي ثبت على مر العصور كأحسن خط تزييني كأنه بحر لا حدود له من القوة والاحتشام والعظمة والكبرياء الذي ينطلق منه، أو تتأمل الخط الديواني، ذلك الإبداع السلس الذي يلتف على ذاته وكأنه يريد الرجوع إلى الدائرة حيث ولادته. حين يتم ذلك تنفتح أمامنا نافذة تطل على أفق بعيد، ويأخذنا التأمل إلى الداخل.. داخلنا نحن كبشر، وقد قالوا:

إن الخط توقيف من عند الله جلّ وعلا. واستفاد البشر منه لتركيب حروفه عن طريق العقل البشري.

وقد فسّر هذه النظرية عمر بن عتبة بقوله /العقل عقلان/ عقل تفرّد الله بصنعه وهو الأصل. وعقل يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع، فإذا اجتمعا قوّى كل منهما صاحبه، تقوية النار في الظلمة للبصر، واجتماع العقلين ألف عند الناس وأقرب للواقع فإنهم يبتغون دائماً تقوية العقل الموهوب، بما يكتسب من ممارسة واستفادة من تجربة وتكرار حصل علم الكتابة الذي نسميه الخط.

يقول الأستاذ محمد طاهر الكردي المكي في كتابه القيم. تاريخ الخط العربي وآدابه:

إن الخط ملكة تنضبط بها حركة الأنامل بالقلم على قواعد مخصوصة وهذه الملكة تتزين بالتعليم وتقوى بالتمرين والاجتهاد. وليس كل خطاط قابلاً لأن يكون خطاطاً وإنما البعض دون البعض، إذ أنه من أدق الأشكال الهندسية. وحسن الخط كائن في بعض الأفراد كمون النار في الحجر، لما وهبه الله تعالى من الاستعداد الفطري. فإذا ما اشتغل به نبغ نبوغاً عظيماً من غير كبير عناء ومن لم يكن فيه هذا الاستعداد الفطري لتحسينه فلا يرجى له النبوغ والوصول إلى غايته، مهما بذل فيه من الجهد وصرف من الوقت، لكن قد ينال فيه قسطاً لا بأس به، إذ لكل مجتهد نصيب، ولكن نصيبه هذا لا يرفعه إلى الدرجة التي يصح أن يطلق عليه فيها لفظ /خطّاط.

أما الحداثة في الخط ليس جديداً، (كذا) فالتحديث هو قلب تربة التراث وغرس بذور جديدة محلية وعالمية ومبتكرة بحيث تتحلل العناصر الآيلة للفساد مع أن العناصر التي يترتب منها الخط العربي غير فاسدة ولا يمكن أن يتحول في يوم من الأيام إلى شيء ثانوي ولكن لشدة صعوبتها يلجأ بعض الإخوة الخطاطين إلى اختراع نماذج معينة باسم الحداثة، فتبقى أقل درجة من القواعد الأساسية المعروفة التي أرسى دعائمها خطاطونا الأسلاف.

وفي هذه المرحلة يتدخل الوعي البشري بالإرادة والتوجيه والانتقاء تدخلاً يهدف في النهاية إلى تحرير طاقات التفكير والتخييل والتعبير توصلاً إلى إبداع طريف وابتكار جديد جريء يتجاوزان مشارف الفن إلى الإنسان، بما هو فرد ومجتمع ومشروع حضاري ينمو بذاته، نحو بحر من الإبداع.

فالحداثة في الخط هي تجاوز وتوغل في شيء جديد يتم خلاله الاستفادة من الأشكال المستحدثة مما يجعل الخطاط يتلذذ ببعض الحرية بينما لا يمتلك القدر نفسه من الحرية والتجاوز فيما يختص بالالتزام بجوهر القواعد المنصوص عليها.

ونظراً لقابلية الحرف وطواعيتها فهي قادرة على أن تحتفظ بالجمالية مهما كانت صورتها، شريطة أن توفر الحرية الكاملة للحرف والاستقامة الموازية لبعض الحروف التي تشترك في الصورة والحجم. فقد قامت الكوفة بتحديث الصورة المربعة وابدعت فيها حتى عرفت بها، كما ساهمت في تحديث الخط الدائري الذي استعمل في التدوين العادي. وكان للبصرة خطها اللين ونافست فيه الكوفة. وانتقلت الحداثة بالخط إلى دمشق في عهد الأمويين. ونال الخط نصيباً من التحديث في شمال الشام وعرف به خط النسخ في صورته المعروفة لنا الآن.

وأول من اشتهر بحسن الخط من كتاب الدولة الأموية /قطبة المحرر/ وكان أكتب أهل زمانه وهو الذي بدأ بتحويل الخط العربي من الشكل الكوفي إلى الشكل الذي هو عليه الآن، وينسب إليه اختراع أربعة أقلام جديدة في مقدمتها القلم الجليل وقلم الطومار.

كما قام الخطاط التركي أحمد قره حصاري الذي ولد سنة ٨٧٣هجرية، وهو تلميذ الخطاط أسد الله الكرماني الذي سار على طريقة ياقوت المستعصمي ولكنه /وأعني الخطاط قره حصاري/ جمع بين قواعد شيوخه الذين أخذ منهم فاستنبط طريقة خطية خاصة به، تجمع ما اختلف فيه من الخصائص والطرق التي بدأ بها أولاً فاختلف عن طريقة الشيخ حمد الله الأماسي بعض الشيء.

وقد تميز هذا الخطاط بخطه الجلي وأخذ قلمه به وبرع في كتابته، وتشهد له آثاره الخطية بطول باعه وعلو منزلته، تمثلها كتاباته في جامع السليمانية. قال عنه المجوّدون الأتراك إنه يتبوأ المنزلة الخامسة بين الخطاطين الأقطاب في تركيا. وفي متحف الآثار الإسلامية التركية مخطوط له مكتوب فيه سورة الأنعام على الصفحات الأولى مذهبة بخط الثلث الثقيل، وبعدها سورة بخط النسخ ومن ثمة سطور بخط الثلث الثقيل، ثم سطران بخط الثلث الخفيف، وفي متحف توب كابي مصحف آخر له. كتبه بخط المحقق والريحاني.

ومن ابتكارات الخطاط قره حصاري في مجال التحديث لصورة الخط كلمة (الحمد لولي الحمد) وسورة الإخلاص بالخط الكوفي البسيط، ثم البسملة بخط جلي مبتكر.

توفي رحمه الله سنة ٩٦٣هجرية وقد ناهز التسعين وقد كتب شاهد قبره بيده دون أن يكتب تاريخ وفاته، إذ تركه إلى من بيده الأعمار علاّم الغيوب.

ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر ط٧ أن الخط العربي حدث له التطور والنمو في الحجاز نفسها، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة جعلتهم يأخذون الخط المعيني أولاً ويتطورون به إلى خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية، ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامي وتطورت به، وتفرق أهلها بعد سقوطها في داخل الجزيرة العربية وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطي، فهجر عرب الحجاز القلم المعيني وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطي إلى خطهم العربي الجديد مستحدثين به ضروباً من التطور حتى أخذ شكله النهائي.

ومعنى هذا كله أن الخط العربي نشأ وتطور شمالي الحجاز وأنه لا يرجع في نشأته وتطوره إلى بلاد العراق، فالحجاز هو موطنه وهو الذي نشره في محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التي كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية.

وفي الحجاز انطلقت حداثة الكتابة العربية على مراحل، وفي مراكز متعددة. وذلك في عصر النبوة لشدة لزومها ولتدوين القرآن الكريم.

ومن الخطاطين الذين يملكون أرضية خصبة من الحداثة، الاستاذ الشاعر محمد سعيد الصكار الذي يأتي في المقدمة، فهو الفنان الذي اخترق جدار الحداثة باكتشافه التصوير الخاص لشخصيات الحروف فصنفها إلى شخصيات أليفة مترددة وأخرى مكابرة أو عدوانية، فأرسى قواعدها بشيء يقرّب ما بينه وبين الخطاط التركي أحمد قره حصاري على الرغم من المسافة الزمنية التي تتجاوز ثلاثة قرون فيما بين الاثنين.

ويأتي على نمط تجربته الإبداعية في الحرف الأستاذ الخطاط رأفت حبش من المملكة العربية السعودية فهو يسير على نحو مطابق لا يختلف فيما بينهما إلاّ إمضاء التوقيع الأمر الذي يجعل الأستاذ الصكار في شيء من الضيق والحرج.

ومن سورية الأستاذ الدكتور محمد غنام الذي جعل من الحرف العربي سمفونية يتغنى بها في أشكال

فريدة، ويحاول أيضاً تفجير الإمكانات الجمالية الاحتياطية للحرف العربي ليكتشف الجديد، فاتخذ الحرف ملاذاً له في لوحاته التعبيرية وذلك من خلال حركة الخطوط وغزارتها على اللوحة مما أكسب الخط جغرافية شاسعة من الشرق فاتخذت من بلاد الغرب استراحة محارب، وتتميز لوحاته بنكهة خاصة لامتزاجها بالأصالة والتراث مضافاً إليهما تلك الذاتية المبدعة التي يقول عنها جوته /بأن في كل فن صلة نسب، فإنك إذا رأيت فناناً كبيراً فلا بد أنه وعى أحسن ما عند أسلافه وأن هذا هو الذي جعله عظيماً/.

لذلك فالأستاذ محمد غنوم قدم إلى الخط العربي مكتبة زاخرة من نتاج الحرف العربي بلوحات ناطقة يحس لها النبض ارتعاشاً والنفس انتعاشاً وللعين موسيقى سرمدية تسحره وتنقله إلى شواطئ الإبداع والخيال الخصيب.

أما الخطاط منير الشعراني فإن حداثته ذات تجربة متفردة على الرغم مما يملكه الخط العربي من زخم هائل لأنواعه المتعددة يكتسب جمالية خاصة لكل نوع على حدة. إلاّ أنه متمسك بالخط السنبلي الذي يوحي بالجمود والتحجر فيفتقر إلى جمالية الحرف من حيث الحبكة الفنية ومع أن الأستاذ منير الشعراني يعتبر من التلاميذ المجدين لأشهر خطاطي بلاد الشام المرحوم بدوي الديراني، إلاّ أنه لم يرث من أستاذه تلك الجمالية الخاصة التي كان يتمتع بها.

ومن جمهورية مصر العربية الخطّاط أحمد مصطفى الذي ينطلق من الحرف الساكن، من الكلمة الرمز الدالة على معنى معين إلى لوحة تحفل بالديناميكية وتكتظ بالتناقضات وتستدير وتنحني ثم ترتفع ومعها المشاهد إلى أعلى، كأن الحروف على وشك القفز بلا انضباط، على وشك مغادرة اللوحة. وهو لا يقدم اللوحة على نحو مقروء وواضح، لأن ذلك سيحرمه متعة الغموض والإبداع، كما سيحرم المشاهد متعة الإحساس بين قطبي مبدع اللوحة والمشاهد، حيث يختفي الزمان والمكان وتبدأ رحلة اللانهاية، رحلة اللازمان واللامكان.

فالأستاذ أحمد مصطفى ليس خطاطاً فقط، بل هو فنان يحاول أن يعيد إلى الفن الإسلامي، علاقة الود المفقودة بين القلم والريشة، ويطمح في الوقت نفسه أن يجمع بين اللوحة والموسيقى مستنداً إلى أن الموسيقى هي أعلى أنواع التجريد، واللوحة التجريدية هي خطوة للاقتراب منها، وجمالية الخط العربي وربطه بالموسيقى ليس جديداً، وإنما الجديد أن نجد من يواصل الطريق باحثاً ودارساً لمدة تزيد على الأربعة عشر عاماً، قرأ مرة، وبالمصادفة، كلاماً لابن مقلة يعود تاريخه إلى عام ٩٠٠ م، وابن مقلة كما هو معروف كان خطاطاً وعالماً توصل إلى طريقة جديدة في الكتابة أطلق عليها اسم /الخط المنسوب/ فحدت تلك المصادفة /أحمد مصطفى/ إلى مواصلة بحثه ليستنتج بعد ذلك أن فهم النص العربي أقل أهمية من التأثير البصري الناتج، بل وصار يعتقد بأن العين الغربية أقدر على التمتع بأعماله، لأن الأجانب لا يبحثون عن معنى الكلمات ولا يحاولون قراءة الحروف.

ويؤكد الأستاذ أحمد مصطفى أن العلاقة وشيجة بين الحروف المتوازية أو المتداخلة أو المبعثرة من جهة والشكل النهائي المقصود بألوانه من جهة ثانية.

فاللوحة في النهاية... دراسة خطية وهندسية غنية با... لي لا يلتقطه إلاّ من يريد من الرائين.

وهناك رأي في فن الخط العربي للمؤلفين المغر... حبي كتاب /ديوان الخط العربي/ وقصة الحضارة العربية في حروف جميلة، وهما: عبد الكري... الأستاذ الباحث في جامعة الرباط ومؤلف

لمجموعة من الكتب في الفكر والأدب، والدكتور محمد السجلماسي. الدكتور في طب الأطفال الذي ألف في الفنون الشعبية والفنون التشكيلية في المغرب، بمساهمة الدكتور عبد الغني العاني في إنتاج ذلك الكتاب، في طبعته العربية، بكتابة بعض الصفحات الخطية، وهو دكتور في القانون وأستاذ للخط العربي يعرّف المؤلفان فن الخط العربي بأنه زخرفة، أي أنه نص في مرآة يعكس الحلم الخالص بانتزاع اللغة من حقيقتها البشرية، وتقديمها في شكل فني. وبشكل أكثر تحديداً، وأن الخط هو الفن الذي يعتبر نفسه متوفراً على هذه الصفة وقائماً على بنية متميزة، وقواعد هندسية وزخرفية. وعندما نقول من قائم بذاته، فإننا نعني أنه يستتبع في تخطيطه، نظرية في اللغة وفي الكتابة، وقبل كل شيء فإن هذا الفن يدخل في نطاق البنية اللسانية وبشكل معجماً ثانياً للرموز، منحدراً من اللغة، إلا أنه يلعب بها، ويضاعفها عن طريق حركة مرئية، ومن ثم فنحن نستبعد جميع التعريفات العائمة التي تطلق فن الخط على كل رسم تلقائي أو تجريدي يذكرنا بالكتابة دون أن يخضع لمصطلحاتها. ذلك أن فن الخط لا تكون له أهمية حاسمة إلاّ إذا اقترن باللغة. ومع أن فن الرسم يلتقي أحياناً بمنطلقات فن الخط، فإن هذين الفنين يختلفان في طريقة إبراز الإشارة المستمدة من الحروف وكذلك في طريقة إضفاء الحياة عليها، فالخط "فن الكتابة" من غير شك، إلاّ أنه، ليس عملاً كونياً، ذلك أن كثيراً من الشعوب لا توليه عناية خاصة، لكن بعضها يعتبره فناً سامياً. فاليابانيون مثلاً إذا أرادوا أن يصفوا شخصاً بالجمالية والرقة قالوا إن له خطاً جميلاً.

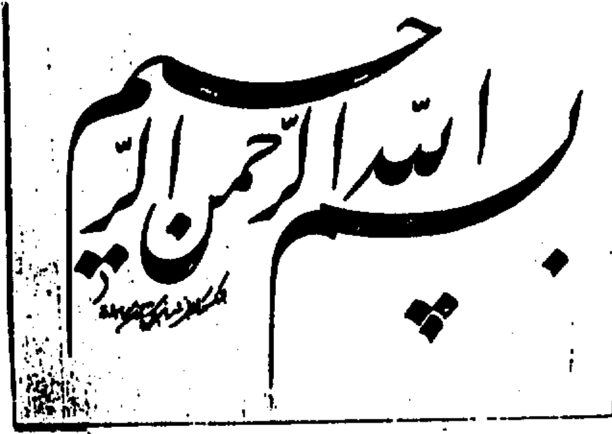
كما تسنّى للحرف العربي أن يقيم في كل مجال توافر له سواء أكان ذلك في صفحة من كتاب أم لوحة جدارية أم مقطع من حائط في مجلس أم آنية معدنية أم زجاجية أم قطعة قماش أن يقيم عليها فنه المتوهج والمتألق في آية كريمة أو حديث شريف أو حكمة أو بيت شعر يستظهر فيه مكرمة خلقية وأن يسعى دوماً لأن يكون حقيقياً بما يحمل من أمر في نشر فضائل الإسلام، فيبرز في أجمل صورة وعلى مستوى ما كان الإسلام يؤكد من الأهمية الكبرى لإشاعة القراءة والكتابة وكلتيهما من بعض متممات دين المسلم.

فهناك من استخدم الحرف في تكرار إيقاعي عبر قيم صوتية أو لونية فسيفسائية فيوحي ببعد منظوري يلوح لك وكأنه منعكس على مرآة، وهناك من كرّر الحرف وتدرج في رسم نماذجه وكأن الواحد صدى للآخر في انسجام تكاملي، وهناك من شذّبت حروف كلماته فبدت كأنها ظلالٌ متلاحقة لرؤية ثابتة تتخذ من الجمال رداء لأجمل فن عرفته البسيطة.



مصادر البحث

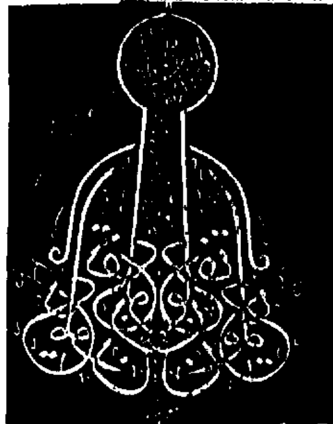
- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته عدنان علي رضا النحوي - دار النحوي - الرياض.
- الفن والعقيدة عماد الدين خليل مؤسسة الرسالة - بيروت.
- مجلة الوحدة/ العدد المزدوج ٧٠/٧١ سنة ١٩٩٠ الربط الحرف العربي في الفن التشكيلي. بلند الحيدري.
- العقد الفريد ج٢ لابن عبد ربه الأندلسي.
- صفوة التفاسير ج٣ للأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني.
- مجلة المعرفة العدد ٦٧ سنة ١٩٨٤ دمشق.
- مجلة المجلة الأعداد ٣٦٦-٢٠٢-٧-٦٧٧-٦٧٨/٦٧٣.
- مجلة الدوحة يونيه ١٩٨٢.



البسملة بخط " الفارسي"
للخطاط عكلة الحمد
- سورية -



وأحسن كما أحسن الله إليك
/ قرآن كريم /
بخط الثلث الجلي
لأشخص خطاطي بلاد الشام
المرحوم بدوي الديراني



يعلمون ما تفعلون /قرآن كريم/
بخط ثلث جلي متناظر
للخطاط كاتب المقال سورية.

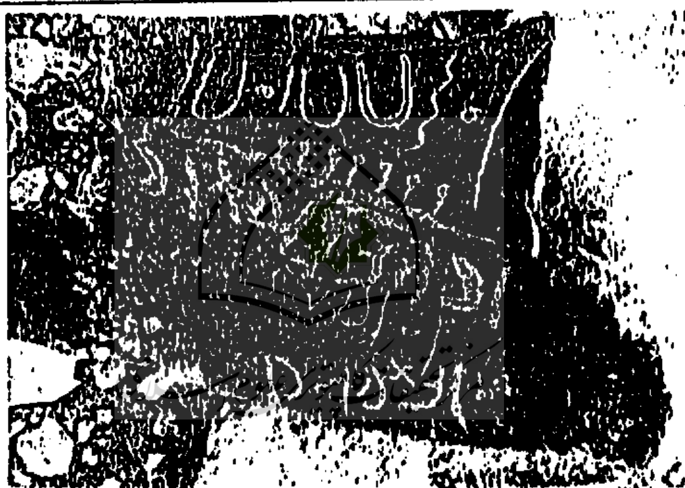


نصر من الله وفتح قريب

/ قرآن كريم /

خط الديراني

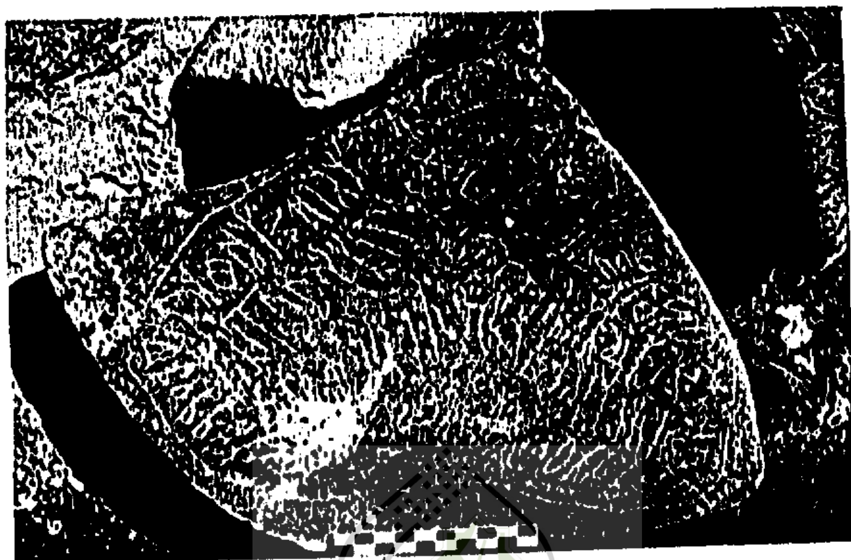
محمد سعد حداد / مصر/



الصورة رقم " ١٠"



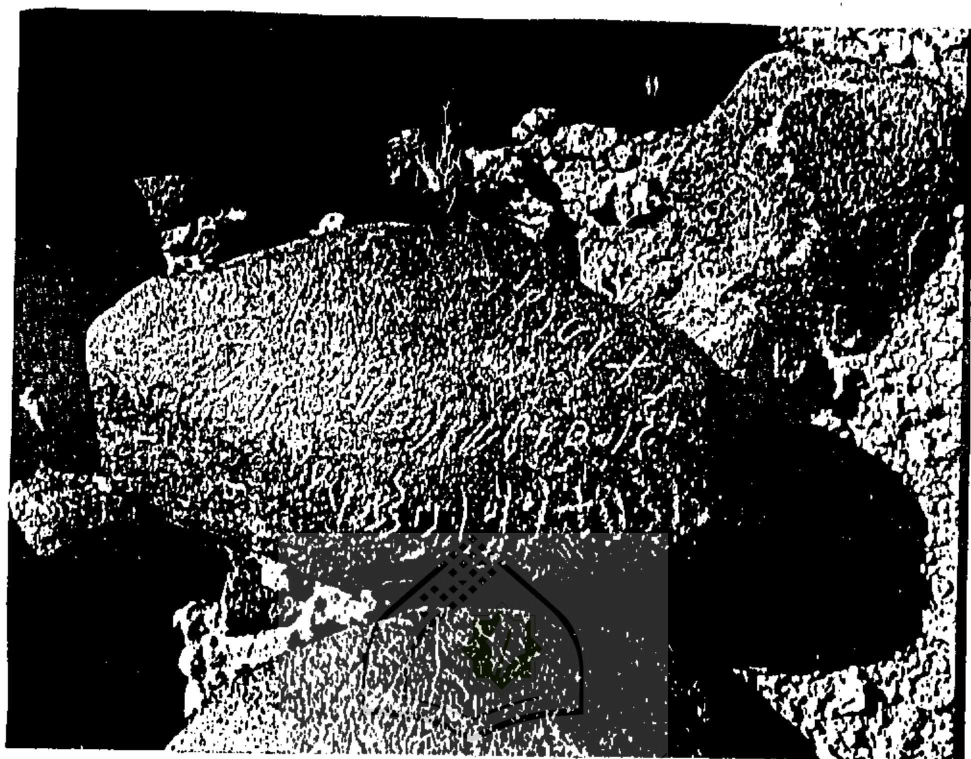
الصورة رقم ٢.



الصورة رقم " ٣ "

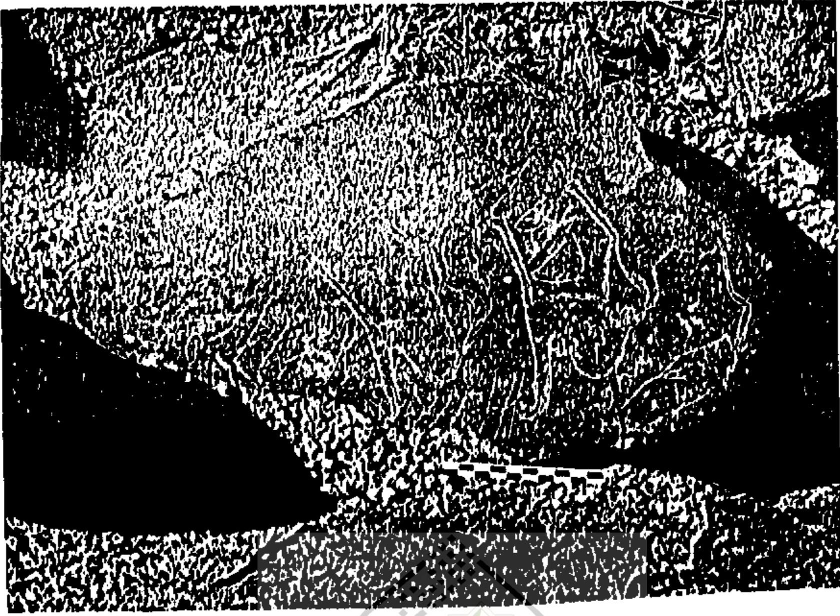
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الصورة رقم ٤



الصورة رقم ٥





- ١ -









مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

اللوح رقم "١"

اللوح رقم "٢"

جدلية القديم والحديث
بين التقليد والإبداع
ـ القسم الثاني ـ

د. عمر موسى باشا

مجلة "التراث العربي" في العدد ذي الرقم "٧٠" القسم الأول من دراسة د.عمر موسى فـشغوفه باشا، حول القديم والجديد، والإبداع والتقليد بينهما. وفي هذا العدد ننشر القسم الثاني والأخير من هذه الدراسة الهامة.

كان امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكنديّ من أوائل من تحدث من الشعراء القدامى عن ذكرى الحبيب الأول والمنزل الأول في معلقته المشهورة التي وقف فيها واستوقف وبكى واستبكى. بقوله (٦٤):

قفا نبكِ من (ذكرى حبيبٍ ومنزلِ)   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

فقد عبرّ الكنديُّ الشاعر عن ذكرى الماضي القديم في أوائل عمره من خلال قوله: (ذكرى)، وفي هذه الدلالة رمز للمطلق من الماضي القريب أو البعيد، وفي هذين الفعلين الوقوف في الأمر الطلبي، والبكاء في الجواب الطلبي، ممّا يفسّر لنا في الزمن الحاضر الزمن الماضي المتمثل في قصة ذكرى أيّام الزمان.

ومن هذه الجدلية الشعرية في الشطر الأول من مطلع المعلقة الذهبية؛ تطالعنا قصة الشاعر وذكراه في ماضي الأيام في دارة جلجل، وماجرى بها من أحداث مثيرة، وحاضره بسقط اللوى بين الدخول وحومل، يتضح لنا ذلك كله في البيت العاشر من معلقته هذه، وقد بلغت واحداً وثمانين بيتاً، وهو قوله:

ألا ربّ (يوم) لكَ منهنّ صالحٍ   ولاسيّما (يوم) بدارة جُلْجُلِ

(ويوم) عقرتُ للعذارى مطيّتي   فيا عجباً من كورها المتحمّلِ

هذه الذكرى العزيزة على قلب الشاعر، هذا اليوم من أيام الماضي البعيد، هو أحسن هذه الأيام وأتمها، ولايوم من الأيام مثل يوم دارة جلجل، يوم دارة الغدير، هكذا يتكرّر ذكر اليوم ثلاث مرات في بيتين اثنين، ذلك لأنه يمثل هذه اللحظات السعيدة من حياة الشاعر.

هكذا يغدو امرؤ القيس أحد أوائل الشعراء الذين وضعوا أصول النهج في قصة الحبيب الأول، وتتمثل في حبيبته عنيزة ابنة شرحبيل، وقصة المنزل الأول المتمثل في دارة الغدير دارة جلجل ويومه المشهود حين

عقر راحلته ونحرها، وجمعت له الإماء الحطب وأخذن يشوين له اللحم، ويشرب كؤوس الخمر مترعةً، وسقاهنّ من هذه الخمرة....

ومن الحبيب الأول، ومن المنزل الأول عند امرئ القيس وغيره من الشعراء إلى الشباب الأول لأنه ملتصق حكماً بذكرى الحبيب والمنزل معاً.

يؤكد ما نذهب إليه شاعر جاهليّ آخر هو أبو كبير الهذليّ، واسمه عامر بن الحُليس، فقد أبدع كل الإبداع في تقديس الشباب الأول، ولا يُعرف من الشعراء القدماء من أنشأ أربع قصائد توّجها بذكر الشباب الأول، والشباب المدبر، المذكور مرتين، وشيبة المشيب المذكورة أربع مرات. يقول ابن قتيبة: "وله أربع قصائد، أولها كلها شيء واحد ولا نعرف أحداً من الشعراء فعل ذلك"(١).

أما مطلع القصيدة الأولى فقد خاطب بها ابنته زهيرة مرخّماً، ولا أعرف بين الشعراء من استهل قصيدته بذكر ابنته، وفي هذا سمّو أبويّ بقوله:

أزهيرَ هل من شيبةٍ من مَعْدِلِ ... أم لا سبيلَ إلى الشبابِ الأوّلِ

ومطلع القصيدة الثانية:

أزهيرَ هل عن شيبةٍ من مَقْصِرِ ... أم لا سبيلَ إلى الشبابِ المدبرِ

ومطلع القصيدة الثالثة:

أزهيرَ هل عن شيبةٍ من مَصْرِفِ ... أم لا خلودَ لباذلٍ متكلّفِ

ومطلع القصيدة الرابعة:

أزهيرَ هل من شيبةٍ من مَعْكِمِ ... أم لا خلودَ لباذلٍ متكرّمِ

قصائد أربع توّجت بذكر ابنته زهيرة الهذلية، رويّ الأولى اللام، ورويّ الثانية الراء من اسم ابنته، ورويّ الثالثة الفاء، ورويّ الرابعة الميم. بَيْدَ أن الملاحظ هو ظهور الجدلية بين القديم والجديد. أما القديم فيتضح في ذكره (شيبة) مكررة أربع مرات، وهو يتمثل في أبي كبير الهذليّ، والشباب الجديد المتمثل في ابنته زهيرة، لا الشباب الجديد الأول.

هكذا يتجلّى إبداع الهذلي في جدلية القديم والجديد في أربع قصائد جاهلية مما لا نعرف له نظيراً في التراث العربي القديم.

ومن الشباب الأول، إلى روضة الشباب، وقد صار هشيماً، وذلك في هذه الصورة الفنية للشاعر أبي تمام بقوله:

أصبحتْ روضةُ الشبابِ هشيما ... وغدت ريحُه البليلُ سَموما

شعلةٌ في المفارقِ استودعتني ... في صميمِ الفؤادِ ثكلاً صميما

تستثيرُ الهمومَ ماأكننّ منها ... صُعُداً وهي تستثيرُ الهموما

ذلك هو الشباب الأول في شعر أبي ذؤيب، وهذا الشباب الهشيم، وقد صوّحت أزاهيرهُ شعلة المشيب فأصبح رماداً تذروه رياح الزمن وأعاصير الدهر.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

المنزل الأوّل

قصة المنزل الأوّل وحنين الإنسان إليه مهما تباعد، وقصة الحبيب الأول وتشوّق الإلف إليه وإن كان بعيداً، معروفتان لدى الشعراء وغيرهم، ذلك لأنهم تحدثوا عن هذه الجدلية في الماضي والحاضر في معانٍ كثيرةٍ وأغراضٍ مختلفة، لذلك كان الاهتمام بالديار والمنازل عامة، والمنزل الأول خاصة، وكان الاهتمام أيضاً بالصواحب والأحباب عامة، والحبيب الأول خاصة.

هكذا كانت جدلية المنازل والديار العافية عامة، بَيْدَ أن للمنزل الأول قدسية راسخة في أعماق النفس الإنسانية، وكذلك ذكرى الصواحب والأحباب عامة، بَيْدَ أن للحبيب الأول منزلة راسخة في أعماق القلب والوجدان الحيّ.

من ذلك قول الشاعر الطائي الأكبر أبي تمام في مقطوعة رباعية استهلها بالتحدث عن البين الذي جرّعه نقيع الحنظل، وخلص إلى قوله(٦٥):

البينُ جرّعني نقيعَ الحنظلِ	والبينُ أثكلني وإن لم أثكلِ
ماحسْرتي إنْ كِدتُ أقضي إنما	حسرات قلبي أنني لم أفعلِ
نقّل فؤادك حيثُ شئت من الهوى	ما الحبّ إلا للحبيب الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألفه الفتى	وحنينه أبداً لأول منزلِ

هكذا يطغى على الشاعر حبه القديم، وهو أول حبّ عرفه في حياته، ويبقى هذا الحب الأثير متمكّناً في نفسه لا تغيّره الأيام والسلون، ولا يصدّعه أو يطغى عليه أيّ حبٍّ جديد أو هوى حادث، وقد مثّل ذلك في هذا التصوير الفنّي والتمثيل البيانيّ، والتشبيه الضمنيّ في هذا المقام الأول الذي شهد تفتح الإنسان على الحياة، فكان مرسوماً في ذاكرته وكامناً في أعماق نفسه، وحيّاً في هيكل ذاته.

أبرز الجرجانيّ في أسرار بلاغته من خلال بيانه أهمية التمثيل البيانيّ وتأثيره فذكر "أنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيّ.... فلهذا يحصل بهذا العلم الأنس من جهة الاستحكام والقوة، وضرب آخر من الأنس، وهو مايوجبه تقدّم الإلف كماقيل: (ما الحبّ إلاّ للحبيب الأول)، ومعلوم أنّ العلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع، ثم من جهة النظر والرويّة، فهو إذن أمسّ بها رحماً، وأقوى لديها ذمماً، وأقدم لها صحبة، وآكد عندها حرمة، وإذا نقلتها في الشيء مشبهاً بمثله عن الدرك بالعقل المحض، وبالفكرة في القلب إلى مايدرك بالحواس، أو يعلم بالطبع، وعلى حدّ الضرورة، فأنت كمن يتوسّل إليها للغريب بالحميم، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم فأنت إذن مع الشاعر...."(٦٦).

ومن الغريب العجيب حقاً أن الشاعر نفسه كان يجمع بين طرفي الجدلية الزمانية، فيستثيره فيض الإبداع الإنسانيّ، وينسيه القديم التليد الأثير عنده، والمتمثّل في ذلك المنزل الأول، وذاك الحبيب الأول حين يطغى عليه صوب العقل المبدع ليسقي بديم الذكرى أطلال المنزل الأول لهذا الحبيب الأول، ويؤكد الشاعر الطائيّ هذا كله في قوله(٦٧):

ولوكان يفنى الشعر أفناه ما قَرَتْ	حياضك عنه في العصور الذواهب

ولكنه صوبُ العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

يقول التبريزي في شرحه: "فلو كان الشعر يفنى لفني من أجل ما مُدحتم به في الدهر القديم، فهذا هو الوجه".

كان إعجاب أبي العلاء بهذين البيتين كبيراً جداً لأنّهما يمثّلان فيض الإبداع الشعريّ عند الشاعر الطائيّ، فقد خاطب عنترة في غفرانه مقارناً بين مطلع معلقته المذهّبة السابقة: (هل غادر الشعراء من متردم؟!) وصوب العقول عند الطائي أبي تمام.

ويثور الشعراء المحدثون المتأخرون على المتقدمين المبدعين، وربّما كان تأخّر عصرهم عقدة نقص تساورهم فيما يتعلّق بإبداعهم ومكانتهم الشعرية. وهكذا تتغلغل جدلية القديم والجديد في معاني الشعراء المتأخرين تغلغلاً جوهرياً، فتغدو قصة المنزل القديم والحبيب الأول مأثورة يتعاور معانيها الشعراء المتأخرون. ومن ذلك قول الشاعر الصفيّ الحليّ السنبسيّ الطائي الثالث الأصغر بعد الطائيين أبي تمام والبحتري العباسيين يهزأ من قول الطائي الأكبر ويثور عليه قائلاً: (٦٨).

لاحبَّ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ	فاصرف هواكَ عن الحبيب الأوّلِ
ودع العتيق فللجديدِ حلاوةٌ	تنسيكَ ماضي العيشِ بالمستقبلِ
أعلى المراتبَ في الحساب أخيرها	فاْنسَ الملاحَ على حساب الجمّلِ
أتشكُّ في أنّ النبيّ محمّداً	خير البريّة وهو آخر مرسلِ

والملاحظ أنّ الشاعر الحلّي أورد في أبياته الأربعة ثمانية مصطلحات هي (الأول) مرتين، و(العتيق)، وهو في الاصطلاح اللغويّ "القديم من كل شيء حتى قالوا: رجل عتيق، أي قديم"، و(الجديد)، و(الماضي)، و(المستقبل)، و(الأخير)، و(الأخير)، و(الآخر)، وهذه كلها تنتظم في جدليّة القديم والجديد، بالإضافة إلى المستقبل، والملاحظ أيضاً أنّ الشاعر أبرز الصراع بينهما، فقد ذكر في الشطر الأوّل القديم ودعا إلى هجره في الشطر الثاني، وأكدّ ذلك في الحثّ على ترك ذلك، ثم اختتم ذلك كله بالتغني بالجديد المحدث الذي يطغى على المرء نفسه، فينسيه ماضيه بالمستقبل الموعود الذي سيحقّق له آماله المرتجاة، لكنه لم يكتفِ بذلك كله وإنما يؤكد صحة نظرته بأسلوبين:

أولهما: أسلوب منطقيّ يعتمد على تسلسل المراتب العددية الهندية من اليمين إلى الشمال. أوّلها وأدناها ذات اليمين، وأكثرها وأعلاها ذات الشمال، ثم يطلب بعد هذا العرض التمهيدي أن نعتمد حساب الجمّل في حب الغواني والملاح.

ثانيهما: أسلوب نفسيّ يعتمد على استخدام الدليل الديني في ذكره النبيّ محمداً (ص)، فهو أفضل النبيين، على الرغم من أنه آخر الأنبياء المرسلين، لأن الحقيقة المحمدية كانت منذ وجود آدم. وهكذا تغدو الحداثة النبوية دليلاً جديداً دينياً على تقديس الجديد وتفضيله على القديم، ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن الحداثة النبوية جمعت حقائق التراث الإنساني كله للأديان جميعاً، من لدن آدم، عليه السلام، فكان الرسول الأعظم (ص) رحمة للعالمين جميعاً.

ويستخدم الشاعر أيضاً رقوم الأعداد الهندية في المناهج النقدية الجديدة لفكرة الإبداع وتقويم المبدعين من المحدثين بقوله (٦٩):

مكانة النفس مني فوق مكنتها — من النضار وقدري فوق مقدور
لئن تأخر بي عصري وقدّم من — قد كان قبلي في ماضي الأساطير
كأنني من رقوم الهند أوجب لي — علوّ مرتبتي إفراد تأخيري

كان الشاعر يؤمن بمنزلته العليا، وهو الطالي الثالث، ويؤكد بالتالي أن قدره السامي يسامق أقدار السابقين والمعاصرين، بَيْد أنه يستدرك حكمه مترنداً لكونه من المتأخرين، والمعروف أن ميزان الفضل للمتقدمين، وهم الذين خلّدهم الزمن، لكن هذا كله لا يقدح في وجهة نظره من مكانة النفس المبدعة، وأنه لا يقل عن المتقدمين إطلاقاً، ويدلل على صحة رأيه مستخدماً التشبيه التمثيلي الضمنيّ من خلال تسلسل الرقوم الهندية، وبذلك يعلّل الشاعر الإبداع عند المحدثين والمتأخرين.

ونقف أخيراً في المنزل الأول عند الإمام الغزالي، صاحب إحياء علوم الدين، فهو يرمز من خلال تصوّفه إلى الهوى القديم في التنويه بمصحوب أول منزل، ويصرّح معرّضاً ومعرضاً عن الهوى المحدث، وهاجراً الهوى والتغزل بليلى وسعدى. بقوله:

تركت هوى ليلى وسُعْدَى بمعزلٍ — وعُدْتُ إلى مصحوب أول منزلِ
ونادت بي الأشواق: مهلاً فهذه — منازل من تهوى رويدك فانزلِ
غزلتُ لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد — لغزلي نساجاً فكسّرت مغزلي

وما أجمل قول الغزالي في بيته الأخير مجانساً في (غزلت) و(غزلاً) و(غزلي). وحقاً فإنه كان نساجاً ماهراً يغزل غزلاً دقيقاً، وهو يجانس بين حروف اسمه وألفاظ شعره.

لقد أزمع أمره على هجر كلّ من يعرفه ويحبّه لأنه يبتغي أن يصفّي جوهر المطلق من كلّ عرض حادث وهوى جديد محدث، وهذا هو حقّاً المخاض النفسيّ العسير لأنه يمثّل هذا الصراع المستديم بين جوهر القديم المطلق وعرض الجديد المحدث، ويغرق من ثمّ في هذه المواجد السلوكية، والشطحات الصوفية على اختلاف الأحوال.

هكذا كان الصراع محتدماً بين سور التقليد وحرية الإبداع من خلال جدلية القديم والجديد، وتتمثل في عدة ظواهر فنيّة، في المعنى والغرض الشعري والنظرة النقدية والمذهب الفنّي.

رموز صوفيّة

أبرز مايُلاحظ أن أسطورة المنزل الأول أصبحت المنطلق في خضمّ فلسفة القديم الجديد، وغدا هذا المنزل التخيّل رمزاً صوفياً أصلاً كمّا توضّح لنا في الإشارة إلى (مضمون أوّل منزل) عند الإمام الغزالي بَيْدَ أن هذا المنزل الأوّل قد تغيّر وتطوّر عند هؤلاء المتصوفة، فأصبح الرمز الأول للمنزل المخلّد الأبديّ في دار القرار والبقاء، وهو المذكور في محكم التنزيل القرآنيّ: (ياقوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإنّ الآخرة هي دار القرار)(٧٠)، ودار القرار هي المقصودة بالمنزل الأوّل الذي يتغنى به المتصوفة وهكذا قلبت هذه

الآية مفهوم المنزل الأول عند الشعراء ليصبح دار القرار في الآخرة.

أمّا ابن قيّم الجوزية فيتحدث عن المنازل الأولى جمعاً، لأنّ فيها المخيّم، فقد ابتدأ بقول النبيّ، صلّى الله عليه وسلم، لعبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: "كن في الدنيا كأنّك غريب، أو عابر سبيل"، وعلّق على هذا الحديث النبويّ، بقوله: "وهكذا هو في نفس الأمر لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حقّ المعرفة، ولي من أبيات في هذا المعنى(٧١):

وحيّ على جنّاتِ عدنٍ فإنّها (منازلك الأولى) وفيها (المخيّم)

ولكنّنا سَبْيُ العدوّ فهل ترى نعودُ إلى أوطاننا ونُسلّم؟!

وأيّ اغترابٍ فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداءُ فينا تحكّم؟!

وقد زعموا أن الغريب إذا نأى وشطّت به أوطانُه ليس ينعمُ

فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة من العمر إلاّ بعد ما يتألّمُ

هكذا يسمو ابن قيّم الجوزية في أبياته الخمسة السابقة سموّاً إنسانياً، يعيده إلى صفائه الذاتي، وبقائه المتمثّل في ذلك المخيّم الأبديّ، وهو المقام في منازل الإنسان الأولى المخلّدة، وتتضح من خلال ذلك جدليّة الزمن المرموز إليه بهذا العمر المتقلّب بين النعيم والجحيم، والتنعّم والتألّم، وهكذا تنقلب هذه الجدلية من صيغتها السلبية إلى صيغتها الإيجابية، وتطرد ساعات العمر من خلال الإيجاب السلبي، إن صحّ التعبير.

كما كثر تحدّث الشعراء والمتصوّفة عن القديم والجديد أيضاً، ذلك لأن الرموز الصوفيّة، وطبيعة الشعر.. تجعلهم حائرين بين سراب الماضي الذي طوته الأيام، وهذا الحاضر الذي يستبدّ بهم، ولاسيّما الشعراء المتصوّفة، وربّما كان الشاعر ابن الفارض ممّن وحّد مفهومي القديم والجديد معاً توحيداً صوفياً اعتماداً على جدليّة الوجود الكونيّ.(٧٢).

حديثي قديم في هواها ومالَه كما علمت بعد وليس لها قبلُ

إن جديد حديثه في الهوى قديم أصيل، فهو يجمع الوجود من طرفيه، ذلك لأن قديمه حديث طريف، وحديثه قديم تليد، وليس بعد هذا التوحيد المطلق قبل سابق، ولابعد لاحق، فبعده قبل، وقبله بعد.

لقد اقتدى الشعراء المتصوّفة وغيرهم بابن الفارض، وأكدوا هذا المعنى كثيراً في أشعارهم، نذكر منهم، على سبيل المثال، المكزون السنجاريّ، فقد تحدث عن وجده وهواه، من خلال هذه الجدلية، بقوله: (٧٣).

وجدي قديم في هواك ولوعتي لك بالزيادة كلّ آنٍ تحدثُ

فلذاك كلّي ألسن بحديثه بين الورى ومسامع إن حدّثوا

يرى الشاعر المكزون أن حبّه قديم، وأن لوعة هواه حديثة تتجدّد. فهي تمثّل في نظره نزعة تطورية، إذ تغدوكل لحظة حداثة ترتبط بهذا القديم وتتعلّق به.

يتّضح الأمر نفسه عند الشاب الظريف، شمس الدين محمد، وهو ابن الشاعر الصوفي الكبير عفيف الدين سليمان التلمساني، شاعر الوحدة المطلقة، وقد قال في هذا المعنى(٧٥):

حديث غرامي في هواك قديم وفرط عذابي في هواك نعيمُ

وما الكونُ إلاّ صورةٌ أنتَ روحها وجسم بغير الروح كيف يقوم؟!

تتمثل الجدلية عند الشاعر في ذكره الكون، كما أنه يرمز إلى العدم المفهوم من المعنى في البيتين، ومن خلال هذه الجدلية الأدبية، لا الفلسفية، في نعيم حبّه، وجحيم عذابه يتحدث عن القديم والحديث، هذا الحديث الشائق، وتغدو الكونية نظرية شعرية جدليّة بين القديم والجديد.

تطوّرت هذه الجدلية عند هؤلاء المتصوفة، ولاسيّما المتأخرين منهم، فنجد مثلاً الصوفيّ الأكبر (أستاذ الأساتذة) عبد الغنيّ النابلسيّ يشير إلى وحدة الوجود، وكأنما كان يعني بها الجدلية الحديثة في الفلسفة، وذلك من خلال قوله (٧٦):

كن عارفاً بوحدة الوجود وقاطعاً بكثرة الموجود
وميّز الحادث من قديم وخلّص الثابت من مفقود

والملاحظ هنا اقتران الحادث بالقديم الأصل، والثابت بالمفقود وهذا المعنى نفسه هو الذي سبقه إليه الشعراء المتصوفة من قبل يضاف اقتران القديم بجدلية الوجود والعدم، والأرض والإنسان، وهكذا تتضح لنا من خلال ذلك كله أهمية التصوف في الفلسفة الجدلية، والحقيقة الوجودية بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهكذا يتولّد من ذلك كلّه القديم والجديد، ومابين القديم والجديد، والقديم الجديد، والخلق الجديد، فلكل من هذه الصيغ الأربعة دلالة خاصّة بها.

ومن هذا المنطلق الجدليّ أبرز ابن حجّة هذا المعنى في خزانته، والمعروفة بتقديم أبي بكر، كما نعتها أصلاً، بقوله: "ليعلم من تنزّه في هذه الحدائق الزاهرة أنّ ماربيع الآخر من ربيع الأول ببعيد، وإذا تحقّق أن لكل زمان بديعاً تمتّع بلذة الجديد"(٧٧).

وضّح ابن حجة قوله هذا مستطرداً: " وهنا بحث لطيف، وهو أنّ الاستشهاد بكلام المولدين وغيرهم من المتأخرين ليس فيه نقص لأن البديع أحد العلوم الستة...".

الملاحظ أن ابن حجّة قد تمثل من خلال شهرين اثنين، وهما ربيع الأول، وربيع الآخر، وهما معبّران عن الزمان، فاتخذهما منطلقاً عاماً للقديم والجديد معاً، أن ربيع الزمان مصدر للقديم المتمثّل في (الأول) والجديد المتمثّل في الآخر، ويبقى للجديد الآخر إبداعه المتميّز، إذ نعته بلذة الجديد، فلكل جديد لذة، وهنا السرُّ في فلسفة اللذة في الإبداع الإنسانيّ، وهكذا يبقى الإبداع سواء عند المتقدمين وعند المولدين، وتبقى القضية نسبيّة ثمّة ملاحظة دقيقة وهي أن ابن حجّة مثّل الإبداع بالربيع تشبيهاً، بَيْدَ أنه قدّم الإبداع في ربيع الآخر على إبداع في ربيع الأول، فلكلّ جديد لذّة التغيّر والتأخرّ الزمني، ومن هذا المنطلق نقف عند السلف والخلف، والموقف من الحداثة والإبداع.

السّلف والخلف

لم يقتصر الجدل بين القديم على ماسبق ذكره، وإنما تجاوزه إلى الاجتهاد عند الفقهاء، وهل يجوز للتابعين وتابعيهم أن يجتهدوا فيما لم يرد فيه النص عند الصحابة والفقهاء السابقين.

يقول شيخ الإسلام الشوكاني: "وبعد، فإنّه لمّا شاع على ألسن جماعةٍ من الرعاع اختصاص (سلف) هذه

الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون (خلفها) حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذّر وجود مجتهدٍ بعد المائة السادسة، كما نقل عن البعض، وبعد المائة السابعة، كما زعمه آخرون، وكانت هذه المقالة بمكانٍ من الجهالة، لا يخفى على من له أدنى حظٍ من علم، وأنزر نصيب من عرفان، وأحقر حصّة من فهم، لأنّها قصرٌ للتفضّل الإلهيّ، والفيض الربّانيّ، على بعض العباد دون البعض، وعلى أهل عصر دون عصر، وأبناء دهر دون دهر، بدون برهان ولا قرآن..."(٧٨).

أمر هام خطير، على جانب كبير من الأهمية في وصف هذا الصراع بين القديم والجديد المتمثل في السلف والخلف، وتتضح فيه الثورة الفكرية لنصرة الجديد في فهم الفقه أولاً، وفي آفاق الفكر الإنسانيّ المبدع ثانياً، والملاحظ أن الشيخ الشوكاني تعرّض لقضية الاجتهاد في الفقه، وضرورة النظر في بعض أحكامه ممّا لم يرد عليه النصّ صراحة، ثم استطرد بعد هذه الخطبة المطوّلة يقول: "ليعلم صاحب تلك المقالة أن اللّه، وله المنّة قد تفضّل على (الخلف) كما تفضّل على السلف، بل ربّما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية، على اختلاف أنواعها، من يقلّ نظيره من أهل العصور المتقدمة..."(٧٩).

وما أشبه اليوم بالأمس، فنحن مازلنا نذكر الجدل في قضية الفقه الجديد، أو تجديد الفقه بين عالمين من علماء هذا العصر، وهذه المسالة هي موضع الجدل والجدال بين السلف والخلف، وبين المتعاصرين أنفسهم، وهذا مظهر من مظاهر الجدلية بين القديم والجديد.

حداثة الإبداع

هكذا طرحت قضية القديم والجديد من قبل، وطرحت كذلك القضية نفسها حديثاً، وكان أستاذي الفاضل المرحوم شفيق جبري شاعر الشام، من أوائل من طرحها من المعاصرين والمحدثين في بلاد الشام والوطن العربيّ بشكل مفصّل قبل سبعين عاماً أو تزيد، كما طرحت في الوقت نفسه بمصر، أرض الكنانة، وذلك في مقالة هامّة مؤلفة من إحدى عشرة صفحة، قدّم بها ديوان شاعر العاصي صديقي المرحوم بدر الدين الحامد سنة ١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٨م.

استهلّ جبري تقديمه بقوله: "إن لي نفساً تحبّ الانطلاق من كل قيد، فدعني أرسل الكلام على طبيعته، وأذكر من الأدب مايتيسرّ ذكره في مثل هذا المقام".

واستطرد يقول: "أستعفيك من إطالة البحث في الأدب، فاسمح لي بأن يكون بحثي أشبه شيء بأحاديث يتساقطها أصدقاء يضمهم مجلس واحد.

واستطرد يقول بعد ذلك التقديم: "أشغل شيء لأدباء هذا العصر إنّما هو القديم والحديث، ولقد جال كتّاب مصر في هذا الميدان كل مجال، حرص بعضهم على الأدب القديم، وتغنّت طائفة منهم بالأدب الحديث، ولعمري، ماهو الأدب القديم؟! وماهو الأدب الحديث؟! وهل من أثر في الحقيقة لهذين الأدبين؟! القديم كان حديثاً في عصره، والحديث في هذا العصر سيكون قديماً في عصر غير عصرنا، فإذا قلنا: الادب القديم، فإن قولنا هذا نسبي"(٨٠).

وقد علّل ذلك بقوله: "ولكن الذي يختلف فيها إنّماهو طراز إنشائها، أي الذي يختلف فيها إنّما هو الفنّ ليس إلاّ، والأفكار واحدة، لم يغادر الشعراء من متردّم..".

وقف شفيق جبري مطوّلاً عند هذه المعركة، ومافعله الهدّامون من أدباء العصر الذي أعشت أبصارهم بوارق الحداثة، فجعلتهم يهاجمون أصالة التراث العربيّ بقوله: "وكذلك بعض رجال الأدب في هذا العصر، فإنهم هدموا بناء أدبهم القديم، لينشئوا لهم أدباً حديثاً بحسب أوضاع هذا الزمن، فالأدب، في الحقيقة، واحد لم يتغيّر، وإنّما الذي يتغيّر فيه الفنّ، أي أصول الإفصاح عن عاطفة من العواطف، أو طرق تصوير فكر من الأفكار..."(٨١).

واستطرد جبري مبدياً رأيه في هذه القضية النقدية يقول:

"فليس في الأدب، على ما أعتقد، قديم وحديث، وإنّما هي أفكار إذا عرضتها في معارض من القول مناسبة لأوضاع العصر كانت حديثة، وإذا أبرزتها في حلّي من الكلام مخالفة لأحوال زمانك كانت غير حديثة..."(٨١).

كما تمثّل جبري بعد هذا المطاف الطويل من القول برأي للمفكر الفرنسي أناتول فرنس" "أيّ الرجال يستطيع أن يفخر بأنه فكّر في أمر لم يفكّر فيه غيره؟ فالأديب يعلم علم اليقين أنّ الأفكار ملك الناس بأجمعهم، فلا يقدر أحد أن يقول: (هذا الفكر لي). الأديب يعلم أن قيمة الأدب بالقالب الذي يفرّغ فيه هذا الفكر، فإفراغ فكرة في قالب حديث هذا هو الفنّ كله، وهذا مايستطيع البشر إبداعه وإنشاءه، ليس الفكر بملك من يبدعه، وإنّما هو ملك الذي يثبته في أذهان الرجال"(٨٢).

لقد تبنّى شاعر الشام جبري رأي أناتول فرنس، فإنه كان يرى رأيه، ذلك لأنّ شروط الفنّ من زمن هوميروس لم تتغيّر حتى يومنا هذا إلاّ قليلاً، وعلّل ذلك بقوله:

"وأناتول لا يخطر بباله أن هذه الشروط تتغيّر كثيراً من هذا اليوم حتى يوم القيامة".

هذه المقدمة النقدية الجبرية على غاية من الأهمية في ميدان النقد العربي الحديث، فلقد عبّر فيها جبري عن هذه المعركة الأدبية الحديثة بين أنصار القديم وعشّاق الحديث في كل زمان ومكان، والمعيار النقدي عنده هو جوهر الإبداع في الفن التعبيريّ والإفصاح عن العواطف، وتصوير الأفكار مستشهداً بقول الإمام علي (ع):"لولا أن الكلام يعاد لنفد"، وفي هذا القول فصل الخطاب.

لا انفصام إذاً بين القديم والجديد، كما أنه لا انفصام بين السابقين واللاحقين، فلكل قديم جديد، ولا يتولّد الجديد إلاّ من القديم، ومن هذا المنطلق النقديّ في أواصر العلاقة بين القديم والجديد يمكن فهم قول أمين الخولي:"قتل القديم فهماً أول كل جديد"، فعلينا من هذا المنطلق أن نتمكن من القديم فنتدبّر تراثه التليد لنستطيع الخوض في خضمّ الإبداع بَيْدَ أننا يجب ألاّنجمد ولا نتحجر على القديم، إنما يجب أن يكون هذا سبيلنا إلى سلوك دروب الابتكار والتشوف إلى آفاق الإبداع.

يضاف إلى آراء جبري والخولي مقالة لأحمد زكي نشرها قبل أربعين عاماً في عدد ممتاز لمجلةالهلال عن (الجديد) والمقالة بعنوان (دفاع عن القديم) وتتضمن مناقشة موضوعية عن مفهومي القديم والجديد، وربطهما عند بعضهم، بالرجعية والتقدمية، وعلل ذلك كله بهذه الجدلية الموجودة في الحياة الإنسانية، فقال:

"وأكثر أصول الحياة ثابت لا يتغير مع الزمن، لبّ الحياة ثابت على تتابع القرون، وإنّما يتغيّر قشر الحياة ومظاهرها وأشكالها، فالحب في صميمه ثابت، والفضيلة في صميمها ثابتة، والحسن والقبح في جواهرهما ثابتان..."(٨٣).

ويستطرد أحمد زكي إلى القول: "فالحياة قديمة، والفناء قديم، وهما يعتوران أهل الأرض الحديثين والأقدمين، ومن القديم يفهم ويتعلّم المستجد..."(٨٤).

ويخلص إلى قوله أخيراً: "وجرى العُرْفُ فيه بالربط بين القديم والرجعية، وبين الجدة والتقدم، ولقد جانبت ذلك الرباط، لأنه رباط برغم العرف، مقطوع. إنه رباط غير مقدس، لا يباركه فكر ولا يقوم على منطق"(٨٥)

أبرز مايلاحظ في قول الدكتور زكي أنه قد استخدم لفظ (الثابت)، وهو الذي استخدمه من قبل الصوفي النابلسي في قوله: "وخلص الثابت من مفقود"، وقد دافع عن القديم حين رأى بعضهم يقرن القديم بالرجعية والجدة بالتقدميّة، ويبدو أن هذه النظرة وهذا التوجّه قد ظهر في مرحلة الأربعينيات من هذا القرن في خضّم الصراع بين الأصالة والحداثة في النظرة إلى التراث العربي القديم وتقويمه الفنّي، كما لاحظنا أنه عبّر عن ذلك في دفاعه، ونفي وجود هذا الرباط الموهوم بين فكرة الرجعية والتمسك بالأصالة الموروثة والتراث العربي، ولذلك نراه يختتم مقالته القيمة بقوله: "إن الشيء القديم قد يحسن، ولا يستطيع فوات الزمان أن يغيّر من حسنه، والشيء الحديث قد يسوء ولا تستطيع حداثته أن تقلّل من سوئه"(٨٦).

يعني هذا الاتجاه الهام في نظر الكاتب أن القديم والجديد، والجيّد والرديء متداخلان، فقد يكون من القديم ماهو رديء، وقد يكون من الحديث ماهو جيّد، وهنا يبطل عند بعضهم بقصر الجيد أوالرديء على أحدهما دون باعتبار الزمن، وهنا لا يوجد أي ارتباط بين هذين المفهومين خيراً أو شراً، وإيجاباً أو سلباً، وإنما الخير كامن فيهما معاً وكذلك الشرّ، والأصل هو الإبداع في القديم وفي الجديد معاً، ذلك لأن الجديد سيغدو قديماً وتلك هي سنة الحياة التطورية.

وممّا يسترعي الانتباه حقاً في مقال الدكتور أحمد زكي موقفه من هذا الربط الاجتماعي والجدة من خلال القديم والتقدمية، وقد أنكر كل الإنكار هذا الربط المهلهل لأنه غير واقعيّ وغير منطقي، فهو مرفوض حكماً في نظره وغير مقبول، وربّما فاته أن القديم والتقدمية مشتقان من جذر لغوي واحد، وهو القاف والدال والميم، وهذا يؤكد بالتالي الوحدة الوجودية في الجدلية الكونية، فلا يكون التقدم الحديث الجيد، أي التقدمية، إلاّ من خلال تمثّل القديم الخيّر ليتمثّل الإبداع الجديد في منهجه التطوريّ المحدث.

العظامية والعصامية

هكذا يتضّح من خلال هذه النظرة الاجتماعية سلوك الإنسان ذاته و نفسيته الاتكالية، وافتخاره بالسلف الصالح من آبائه وأجداده السابقين، واعتداده بما وصل إليه وحصّله.. بجهده الذاتي وعرق جبينه، فبنى عزّه ومجده الشخصي، وحقق آماله. وفي أقوال العرب المأثورة، وأمثالهم القديمة المشهورة: "فلان عصاميّ وعظامي، أي شريف النفس والمنصب وفي الأمثال العربية المعروفة أيضاً: "كن عصامياً ولا تكن عظامياً". وشرح هذا المثل بقولهم :"فمُدح العصاميّ لاعتماده على نفسه في حاضره، وذُمّ العظامي لاتكاله علىغيره في ماضيه"، لأنّه ممّن يفتخر بالعظام النخرة كما شرحه ووضحه شارح القاموس المحيط(٨٧). كما ذكر اللغويون أن المراد بالمثل السابق قول الشاعر(٨٨):

نفسُ عصامٍ سوّدتْ عصاما ... وصيّرتْهُ ملكاً هُماما

وعلّمتْه الكرّ والإقداما

يضاف إلى ذلك القول العربي المأثور: "ماوراءك ياعصام؟! وقالوا: هو اسم صاحب النعمان بن المنذر، وهو عصام بن شهبر الجرمي"(٨٩). والملاحظ أن الاستفهام في هذا التساؤل الاستفهاميّ: (ماوراءك؟!) يوحي بالتعجب، ويشير إلى أحد طرفي الجدلية، وهذا النداء في قوله (ياعصام)، يشير إلى طرفها الآخر، وهو رمز الحاضر.

هذه الأقوال المأثورة كلها تؤكد الصلة الاجتماعية بين جدلية الماضي والحاضر، وتوضّح بالتالي ارتباط الإنسان بها في تطوّره الزمني. والجديد هنا أننا رأينا الارتباط السلوكيّ في موقف الإنسان نفسه، وحكمه في العظامية الاتكالية، ضمن منظور الماضي الغابر، والعصاميّة الإبداعية ضمن المنظور التطوّريّ، حاضراً أو مستقبلاً، في إطار الحداثة الجديدة ومنهجها التقدمي.

هكذا يبقى الصراع أبداً في جدلية القديم والجديد، ويبقى الإنسان القديم الجديد هذا الرمز الخالد، توّاقاً ومتشوّقاً، بنزعته الذاتية إلى طفولته الحلوة، وإلى أيام صباه الغضّ، فهي ماثلة أمامه ومصوّرة في ذهنه، لها قدسيتها وجمالها ورسوخها في النفس الذي هبطت إليه من المحلّ الأرفع.

الكونيّ والكنتيّ

يبقى علينا بعد أن أوردنا المثل المأثور السابق، (كن عصامياً ولا تكن عظامياً) وناقشنا جدليّة العظامية والعصامية أن نتوقف عند فعل الكون (كان) من خلال (كن) و(لا تكن)، وأهميته الخلقيّة في سرّ هذه الجدلية في (كان) الكونية وهي الرمز في الكنز الإلهي المخفيّ المعروف في الجدلية الفلسفية المعروفة هذه الثنائية المؤلفة من الكون (Être) والعدم (NON ETRE)، ومن تعالقهما التطوّري الحتميّ تكون الصيرورة الزمنية، أو السرمديّة الكونية لهذا الاصطلاح الجدليّ المنطقيّ (Devenir) بالفرنسية، إن صحّ التعبير.

نستطرد بعد هذا التقديم في الجدلية الكونية للتحدث عن الحجاجية العربية اللّغوية المتمثلة في فعل الكون، ناقصاً أو تامّاً، وتوضيحه من خلال الأصول اللغوية، ونشير إلى مصطلحي (الكوني) و(الكنتيّ).

في التعريف اللغوي أن (الكون هو الحدث)، وقد (كان كوناً وكينونةً)، كما ورد في اللسان، ومنه القول: (رجل كنتيّ) أي كبير، وذلك أنه نسب إلى الفعل (كنت)، وقد قالوا: (رجل كنتنيّ) بزيادة النون، قال الشاعر:

وما أنا (كنتيّ) ولا أنا عاجنٌ ... وشرُّ الرجالِ (الكنتنيّ) وعاجن

فاستخدم الوجهين معاً، وهذا يطلعنا على عبقرية اللغة وطواعيتها لمقتضى الحال.

أمّا سيبويه فيرى أن إخراجه على الأصل أقيس، فنقول على حد مايوجب النسب إلى الحكاية (٩١). وأمّا الجوهريّ فيوضّح ذلك بقوله: "يقال للرجل، إذا شاخ: (هو كنتيّ)، كأنه نسبَ إلى قوله: "كنتُ في شبابي كذا)(٩٢). و(الكنتيّون) هم الشيوخ. وفي الحديث: أنه دخل المسجد، وعامّة أهله (الكنتيون)، هم الشيوخ الذين يقولون: (كنّا كذا)، و(كان كذا)، و(كنتُ كذا)، فكأنه منسوب إلى (كنتُ). يقال (كأنّك، والله، قد كنتَ وصرتَ إلى (كان) و(كنتَ)، أي صرتَ إلى أن يقال عنكَ (كان فلان)، ويقال لك في حال الهرم: (كنتَ مرة كذا وكنت مرة كذا)..."(٩٣).

وممّا يسترعي الانتباه حقاً، فيما أورده ابن منظور، عبقرية اللغة العربيّة، في ضروب النحت والاشتقاق سواء أكان ذلك الاعتماد على الأصل، أم ما طرأ على هذا الأصل، وهذا الاستخدام للفعل الكونيّ، على هذا

النهج الاشتقاقيّ والنحتيّ بحسب الأصل أو الظاهر، خير دلالة وأفضل بيّنة، على مانحن بصدده الآن، بَيْدَ أنّ الذي يهمنا هنا وصف من يتغنى بشبابه الماضي، أو علمه الغزير، أو ما إلى ذلك من وصف الذات الإنسانية، أي: كيف كانت؟ وكيف صارت؟ وهي وجه من وجوه الجدلية بين القديم والجديد. وهي الرمز المخفيّ في الكون الإلهيّ.

القديم والحديث

أنكر بعض المحدثين القديم والحديث معاً، فلا قديم عندهم تجريداً، ولا حديث عندهم تأكيداً، وإنما يؤمنون بالقديم الحديث، لا انفصام بينهما، وفق المنهج الذي عرضناه، وسلكه ابن قتيبه من قبل، ومن هؤلاء المحدثين الناقدان المعروفان الدكتور عمر فرّوخ والدكتور معن زيادة.

أما الدكتور فرّوخ فقد أبطل مفهومي القديم والجديد، وأنكر دلالتهما بقوله: "ليس في الوجود قديم وحديث، القديم والحديث مدرك خياليّ في حياة الفرد، هنالك جيّد ورديء في السلوك الإنسانيّ، كلّ جيّد دائم، وسيظلّ جديداً، أمّا الرديء، وأمّا الخطأ، وأمّا الضارّ، فيجب أن تُسمّى قديمة، بمعنى أن العمل بهما يجب أن يقف"(٩٤).

أمّا الدكتور معن زيادة، فإنه يرى أنّ قضية الأصالة والمعاصرة وجهان لحقيقة واحدة،، فهو يرى أن قضية الأصالة والمعاصرة وجهان لحقيقة واحدة، ويعتقد أنهـا "قضية محوريـة من قضايا الفكر المعاصر"، وذلك نظراً لأهمية ذلك في جدلية القديم والجديد.

بدأ الدكتور زيادة بتعريف الأصالة قائلاً: "فالأصالة الحقّة لا تعني التمسك بالماضي، وكل ماله علاقة بهذا الماضي.. الأصالة الحقة هي استلهام الماضي من أجل الحاضر والمستقبل، استلهام الماضي والإفادة منه إبداعاً وابتكاراً لتحقيق النواة بتجسيد الذات القومية من أجل حاضر ومستقبل الفرد والمجتمع..."(٩٥).

ويستطرد بعد ذلك متحدثاً عن المعاصرة، بَيْدَ أنه يراهـا مرتبطـة ارتباطاً وشيجاً بالأصالـة، وذلك من خلال قوله: "أمّا المعاصرة فلن تكون بمحاولة التخلّص والتنصّل من الماضي، وماله علاقة بالماضي، ولا بتناسي الموروث، المعاصرة تكون بالإفادة من تجارب الآخرين في ميدان التقدّم والرقيّ بمايتناسب مع حاجاتنا وما يتناسب مع بيئتنا وظروفنا وشخصية أمتنا وشعبنا ومجتمعنا، الأصالة تكون بأن نجمع بين العناصر المكوّنة لشخصيتنا، وعوامل التقدم أن نفيد لا أن ننقل، أن نتعلّم لا أن نقلّد، أن نبتكر لا أن نقتبس...."(٩٦).

ويخلص الباحث الناقد بعد هذا العرض الدقيق لهذه القضية المحورية ليؤكّد لنا أن "الأصالة والمعاصرة وجهان لحقيقة واحدة، ليسا ضدّين ولا نقيضين، أحدهما لا يستلزم نفي الآخر.. وعلى العكس يستلزم الآخر لأنه تمامه وكما له"(٩٧).

والملاحظ أن الناقدين السابقين الدكتور فروخ والدكتور زيادة كانا متفقين في إبطال مفهومي القديم والحديث وإلغائهما مثل غيرهما، لكنهما يختلفان في المنهج والهدف، فالاول ذو هدف اجتماعي له دلالته الخاصة، يعتمد على منهج معياري تقييميّ، والآخر ذو هدف قوميّ يعتمد على منهج تكامليّ ضمن وحدة عضوية لاتنفصم فيها إبداعات المعاصرة عن أصالة التراث العربي.

زمن الشعر

تحدث أيضاً الشاعر أدونيس في حديثه أيضاً عن (زمن الشعر) في كتابه هذا، وذكر موقفه من قديم الشعر وحديثه ونظرته المستقبلية من خلال منظوره القديم الماضي والحديث المعاصر، وهكذا أضاف المستقبل كعنصر ثالث للثنائية الجدلية المعروفة، يؤكد ذلك كله قوله: "لا نُعجب بقديم شعرنا لأنه أعظم وأغلى بالضرورة، من حديثه، بل نعجب بقديم شعرنا لأن حاضرنا نفسه تعمّق واتسع في حركة تحتضن الماضي إذ تفتح صدرها للمستقبل، ولأن من خصائص وعينا الجمالي الحاضر أن يقرّب إلينا الشعر الماضي تحت ضوء من الحداثة، ولأن لحظتنا الشعرية في عناق مع العصور كلها"(٩٨).

يستطرد بعد ذلك ليذكر لنا البعد الثالث، وهو المستقبل، وكأنّما كان يُنشئ جدلية ثنائية جديدة، في حديثه عن الثقافة الشعرية وبعديها الأخرين، وذلك من خلال قوله: "للثقافة الشعرية بُعدان: بُعد يعرض الماضي في ضوء جديد، وبعد يشير إلى المستقبل. ثم يخلص إلى القول: "هكذا، في الواقع، لا نُعجب من الشعر (القديم) من حيث هو شعر، بل نرفض أن نبدع ضمن أطره الفنية والثقافية التي صدر عنها"(٩٩).

الملاحظ أنه يقتصر في تحديد جدليته على بعدين اثنين: بُعْد يحتضن الماضي القديم، وبعد مستقبلي يحتضن الزمن الآتي، هكذا يتلاشى الحاضر الآنيّ بين السابق واللاحق، وهكذا تختلف النظرة النقدية في الموقف من القديم، وقد لاحظنا أن الأصالة فيه هي حتم على كلّ إنسان، فبعضهم يقبل به راضياً، وبعضهم يقبل به كارهاً، من هذا المنطلق، وهكذا كان زمن الشعر الأدونيسيّ ثورة فكرية لأنه يرفض الإبداع وفق المنهج الذي صدر عنه، ضمن أطره الفنية والثقافية.

المنزل الجديد

عوداً على بدء، بعد المنزل الأول، المنزل القديم الذي تغنّى به أبو تمام من قبل في تذكّره الحبيب الأول، ومن خلال الجدلية الثنائية بين القديم والجديد، مشفوعة بالعنصر المستقبليّ الثالث، فإننا نصل إلى المنزل الجديد الذي انتقل إليه الشاعر الروسيّ المعروف رسول حمزاتوف، من خلال قصيدة جديدة تُرجمت حديثاً، وهي تمثّل الحداثة في كثير من صورها ومعانيها، بَيْدَ أننا نجد في الوقت النزعة الأصيلة في الحنين إلى القديم، ثم يشفع ذلك كله بالاستسلام للمستقبل، على الرغم منه، ومما جاء في هذه القصيدة(١٠٠).

"انتقلنا إلى (بيت جديد)
ولكننا لم نتبدل
أخلصنا (للقديم) على الرغم
من استسلامه (للمستقبل)
علّقنا صور (الشباب) على الجدران
ولكن الرأس لم يسودّ
بل بقي (أشيب).
بدكت عنواني (القديم)

وها أنذا أتعود على (الجديد)

ولكن (الماضي) يرافقني

حتى العتبة (الجديدة)

أمدّ قلمي في محبرة مدرسية

وهاهي ذي نظارتي زائد ستة

وقد ضحكت قليلاً....."

يكفي أن يستعرض الإنسان في هذه الأبيات من قصيدة رسول حمزاتوف بعض هذه الصّور المعبّرة عن جدليّة القديم والجديد.

أمّا اصطلاح (القديم)، فقد اتّضح لنا من خلال قصيدته في قوله: (للقديم)، و(القديم)، و(الماضي).

وأما اصطلاح (الجديد) فقد اتّضح لنا في قوله :(جديد) و (الجديد) و (الجديدة).

يضاف إلى القديم والجديد (المستقبل)، و(أشيب)، والشباب. بَيْدَ أن الشاعر رسول حمزاتوف كان يسمو سموّاً إنسانياً في تقديس الماضي، وذلك من خلال استنطاقه الألواح المقدسة المنصوبة، وقد خلّد فيها ذكر هؤلاء الراحلين الذين طوتّهم الأزمان، ويأسى لمصير وطنه داغستان، ومصير من غيّبهم التّراب من هؤلاء العباقرة المبدعين، دون أن يطلّع العالم على مواهبهم وإبداعاتهم، من المبدعين، والفنانين، والمغنين، والمحاربين، والمصارعين، وذلك في قوله (١٠١):

"الألواح المقدسة لا تتحدث عن القرون الخوالي

بالخسارة!! لكن طريقنا لا ينتهي

تلك القضية التي بدأها الأجداد بسيوفهم

أكملها أنا ويراعي في يميني....."

لكنّ حمزاتوف، على الرغم من ذلك كلّه، كان يحنّ إلى حكايات أمّه، بعد ملاحم الأجداد وحكاياهم، بَيْدَ أن حكاية واحدة من هذه الحكايات بقيت مسطّرة في أعماق نفسه، تُرى هل هي قصة حوّاء آدم، وقد احتوت البشرية جمعاء، وذلك في قوله(١٠٢):

"في حكايتنا يسهلُ علينا

أن نذكر (القديم) (القديم)

من تلك الحكايات التي أعادتها

عليّ أميّ أذكر واحدة..."

أليس في هذا القديم المحدث أبونا آدم؟! وفي هذا المحدث القديم أمّنا حوّاء؟!

تُرى هل هذه الواحدة هي حواء الخالدة رمز الماضي والحاضر والمستقبل.

هكذا يتضح في هذه الأبيات أن حمزاتوف كان بارعاً في وصف هذه الجدلية الكونية في حياة كلّ

إنسان، فهو يصف القديم والجديد وصفاً مبدعاً من خلال المنزل الجديد الذي انتقل إليه، ويتذكّر منزله القديم الأول في بيته العتيق، وقد ولد فيه، ويصوّر من خلالهما هذا الصراع النفسيّ العنيف بين الماضي الأسر والحاضر الغامر، والاستسلامَ للمقبل المجهول، إذ لا يستطيع أن يفلت من هذين الأسرين معاً، بَلْهَ الثالث من خلال اشتعال شيب الرأس، واستحالة عودته إلى صباه وشبابه، ومن خلال نظارته المجددة، ذات الدرجات الستّ.

قد نتساءل عن بواعثه الجوهرية في اختياره السادس من الأرقام البصرية، وربما كانت بصيرته النفسيّة، وراء هذا الاختيار، لأنها تمثّل في نظره ذلك العليل السقيم الذي يزداد ضعفاً يوماً بعد يوم، رموزاً ذات دلالات نفسية، وأقباس فكرية، وآية ذلك فيما نحسبه أنها كانت تلميحاً لستة رموز: ثلاثة منها تعبّرعن معنى واحد يمثّل الماضي التليد في كلماته المشار إليها في القصيدة السابقة، وثلاثة أخرى تقابلها تعبّر عن الحديث الطريف.

ذلك كلّه يمثّل بالتالي هذه الجدلية الثنائية، ذات الدلالة الثلاثية في كل منهما. والملاحظ أن الشاعر حمزاتوف لم يقتصر عليها، وإنما شفعها باستسلامه للمقبل المجهول، ويولّد من خلاله المستقبل الإنساني المجهول بَلْهَ المستقبل الكُلّيّ المطلق.

إن قصة الإنسان في الزمان الدهريّ تمثّل الماضي والحاضر والمستقبل، وفق هذه الجدلية الثنائية في هذا العالم المخلوق وحده، نحن نجهل مصاير العوالم الكونية الأخرى، ويبقى هذا الإنسان المخلوق آية اللّه فاطر السموات والأرض، في سفر الخليقة والتكوين، فطرة المبدع الأول ربّ العرش العظيم.

هكذا يتجلّى في هذا الإنسان المخلوق الإعجاز الإبداعيّ في هذا الخلق الجديد، وقد أكّد ذلك كلّه في القرآن المعجز المنزل الإبداع والخلق، وأعطاهما من القدسية، مالا حدّ له.

تلك هي جدليّة القديم والجديد، بين الإبداع والخلق، فقد تولّد هذا الجديد الطريف من التراث القديم التليد، فكان هذا الخلق في هذا الإبداع الفطري، من خلال الأرض والإنسان معاً، فكان هذا الإنسان في أحسن تكوين. هذا هو الإبداع الأصل في الخلق الإنساني المحدث في أكمل وجوهه، وأجمل صوره على هذه الأرض الطيبة.

الحواشي والهوامش:

١- سورة المجادلة ١/٥٨

ينظر في تفسيرها تفسير الجلالين ٢/٢١٣، وهامش تفسير الجلالين، وهو لباب النقول في أسباب النزول ٢/١٥٤، وصفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف، ص ٧٠٦-٧٠٧.

٢- سورة النحل ١٦/١٢٥

٣- مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثاني، ص ٣٥٢.

٤- سورة العنكبوت ٢٩/٤٦.

٥- سورة الكهف ١٨/٥٤.

٦- سورة الزخرف ٥٨/٤٣.

٧- سورة النساء ١٠٩/٤.

٨- من تراث الجاحظ ، ص ٢٨.

٩- التعريفات للجرجاني، ص ١٧٩.

١٠- المصدر السابق، ص ١٧٩.

١١- المصدر السابق، ص ٨٦.

١٢- شرح ديوان الخنساء ، ص ٥١-٥٢.

١٣- المصدر السابق، ص ٥١-٥٢.

١٤- المصدر السابق، ص ٥١.

١٥- ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٤٠/٤.

١٦- المصدر السابق، ٢٠٩/٤.

١٧- المصدر السابق، ٢٤٣/٤.

١٨- المصدر السابق، ١٨٨/٤-١٩٠.

١٩- المصدر السابق، ١٩٧/٤-١٩٨.

٢٠- المصدر السابق، ١٩٨/٤.

٢١- المصدر السابق، ٢٢٦/٤-٢٣٠.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢٢- سورة إبراهيم ٢٤/١٤.

٢٣- سورة البقرة ٣٦/٢.

٢٤- سورة الروم ١٧/٣٠.

٢٥- سورة الإنسان ١/٧٦.

٢٦- سورة (ص) ٣٨-٨٨.

٢٧- ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٣٩/٤، ٢٤٠

٢٨- الحماسة للبحتري، ص ٣٣٢-٣٣٣.

٢٩- كتاب الأشجار للدكتور أسعد علي، ص ١١٥-١١٧.

٣٠- المصدر السابق، ص ١١٥-١١٧.

٣١- تحت راية القرآن (المعركة بين القديم والجديد) لمصطفى صادق الرافعي، ص ٢٠٤.

٣٢- المصدر السابق، ص٢٠٤.

٣٣- الشعر والشعراء/ لابن قتيبة ٧/١

٣٤- المصدر السابق، ٧/١.

٣٥- تاج العروس في شرح القاموس للزبيدي ٢٨/١.
٣٦- المصدر السابق، ٢٨/١.
٣٧- المصدر السابق،٢٨/١.
٣٨- تحت راية القرآن - المعركة بين القديم والجديد / لمصطفى صادق الرافعي، ص ٢٠٤.
٣٩- سورة العصر ١٠٣/١-٣
٤٠- سورة يوسف ٩٥/١٢.
٤١- سورة يس ٧٦-٣٩.
٤٢- سورة الأحقاف ٤٦-١١
٤٣- سورة الشعراء ٢٦-٧٦.
٤٤- سورة (ص) ٣٨/١.
٤٥- سورة الأنبياء ٢١/٢.
٤٦- سورة الشعراء ٥٦/٥.
٤٧- ديوان البوصيري، ص ٦٠
٤٨- حوار مع الروائي ميشيل جوير. مجلة (الآداب الأجنبية) دمشق.
اتحاد الكتاب العرب - ت المصطفى لجماهيري ، ع/ ٤٠ سنة ١٩٨٤.
ص ١٧٦، ١٧٧.
٤٩- سورة الأنبياء ١٠٤/٢١.
٥٠- سورة (ق). ١٥/٥٠.
٥١- سورة الإسراء ٤٩/١٧ و ٩٨.
٥٢- سورة إبراهيم ١٩/١٤.وسورة فاطر ١٦/١٥.
٥٣- سورة الرعد ٥/١٣، وسورة السجدة ١٠/٣٢، وسورة سبأ ٣٤-٧.
٥٤- سورة الذاريات ٥١/٢٠-٥١.
٥٥- وظيفة الفن الاجتماعية لمؤلفيه عزوموف وكاجان، ص ٣٧.
٥٦- المصدر السابق، ص ٣٧.
٥٧- سورة هود ٤٤/١١.
٥٨- الكامل للمبرد ٦٩/١، والقاموس المحيط/ للفيروزأبادي ٤/١.
٥٩- المصدران السابقان.
٦٠-ديوان أبي تمام، بشرح التبريزي، ١٦٢/٢.
٦١- مقدمة نصر الهوريني، بشرحه القاموس المحيط ١٨/١.

٦٢- شرح المعلقات السبع للزوزني، ص ١٨٣، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠٦/١.

٦٣- شروح سقط الزند لأبي العلاء، القسم الثاني، السفر الثاني.

٦٤- القصيدة السادسة عشرة، ص ٥١٩-٥٥٢.

شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٧-١٣.

والشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٥٢/٢.

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٢٢٢/٣، ٢٢٣.

٦٥- ديوان أبي تمام، ص ٤٥٧.

٦٦- أسرار البلاغة للجرجاني، ص ١٣٧، ١٣٨.

٦٧- ديوان أبي تمام، ص ١٥٧.

٦٨- ديوان صفي الدين الحلي،

٦٩- المصدر السابق

٧٠- سورة غافر ٣٩/٤٠.

٧١- مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين). لابن قيم الجوزية ١٩٤/٣، ٢١٠.

٧٢- ديوان ابن الفارض، ص ٨.

٧٣- معرفة الله والمكزون السنجاري للدكتور اسعد علي ٦٣/٢.

٧٤- المصدر السابق ٦٧٢.

٧٥- ديوان الشاب الظريف، ص ١٤.

٧٦- ديوان الحقائق ومجموع الرقائق للشيخ عبد الغني النابلسي ١٤٩/١.

٧٧- خزانة الأدب لابن حجة الحموي، ص ٥.

٧٨- البدر الطالع للشوكاني، خطبة المؤلف ٢/١.

٧٩- المصدر السابق ، ٣/١.

٨٠- مقدمة شاعر الشام أستاذي المرحوم شفيق جبري، لديوان شاعر العاصي صديقي المرحوم بدر الدين الحامد، ص ٧،٨،٩.

٨١- المصدر السابق ص ٧، ٨، ٩.

٨٢- المصدر السابق، ص ٧، ٨، ٩.

٨٣- مقالة (دفاع عن القديم) للدكتور أحمد زكي، مجلة الهلال ، عدد خاص ممتاز عن موضوع (الجديد) . المجلد ٥٣، ج١/ ٥٨/ ٦٢.

٨٤- المصدر السابق.

٨٥- المصدر السابق.

٨٦- المصدر السابق.

٨٧- القاموس المحيط للفيروزآبادي، مادة (عصم) ٦/١٥١.

٨٨- لسان العرب لابن منظور، مادة (عصم)، المجلد ١٢، ص ٤٠٨.

وأساس البلاغة للزمخشري، مادة (عصم)، ص ٢٠٤.

٨٩- المصادر اللغوية السابقة.

٩٠- لسان العرب لابن منظور، مادة (كون) ١٣/٣٦٩-٣٧٠.

٩١- المصدر السابق.

٩٢- المصدر السابق.

٩٣- المصدر السابق.

٩٤- حوار خاص مع الدكتور عمر فروخ، مجلة (الكفاح العربي)، ركن عالم الثقافة، ص ٤٦-العدد ٣٧٤/ ١٠٦١ تشرين الأول ١٩٨٥. (كل بلد في العالم متعدد الثقافات).

٩٥- المصدر السابق، ص ٤٦.

٩٦- المصدر السابق، ص ٤٦.

٩٧- المصدر السابق ص ٤٦.

٩٨- زمن الشعر لأدونيس، ص ١٤٩، ١٥٠.(٩٩)

٩٩- المصدر السابق ص ١٤٩، ١٥٠.

١٠٠- قصائد جديدة للشاعر رسول حمزاتوف، ترجمة فؤاد الطوش، صحيفة تشرين، العدد ٤٢٤٦، تاريخ ١٩٨٨/٨/١٤.

١٠١- بلدي للشاعر رسول حمزاتوف، ترجمة الأستاذ عبد المعين الملوحي. ص ٤٣٥، ٤٣٦.

١٠٢- المصدر السابق، ص ٤٢٨.

المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) تحقيق عبد الرحيم محمود تقديم أمين الخولي- الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ، ١٩٥٣م. القاهرة - مطبعة أولاد أورفاند.

٢- أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١هـ، تحقيق أحمد مصطفى المراغي- المكتبة التجارية الكبرى- مطبعة الاستقامة. القاهرة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م.

٣- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، تحقيق محمد ابن زبارة اليمني.

الطبعة الأولى - مطبعة السعادة- القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ.

٤- بلدي للشاعر رسول حمزاتوف. ترجمة عبد المعين الملوحي، ويوسف الحلاق، سلسلة الأدب العالمي، دار الجماهير العربية، ودار الفارابي. دمشق ١٩٨٦.
٥- تحت راية القرآن- المعركة بين القديم والجديد، لمصطفى صادق الرافعي- مطبعة الاستقامة بالقاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.
١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م. الطبعة الخامسة.
٦- الحماسة لأبي عبادة البحتري.
تحقيق كمال مصطفى. المكتبة التجارية الكبرى. المطبعة الرحمانية ١٩٢٩م، الطبعة الأولى.
٧- خزانة الأدب (تقديم أبي بكر)، لابن حجة الحموي (المتوفى سنة ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣م)- القاهرة- المطبعة المصرية ببولاق ١٢٩١هـ.
٨- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي.
تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف بمصر- ١٩٦٤م.
٩- ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، والمسمّى بـ (التبيان في شرح الديوان)، ٤/٢٤٠، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦م. تحقيق مصطفى السقا، وعبد الحفيظ شلبي، وإبراهيم الأبياري.
١٠- ديوان ابن الفارض.
مكتبة القاهرة ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١م.
١١- ديوان بدر الدين الحامد.
الطبعة الأولى. مطبعة الإصلاح بحماة، سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.
١٢- ديوان البوصيري.
تحقيق محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥.
١٣- ديوان الخنساء (بالإضافة إلى مراثي ستين شاعرة من شواعر العرب).
دار التراث، بيروت، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.
١٤- ديوان الحقائق ومجموع الرقائق للشيخ عبد الغني النابلسي، دار الطباعة بمصر، سنة ١٢٧٠ هـ.
١٥- شرح المعلقات السبع للزوزني.
دار الفكر - بيروت، الطبعة الثالثة، مطابع دار الفضول الحديثة بيروت،
١٦- شروح سقط الزند، القسم الثاني. السفر الثاني، القصيدة السادسة عشرة.
الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة ١٣٨٣- هـ/ ١٩٦٤م.
١٧- الشعر والشعراء لابن قتيبة.
تحقيق أحمد محمد شاكر- دار إحياء الكتب العربية - القاهرة سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.
١٨- صفوة البيان في تفسير القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الطبعة الثالثة- وزارة الأوقاف والشؤون الإعلامية الكويت سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.

١٩- القاموس المحيط للفيروز آبادي.

الطبعة الأولى - المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ

٢٠- الكامل لأبي العباس المبرد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة مكتبة نهضة مصر ومطبعتها - القاهرة سنة ١٣٧٦-١٩٥٦م.

٢١- كتاب الأشجار الدكتور أسعد علي.

دار الغصون- بيروت لبنان- الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

٢٢- كتاب التعريفات للشريف الجرجاني.

مكتبة لبنان - بيروت سنة ١٩٧٨م.

٢٣- لسان العرب لابن منظور.

دار صادر- دار بيروت سنة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥م.

٢٤- مختصر تفسير ابن كثير الدمشقي.

اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني- دار القرآن الكريم- بيروت ١٤٠١ هـ.

٢٥- معرفة الله والمكزون السنجاري- تحقيق ودراسة الدكتور أسعد علي الطبعة الثانية، دار الرائد العربي - بيروت ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

٢٦- وظيفة الفن الاجتماعية تأليف غوروموف وكاجان. ترجمة عدنان مدانات- دار ابن خلدون- بيروت- سنة ١٩٨٠ م.

المجلات والصحف

٢٧- مجلة (الآداب الأجنبية) حوار مع الروائي ميشيل جوبر، ت: المصطفى لجماهيري . ع. ٤٠ سنة ١٩٨٤، دمشق منشورات اتحاد الكتاب العرب.

٢٨- مجلة (الكفاح العربي) حوار مع الدكتور عمر فروخ. ركن عالم الثقافة. العدد ٣٧٢/ ١٠٦٠ تشرين الأول سنة ١٩٨٥م.

٢٩- مجلة (الهلال) عدد خاص عن (الجديد). مقال بعنوان (دفاع عن القديم) . المجلد ٥٣ ص ٥٨- ٦٢.

٣٠ - صحيفة (تشرين) قصائد جديدة للشاعر رسول حمزاتوف.

ترجمة فؤاد المرعش. العدد ٤٢٤٦ تاريخ ١٤ آب ١٩٨٨.



النشر الزكيُّ في خَبَر ندامة الكُسَعِيّ
للقاضي أبي بكر أحمد بن محمد بن جُزَيٍّ الكلبيّ الأندلسيّ
(المتوفّى سنة ٧٨٥هـ)

تحقيق وتقديم: محمد أديب عبد الواحد جُمْران

تقديم

المؤلف:

هو أبو بكر أحمد بنُ أبي القاسم بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جُزَيّ الكلبيُّ الأندلسيُّ. ذكر ذلك ابن حجر. وقال: جُزيّ بالجيم والزّاء مصغراً وآخره تحتانية ثقيلة(١). وترجمَ لهُ السُّيوطي وجعلهُ ابن جُزَيْء بضم الجيم وبالزاي ثم بالياء المشددة، وبعدها همزة(٢).

أما البغدادي فذكر أنّه ابن جزى، ولم يضبطهُ(٣). وهو ابنُ جزَيّ عند كحالة(٤) وذكر الوادي آشي في برنامجه أباهُ فجعله ابن جزيٍّ، بالجيم والزاي والياء مصغراً(٥). وترجم له لسانُ الدين بنُ الخطيب، فأبدلَ كنيته وقال: هو القاضي أبو جعفر أحمد بن أبي القاسم محمد بن جزي(٦). وذكره المقّري حين ترجم لوالده وضبطه ابن جُزَيّ(٧).

إنّ هذا الخلاف في نسب المؤلف يمكن حصرهُ في دائرة أضيق ليكون على النحو الآتي:

١- ابن جُزَيْء، كما في بغية الوعاة، وبتسهيل الهمز يصبح ابن جُزَيّ كما أورده الوادي آشي في برنامجه والمقري في نفح الطيب.

٢- ابن جزَي كما في ذيل كشف الظنون وهدية العارفين ومعجم المؤلفين.

٣- ابن جُزَيّ كما ورد عند ابن حجر في الدّرَر.

ونكاد نميلُ إلى ترجيح الرأي الأول لكثرة وروده عند من ترجم له ولأبيه وإخوته وآلِ جُزَيْء جميعاً، وهم بيتٌ كبير كان في الأندلس والمغرب.

حياته وأخلاقه:

ولد أبو بكرٍ في مدينةِ غرناطةَ بالأندلس سنة ٧١٥هـ(٨)، وبها نشأ وترعرع في كنف أبيه

العلاّمة محمد بن جُزَيّء.

كان أبوه واحداً من أكبر شيوخ لسانِ الدين بن الخطيب الوزيرِ والأديب المصنف. ذكره المقّري في كتابه(٩) نقلاً عن الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، وذكر كتبَ هذا الأب، التي أربت على العشرة، وكانت في علوم الحديث والفقه والعقيدة والقراءات والعربية والتفسير(١٠).

أما مترجمنا أبو بكر فقد عاش في هذا البيت الذي ورث فيه عن أبيه العز والشرف والثقافة والفكر كابراً عن كابر. وحسبنا أن نقرأ ما كتبه المقّريُ عن هذا البيت.. قال: (وبيت بني جزيّ بيتٌ كبير بالمغرب والأندلس(١١)). وقال ابنُ الخطيب في معرض كلامه على والده وأسرته: وله عَقِبٌ ظاهرٌ بين القضاه والكتابة. قال المقري: يريدُ بنيه: البارع أبا بكرٍ والعلاّمة أبا عبد الله والقاضي أبا محمد عبد الله(١٢). إنهم ثلاثة إخوة عاشوا في كنف أبيهم العالم، الذي مات شهيداً وهو يحرّض الناس على قتال الإفرنج في التاسع من جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ(١٣). أخَوَانِ من القضاة وهما والثالث أدباءُ، شعراءُ، مصنفون.

تلك هي البيئة، وهذا هو الإرث الذي تفيّأ ظلاله أبو بكر بن جزيّء.

وقد عُرِفَ عن الرجل أنّه كان من أهلِ الفضلِ والنزاهة وحُسْنِ السمتِ والهيئةِ والاستقامة(١٤). وها هو ذا الأديبُ الوزيرُ لسانُ الدين يصفه بالعلم والوقارِ والنزاهة والمضاءِ(١٥).

لقد عمل أبو بكر زمناً في القضاء، فقد (تقدم قاضياً للجماعة بحضرةِ غرناطة في الثامن من شوال عام ٧٦٠هـ، ثم صُرِفَ عنه(١٦).

كما أنّه ارتسم في الكتابة السلطانية لأول دولة أبي الحجاج ابن نصرٍ، وولي القضاء ببرجة وبأندرش، ثم بوادي آشٍ، وكان مشكورَ السيرة معروفَ النزاهة(١٧).

وذكر لسانُ الدين بن الخطيب أن أبا بكرٍ كان خطيباً بمسجدِ السلطان بغرناطة(١٨). فقد تولى الخطابة في هذا المسجد بعد وفاة الأستاذ الخطيب العالمِ الشهير أبي سعيد فرج بن لبّ، وكان خطيب الجامع الأعظم بغرناطة، وَلِّي عوضاً عنه أستاذاً وخطيباً عام ٧٨٢هـ، فبقي في هذا المنصب الرابع حتى وفاته(١٩).

لقد استحق أبو بكرٍ هذه المناصب بجدارةٍ، لعلمهِ وورعهِ ونزاهتهِ وعلوِّ همتهِ. ولو لم يكنْ أهلاً لها لما نالها وبقي في أجلّها وأعظمها حتى وافتهُ المنية.

شيوخه وعلمه:

قرأ أبو بكر في أول أيام طلبهِ للعلم على والده، علاّمةِ عصره في الفقه والحديثِ والتفسير والأصول والعقائد والقراءات والأدب، ولازمهُ واستظهرَ بعض تآليفه، وتفقه وتأدب به، كما قرأ على بعض معاصري أبيه(٢٠)، وتتلمذ على لسان الدين بن الخطيب، وكان أبوه من أشياخ الوزير ابن الخطيب، قال المقريُّ: رأيتُ بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكرٍ روى عن لسان الدين بن الخطيبِ جميعَ تواليفه، مع أنه كانَ مقاربهُ في السنّ(٢١).

كما سمع أبو بكر من أكابر علماء عصره، أمثال أبي عبد الله بن سالم وأبي عبد الله الوادي آشي وأبي بكر بن مسعود وغيرهم، وأجاز له ابن رشيد وابنُ ربيع وأبو العباس بن الشحنة والبدرُ بنُ جماعة وآخرون(٢٢).

ولكن.. ماالعلومُ التي حصّلها أبو بكر ومهرَ بها وألف فيها كتباً ومصنفات؟.

يحدثنا ابن حجر العسقلاني بشيء من ذلك فيقول: كان أديباً فاضلاً عارفاً بالفرائض والعربية(٢٣).

وقال عنه كحالة: عالمٌ مشاركٌ في الفقهِ والعربية والأدبِ والشعرِ والخطِ(٢٤) إنّ العلوم التي حصّلها أبو بكر، إنما كانت نهراً ماداً من بحرٍ لجيّ محيطٍ، أحاطه به والده بكلّ ما يحتاجُ إليه من ثقافات عصره ومعارفه. لقد عاش الابنُ النجيبُ أبو بكرٍ مع والده العلاّمة ستاً وثلاثين سنة ينهلُ من معينهِ الثرّ، ويقتبسُ من أخلاقه وعلمه الشيءَ الكثير.

وكان أبو بكر شاعراً يُدلي بدلوه بين شعراءِ عصره، لكنه لم يَنبُه بالشعر كثيراً. روى له المقري(٢٥) شيئاً من شعره كقوله:

أرى الناسَ يُولُون الغنيَّ كرامةً	وإنْ لم يكنْ أهلاً لرفعة مقدارِ
ويلوون عن وجهِ الفقيرِ وجوههمْ	وإنْ كانَ أهلاً أنْ يُلاقى بإكبارِ
بنو الدهر جاءتهمْ أحاديثُ جمّةٌ	فما صححوا إلا حديثَ ابن دينارِ

مصنفاتُه: مات أبو بكر بن جزيء سنة ٧٨٥هـ. وترك للناس بعده مكتبةً متواضعةً نذكرُ كتبها منسوقةً الترتيب الهجائيّ:

١- كتاب (الأنوار السنيّة): قيل: إنه له وقيل: إنه لأبيه(٢٦). وقد ذُكِرَ الكتابُ منسوباً لأبيه عند منْ ترجمَ لوالده الشيخ(٢٧).

٢- كتاب (التقييد على القوانين الفقهية) ذكره له البغدادي (٢٨) وكحالة (٢٩). وهذا الكتاب تعليق وشرح على كتاب أبيه (القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية)(٣٠).

٣- (رجزٌ في الفرائض) ذكرهُ له البغدادي(٣١) وكحالة(٣٢).

٤- (شرح ألفية ابن مالك) ذكره له السيوطي(٣٣) وابن حجر(٣٤) والبغدادي(٣٥) وكحالة(٣٦).

٥- (مختصر البيان في نسب آلِ عدنان) ذكره له البغداديُّ(٣٧).

٦- (النشر الزكيّ في خبرِ ندامةِ الكسعيّ) وهو هذا الذي ننشره اليومَ لأول مرة، بل إنه الوحيدُ الذي طبع من مؤلفات ابن جزيّ وفيما نعلم. والغريب في الأمر أننا لم نجدْ أحداً ممن ترجم لابن جزيء يذكرُ له هذا الكتاب مع ما ذُكر من كتبه، فما الذي يجعلنا نطمئنُ إلى صحةِ نسبتهِ إليه؟

وفضلاً عن هذا لم يردْ للكتاب ذكرٌ عند منْ فهرسوا لتراثنا الخالد، ولم نقعْ على نسخةٍ أخرى له على الرغم من بحثنا وتقصينا لخبره.

لكننا وجدنا اسم المؤلف مثبتاً عليه، هذا أمرٌ.. وأمرٌ آخرُ وجدناهُ مساعداً لنا في تحقيق تلك النسبة وهو أنّ المؤلف أحالَ في كتابهِ وفي موضعين منه على كتاب له شرَحَ فيه ألفية ابن مالكٍ. وقد رأينا عند الكلام على كتب المصنف أن بينها شرحاً للألفيةِ، ذكره له السيوطي(٣٨) وابن حجر(٣٩) والبغدادي (٤٠) وكحالة(٤١).

وأمر ثالث، قد يفيدنا في تحقيق هذه النسبة، وهو أن في آخر النسخة المخطوطة عبارةَ (بلغ عراضاً بأصله) وفي أثناء المخطوط رأيتُ عبارةَ تصحيحٍ ناتجٍ عن مقابلةٍ وعراضٍ بالأصل.

إنّ هذه الأمور مجتمعةً تقوي صحة نسبةِ الكتاب إلى أبي بكر بن جُزَيّءٍ وتؤكدُ هذه النسبة.

يقع أصلُ هذا الكتاب في أول مجموعٍ، وجدته في بيت خالي وهو ابن أخي الشيخ مصطفى الغلاييني رحمه الله وصاحب المخطوط وقد ضمّ هذا المجموع سبعة كتب في الأدب واللغة وهي:

١- النشر الزكيّ في خبر ندامةِ الكسعي ويقع في ثماني ورقات.

٢- كتاب في اللغة سقط أوله وهو في ألفاظ خاصة درج الكتّابُ على استعمالها. لم يعرف اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه، وأوراقه ٤٨ ورقة.

٣- أفضل الكلام فيما أخِذَ من الأغلاط على العوام ١٢ ورقة، لم يذكر اسم مؤلفه.

٤- الإلهامُ فيما لحنَ به العوامُ لعلي بن حمزة في ٢٠ ورقة.

٥- الممدود والمقصور لابن الطبيب وهو في ٩ ورقات.

٦- كتاب المذكر والمؤنث لابن البشري النصري ١٠ ورقات.

٧- كتاب الشاء لابن رتويه (ونظن صوابه: لابن درستويه) والنسخة قديمة جداً وغير مقروءة، ويقع في ١٨ ورقة.

وعدد أوراق هذا المجموع ١٢٥ ورقة. كُتب بأقلام عدة ناسخين، وقد ظهر ذلك من مقارنة الكتب السبعة، وقد أغفل نساخُ أربعة كتب منها ذكر أسمائهم لكن كتاب ابن جزيءٍ كان بخط ناسخ ذكر اسمه وتاريخ النسخ، وهو محمد بن علي شمس الدين الشافعي، فرغ من نسخه عصر يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٢٣٠هـ. إلا أنه لم يذكر مكان النسخ.

وأوراقه ثمانٍ، في كل ورقة ١٥ سطراً، وقياسُ الورقة الواحدة ١٤ × ٢٠ سم والمخطوط جيد، لولا بعض الطمسِ الذي أصابَ شيئاً يسيراً من كلماته. وقد كتبه ناسخه بالخط الفارسي، وضبطه ضبطاً تاماً صحيحاً.

والمخطوط معارض بأصله، وقد يكون هذا الأصل بخطِّ مؤلفه.

ويوجد على الورقة الأخيرة قيد تمليك جاء فيه: (ملكه بالشراء الشرعي مصطفى بن محمد سليم الغلاييني البيروتي، وهو في منفاه(٤٢) في ٢٢ من ذي الحجة ١٣٤٢ و٢٤ من تموز ١٩٢٤).

وبعد.. هذا عملي أرجو أن يجد صدى طيباً في نفوس القراء الأعزاء، وإنْ تكن الأخرى فأستميحُ قارئي العذر في كل ما بدرَ من تقصير، وفوق كل ذي علم عليم.. ربّ أوزعني أن أشكرَ نعمتكَ التي أنعمتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ وأدخلني برحمتكَ في عبادكَ الصالحين"

والحمد لله ربِّ العالمين

محمد أديب عبد الواحد جمران/حمص

الخميس ١٤/ذي القعدة/ ١٤١٥هـ

١٣/ نيسان/ ١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

قال القاضي أبو بكرٍ أحمدُ بنُ محمد بن جزيّءٍ، علمُ الأئمةِ، وحبرُ الأمة: الحمدُ للهِ ذي الحولِ والطولِ،

ولا إله إلا الله مُلهمُ الفعل والقول، أحمدهُ حمد الشاكرين، وأشكرُ له أنعمهُ وأصلي وأسلمُ على نبيه المبعوث رحمةً للعالمين.

أما بعدُ:

فإنَّهُ من المعروف بينَ الخلقِ والمعلوم، أنَّ علمَ العربية لغةً ونحواً مزكَّاةٌ(٤٤) إلى سائر العلوم. بها يُكْشَفُ المجهولُ، ويعرفُ القول.. (٤٥) مما عزبَ عن الأذهانِ فهمهُ، ونأى عن الإدراك علمُه.

ولقد سألني من لا أقوى على رد طلبه، أنْ أذكر له ما انتهى إليه علمي من خبر الكسعي بعجلته وشغبه(٤٦)، وأن أشرح لهُ غامضَ اللغةِ في شعرِه، ليدركَ معناهُ ويُعرفُ الكامنُ من سرِه وفكرِه.

فاستعنتُ بالواحد الأحد، الفردِ الصمد، وطلبتُ كلَّ العون، من مبدع هذا الكون، لأبي لأبي الحجاج(٣٧)، السلطان يوسف ابن إسماعيل النصريّ(٤٨) سلطانِ الديار، وحامي الذمار، كلَّ ما طلبهُ وابتغاهُ، أدامَ اللهُ دولتهُ وحقق رجاهُ، ونصرَ المسلمين به وأمكنهُ من كلِّ من خالفهُ وعاداهُ.

قال القاضي أبو بكرٍ:

قالتِ العربُ في بعضِ أمثالها: أندمُ من الكسعيِّ(٤٩).

ويقولون: ندمَ ندامةَ الكسعيِّ(٥٠) ويقالُ: من خالفَ رأيَ الألمعيِّ ندمَ ندامةَ الكُسعيِّ(٥١) والكسعيُّ هذا، هو محاربُ بنُ قيسٍ(٥٢)، ينسبُ إلى كُسعٍ(٥٣)، بطنٍ من حميرَ، قومٌ رماةٌ، من أرمى البشر. قال ابن المُظفر(٥٤).

وقيل: هو من حيٍّ من قيسِ عيلانَ(٥٥)، أو من بني سعد بنِ ذُبيان(٥٦٩).

وقيل: اسمهُ عامرُ بنُ الحارث(٥٧)، أو أنه حامدُ بنُ الحارث(٥٨) من بني ثعلبةَ بن سعد بن قيس عيلان، ولعلَّ في الأخيرِ تصحيفاً.

قال حمزةُ:(٥٩) هو من كسعة، واسمه محاربُ بن قيس(٦٠)، وقيل: بلْ هو من بني محارب(٦١)، شاعرٌ راجزٌ، به يضربُ المثل بشدةِ الندم(٦٢).

ومن خبرِه الذي رواهُ حمزةُ أنَّهُ كان يرعى إبلاً لهُ بوادٍ معشبٍ فيه حمضٌ وشوحطٌ(٦٣)، فبينا هو كذلك إذ بصر بنبعةٍ في صخرةٍ، فأعجبته، فقال: ينبغي أن تكون هذه قوساً(٦٤). فجعل يتعهدها ويرصدها(٦٥)، حتى إذا أدركت قطعها وجففها.. فلمَّا جفتْ اتخذ منها قوساً، وأنشأ يقول (من الرجز).

يا ربِّ وفقني لنحتِ قوسي

فإنها من لذتي لنفسي

وانفعْ بقوسي ولدي وعرسي

أنحتها صفراءَ مثل الورسِ

كبداءَ ليستْ كالقسيِّ النُّكسِ(٦٦)

قال أبو بكر: كالقسيّ يا ربّ سددني(٦٧). ونحتَ القوسَ ينحتها، بالكسر: براها، ونحتُ القوس: بريُها(٦٨). وقولهُ: فإنها من لذتي لنفسي. أرادَ أنّ حصوليَ على القوسِ وبريها من سعادةِ نفسي وسروري.
وقوله: ولدي وعرسي. قال صاحبُ المحكم:(٦٩) الولدُ والولدُ، بالضمّ: ما ولدَ لك أيّاً كانَ، وهو يقع على الواحد والجمع والذكرِ والأنثى، والمرادُ به ههنا الجمعُ من الأولاد ذكوراً وإناثاً. وعرس الرجلِ: زوجةُ، وعرسُ المرأة: زوجها. قال: (٧٠) (من الرجز)

أزهرَ لم يُولدْ بنجمِ نحسِ

أنجبُ عرسٍ جُبلا وعرسِ

أراد أنجبُ عرسٍ وعرسٍ جُبلا، وقال الشاعر(٧١)، وقد ثنّى: (من البسيط)

حتّى تلاقى، وقرنُ الشمس مرتفعٌ أدحيّ عِرسين فيه البيضُ مركومُ(٧٢)

تلاقى: تداركَ، والأُدحيُّ: مبيض النعام في الرملِ. وأرادَ بالعرسين الذكر والأنثى. والصفراء: القوسُ تتخذ من نبعٍ، وهو شجرٌ معروف. قال(٧٣)

وصفراءُ من نبعٍ كأنّ عِدادها مزعزعةٌ تُلقي الثيابَ حطومُ(٧٤)

كماشيةِ المحذوفِ زيّنَ ليطها(٧٥) من النبعِ أزرٌ حاشِكٌ وكتومُ

وقوله: مثل الورسِ. قال الأزهريّ:(٧٦) الورسُ: صبغٌ، وقال في الصحاح: /هو نبتٌ أصفرُ يكونُ باليمنِ، تُتخذُ منه الغمرةُ(٧٧) للوجه. وقال صاحبُ النبات:(٧٨) الورسُ ليس ببريّ، يزرعُ سنةً، فيجلسُ عشرَ سنين، أي أنهُ يُقيمُ في الأرضِ، ونباتهُ مثلُ نباتِ السمسمِ.
وقوله: كبداء، أي قوسٌ كبداءُ، وهي الغليظةُ الكبدِ، يملأُ مقبضها الكفُ. وكبدُ القوسِ: فويقَ مقبضها حيث يقعُ السهمُ. قال رؤبة:(٧٩)

سوّى لها كبداءَ تنزو في الشنَقْ(٨٠)

نبعيّةً ساورها بينَ النيَقْ

وقال أبو النجم يصفُ صائداً وقوسهُ:

في كفّهِ اليُسرى على ميسورها(٨٢)

كبداءُ قصّاءُ على تأثيرها

هتافةٌ تخلِصُ من نذيرها

والقسيُّ النكسُ: الضعافُ، والأصلُ أن هذه الصفةَ تكونُ في السهامِ، يقالُ: سهمٌ نكسٌ، بالفتح، أي أنهُ يُنكَسُ، أو أنّه الذي ينكسرُ فُوقُهُ، وسهامٌ أنكاسٌ: ضعافٌ.

قال حمزةُ: ثم دهنها، وخطمها بوترٍ، ثم عمدَ إلى ما كان من برايتها، فجعل منها خمسةَ أسهمٍ، وجعل

يقلّبها في كفه وينشدُ:(٨٥)

هُـنَّ وربـي أسـهمٌ حسـانُ

تلـذُّ لـلرامي بهـا البنـانُ

كأنهـا قومهـا مـيزانُ

فأبشـروا بـالصيد(٨٨) يـا صبيـانُ

إن لـم يعقنـي الشـؤمُ والحرمـانُ

قلتُ: خطمها بوتر: ربطها وشدها، قال صاحبُ اللبات: خطمَ القوسَ بالوترِ /يخطمها خطماً وخطاماً: علقهُ عليها، وقد يُستعارُ الخطامُ للدلوِ قال:(٨٩) (من الرجز)

إذا جعلتُ الدلـو فـي خطامهـا(٩٠)

حمـراءَ مـن مكـةَ أو إحرامهـا

قولهُ: وربي: قسمٌ، والواو مختصةٌ بالقسمِ، وكذلك التاءُ(٩١)، ولا يجوزُ ذكر فعل القسم معهما(٩٢). ذكرتُ ذلكَ في شرحي على الألفية(٩٣). وقد اعترض بالقسم بين المبتدأ والخبر.

وقولهُ: أسهمٌ حسانٌ، بكسر الحاء جمعُ حسنٍ، يكونُ للمذكر والمؤنث، ويجوزُ أن يقول: حسانٌ، بضمّ الحاء، وهو مخففٌ من حُسّان، والحُسّان، بالتشديد أحسنُ من الحَسَنِ(٩٤).

والبنان: الأصابعُ، وقيل: أطرافها، الواحدة بنانةٌ، وفي التنزيل: "واضربوا منهم كلَّ بنانٍ(٩٥)". وقال الشاعر:(٩٦) (من الرجز)

لا هُمَّ أكرمتَ بنـي كنانـةْ(٩٧)

ليـسَ لحـيٍّ فوقهـمْ بنانـةْ

أراد ليس لأحدٍ عليهمْ فضلٌ قدرَ إصبعٍ، أو طرف(٩٨) من الإصبعِ، شبه أسهمه الحسان بالبنانِ، وهي أطرافُ الأصابعِ.

وميزانٌ أصلهُ موزانٌ، انقلبتِ الواوُ ياءً لكسرةِ ما قبلها.

وصبيانٌ جمعُ صبيٍّ تقولُ: هؤلاء صبيانٌ وصُبْيانٌ- بضم الصاد وكسرها- والكسرُ أحسنُ، وهمْ صبيةٌ وصبوةٌ وصُبْيةٌ وأصبيةٌ وصبوانٌ وصُبْوانٌ وصِبْيانٌ وصبيانٌ، والأخيرةُ ضُمّتِ الصادُ فيها بعد قلبِ الواو/ ياءً:

ولمْ يعقني: لمْ يصرفني ويحبسني. تقولُ: عاقهُ(٩٩) عن الشيءِ وعوّقهُ وتعوّقهُ، والأخيرةُ عن ابن جني، أي صرفهُ عنهُ وحبسهُ.

والشؤمُ: خلافُ اليمنِ، وقد شئمَ عليهمْ، وشؤمَ، وشأمهمْ، وتشاءمَ بالأمر(١٠٠). والحرمانُ: اسمُ

ومصدرٌ من قولك: حرمهُ الشيءَ يحرِمُه، حرِمةً وحرِماً وحرماناً وحرمةً وحرقةً وحريمةً، أي منعهُ العطاءَ.

قال حمزة(١٠١): ثمّ خرج ليلاً(١٠٢) حتى أتى قُترةً على موارد حُمُرٍ، فكمن فيها، فمرّ به قطيعٌ منها، فرمى عيراً منها بسهمٍ، فأمخطهُ، وجازه إلى الجبلِ(١٠٣)، فأورى ناراً، فظنّ أنهُ أخطأه، فأنشأ يقولُ: (من الرجز)

أعوذُ بسُما العزيزِ الرحمنْ(١٠٤)

من نكدِ الجدّ معاً والحرمانْ

مالي رأيتُ السهمَ بين الصّوّانْ

يُوري شراراً مثل لونِ العقيانْ(١٠٥)

قد أخلفَ(١٠٦) اليومَ رجاءَ الصبيانْ

قال أبو بكر: أعوذ بالله: ألجأ إليهِ، واعتصمُ به، وقد عاذ بالله عوذاً وعياذاً ومعاذاً: لجأ إليه.

و(سُما) لغةٌ في الاسم، وفيه ستُّ لغاتٍ(١٠))، ذكرتها في شرح الألفية(١١٠) والعزيزُ: من أسماءِ الله الحُسنى، وصفاتهِ العليا، قال الزجّاجُ(١١١) في معناه: هو الممتنعُ، فلا يغلبهُ مع رفعةٍ وامتناعٍ.

والرحمنُ: فعلانُ من الرحمةِ، ومعناهُ كثيرُ(١١٢) الرحمةِ، من أبنيةِ المبالغةِ، قال الزجّاجُ: هو من أسماء الله عزّ وجلّ، مذكورٌ في الكتب الأول، وحكى أبو منصور(١١٣) عن ثعلبٍ(١١٤) أن الرحمن عبرانيٌّ والرحيمُ عربيٌّ(١١٥).

والرحمن لفظٌ مقصورٌ على الله عز وجلّ، والرحيم قد يكون لغيرهِ. وقوله: نكدُ الجدّ. الجدُّ، بفتح الجيم: الحظُّ والرزقُ، وفي حديثِ الدعاءِ: "اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفعُ ذا الجد منك الجدُّ"(١١٦) معناهُ من كان له حظٌ وغنى في الدنيا لم ينفعه ذلك في الآخرة، وإنما ينفعهُ العملُ بطاعتكِ؟ والصوانُ، بالتشديد: حجارةٌ يقدحُ بها. قال صاحبُ التهذيب:(١١٧) حجارة صلبةٌ إذا مستها النارُ فقعتْ وتشققتْ، وربما كان قداحاً تقتدحُ به النيرانُ. قال الشاعرُ:(١١٨) (من الطويل)

يرى وقْعَ الصوان حدّ نسورها	فهنّ لطافٌ كالصعادِ الذوابلِ

ويوري شراراً، من: أورى يوري، وقد ورتِ النارُ تري، ووري الزندُ يري، وورى يري، ويَوْرى، كله بمعنى اتّقدَ(١١٩)، وقد أوريته أنا، ووَرّيتُه(١٢٠)، قال الشاعر:(١٢١) (من الطويل)

وأطفِ حديثَ السوءِ بالصمتِ إنّه	متى تُورِ ناراً للعتابِ تأجّجا

أي متى توقد. وهو من: أورى. والشرارُ والشررُ: ما تطايرَ من النار. قال تعالى: "إنها ترمي بشرر كالقصر(١٢٢)" وقال الشاعرُ(١٢٣): (من المنسرح)

أو كشرارِ العلاةِ يضربها الـ	ـقينُ، على كلّ وجهٍ تنشبُ(١٢٣)

وواحدةُ الشررِ شررةٌ، وواحدةُ الشرار شرارةٌ

والعقبان: الذهبُ، قاله الأزهريُّ، وقال أبو الريحان(١٢٤): يقالُ لما استغني عنه من الذهب بلخوصته عن الإذابة العقيان، وأظنُّ أنّ منه سرّ العقيانِ.(١٢٥) وأنشدَ:(١٢٦)(من الطويل)

كمستخلص العقيان جاء بحكّه وطابَ على إحمائِهِ حينَ يوقَدُ

والعقيانُ غيرُ العقيقِ الذي هو من الحجارةِ(١٢٧).

قال حمزة:(١٢٨) ثمّ مكثَ في مكانِهِ، على حالِهِ، فمرَّ به قطيعٌ من الحُمُرِ آخرُ، فرمى منها عيراً، فأمخطهُ السهمُ، وجازهُ إلى الجبلِ، وصنع صنيع الأولِ، ثم أنشأ يقولُ: (من الرجز)

لا بـاركَ الرحمـنُ فـي رمـي القُـتَرْ

أعوذُ بالخـالق مـن سـوءِ القَـدَرْ(١٢٩)

أَمخطَ السـهمَ لإرهـاقِ البصـرْ(١٣٠)

أمْ ذاكَ مـن سـوءِ احتيـالٍ ونظـرْ(١٣١)

أمْ ليس يغني حـذرٌ عنـد قـدرْ(١٣٢)

قوله: لا باركَ الرحمنُ روي:(١٣٣)

أعـوذُ بـالرحمن مـن سـوءِ القـدرْ

لا بـاركَ الرحمـنُ فـي أمِّ القُـتَرْ

قلتُ: القُتَرُ: جمعُ قُترةٍ، وهي ناموسُ الصائدِ، أو الحفرةُ يحتفرها ليكمنَ فيها.

وسوءُ القدرِ ههنا سوءُ الطاقةِ والاستطاعةِ، إذْ لا يصحُّ للإنسان أنْ يتعوذَ بالخالقِ من سوءِ ما قدرهُ لهُ، لأنّ الله تعالى لا يُقدرُ سوءاً. وفي الكتاب العزيز:(وعلى الموسع قَدَرُهُ وعلى المقتر قَدَرُهُ)(١٣٤) والقَدرُ، بالتحريك والتسكين، وقد قرئت الآيةُ بهما؟(١٣٥) قاله الفرّاء(١٣٦).

والبصرُ: العينُ، وقيلَ: حاسّةُ الرؤيةِ، وجعلهُ صاحبُ المحكم حسّ العينِ. والاحتيالُ والحيلةُ والمَحيلةُ والمحالةُ: القدرةُ والمحاولةُ. والنظرُ نظرانِ:(١٣٧) نظرُ العينِ، ونظرُ القلبِ، وأرادَ الثاني منهما.

يقول: لا باركَ الله في الصيد الذي يكون من تلك القتر، وإنني ألوذُ بعفو الله من سوء طاقتي، وضعف قدرتي على الصيد، فهل أخاب سهمي بسبب إجهادِ العين وكلالها، أمْ أن إخفاقي في الصيد كان من سوء المحاولةِ، وعدم الاهتمام بالأمر؟ أم أن حذر الإنسانِ مهما اشتدّ لا يمحو ما قدر لهُ.

قال حمزةُ:(١٣٨) ثم مكثَ على حالهِ، فمرَّ به قطيعٌ آخرُ، فرمى عيراً، فأمخطهُ السهمُ، فصنع صنيع الثاني، وأنشأ يقولُ: (من الرجز)

مـا بـالُ سـهمي يوقـدُ الحُباحِبـا(١٣٩)

قـد كنـتُ أرجـو أن يكـونَ صائبـا

قدْ أمكنَ(١٤٠) العيرُ وولّى جانبا

فصارَ رأيي فيهِ رأياً خائبا(١٤٢)

أظلُّ منهُ في اكتئابٍ دائبا(١٤٣)

يُروى: فأخطأ العيرُ.(١٤٤)

قولهُ: يوقدُ الحباحبا، أي نارَ الحباحبِ، على حذفِ المضافِ، كقوله تعالى:

(واسألِ القريةَ)(١٤٥) أي أهلَ القريةِ. ونار الحباحب: ما اقتدح من النارِ فصار(١٤٦) شرراً في الهواء بعد تصادم الحجارة، وأراد ههنا أنّ سهمهُ اصطدمَ بحجارة الجبلِ، فأطلقَ فيه شراراً وأورى ناراً.

وقالَ صاحبُ (حياة)(١٤٧) الحيوانِ: قيل: الحباحبُ كجُداجد، حيوانٌ له جناحان كالذباب، يضيءُ بالليلِ كأنه النارُ، ضربتِ العربُ به المثلَ، فقالت: أضعفُ من نارِ الحباحبِ، وقيل: إنّ الحباحب(١٤٨) رجلٌ من بني محارب بن خصفة، مشهورٌ بالبخلِ، كانتْ له نارٌ ضعيفةٌ، وكان يضعفها مخافةَ نزولِ الضيفانِ به، فضربوا بنارهِ المثلَ؟

وقال في المرصع(١٤٩): يقالُ للنار القليلة التي لا يُنتفع بها، وللذباب الطائر في الليل. أبو حباحب، غير مصروفٍ(١٥٠)

وقوله: صائباً من: أصابَ فهو مصيبٌ على القياس. وصائبٌ شاذٌ، وصاب السهمُ نحو الرميةِ يصوبُ صوباً وصيبوبةً إذا قصد ولم يُجزْ. وصاب السهمُ القرطاسَ صيباً لغةٌ في أصابهُ(١٥١)، وهذا سهمٌ صائبٌ، أي قاصدٌ، وفي المثل: مع الخواطيءِ سهمٌ صائبٌ.(١٥٢) وجمعُ صائبٍ صيابٌ قال:(١٥٣) (من الطويل)

إذا نهضتْ فيه تصعَّدَ نفرُها كقترِ الغلاءِ(١٥٤) مستدرٌ صيابُها(١٥٥)

وقوله: قد أمكن العيرُ، رويَ: وأخطأ العيرُ. كما رويَ: إذْ أمكنَ العيرُ وأبدى جانبا(١٥٧). وأمكنَ العيرُ: ظفر بالنجاةِ وولى هارباً. يقالُ: ولّى الفرسُ وتولّى إذا أدبر، وولى عنهُ، أي أعرضَ، ووليتُ الشيءَ(١٥٨) ووليتُ عنه بمعنىً. وولى جانبهُ: أعرض وأدبر مظهراً جانبهُ، ويجوزُ أن يكونَ (ولّى جانباً) بمعنى ولّى عن جانبهِ، فحذف وأوصلَ، وهو كما قال الشاعرُ(١٥٩): (من الطويل)

إذا حاجةٌ ولّتْكَ لا تستطيعها فخذْ طرفاً من غيرها حين تَسبقُ(١٦٠)

أراد: ولتْ الحاجةُ عنك.

وقوله: (فيه) الضمير راجع على السهم. و(خائباً) من الخيبةِ، وهي الحرمانُ والخسرانُ، وقد خاب يخوبُ ويخيبُ، وبالواو والياء، أيْ خسر. والاكتئابُ والكآبةُ: الحزنُ وسوءُ الحالِ، و(دائباً) من الدأبِ والدأبِ، وهما لغتان في العادة والشأنِ وملازمة الأمرِ. وقد دأب يدأبُ دأباً ودُؤوباً فهو دائبٌ، إذا كان ملازماً للعادة والأمرِ.

قال حمزة: ثم مكث على حالهِ، آسفاً يترقبُ، فمرّ به قطيعٌ آخرُ، فرمى منها عيراً بسهمٍ، فأخطأهُ، فصنع صنيع الثالث، فأنشأ يقولُ:(١٦٢) (من الرجز)

يا أسفا للشؤم والجد النكد(١٦٣)

في قوس صدق لم تؤتر بأود(١٦٤)

أخلف ما أرجو لأهل وولد(١٦٥)

فيها ولم يغن الحذار والجلد(١٦٦)

لخاب ظن الأهل جمعاً والولد(١٧٦)

قلت: يا أسفا، من الأسف، وهو أشدُّ الحزنِ والغضب. وقد أسفَ أسفاً فهو أسِفٌ وآسفٌ وأسفانُ وأسوفٌ وأسيفٌ، أي حزينٌ غاضبٌ. وقد يكونُ الأسفُ بمعنى الجزع. قال تعالى: (يا أسفا على يوسف)(١٦٨)، أي يا جزعاه، قاله مجاهد(١٦٩) وقيل في معنى الآية: واحزناه، قالهُ قتادةُ والحسن(١٧٠). قال الشاعر:(١٧١) (من الطويل)

فيا أسفا للقلب كيفَ انصرافهُ وللنفس لما سُليتْ فتسلّتِ(١٧٢)

وأصلهُ يا أسفي، بالياء، والألفُ بدلٌ من ياء المتكلم(١٧٣).

والأودُ: العوجُ.

وقولهُ: أخلف ما أرجو، هو منَ الخُلفِ والخُلْفِ، وهما لغتانِ في نكث العهودِ والتخلي عن الوعود، ويجوزُ أن يكونَ على المجازِ من: أخلفتِ النجومُ عن أنوائها إذا أمحلتْ ولم يكنْ لنوئها مطرٌ. والحذارُ: المحاذرةُ، والجَلَدُ: الشدةُ والقوةُ والصبرُ.

قال حمزةُ: ثمَّ مكث على حالهِ، فمرَّ به قطيعٌ آخرُ، فرمى منها عيراً بسهمٍ، فأمخطهُ، فصنع صنيعَ الرابع(١٧٤)، ثم أنشأ يقول:(من الرجز)

أبعدَ خمسٍ قد حفظتُ عدَّها

أحملُ قوسي وأريدُ وِرْدَها

أخزى إلهي لِيْنَها وشدَّها(١٧٥)

واللهِ لا تسلمُ عندي بعدها

ولا أرَجّي ما حييتُ رِفدها(١٧٦)

قلتُ: قوله :قد حفظتُ عدَّها، أي عددها، وورِدُ القوس: نصيبها، أي ما يقسمُ له من الصيدِ، وأصلهُ أنَّ الورد النصيبُ من الماءِ، واستعارهُ لصيدِ قوسهِ. وروي: وأريد ردَّها(١٧٧).

وقولهنُ: أخزى إلهي: دعاءٌ على قوسه بالخزي، وهو الذلُّ والهوانُ، وقد يكونُ الخزيُ بمعنى الفضيحةِ، كقوله تعالى: (ذلك لهمْ خزيٌ في الدنيا)(١٧٨) وقد يجيء الخزيُ بمعنى الهلاكِ والوقوع في البلاءِ، وفي حديث شارب الخمرِ: "أخزاهُ اللهُ"(١٧٩)

وقوله: لينها وشدها، أي أنها تعطي في الدفع فتكون لينة، وتمنعُ أن توتَر لأنّ فيها شدةً.واللين والشدُ في القوس صفتان فيها، قال الشماخ(١٨٠) يصف قوساً وذكرَ اللين فيها: (من الطويل)

وذاكَ فأعطته من اللين جانباً   كفى ولها أن يغرق السهمَ حاجزُ(١٨١)

أراد أن رامِيها إنْ أراد أن يغرق النبل فيها منعتْ ذلك لأنّ فيها ليناً وشدةً. وقال آخر:(١٨٢) (من الرجز)

في كفهِ معطيةٌ منوعُ

وقال الكميتُ(١٨٣): (من الخفيف)

وأفلتنا ملء الشمال من النبع   حظ تعطي وتمنعُ التوتيرا(١٨٤)

أراد أنها تعطي في الرمي، وتمنعُ أنْ تُوتَر، فيها لينٌ وشدةٌ.

وقال آخر(١٨٥) (من الرجز): شريانةٌ تمنع بعد لينِ

وقال الهذلي(١٨٦) ووصف صائداً: (من الوافر)

لهـا مـن غيرها معها قرينٌ   يردُ مراح عاصيةٍ صنفوقِ(١٨٧)

العاصيةُ: القوسُ فيها صلابةٌ وشدةٌ. وصنفوقٌ: فيها لينٌ.

قولهُ: واللهِ لا تَسلمُ عندي بعدها، قَسَمٌ على كسرِها، وأنه لا يرجو أنْ له منها عطاءً. وما حييت: مدة حياتي.

قال حمزة: ثم خرج من قترته على يأسٍ منه، فعمد إلى قوسه، فضرب بها صخرةً، فكسرها، ثمّ بات ليلتهُ على حالهِ عندها. فلما أصبح، نظر، فإذا الحمرُ الخمسةُ مُصرّعةٌ(١٨٨) حوله، وأسهمهُ مضرجةٌ بالدماء، فندمَ على كسر قوسه، وشدَّ على إبهامه فقطعها، وأنشأ يقولُ:(١٨٩) (من الوافر)

ندمتُ ندامةً لو أنَّ نفسي   تطاوعني إذاً لقطعتُ خمسي(١٩٠)

تبينَ لي سفاهُ الرأيِ مني   وحمقٌ بالغٌ قد زادَ يأسي

فوالكِبدي لما فرّطتُ حمقاً   لعمرُ الله حين كسرتُ قوسي(١٩١)

قلت: قولهُ: تطاوعني: تنقادُ لي وتوافقني، فتقبلُ طاعتي وتذعنُ لي. يقالُ: طاعهُ يطوعهُ، وطاوعهُ يطاوعهُ، قال الشاعر(١٩٢): (من الوافر)

ولقد قادت فؤادي في هواها   فطاعَ لها الفؤادُ وما عصاها(١٩٣)

وقوله: (لقطعت خمسي، أرادَ أصابعه الخمس، تقولُ: خمسُ أصابعٍ، فتؤنثُ، وخمسةُ أصابعٍ، فتُذكرُ، لأن الإصبع تذكرُ وتؤنثُ.

وفيها لغاتٌ حكاها اللحياني عن يونس وهي: الإصبعُ والأُصبُعُ والأَصبعُ والأُصبِعُ والإصبُع والأَصبُعُ والإصبَعُ، وهي نادرةٌ، والأُصبُوعُ.

وسفاهُ الرأي: خفةُ العقل والحلم، وهو السَّفاهُ والسَّفَهُ والسَّفاهة. وقد سَفِهَ وسَفُهَ، لغتان بمعنى، والأولى أعلى، ولغةُ الضمّ قليلةٌ. قالَ تعالى: (إلا مَنْ سَفِهَ نفْسَه (١٩٤) ومنعَ بعضهمْ لغةَ الضمّ لأنّ (فَعُلَ) لا يكونُ متعدّياً؟ وحمقٌ بالغٌ: أكيدٌ.

قوله: (واكبدي) ندبةٌ. و(وا) حرف مختص بالندبة، موضوع لها. قيل: الواو فيه بدلٌ من ياء (يا) التي للنداء، والصوابُ أنه موضوعٌ للندبة(١٩٥). وفرطتُ: قصَّرتُ وفرطتُ، بالتخفيف: أسرفتُ. وفي حديث الإمام علي كرم اللهُ وجههُ: لا يُرى الجاهلُ إلا مفرطاً أو مُفَرّطاً. بالتخفيف: المسرفُ وبالتشديد المقصرُ(١٩٦)

و(لَعَمْرُ الله) قسمٌ. عمرٌ مبتدأ خبره محذوف على الوجوب(١٩٧) ورُوي: لعمرُ أبيكَ(١٩٨) والعُمْرُ والعُمُر، لغتان فصيحتان، بمعنى الحياة، فإذا أقسموا فالفتحُ لا غيرُ. قال تعالى: (لَعَمْرُكَ إنهم في سكرتهمْ يعمهون)(١٩٩).

قال أبو بكر: وسارتْ ندامتهُ مثلاً لكلّ نادم على ما تجني يداهُ. وحكى المثلَ فيه كلُّ من وصلَ هذا الخبر إليه ونثاهُ(٢٠٠)

واستعملته الشعراءُ، وتحدثتْ عنه البلغاءُ وجِلَّةُ الأدباء. قال الحطيئة:(٢٠١)

ندمتُ ندامةَ الكسعيّ لمّا ... غدتْ مني مطلقةً نوارُ(٢٠٥)

وصرتُ كفاقىءِ عينيه جهلاً ... فأصبح لا يضيءُ لهُ نهارُ

وكانتْ جنتي فخرجتُ منها ... كآدمَ حينَ لجَّ بهِ الضرارُ

ولو ضننتُ بها نفسي وكفّي ... لكانَ عليّ للقدرِ اختيارُ

وقال آخرُ: (٢٠٦) (من الوافر)

ندمتُ ندامةَ الكسعيّ لمّا ... رأتْ عيناهُ ما فعلتْ يداهُ

تمّ على يد مؤلفهِ، والحمدُ لله وحده، والصلاةُ على من لا نبي بعده.

قال محررُ هذه النسخة محمد بن علي، شمسُ الدينِ الشافعيُّ، غفر الله له الذنوب، وستر في الدارين له العيوب.:

كان فراغي من تحريرها عصر يوم الأربعاء، الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ثلاثين ومائتين وألف للهجرة، على صاحبها أفضل التحية وأزكى السلام، والحمد لله رب العالمين.

- بلغ عراضاً بأصلهِ-

الحواشي والتعليقات

(١) الدرر الكامنة: ٢٩٣/١.
(٢) بغية الدعاة: ٣٧٥/١.
(٣) ذيل كشف الظنون: ١١٩/١ وهدية العارفين: ١١٥/١.
(٤) معجم المؤلفين: ٧٦/٦.
(٥) برنامج الوادي آشي ص٩٩.
(٦) الكتيبة الكامنة: ١٣٨.
(٧) نفح الطيب: ٥١٤/٥.
(٨) الكتيبة الكامنة: ١٣٨ حواشي المحقق.
(٩) نفح الطيب: ٥١٤/٥.
(١٠) المصدر السابق: ٥١٥/٥ والكتب مسماة فيه.
(١١) المصدر السابق: ٢٨٦/٧.
(١٢) المصدر السابق: ٥١٥/٥.
(١٣) المصدر السابق.
(١٤) المصدر السابق: ٥١٧/٥.
(١٥) الكتيبة الكامنة: ١٣٨.
(١٦) نفح الطيب: ٥٦٥/٥.
(١٧) المصدر نفسه: ٥١٦/٥.
(١٨) الكتيبة الكامنة: ١٣٨.
(١٩) نفح الطيب: ٥٦٥/٥.
(٢٠) المصدر نفسه: ٥١٦/٥.
(٢١) المصدر نفسه: ٢٨٦/٧.
(٢٢) الدرر الكامنة: ٢٩٣/١ وبغية الوعاة: ٣٧٥/١.
(٢٣) الدرر الكامنة: ٢٩٣/١.
(٢٤) معجم المؤلفين: ٧٦/٦.
(٢٥) نفح الطيب: ٥١٧/٥.
(٢٦) المصدر نفسه.
(٢٧) المصدر نفسه: /٥١٥.
(٢٨) هدية العارفين: ١١٥/١.
(٢٩) معجم المؤلفين: ٧٦/٦.
(٣٠) نفح الطيب: ٥١٥/٥.
(٣١) هدية العارفين: ١١٥/١
(٣٢) معجم المؤلفين: ٧٦/٦.
(٣٣) بغية الوعاة: ٣٧٥/١.
(٣٤) الدرر الكامنة: ٢٩٣/١.
(٣٥) ذيل كشف الظنون: ١١٩/١ وهدية العارفين: ١١٥/١.
(٣٦) معجم المؤلفين: ٧٦/٦.
(٣٧) هدية العارفين: ١١٥/١.
(٣٨) بغية الوعاة: ٣٧٥/١.
(٣٩) الدرر الكامنة: ٢٩٣/١.
(٤٠) ذيل كشف الظنون: ١١٩/١ وهدية العارفين: ١١٥/١.
(٤١) معجم المؤلفين: ٧٦/٦.

(٤٢) نُفي الشيخ مصطفى الغلاييني إلى فلسطين بعد أن اعتقله الفرنسيون للمرة الثانية في ١٦ شباط سنة ١٩٢٤ لمدة خمسة عشر يوماً، ثم أطلقوا سراحه، ونفوهُ إلى فلسطين في الأول من آذار/١٩٢٤ فاختار مدينة حيفا دار إقامة له. انظر ديوان الغلاييني: ١١٥- ١١٦.
(٤٣) في الأصل: ابن جزي؟ انظر ما قدمناه في اسمه ونسبه.
(٤٤) المرقاة: بفتح الميم وكسرها: الواحدة من مراقي الدرج.
(٤٥) كلمة غير واضحة بسبب طمس بعض الحروف.
(٤٦) الشَّغْبُ والشَّغَبُ: لغتان في فعل الشر، يقال: شغبته وشغبت عليه.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(٤٧) في الأصل: لأبي لأبي الحجاج. وفيه غلط.

(٤٨) هو السلطان أبو الحجاج النصري يوسف بن إسماعيل سابع ملوك بني الأحمر في غرناطة، ولي الملك سنة ٧٣٣هـ بعد مقتل أخيه، وتابع قتال الأسبان وثبت لهم. وفي سنة ٧٥٥هـ طعنه رجل مجنون وهو يصلي صلاة عيد الفطر، فمات على الأثر الدرر الكامنة: ٤/٤٥٠- ٤٥١ والحلل السندسية ٢/٢٦٩- ٢٦٤.

٤٩- المثل في: الدرة الفاخرة: ٢/٤٠٧ ومجمع الأمثال: ٢/٣٤٨ والمستقصى: ١/٣٨٦ وجمهرة الأمثال للعسكري: ٢/٣٢٤ وشرح المقامات للشريشي: ١/١٧٩، ومع المثل قصته في هذه المصادر.

(٥٠) الفاخر: ٩٠ وثمار القلوب للثعالبي: ١/٢٤٠ والعقد لابن عبد ربه: ٣/١١.

(٥١) أساس البلاغة: (كسع)

(٥٢) انظر: ثمار القلوب: ١/٢٤٠ والدرة الفاخرة: ٢/٤٠٧ ومجمع الأمثال: ٢/٣٤٨ والمستقصى: ١/٣٨٦ وشرح المقامات: ١/١٧٩ والقاموس وشرحه واللسان: (كسع)

(٥٣) الفاخر: ٩٠ ومجمع الأمثال: ٢/٣٤٨ وشرح المقامات: ١/١٧٩ واللسان والتاج (كسع). وذُكر أنه منسوب إلى كُسعة في: الدرة الفاخرة: ٢/٤٠٧، وإلى كسيعة في اللسان والتاج: (كسع).

(٥٤) هو الليثُ بن المظفّر، وسماه بعضهم الليث بن نصر بن سيّار، صاحبُ الخليلِ وأخذ عنه اللغة والنحو، وأخذ عنه كتاب العين ناقصاً، فأتمه كما قيل بعد وفاة الخليل. كان الليث رجلاً صالحاً بارعاً في الأدب بصيراً بالشعر والنحو والغريب؟ البلغة: ١٩٤ وإنباه الرواة: ٣/٤٢ وبغية الوعاة: ٢/٢٧٠ والمزهر: ١/٧٧ وطبقات ابن المعتز: ٣٨ ومعجم الأدباء: ١٧/٤٣.

(٥٥) اللسان: كسع. (٥٦) الفاخر: ٩٠ وشرح المقامات: ١/١٧٩ وذكر في التاج (كسع) أنه من بني ثعلبة بن سعد بن قيس عيلان.

(٥٧) شرح المقامات: ١/١٧٩. (٥٨) ذكر ذلك الميداني في مجمع الأمثال: ٢/٣٤٨ وصاحب التاج في: (كسع).

(٥٩) هو حمزة بن الحسن الأصبهاني صاحب كتاب (الدرة الفاخرة) في الأمثال السائرة المتوفى نحو سنة ٣١٥هـ. والنقل سيكون بدءاً من ههنا عن كتابه الدرة. فالمؤلف يأخذ عنه الخبر والشعر، ويشرح ذلك في كتابه. انظر الدرة الفاخرة: ٢/٤٠٧.

(٦٠) المصدر نفسه. (٦١) في مجمع الأمثال والتاج (كسع) أنه من بني كُسَع ثم من بني محارب.

(٦٢) انظر الحواشي: (٤٩، ٥٠، ٥١).

(٦٣) في الدرة الفاخرة: (ومن حديثه أنه كان يرعى إبلاً له بوادٍ كثير العشب والحمض) وثمة فروق أخرى في رواية الخبر في سائر المصادر. والحمضُ كل ملح أو حامض من الشجر إذا غمزت ورقه انفقأ بالماء وكان نفر المشمّ نحو النجيل والخذراف والرمث والطرفاء. أما الشوحط فهو ضربٌ من شجر النبع تتخذ منه القسي، ونباته كنبات الأرز له قضبان كثيرة، وله ثمرٌ يؤكل.

(٦٤) النقل حرفي ههنا عن حمزة في الدرة: ٢/٤٠٧ وفي مجمع الأمثال ما يخالف الدرة، والمؤلف والميداني في مجمعه ينقلان عن الدرة لحمزة.

(٦٥) في الدرة: فجعل يتعهدها كل يوم ويراقبها.

(٦٦) المشطور الأخير في الفاخر ٩٠ والدرة: ٢/٤٠٧: (صلداء ليست كقسي النكس) ومثل ذلك في مجمع الأمثال والمحاسن والمساوىء ولكن برواية (صفراء.....) (٦٧) انظر هذه الرواية في اللسان والتاج: (كسع).

(٦٨) في الأصل: (ونحت القوس براها) وفي هذا تكرار، وما أثبتناه أجود.

(٦٩) صاحب المحكم هو علي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨هـ. من أكابر علماء اللغة والنحو.

والنقل ههنا من كتابه (المحكم والمحيط الأعظم) وهو معجم لغوي عظيم مطبوع.

(٧٠) هو العجّاج عبد الله بن رؤبة التميمي راجز أموي ولد في الجاهلية وعمّر حتى توفي سنة ٩٦هـ. والمشطور الأول في ديوانه: ٤٨١ طبعة عزة حسن. وأخلّ الديوان بالمشطور الثاني، وهماله في التكملة واللسان والتاج: (عرس).

(٧١) هو علقمة بن عبدة الفحل التميمي، شاعر جاهلي عاصر امرأ القيس، وكانت بينهما مساجلات شعرية، وفاتهن نحو سنة ٢٠ ق.هـ.

(٧٢) البيت في ديوان علقمة ص: ٢٢ يصف فيه ظليماً. وهو له في اللسان والتاج (عرس).

(٧٣) القائل هو الشاعر ساعدة بن جؤية الهذلي، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، أسلم ولم تكن له صحبة، كان كثير الغريب في شعره.

(٧٤) البيتان لساعدة في ديوانه، ضمن ديوان الهذليين: ٢٣١/١ وهما له في المعاني الكبير: ١٠٧٠/٢، يصف فيهما القوس. وعدادها: صوت حفيفها، ومزعزعة: أي كأنّ حفيفها حفيف ريح عاتية تحطّم ما تمرُّ به والمحذوف: الإزار القصير، ولبطها: لونها وقوس ذات أزر: صلبة شديدة وحاشك: حافل. وكتوم: أي هي قوس ليس فيها صدع أو شقّ.

(٧٥) (لبطها) مطموسة، ونقلناها عن الديوان.

(٧٦) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أحد أئمة اللغة والأدب، تبحّر بالعربية، ورحل في طلبها وألّف كتابه العظيم تهذيب اللغة، وكانت وفاته سنة ٣٧٠هـ. ونقل المؤلف ههنا عن التهذيب: ٥٧/١٣.

(٧٧) في الأصل: العقوة. وهو تحريف صوّبناه عن الصحاح (ورس) لأن النقل عنه. والغمرة: ما تُطلى به العروس من الورس.

(٧٨) صاحب النبات، يريد صاحب كتاب النبات، وهو أبو حنيفة الدينوري أحمد بن داود بن ونند، مهندسٌ مؤرخ، نباتي، لغوي، كان من نوابغ الدهر، وفاته سنة ٢٨٢هـ. وكتاب النبات من أعظم كتبه والنقل هنا عنه.

(٧٩) هو رؤبة بن العجاج التميمي، راجز أموي مشهور، هو ابن العجاج الراجز، كان هو وأبوه وأبو النجم العجلي من أكبر رجّاز عصرهم، كان يكثر من الغريب عاش معظم حياته في البادية لا يغشى المدن إلا ليتكسب بمدائحه. وكانت وفاته سنة ١٤٥هـ.

(٨٠) المشطوران في ديوان رؤبة: ١٠٧ من أرجوزة قالها في وصف المفازة.

(٨١) أبو النجم هو الفضل بن قدامة العجلي، كان راجزاً وشاعراً ظريفاً، عاش متنقلاً بين البادية والبصرة ودمشق، ومدح بعض الخلفاء الأمويين. مات سنة ١٣٠هـ.

(٨٢) المشاطير الثلاثة من الأرجوزة (٣١) الشماطير (٥٢- ٥٣- ٥٤) من ديوان أبي النجم بتحقيقنا.

(٨٣) ربما كانت كلمة (الذي) ساقطة ههنا، حتى تناسب ما بعده.

(٨٤) في الأصل: وخمطها. وهو تحريف، والنقل عن الدرة الفاخرة لحمزة: ٤٠٧/٢.

(٨٥) النقل ههنا حرفيّ عن الدرة بدءاً من قوله: ثم دهنها. وحتى: وينشد. أما سائر مصادر الخبر ففي الرواية خلاف، إلا أنّ نقل الميداني يكاد يكون أقرب إلى ما ذكره حمزة في الدرة الفاخرة.

(٨٦) في شرح المقامات والعباب واللسان والتاج: بلذ. وفي اللسان: للرمي.

(٨٧) في أصلنا وفي شرح المقامات: كأنها. وفي سائر المصادر: كأنّما.

(٨٨) في جميع مصادر الأبيات: بالحسب. وما أثبتناه عن أصلنا المخطوط.

(٨٩) لم نقف على اسم الراجز . (٩٠) المشطوران دون عزو في اللسان: (خطم).

(٩١) قال الزمخشري: باء القسم هي الأصل، والتاء بدلٌ من الواو المبدلة منها. الكشاف: ٣/ ١٢٢ ومغني اللبيب: ١٢٣/١. (٩٢) مغني اللبيب: ٤٠٠/١.

(٩٣) يريد شرح ألفية ابن مالك، وهي من كتب ابن جزي، انظر ما قدمناه من مصنفاته.

(٩٤) انظر اللسان: (حسن). (٩٥) في الأصل: واضربوا فوق كل بنان. وتمام الآية: "فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان" الأنفال: ١٢.

(٩٦) لم نقف على اسم الشاعر. (٩٧) المشطوران دون عزو في اللسان: (بنن) لاهم. أصله اللهم، أي يا الله.

(٩٨) كذا جاء (طرف) بالجر، فهي إما معطوفة على (إصبع) أي قدر اصبع، أو أنها خطأ صوابه (أو طرفاً من الإصبع) بالعطف على قدر.

(٩٩) في الأصل: (عامه) بالميم، تحريف، أو سهوٌ من الناسخ.

(١٠٠) في الأصل: (الأمر) بسقوط الباء. (١٠١) انظر الدرة الفاخرة: ٤٠٨/٢.

(١٠٢) كلمة: (إيلاً) ساقطة من الدرة الفاخرة، مع أنه النقل عنها. والقترة، بيت الصائد يختفي فيه ليراقب الصيد.

(١٠٣) في الدرة: فمرّ قطيع منها، فرمى عنها عيراً، فأخطأه السهمُ، أي جازه وأصاب الجبل.

(١٠٤) في الدرة ومجمع الأمثال والمستقصى والمحاسن والمساوىء والفاخر وشرح المقامات: (أعوذ بالله العزيز الرحمن) وفي العُباب واللسان والتاج: (أعوذ بالمهيمن الرحمن) وانفرد صاحب التاج بكسر الرويّ النون، في حين قيده غيره.

(١٠٥)

(١٠٦) في شرح المقامات: فأخلص. وفي العُباب واللسان والتاج: (أخلف ظني ورجا الصبيان).

(١٠٧) ذكر ابن فارس في: أوجز السير ص: ٢٩ أنها امرأة تميمية، ولم يذكر اسمها.

(١٠٨) الحديث في الفائق: ٣٦/٣ واللسان (عوذ) ومعناه إنك عذت بمكان العياذ، وبمن للعائذين أن يعوذوا به، وهو الله عز وجل. انظر الفائق: ٣٦/٣.

(١٠٩) في اللسان (سما) أنها أربع لغات، وهي عند ابن عقيل في شرحه للألفية: ٣٥/١ ثمان.

(١١٠) انظر الحاشية: ٩٣. (١١١) الزجاج هو إبراهيم بن السريّ بن سهل، عالم باللغة والنحو. مات في بغداد سنة ٣١١هـ. وله كتب في معاني القرآن والاشتقاق والأمالي.

(١١٢) في الأصل: كبير. ولعلّ الصواب ما أثبتناه. (١١٣) هو الأزهري أحمد بن محمد. مرت ترجمته.

(١١٤) هو الإمام ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى، إمام أهل الكوفة في اللغة والنحو، عاش أكثر من ٩٠ سنة، وكانت وفاته سنة ٢٩١هـ، خلّف بعده مكتبة من تأليفه تزيد على ٤٠ كتاباً.

(١١٥) في الأصل: أنّ الرحمن عربي والرحيم عبرانيّ. وانظر اللسان (رحم) وتفسير القرطبي: ١٠٤/١٠.

(١١٦) انظر الحديث في صحيح مسلم ٣٤٦/١- ٣٤٧/ كتاب الصلاة برقمي ١٩٤- ٢٠٥ طبعة فؤاد عبد الباقي وغريب الحديث للهروي: ٢٥٦/١.

(١١٧) في الأصل: صاحب المهذّب. تحريف (١١٨) هو النابغة الذبياني والبيت في ديوانه: و اللسان: ١٤٥ (صون) (١١٩) في الأصل : ارتعد تحريف .(١٢٠) في الأصل: وأوريته. تحريف.

(١١٨) هو النابغة الذبيان والبيت في ديوانه: ١٤٥ واللسان: (صون)

(١١٩) في الأصل: ارتعد – تحريف.

(١٢١) لم نقف على قائله فيما تحت من المظان وهو دون عزو في اللسان: (ورى) أنشده ابنُ بريّ.

(١٢٢) المرسلات: ٨٢. (١٢٣) لم نقف على اسمه.

(١٢٤) في الأصل: (ابن الريحاني) وفيه تحريف. وأبو الريحان هو محمد بن أحمد البيروني المؤرخ الفيلسوف الرياضي، أقام في الهند زمناً واطلع على فلسفة الهند واليونان، وكتبه كثيرة متقنة منها كتاب الجماهر في معرفة الجواهر. وكانت وفاته سنة ٤٤٠هـ.

(١٢٥) قول البيروني في كتابه (الجماهر في معرفة الجواهر) ص:٢٣٦.

(١٢٦) لم أقف على قائله، والبيت في كتاب الجماهر: ٢٣٢ برواية: (جادَ محكُه..)

(١٢٧) في الأصل: من البحار. وفيه تحريف.

(١٢٨) الذي قاله حمزة في الدرة: ٤٠٨/٦: (ثم مرّ به قطيع آخر، فرمى منه عيراً، فأخطأه السهم، فصنع صنيع الأول، وفيه اختصار، وما في أصلنا أتم.

(١٢٩) في شرح المقامات والفاخر: (.. من شر القدر) وروي المشطوران (١-٢) في اللسان والتاج:

أعوذُ بالرحمن من شرِّ القَدرْ ... لا بـارَكَ الرحمنُ في أمِّ القُتَرْ

(١٣٠) في اللسان والتاج (كسب): (أمخط السهم..) بالخاء، وهما بمعنى. وروي المشطور في جميع مصادره: (..إرهاق الضرر) وما أثبتناه عن الأصل.

(١٣١) في الدرة الفاخرة والمستقصى: (من سوء احتيال ونظر) وفي اللسان: (من سوء احتمال..)

(١٣٢) في الأصل: (..حذر عندي قَدَرْ) وصححناه عن سائر المصادر، والمشطور ساقط من: مجمع الأمثال والفاخر والمحاسن والمساوىء. (١٣٣) ذكرنا في الحاشية: (١٢٩) رواية قريبة منها.

(١٣٤) البقرة: ٢٣٦ وحمزة (١٣٥) قرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: (قَدْرُهُ) بتسكين الدال، وقرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: (قَدَرُهُ) بفتح الدال. قال الأخفش: وهما لغتان فصيحتان بمعنى. تفسير القرطبي: ٢٠٣/٣. وقال ابن خالويه في الحجة: ٩٨: الحجة لمن أسكن أنه أراد المصدر، والحجة لمن حركه أنه أراد الاسم. وقيل: هما لغتان وقال في اللسان (قدر): وهي بالتثقيل (يريد بالفتح) أعلى وأكثر.

(١٣٦) هو أبو زكرياء يحيى بن زياد الفرّاء الديلمي، ولد بالكوفة، ونشأ بها، وتربى على شيوخها، وأخذ عن بعض البصريين، وكان زعيم الكوفيين بعد الكسائي، وفاته سنة ٢٠٧هـ وله كتب عظيمة في اللغة والنحو والتفسير.

(١٣٧) (نظران) كلمة غير واضحة في الأصل.

(١٣٨) في نقله عن كتاب الدرة لحمزة: ٤٠٨/٦ اختلاف بزيادة بضع كلمات في الأصل هنا.

(١٣٩) في الأصل: (يملأ الحياحيا) تحريف، صححناه عن سائر المصادر.

(١٤٠) في المستقصى ومجمع الأمثال والفاخر والدرة: وأمكن الشيزُ. وفي شرح المقامات: فأخطأ العير. وفي العباب واللسان: (إذ أمكن العيرُ..) (١٤١) في الفاخر: وصار..) (١٤٢) في اللسان: (.. رأيا كاذبا).

(١٤٣) المشطور الخامس ساقط من الفاخر والمحاسن والمساوىء ومجمع الأمثال وشرح المقامات واللسان.

(١٤٤) ذكرنا هذه الرواية في الحاشية: ١٤٠. (١٤٥) سورة يوسف: ٨٢.

(١٤٦) لعل الأصوب: فطار شرراً..

(١٤٧) الكلمة ساقطة من الأصل، والنقل عن حياة الحيوان للدميري: ٢٠٥/١ وليس عن الحيوان للجاحظ كما يوهم النص أعلاه. (١٤٨) في الأصل: الحباب. وفيه تحريف.

(١٤٩) المرصع: كتاب لابن الأثير الجزري مجد الدين المبارك بن محمد المتوفى سنة ٦٠٦هـ.

(١٥٠) انظر قول ابن الأثير في كتابه المرصع ص: ١٣٧. (١٥١) في الأصل: صبابه. ولا يصح.
(١٥٢) انظر المثل في: مجمع الأمثال: ٢/٢٨٠ والمستقصى: ٢/٢٤٥ وجمهرة الأمثال: ٢/٢٦١ وفصل المقال للبكري: ٤٣.
(١٥٣) هو الشاعر أبو ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد الهذلي، من مخضرمي الجاهلية والإسلام. أسلم وحسن إسلامه. كان شاعراً فحلاً، مات وهو راجع من غزوة غزاها مع عبد الله بن سرح إلى إفريقية سنة ٢٧هـ، فمات هنالك وهو عائد مع عبد الله بن الزبير وجماعة وهم يحملون بشرح الفتح إلى عثمان بن عفان.
(١٥٤) الكلمتان غير واضحتين في الأصل، وما أثبتناه عن ديوان الهذليين.
(١٥٥) البيت في ديوان الهذليين: ١/٧٦ برواية: مستكراً صبابها. يصف أبو ذؤيب النحل. وقترُ الغلاء: واحدته قترة، وهو نصل السهم. والغلاء: المغالاة في الرمي، شبّه النحل بقتر الغلاء. والبيت في اللسان (صوب) برواية: كعنز الفلاة مستكر.
(١٥٦) كلام مكرر. انظر الحاشية: ١٤٠. (١٥٧) الرواية في اللسان: (كسع).
(١٥٨) في الأصل: ووليتُ عن الشيء. ولا يصح لتكرار العبارة، ولعله سهو من الناسخ.
(١٥٩) هو الأعشى الكبير ميمون بن قيس، أو بصير، شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان من أصحاب المعلقات ومن الطبقة الأولى من فحول الجاهلية، وفد على ملوك العرب والفرس. وفاته سنة ٧هـ.
(١٦٠) البيت في ديوان الأعشى: ٢٢١ واللسان: (ولي). (١٦١) لعلّ الأصوب: حزِنَ واغتمّ.
(١٦٢) في الكلام هنا زيادة عما رواه حمزة انظر الدرة: ٢/٤٠٩.
(١٦٣) في اللسان والتاج (كسع): (إني لشؤمي وشقائي ونكدْ) وزيد بعده فيهما المشطور: (قد شفَّ مني ما أرى حرّ الكبد).
(١٦٤) في شرح المقامات: لم تزين بلوذ. والمشطور ساقط من المستقصى ومجمع الأمثال والعباب واللسان والتاج (كسع). (١٦٥) روي في اللسان: ... لأهلي وولد.
(١٦٦) المشطور ساقط من اللسان والتاج ومجمع الأمثال.
(١٦٧) المشطور الأخير ساقط من اللسان والتاج ومجمع الأمثال. ولم ترِد المشاطير الخمسة في الفاخر والمحاسن والمساوىء، وروي في المستقصى: (.. ظنُّ الأهل فيه..) (١٦٨) يوسف: ٨٤.
(١٦٩) هو مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم، تابعي جليل، مفسّر، أخذ التفسير عن ابن عباس، وكانت وفاته سنة ١٠٤هـ. انظر قول مجاهد في: تفسير القرطبي: ٩/٢٤٨.
(١٧٠) قتادة والحسن: الأول هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري، مفسّر حافظ ضرير، كان عارفاً بالعربية وأيام العرب وأنسابهم، وفاته بطاعون واسط سنة ١١٨هـ. أما الحسنُ فهو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي جليل، كان إمام أهل البصرة وحبْرَ الأمة في زمانه، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان. وفاته سنة ١١٠هـ. وانظر قول قتادة والحسن في: تفسير القرطبي: ٩/٢٤٨.
(١٧١) هو كُثير بن عبد الرحمن الخزاعي، صاحب عزّة بنت حُميل الضمرية، شاعر متيم مشهور، من شعراء بني أمية، كان دميماً مفرط القصر، وفاته بالمدينة سنة ١٠٥هـ.
(١٧٢) البيت في ديوان كثير: ٩٧ برواية:

فإنْ سأل الواشون فيم صرمتها فقل: نفسُ حرٍ سُليتْ فتسلتِ

وانظره في: تفسير القرطبي: ٩/٢٤٨. (١٧٣) القول للزجاج كما ذكر القرطبي في تفسيره: ٩/٢٤٨.
(١٧٤) في قول حمزة زيادة عما في كتابه الدرة الفاخرة: ٢/٤٠٩.
(١٧٥) في الدرة والمحاسن والمساوىء والفاخر ومجمع الأمثال والمستقصى وثمار القلوب وشرح المقامات:

(الخزي الإله.)

(١٧٦) في الأصل: (وردها) وبتكرارها إيطاء، وما أثبتناه عن سائر مصادر الخبر والأبيات.

(١٧٧) وردت هذه الرواية في: الفاخر والدرة الفاخرة والمستقصى وشرح المقامات والعُباب واللسان والتاج. ولمّا ما أثبتناه فهو عن أصلنا، وموجود عند الميداني في مجمع الأمثال: ٣٤٩/٢.

(١٧٨) المائدة: ٣٣. (١٧٩) لم أقف على الحديث فيما بين يدي من كتبه، ووجدته بلفظه في اللسان (خزي).

(١٨٠) هو الشماخ بن ضرار الذبياني واسمه معقل بن ضرار، شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام، شهد القادسية وغزا أذربيجان واستشهد في غزوة موقان سنة ٢٤هـ.

(١٨١) ديوان الشماخ: ١٩٠ والبيت له في: المعاني الكبير: ١٠٤٦/٢.

(١٨٢) نسب هذا المشطور إلى العكلي في: المعاني الكبير: ١٠٤٦/٢ وديوان المعاني للعسكري: ٥٩/٢ والصناعتين: ٢٤٤، ولم يذكر اسم هذا العُكلي عند أحد، وشعراء عكل كثيرون، بعضهم من الشعراء اللصوص. (١٨٣) هو شاعر الهاشميين الكُميت بن زيد الأسدي، من أهل الكوفة، كان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، خطيباً فقيهاً شجاعاً، وفاته سنة ١٢٦هـ.

(١٨٤) بيت الكميت، في شعره المجموع: ٢٠٧/١ والمعاني الكبير: ١٠٤٤/٢ واللسان: (فلق).

(١٨٥) المشطور في: المعاني الكبير: ١٠٤٦/٢ دون عزو. (١٨٦) هو أبو ذؤيب الهذلي.

(١٨٧) البيت في ديوان أبي ذؤيب: ٩٠/١ من ديوان الهذليين، هو له في المعاني الكبير: ١٠٦٨/٢.

(١٨٨) زيدت على الهامش كلمة (مطّرحة) وبعدها: (صح).

(١٨٩) ثلاثة الأبيات بيتان في المصادر جميعها، وزاد أصلنا المخطوط بيتاً جاء صدره في أول البيت الأخير وعجزه في آخر الثاني هنا.

(١٩٠) في اللسان (كسع): لبترتُ خمسي، وفي التاج: (لقطعت) ثم ذكرا الرواية الأخرى.

(١٩١) روي: (لعمر أبيك) في: الفاخر والدرة والمحاسن والمساوئ، وشرح المقامات والمستقصى ومجمع الأمثال والعباب والقاموس والتاج (كسع) وذكر الزبيدي الرواية الأخرى، وسنذكر عند الشارح بعدُ.

(١٩٢) هو الأحوص الأنصاري عبد الله محمد، شاعر غزل، مداعبة من شعراء العصر الأموي، وفاته سنة ١٠٥هـ.

(١٩٣) البيت في: شعر الأحوص: ٢٠٧ واللسان والتاج: (طوع). (١٩٤) البقرة: ١٣٠.

(١٩٥) ذهب بعض النحويين إلى أنّ (وا) يجوز أن ينادى بها غير المندوب فيقال: وازيدُ أقبل. وقد أجاز ذلك ابن مالك في شواهد التوضيح: ٢١٢ ونسبه إلى المبرد. وانظر همع الهوامع: ١٧٢/١ فقد نسب نسبته لابن عصفور.

(١٩٦) انظر قول الإمام علي في اللسان: (فرط). (١٩٧) كلمة مطموسة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(١٩٨) انظر ما سبق في الحاشية: ١٩١. (١٩٩) الحجر: ٧٢.

(٢٠٠) نثاه: من قولك: نثا الحديث والخبرَ نثواً: حدّث به وأشاعه.

(٢٠١) هو جرول بن أوس العبسي، شاعر مخضرم هجّاء، خبيث اللسان، لم يكد يسلم من لسانه أحد. مات نحو سنة ٤٥ هـ.

(٢٠٢) البيت في ديوان الحطيئة: ٣٤٧ واللسان والتاج (كسع) والمستقصى: ٣٨٩/١.

(٢٠٣) الفرزدق لقبه واسمه همام بن غالب، من تميم، كان واحداً من ثلاثة شعراء كبار في عصر بني أميةَ هم جرير والفرزدق والأخطل، وهم أصحاب شعر النقائض، كان من شعراء الطبقة الأولى في الإسلام، وفاته سنة ١١٠هـ ببادية البصرة وقد قارب المائة السنة.

(٢٠٤) هي النوار بنت أعين المجاشعية: تزوجها الفرزدق وهي كارهة له، وكانت ذات عقل وفصاحة وأدب.
(٢٠٥) أبيات الفرزدق في ديوانه: ٣٦٣ ومجمع الأمثال: ٢٤٩/٢ وشرح المقامات: ١٧٩/١ والثلاثة الأولى في: ثمار القلوب للثعالبي: ٢٤٦/١، وهي دون الثاني في الدرة الفاخرة: ٤١٠/٢ والأول والثالث منها في جمهرة الأمثال: ٣٢٤/٢ والمستقصى: ٣٨٩/١ والصحاح واللسان والتاج: (كسع).
(٢٠٦) نُسب البيت مع بيتين آخرين إلى الحسين الضحاك الخليع في طبقات ابن المعتز: ٢٧١ وهو دون عزو في: ثمار القلوب: ٢٤٦/١ برواية: (أسرّ ندامة..) وفي الصحاح واللسان والتاج: (كسع).

المصادر والمراجع للدرس المحقق

١- أساس البلاغة للزمخشري محمود بن عمرت/٥٣٨ هـ تح. عبد الرحيم محمود. طبعة أولى بالقاهرة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
٢- الأعلام: خير الدين الزركلي ت/١٩٧٦م الطبعة الرابعة ١٩٧٩ دار العلم للملايين- بيروت.
٣- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي علي بن يوسف ت سنة ٦٤٦ هـ تح أبو الفضل إبراهيم/ دار الكتب ١٣٦٩هـ.
٤- أوجز السير لخير البشر لأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي ت سنة ٣٩٠ هـ. تح. محمد أنيس مهرات- مؤسسة النابغة حمص.
٥- برنامج الوادي آشي محمد بن جابر ت سنة ٧٤٩هـ. تح. محمد محفوظ. دار الغرب الإسلامي- ألبنا: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٦- بغية الوعاة للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكرت/ ٩١١هـ تح. محمد أبو الفضل إبراهيم- القاهرة عيسى الحلبي ١٣٨٤/١٩٦٤.
٧- البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز أبادي محمد بن يعقوب ت: ٨١٧هـ تح. محمد المصري- دمشق ط. وزارة الثقافة ١٣٩٢/١٩٧٢.
٨- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي ت/١٢٠٥هـ. طبعة الكويت.
٩- تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن عبد الله محمد بن أحمد ت/٦٧١هـ. طبعة دار الكتب، مصورة عنها- بيروت- دار الكاتب.
١٠- التكملة والذيل والصلة للصغاني الحسن بن محمد ت/٦٥٠هـ. تح. عبد العليم الطحاوي- مجمع اللغة بالقاهرة- دار الكتب ١٩٧٠م.
١١- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري. تح. عبد السلام هارون وآخرين- ط. القاهرة ١٩٦٤- ١٩٦٧م.
١٢- جمهرة الأمثال للعسكري، تح . محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش - دار الجيل ودار الفكر / بيروت ١٤٠٨/١٩٨٨.
١٣-الحجة في القراءات السبع لابن خالويه الحسين بن أحمد ت/٣٧٠هـ. تح. د. عبد العال مكرم- ط. مؤسسة الرسالة ١٤١٠ / ١٩٩٠.
١٤- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية: شكيب أرسلان - نشر المكتبة التجارية بالمغرب ط القاهرة ١٣٥٥/١٩٣٦.
١٥- حياة الحيوان الكبرى للدميري محمد بن موسى ت/٨٠٨هـ ط. دار القاموس- بيروت.
١٦- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة: حمزة بن الحسن الأصبهاني ت نحو/٣٥١هـ تح. عبد المجيد قطامش. دار المعارف بمصر.
١٧- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني أحمد بن علي ت/٨٥٢هـ. طبعة مصورة- دار

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

الجيل - بيروت.

١٨- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس. تح.د. محمد محمد حسين - مكتبة الآداب بالقاهرة ١٩٥٠م.

١٩- ديوان الحطيئة جرول بن أوس العبسي بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني تح. نعمان طه - مصر ١٩٥٨/١٣٧٨.

٢٠- ديوان رؤبة بن العجاج تح. وليم بن الورد البروسي. دار الآفاق - بيروت - طبعة ثانية ١٤٠٠/١٩٨٠.

٢١- ديوان الشماخ: معقل بن ضرار المتوفى شهيداً سنة ٢٢هـ. تح. صلاح الدين الهادي دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م.

٢٢- ديوان العجاج عبد الله بن رؤبة ت/٩٦هـ. تح. د. عزة حسن ١٩٧١م دار الشروق - بيروت.

٢٣- ديوان علقمة بن عبدة الفحل مع ديواني طرفة وعلقمة. دار الفكر للجميع - بيروت ١٩٦٨.

٢٤- ديوان الفرزدق بشرح إسماعيل الصاوي. مصر سنة ١٣٥٤هـ.

٢٥- ديوان كثير عزة تح د. إحسان عباس - بيروت - دار الثقافة.

٢٦- ديوان مصطفى الغلاييني ت/١٩٤٤م ط. المكتبة العصرية - بيروت. ط. أولى ١٤١٣/١٩٩٣.

٢٧- ديوان النابغة الذبياني. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر/١٩٧٧م.

٢٨- ديوان الهذليين - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب - بالقاهرة ١٣٨٤/١٩٦٥م.

٢٩- ذيل كشف الظنون: إيضاح المكنون لإسماعيل محمد البغدادي - ط. مكتبة المثنى - بيروت.

٣٠- شرح ديوان أبي النجم العجلي الفضل بن قدامة ت/١٣٠هـ. وتحقيق محمد أديب جمران.

٣١- شرح ابن عقيل للألفية: عبد الله بن عقيل ت/٧٦٩هـ. تح. محمد محيي الدين عبد الحميد. طبعة مصورة. دار إحياء الكتب - بيروت.

٣٢- شرح مقامات الحريري للشريشي أحمد بن عبد المؤمن ت/٦٢٠هـ تح. محمد عبد المنعم خفاجي ط. ثانية بمصر ١٣٩٩/١٩٧٩.

٣٣- شعر الأحوص: عبد الله بن محمد الأنصاري ت/١٠٥هـ. تح. عادل سليمان جمال. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧.

٣٤- شعر الكميت بن زيد الأسدي. جمع وتحقيق د. داود سلوم - بغداد ١٩٦٩م.

٣٥- شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك. تح. محمد فؤاد عبد الباقي - مطبعة لجنة البيان العربي.

٣٦- صحيح مسلم - تح. محمد فؤاد عبد الباقي. ١٣٧٤/١٩٥٤ طبعة مصورة بدار الفكر - بيروت.

٣٧- الصحاح (تاج اللغة) إسماعيل بن حماد/٣٩٣هـ. تح. أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم ببيروت ط. ثانية ١٣٩٩/١٩٧٩.

٣٨- طبقات الشعراء لابن المعتز. تح. عبد الستار فراج - دار المعارف بمصر.

٣٩- العباب الزاخر واللباب الفاخر للصغاني الحسن بن محمد ت/٦٥٠هـ. تح. محمد حسن آل ياسين ط. بغداد ١٣٩٧ - ١٤٠٠هـ.

٤٠- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي أحمد بن محمد ت/٣٢٨هـ تح. محمد سعيد العريان - دار الفكر - بيروت - طبعة مصورة.

٤١- غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ت/٢٢٤هـ. طبعة مصورة عن ط. حيدر آباد ١٣٩٦:١٩٧٦ - دار الفكر بيروت.

٤٢- الفاخر لأبي طالب المفضل بن سلمة ت/٢٩١هـ. تح. عبد العليم الطحاوي - تراثنا - وزارة الثقافة بمصر. ١٣٨٠/١٩٦٠ - دار إحياء الكتب العربية.

٤٣- الفائق في غريب الحديث للزمخشري محمود بن عمر ت/٥٣٨هـ. تح. علي البجاوي ومحمد أبو الفضل

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

إبراهيم- دار الفكر بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩.
٤٤- فصل المقال لأبي عبيد البكري عبد الله بن عبد العزيز ت/٤٨٧هـ. تح. إحسان عباس وعبد المجيد عابدين- دار الأمانة- دار الرسالة بيروت/١٣٩١.
٤٥- القاموس المحيط للفيروز أبادي محمد بن يعقوب ت/٨١٧هـ ط. بولاق ١٣٣٢/١٩١٣.
٤٦- القرآن الكريم.
٤٧- كتاب الجماهر في معرفة الجواهر لأبي الريحان البيروني محمد بن أحمد ت/٤٤٠هـ. عالم الكتب- بيروت.
٤٨- الكتيبة الكامنة- لسان الدين بن الخطيب تح. د. إحسان عباس. ط. دار الثقافة- بيروت ١٩٦٣.
٤٩- كشف الظنون: مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة ت/١٠٦٧هـ. ط. مكتبة المثنى- بيروت.
٥٠- لسان العرب لابن منظور محمد بن المكرم ت/٧١١هـ.ط. دار صادر- بيروت.
٥١- مجمع الأمثال للميداني أحمد بن محمد ت/٥١٨هـ. تح. محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر- بيروت ١٨٩٣/١٩٧٢.
٥٢- المحاسن والمساوئ: ابراهيم محمد البيهقي. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة نهضة مصر ١٣٨٠/١٩٦١.
٥٣- المرصع لابن الأثير المبارك بن محمد ت/٦٠٦هـ. تح. د. إبراهيم السامرائي. وزارة الأوقاف العراقية ١٣٩١/١٩٧١.
٥٤- المزهر للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر ت/٩١١هـ. ط. دار الفكر- بيروت.
٥٥- المستقصى من أمثال العرب للزمخشري محمود بن عمر ت/٥٣٨هـ. دار الكتب العلمية- بيروت ١٣٩٧/١٩٧٧ مصورة عن ط حيدر أباد.
٥٦- المعاني الكبير لابن قتيبة عبد الله بن مسلم ت/٢٧٦هـ تح عبد الرحمن بن يحيى اليماني- دار الكتب العلمية ١٤٠٥/١٩٨٤.
٥٧- معجم الأدباء لياقوت الحموي ت/٦٢٦هـ. ط. الرفاعي بالقاهرة ١٩٢٢م. عيسى البابي الحلبي.
٥٨- معجم شواهد العربية: عبد السلام هارون ط. أولى ١٣٩٢/١٩٧٢- مكتبة الخانجي بمصر.
٥٩- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة- مكتبة المثنى- بيروت ١٣٧٩/١٩٥٧.
٦٠- مغني اللبيب لابن هشام عبد الله بن يوسف. ت/٧٦١هـ. تح. د. مازن المبارك- دار الفكر ١٣٨٤/١٩٦٤.
٦١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري أحمد بن محمد ت/١٠٤١هـ. تح.د. إحسان عباس- دار صادر- بيروت ١٣٨٨/١٩٦٨.

◆◆◆

أدب الفئات الهامشية في العصر العباسي

أحمد الحسين

من يمعن النظر في الدراسات والأبحاث المعاصرة التي صدرت على مدى نصف قرن وأكثر يخرج بانطباع راسخ أن هذه الدراسات لم تتعامل مع الأدب في عصوره المختلفة برؤية شمولية تنطلق من اعتبار أن الأدب والحياة صنوان وأن الأدب شئنا أم أبينا ثمرة من ثمار التفاعل المهادن أو المشاكس بين الأدب والمجتمع.

وبعيداً عن هذا التفاعل بذوي الأدب، ويختنق الأدباء.

ولمسوغات جمالية ونقدية واجتماعية وقعت عشرات الدراسات والأبحاث في مطب الانتقائية المكررة فلم تقدم لنا بانوراما تستوفي كل مظاهر الأدب التي كانت سائدة في عصر من العصور بل اهتمت بجوانب وأسقطت أخرى وأبرزت أسماء وأغفلت سواها أو رفعت من قيمة تيارات وحطت من شأن أخرى وفي ظل نظرة متحيزة لفنون الأدب الرسمي وما دار في فلكه. وكذلك الأمر بالنسبة لأدب الإعلام وما يسمى بأدب القمم فإن الغبن كان من نصيب التيارات والظواهر الأدبية التي نشأت في بيئة العامة وترسبت في أرضية القاع الاجتماعي، ولتقريب هذه الصورة إلى الأذهان نأخذ من بين عصور الأدب العصر العباسي الذي كان يمور بكل ما هو جديد في الحياة والأدب.

ولكن الموقف المتعالي نفسه أو المنحاز حال دون اكتشاف ما كان يجري في ذلك العصر. ويأخذنا العجب حين نقارن بين موقف مجموعتين من الأدباء قديماً وحديثاً في رصد مثل هذه الظواهر الشعبية فلقد كان الجاحظ وبديع الزمان والحريري والثعالبي والتوحيدي أكثر معاصرة من بعض أدبائنا المحدثين و أوسع أفقاً وأعمق رؤية في عنايتهم بتيارات عصرهم. وبذلك عبرّوا عن نزعة شعبية وواقعية باهتمامهم بأدب الفئات الدنيا أو برصدهم للظواهر المنبوذة وهذا ما نلمسه في مؤلفاتهم التي تعد مصادر لا غنى عنها لكل باحث وأديب.

وأين هذا الموقف من مواقف كثير من الباحثين المعاصرين ومؤرخي الأدب الذين ظلوا بعيدين عن تيارات أدب القصاص، والشطار والطفيليين والحمقى والمغفلين وسائر فئات الشحاذين والمتسولين المكدين، والمفلوكين.

ويأخذنا العجب أكثر من تلك الدراسات التي لم تعد تضيف جديداً، وهي تجتر الآراء المعادة، والأفكار المطروقة في الوقت الذي لا نصادف فيه دراسة جادة تلم بملامح الوجه الآخر للأدب والحياة، الوجه المعبر

عن التشرد والاغتراب والمسكون بهواجس القلق ونوازع الاعتراض.

هذا الأدب الذي أقصد هو أدب الفئات الهامشية أو المهمشة وهو أدب من طراز يخالف ما هو سائد، أدب له سماته وخصائصه ومضمونه المعبر عن حياة البسطاء المهمشين، وأحاسيس المعدمين المنبوذين، وأصواتهم الساخطة المتذمرة، ومواقفهم الناقدة الرافضة.

ومعلوم لدينا أن ظاهرة التهميش تنشأ إثر التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتنمو في أطراف المدن. وهي ظاهرة قديمة وجديدة لا يمكن تجاهل وجودها في تكوين المجتمعات.

ويشير د. اسماعيل قيرة إلى أن الهامشيين هم "أولئك الأفراد الذين يعيشون على هامش أية فئة أو طبقة اجتماعية. وفي التراث السوسيولوجي استخدم مفهوم الرجل الهامشي ليشير إلى الفرد الذي ينتمي إلى ثقافتين أو مجتمعين دون أن يندمج في أحداهما اندماجاً كلياً، وربما شجع ذلك بعض الدارسين على القول بأن هنالك ارتباطاً بين الهامشية والشعور بالغربة أو العزلة الاجتماعية"(١) .

والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا يرتبط بمضمون أدب الفئات الهامشية كما يرتبط بالقضايا التي أثارت أولئك الأدباء. وربما يرتبط من ناحية أخرى بالدوافع التي أدت إلى انخراط تلك الفئات في عالم التسول، والتحامق، والتجانن، والتطفيل وسواها. ولا شك فإن الإجابة عن تلك التساؤلات لا يمكن أن تستوي في وقت قصير وبحث موجز، ولهذا سنكتفي بإشارات سريعة تكون مفاتيح للدخول في عالم ذلك الأدب المنبوذ والمرفوض. وستكون وقفتنا بشكل أساسي عند أدب الحمقى والمتحامقين وأدب المتسولين والمكدين.

*بين الحماقة والتحامق.

وإذا كان الحمق باتفاق المعاجم نقيض العقل فإن التحامق بإجماع الأراء نقيض ذلك وخلافه فهو لا يرجع إلى تكوين ينشأ عليه المرء ولكنه ينطلق من تطبّع مقصود بخلاف الحقيقة، فالمتحامق شخص يرتدي لباس الأحمق لأسباب إذا ما عرفناها أمكننا أن نفسر انحراف الكثير من الأدباء والعلماء والمتصوفة إلى سلك الحماقة ونهج الرقاعة.

ولعل القراءة الدقيقة لنصوص أولئك المتحامقين، وتحليل اعترافاتهم الشخصية تمدنا بأكثر تلك الأسباب وفي مقدمتها يبرز دافع العمل والتكسب، بالإضافة إلى أغراض أخرى منها النقد الاجتماعي، والتخلص من المآزق، والتحرر من سلطة الرقابة، والهرب من الواقع إلى دنيا الوهم والخيال.

وهذه الأسباب أوالدوافع تشكل مادة أدب الفئات الهامشية، كما أنها تكشف عن الأرضية التي صدرت عنها مواقف أولئك الأدباء.

ولكي تتضح لنا هذه الجوانب نرى أن نمر على كل منها مروراً سريعاً فماذا سنجد؟

*التكسب بالتحامق، والتسول:

في البداية نشير إلى أن الأزمات التي يمر بها الأدباء والمثقفون ليست واحدة، كما أنها ليست مطلقة. والصورة المشرقة التي نقرأ في جوانبها عن شاعر أو أديب كان ينعم بأسباب الحياة الهانئة لعطاء أصابه أو جائزة فاز بها، هذه الصورة تقابلها صورة قاتمة عن بؤس أدباء وشعراء وعلماء كانوا لا يجدون قوت يومهم، ورزق عيالهم(٢) .

وفي المجتمع العباسي أخذت صورة البؤس تتسع ولا سيما في مرحلة التفكك والضعف وبروز الاضطرابات، وقيام الزعامات، وما نجم عن ذلك من خلل اقتصادي أو نزاع سياسي، واجتماعي.

وفي هذه البيئة انحدرت مكانة العلم، وانحطت منزلة العقل، وكسدت بضاعة الأدب مما دفع الكثيرين إلى التشرد والاغتراب والجنوح إلى دنيا التسول، والتطفل، ومن هذا المنطلق صار التحامق وسيلة لكسب القوت والثروة أيضاً(٣) .

ويبدو أن أخذ دور المهرج المتحامق يؤدي إلى تحقيق هذه الغاية بأسرع أو أضمن من دور الجد والعقل ففي محاورة "ابن أخي رامو" لديدرو نجد المهرج المتحامق المتجانن يخاطب الفيلسوف قائلاً: "كنت سأصير مثل جميع المتسولين الذين أثروا. كنت في السابق أسرق الأموال من تلاميذي، أما الآن فإنني أكسب هذه الأموال على الأقل مثل الآخرين.

إن أهالي التلاميذ كانوا يغصبون بثرواتهم المكتسبة الله يعلم كيف، لقد كانوا من رجال الحاشية ومن رجال الأعمال والبنوك، وكبار التجار، فإذا كانت كل الأنواع تتصارع في الطبيعة فإن كل الأوساط تتقابل في المجتمع، إننا كنا نقيم العدالة على طريقتنا من غير تدخل القانون"(٤) .

هذا النص يضيء جوانب هامة ليس في زمن ديدرو ومجتمعه. ولكنه يضيء جوانب مشابهة في كثير من المجتمعات. ولعل ذلك مع بعض فروقات الزمان والمكان هو ما أحاط بأدباء الفئات الهامشية.

وعلى هذا الأساس كانوا يكسبون المال كالآخرين، لقد أرهقهم طريق العيش بالعقل والجد فوجدوه بالتحامق والتجانن، والتسول والاستجداء، يقود إلى الثروة ومجالس الجاه، ومراكز السلطة فكانوا المهرجين والمضحكين الذين استطاعوا بهذه الطريقة انتزاع المال الذي يعلم الله بأية طريقة جمع وكسب.

هذا شاعر اسمه أبو العبر قالت مصادر التراجم إنه حافظ لكل عين. جيد الشعر، ولم يكن في الدنيا صناعة إلا وهو يعملها بيده"(٥) ورغم ذلك كان معدماً في "نهاية النصب واللعنة"(٦) وكان الموقف أن هجر أبو العبر العقل وسلك درب التحامق لإدراكه كما يقول ابن المعتز: "أن الحماقة والهزل أنفق على أهل عصره"(٧) فكسب بحماقاته كما يقول الأصفهاني: "أضعاف ما كسبه كل شاعر في عصره بالجد"(٨) .

وكان يرد ذكره في بعض المجالس، وتذكر حماقاته، وسقوطه فأراد يزيد بن محمد المهلبي أن يقف على حقيقة أمره، فأجاب عن ذلك محمد بن مُدْرك بالقول: "والله ما كان إلا أديباً فاضلاً، ولكنه رأى الحماقة أنفق، وأنفع له فتحامق"(٩) .

وشاعر آخر اسمه ابن صلوة كان جيد الشعر، صائب الرأي، ولكنه محروم لا يؤبه له "فنبذ العقل جانباً، ومال إلى التحامق، وأخذ في الهزل والعبث، فحسنت حاله، وراج أمره، حتى إن الملوك والأشراف ألفوا به"(١٠) .

وهذا أبو العجل الشاعر المتحامق يدافع عن تحولاته في عالم الحماقة بالمقارنة بين ما كانت عليه حياته زمن العقل والجد، وما صارت إليه في عهد الحماقة والرقاعة فيقول:(١١)

كنتُ ملاحاً مُحسِناً	أو مُجمِلاً متطوِّلا
أعلى الحماقةَ لمتني	قد كنتُ مثلَكَ أوّلا
فطفتُ مصرَ وأرضَها	والشامَ ثم الموصِلا

وقرى الجزيرة لم أدعْ　　　فيها لحيٍّ منزلا
إلا حللتُ فناءَهُ　　　بالعقل كي أتموّلا
وإذا التعقّل حرفة　　　لعزمتُ أنْ أتحوّلا
فانظرْ إلى أنا ترى　　　حالَ الحماقة أجملا
مَنْ ذا عليه مؤنتي　　　حتى أعودَ فأعقلا

ونقرأ هذا الاعتراف مرة أخرى في قول ابن قادم(١٢) :

ولقد قلتُ حين أغروا بلومي　　　أيها اللائمونَ في الحُمْق مهلا
حمقي قائمٌ بقوت عيالي　　　ويموتون إنْ تعاقلتُ هزلا

تلك هي مأساة الأدب والعقل والجد كما عبر عنها أكثر من شاعر كان الشاعر الأحنف العكبري، الشاعر المكدي، واحداً منهم إذ قال:(١٣) .

قد قسّم الله رزقي في البلاد فما　　　يكاد يدركه إلا بالتفاريقِ
ولستُ مكتسباً رزقاً بفلسفة　　　ولا بشعرٍ ولكنْ بالمخاريقِ
والناسُ قد علموا أني أخو حيل　　　فلستُ أنفق إلا في الرساتيقِ

ومن هذا المنطلق كان اعتراف شاعر آخر بتظاهره بالجنون لأنه الوسيلة على ما يبدو لكسب القوت إذ يقول:(١٤)

جننتُ نفسي لكي أنال غنى　　　فالعقل في ذا الزمان حرمان

*النقد الاجتماعي:

والنقد الاجتماعي لمظاهر الخطأ والفساد هو المنطلق الآخر لأدب الفئات الهامشية فالمتحامقون يسيرون على خطا نيتشه في رفضهم التسليم بظواهر الأشياء وتجاوز ذلك إلى الأعماق والخفايا ويرون في نقدهم "أن الإيمان بالحقيقة هو الجنون بعينه"(١٥) .

وفكرة هؤلاء الأدباء أن الإنسان ما دام مستسلماً لنفوذ الظواهر المكرسة وخاضعاً لسلطتها فإنّ العقل لا يكفي لاكتشاف بطلانها إذ تبرز أمامه سدودٌ صارمة رادعة زاجرة. وعندئذ فإن التجانن أو التحامق هو السبيل لاختراق تلك الحواجز وهو المنهج لتقويض سلطة ما هو سائد ومفروض وذلك على غرار ما يقول فوكو في تاريخ الجنون: "لقد علمتنا التجارب أنه غالباً ما نستطيع التوصل إلى الحقيقة عن طريق اغتصاب العقل واختراق حدوده القاسية"(١٦) .

والمقصود أن العقل ضمن منطق الحسابات قد يُؤْثِر السلامة فيتآلف مع الواقع القائم في حين أنّ التحامق أو التجانن إذ يسقط مفهوم الحسابات فإنه يتجاوز حدود المنع. وتظاهر المتحامقين بالجنون أو الهلوسة أسقط

عليهم عقاب المجتمع بذريعة غياب العقل وهذا ما جعلهم اكثر قدرة من الأدباء الآخرين على ممارسة النقد الجارح والعميق لمظاهر الفساد والخراب والقرائن كثيرة في الدلالة على عجز العقل في مواجهة سلطة الاستبداد أو الجهل المتنفذ. وكتب التراث تزخر بحوادث الاغتيالات وأصناف التعذيب وأشكال المطاردات والنفي والسجون.

ونقد المتحامقين أسلوب ذكي أو هو مواجهة ذكية للواقع بالوسائل التي تنسجم مع منطق ذلك الواقع وبالطريقة الممكنة التي تحقق غرض أولئك الساخطين المتذمرين.

لقد تناول الحمقى والشحاذون كثيراً من جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية بالنقد والتقريع ولهم في ذلك جولات طالت مظاهر التسلط والظلم والتمايز والاستغلال. وتبرز بين أيدينا المحاورات المشهورة بين سعد المجنون والمتوكل وبين بهلول المُوَسْوَس والرشيد وبين عليان والهادي(١٧) .

فهل كان سعدون المجنون قادراً على مخاطبة الخليفة ونقده لو لم يكن مجنوناً أو متظاهراً بالجنون إذ يقول:(١٨) .

يا مَنْ بنى القصر في الدنيا وشيَّدهُ	أسَسْتَ قصرك حيثُ السيلُ والغرقُ
لو كنت تفكر في دنياك تحسبها	منسنةٌ حيثُ لا سوسٌ ولا حرقُ
والموت مصطبح منكم ومُغتَبِقٌ	فاحسنْ لنفسكَ قبلَ الموتِ يا حَمِقُ

ولنتأملْ هذا الموقف الذي اعترض فيه صباحُ المُوَسْوَس موكب صاحب شرطة ابن هبيرة وبادره بالقول أمام الناس: "يا بن أبي الزرقاء أسمنتَ برذونكَ وأهزلْتَ دينك أما والله إن أمامك عقبة لا يجاوزها إلا المُخفُ.. فوقف ابنُ أبي الزرقاء. فقيل له: هو صباح الموسوس. فقال: ما هذا بمُوَسْوَس"(١٩) .

وفي الجانب السياسي المعبّر عن التناقضات والاضطرابات والفوضى وتنازع الزعامات أظهر المتحامقون معرفة دقيقة في فهم ما يجري فجهروا بالنقد الكاشف الذي لا يجامل ولا يتستر ولا يداري ومن ذلك أن سيبويه المجنونَ تعرّض في الأسواق لموكب جعفر بن الفضل بن الفرات ناقداً وهازئاً إذ قال: "ما بال أبي الفضل قد جمع كتابه ولفّق أصحابه وحشد بين يديه حجابه وشمم أنفه وساق العساكر من خلفه؟ أبلغه أنّ الإسلام طُرق وأنّ ركن الكعبة سرق؟ فقال له رجل: هو اليوم صاحب الأمر ومدبر الدولة. فقال عجباً: أليس بالأمس نهب الأتراك داره ودكدكوا آثاره وأظهروا عواره وهم اليوم يدعونه وزيراً ثم صيروه أميراً. ما عجبي منهم كيف نصبوه بل عجبي كيف تولى أمر عدوهم ورضوه"(٢٠) أليس على هذا النحو يعين الخلفاء والوزراء ثم يكون عزلهم أو خلعهم؟

والنقد بإظهار الجنون أسلوب عرفته الفرق والطوائف والأحزاب فقد أشار أبو دلف الخزرجي إلى الممرور في قصيدته المشهورة:(٢١) .

ومنا كلُّ ممرورٍ	غدا فيلاً بنسي الهاشر

وجاء في شرح ذلك أن الممرورين "قوم يلبسون الثياب الممزقة ويحلقون لحاهم ويوهمون أنهم موسوسون وأن المرار غلب عليهم فيشيدون بقلة ويغنمون أخرى ويلسبهم الناس إلى الجنون فلا يؤاخذونهم بما يقولون".

وفي مقام النقد يبرز صوت الأحنف العكبري المكدي وهو شاعر استطاع أن يكتشف خلل عصره وسبب سوء حاله وحال أقرانه من الأدباء المهمشين فوجد علة ذلك في النهب والاستغلال والتمايز والتفاوت الطبقي والاجتماعي وفي ذلك يقول:(٢٢)

رأيتُ في النوم دُنيانا مزخرفةً | مثلَ العروسِ تراءتْ في المقاصيرِ
فقلتُ جودي. فقالت لي على عجلٍ | إذا تخلصتُ من أيدي الخنازيرِ

وفي إطار نقده السياسي يصور لنا بتورية ذكية شخصيات السلطة ورموزها في عصره ليدل على أن سوء الأمور نتيجة منطقية لتصرفات أولئك المغفلين الساذجين من الولاة والحكام فيقول:(٢٣)

قال: رؤيا المنامِ عندكَ حقٌ | قلتُ: هيهاتَ كلُّ ذاكَ بخارُ
ليتَ يقظاتِهم يصحُّ لهُ الأمرُ | فكيفَ المُغطُّ والنُّخارُ؟

هنالك جوانب أخرى من نقد الأخلاق والعادات ومظاهر الرياء والتملق لم تكن بعيدة عن اهتمامات أدب الهامشيين يمكن أن نصادف نماذج كثيرة تكشف عنها في بطون كتب التراث.

*التمرد الذاتي

ويبدو أن الجنون كما يرى فوكو ذو طبيعة كونية حين يرتبط بحدود الحرية التي تسمح بها ثقافة ما فالحرية "لها حدود سواء في مجال السياسة والأخلاق والدين والجنس والتعبير"(٢٤) ويبدو أن لكل "عصر ولكل ثقافة قوانين قسرية" ومن يتمرد على سلطة هذه القوانين ويخترق حدودها يُواجهُ غضبَ المجتمع ونقمته.

والقانون بحد ذاته لا يمكن أن يحقق مصلحة كل الفئات ولا أن يلبي رغبات الجميع ومن هنا تبرز المقارنة بين التوافق والتضاد.

ولعل أكثر الأدباء الهامشيين كانوا يحسون في أعمالهم نزوعاً إلى التمرد والتحرر من سلطة المجتمع بأشكالها المختلفة. وعندما لم يكن هذا الأمر ممكناً في الظروف المألوفة اتخذوا التحامق أو التجانن وسيلة للخلاص من سلطة المجتمع والتمرد على نواظمه وقيمه وثقافته وتقاليده.

وهكذا عبرَّ أدب الهامشيين عن تمرد غير مباشر اتخذ شكل اختراق السائد والمألوف في السلوك الفردي ذي الاتجاه الواضح في الفوضى والعدمية كأسلوب في تقويض أسس ما هو قائم في إطار الصراع غير المتكافئ بين الطرفين.

فقد كان أبو العبر على سبيل المثال يأتي بكل ما يصدم المجتمع فهو يصطاد عارياً وقد ربط في كل عضو من أعضاء جسده آلة من آلات الصيد(٢٥) دون أن يقيم وزناً لسلطة المجتمع ويصر على أن يأتي من الأقوال والتصرفات والحركات ما يناقض قيم مجتمعه وأعرافه بل نجده وفي كثير من المواقف يتمرد على طبيعة اللغة ويهزأ من الشعر ويقيم علاقاتٍ جديدةً بين الألفاظ والتراكيب تشكل تمرداً سريالياً يهشم فيه اللغة وعلاقات المعنى مع ولع خاص بالخرافي والعبث واللامعقول إذ كان يعقد مجالسه في الأسواق والساحات العامة في هيئة غريبة فهو يرتدي في رجليه قلنسوتين ويعتمر على رأسه خفاً وقد جعل سراويله

قميصاً. وقميصه سراويل(٢٦) ومن حوله جوقة تدق بالهواوين حتى إذا ما اجتمع الناس واشتد الصخب بدأ المشهد بطرح الأسئلة من الحاضرين فيرد عليهم أبو العبر بطريقة تثير الضحك دون أن يكون هناك ترابط بين السؤال والجواب.

وقد وصف لنا ابن المعتز أحد مجالس أبي العبر وما كان يدور فيها قائلاً: سأله أحدهم: يا أبا العبر لم صار دجلة أعرض من الفرات والقطن أبيض من الكمأة؟ فقال لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار.

وقال آخر: لم صار العطار يبيع اللبد وصاحب السقط يبيع اللبن؟ فقال لأن المطر يجيء في الشتاء والمنخل لا يقوم به الماء. وقال آخر: لم صار كلُّ خصي أمرد والماء في حزيران لا يبرد؟ فقال لأن السفينة تجنح والحمار يرمح"(٢٧).

إن ولع أبي العبر بالمُحال من الكلام يكشف عن نزعة واضحة في العبث والنيل من مكانة اللغة والبلاغة في الإطار الرسمي الذي يجري على أساسه تقريب الشعراء إلى مجالس الخلفاء والأمراء. أمّا هو فقد اختلق نمطاً خاصاً به وجد له سوقاً رائجة في القاع الاجتماعي ونال به إقبالاً واسعاً وقد كشف عن سر طريقته في الكلام قائلاً:

"كنت أبكر فأجلس على الجسر ومعي دواة ودَرْجٌ فأكتبُ كلَّ شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمكارين حتى يملأ الدَّرْجَ من الوجهين ثم أقطّعهُ عرضاً وألصقه مخالفاً فيجيءُ منه كلامٌ ليس في الدنيا أحمقُ منه"(٢٨).

وربما يتضح لنا تمرده على الأدب الرسمي في قصائده التي يقيم فيها علاقاتٍ لغويةً أو دلالاتٍ معنويةً تتسم بالتفكك وعدم الترابط وكأنه يثور على اللغة والمعنى والصور والألفاظ والقواعد في نزعة تحطيمية سريالية ومن ذلك قوله(٢٩) :.

أقرُ الشعراءُ أنـي	ومروا في الحرمرمْ
فقطعتُ الرأسَ منهم	ثم جلدَ القبدِ دمدمْ
فعملنا منه طبلا	من طبول الخبدِ دمدمْ
فضربنا به دمدمْ	ثم دمدمْ ثم دمدمْ
عجباً يا قومُ مني	كنتُ معكم كالملمْلَمْ

ولنتأمل هذا القول:(٣٠)

الخوخ يعشقُ وكنةَ الرمانِ	والطيلسانُ قرابةُ الخفانِ
يا منْ رأى قلبي فعرقبَ أذنهُ	فشممتُ منه حموضةَ الكتانِ

*خلاص واسترخاء

ويكشف أدب الفئات الهامشية عن استحالة الخلاص الجماعي ولهذا مثّل لنا هذا الأدب الدعوة إلى

الخلاص الفردي وهذه سمة غالباً ما نجدها في مواقف الأفراد عندما تمر المجتمعات في تحولات صعبة أو تواجه أخطاراً كبيرة.

وفي ظل الإحباط أو اليأس والعجز يعتقد الفرد أن الخلاص يكون حين يدير المرء ظهره للقيم الجماعية ويبحث عن منفذ فردي.

وهذا ما نجده في أدب الحمقى والمتحامقين وهو ما يبرز في أصوات الشحاذين والمتسولين والمتطفلين الذين اكتشفوا أن المواجهة غير المتكافئة بين سلطة الثروة والفقر وبين بطش الحكام وعجز العامة وقد دفعت بهم إلى ضروب من أنماط السلوك والانحرافات فارتضوا ذلك ما دامت أسباب التغيير مستحيلة.

ولهذا نجد بين المتحامقين من يقول بالتحامق ويدعو إليه كالغنوي إذ يقول:(٣١)

الروحُ والراحةُ في الحُمْقِ   وفي زوالِ العقلِ والخُرقِ

فمَنْ أرادَ العيشَ في راحةٍ   فليلزمِ الجهلَ مع الحُمْقِ

ويفهم من ذلك أن هذا المسلك التهميشي الذي تتخذه النخب المتنفذة تاريخياً يعبر عن سياسة مقصودة في محاصرة تيارات المعارضة أو شرائح الساخطين والمتمردين إذ تدفع بهم إلى اليأس والإحباط والاستسلام في قبول ما هو مفروض عليهم. ويسوق أكثرُ من أديب رأيه أو شهادته في التعبير عن هذه الحالة فقد كان صالح ابن علي النصيبيني يقول: "جددتُ فشقيتُ ثم تحامقت فأرحتُ واسترحت"(٣٢) .

وهكذا يصبح الاستسلام واقعاً يستحيل التخلص منه إلا بالقبول به فما جدوى العقل في زمن مجنون وما نفع العلم في زمن جاهل. وباختصار فإن المعقول وما يجب أن يكون هو الخاسر أو المغيب أمام قوة اللامعقول وما يجب ألاّ يكون. وهذه المحاكمة هي التي تجعل شاعراً متحامقاً يقول في دعوة تمثل العجز والتحول والاستسلام:(٣٣)

إذا كانَ الزمانُ زمانَ حُمْقٍ   فإنَّ العقلَ حرمانٌ وشومُ

فكنْ حمقاً مع الحمقى فإني   أرى الدنيا بدولتهم تدومُ

ويكاد خطاب تلك الشرائح يتفق في هذا الجانب فأنت تجد لدى المتطفلين تأكيداً أن حياة التطفيل هي الخلاص من المعاناة وفيها راحة البال من عناء المتاعب وصعوبات الحياة وتقرأ ذلك في خطاب المتسولين فهذا أبو دلف الخزرجي يرى على لسان الشحاذين أن الكدية بطقوسها وأساليبها هي الباب إلى الخلاص وفيها تتحقق حرية المكدي ويجد الراحة والنجاة وفي ذلك يقول:(٣٤) .

فطبنـا نـأخذ الأوقـا   تَ في العُسْرِ وفي اليُسْرِ

فما ننفكُّ من صمـي   وما نلتزُّ من خمرِ

فأحلى ما وجدنا العيشَ   بين القصد والخمـر

وفي ذلك نلمس انحراف الفئات الهامشية وسقوط الكثير من أفرادها قديماً وحديثاً في حياة الجنس والمخدرات والإدمان للأسباب التي يمرون بها ويعانون تأثيراتها المختلفة.

عزلة واغتراب؟

ولكن تلك الأصوات التي تجد في ذلك الاستسلام خلاصها كانت من جانب آخر تفصح عن المصير الذي دفعت إليه في سياق آلة التهميش حيث تنتهي الحياة بأصحابها إلى تجرع مرارة الاغتراب والحرمان والانزواء في دهاليز الوحدة والعزلة وبذلك تتعمق مظاهر التأثير فيصبح الفرد غائباً مغيباً صامتاً لا شأن له في كل ما يجري من حوله وبذلك يفقد وجوده معناه ويخسر إنسانيته إذ يصبح شيئاً منبوذاً لا يكترث به ولا يسأل عنه وبذلك يبدو كائناً محبطاً عاجزاً عن الفعل أو المشاركة في تحمل المسؤولية.

هذا ما كان يشعر به الأحنف العكبري من اختناق وضياع واغتراب بمرارة الانسحاق إذ يقول:(٣٥)

عشتُ في ذلةٍ وقلةِ مالٍ ... واغترابٍ في معشر أنذالِ

ولعل ذروة المعاناة تكمن حين يفقد الإنسان روابط الإخاء والانتماء التي تشده إلى أبناء جنسه ومجتمعه فيشعر أنه منبوذ معزول ووحيد وهذا مصير صعب كان شاعرنا من خلاله يحسد الحشرات والدواب لأنها لم تبلغ ما بلغ من مظاهر الانكسار والإحباط والحرمان حيث يقول:(٣٦)

العنكبوتُ بنت بيتاً على وَهَنٍ ... تأوي إليه ومالي مثلَه وطنُ

والخنفساءُ لها من جنسها سكنٌ ... وليس لي مثلها إلفٌ ولا سكنُ

والواقع أن أدب الفئات الهامشية يطرح قضايا أخرى كثيرة قد لا نلحظها في الأدب الرسمي وهي على غاية من الأهمية إذ تكشف على نحو مباشر أو غير مباشر علاقة المثقف بالسلطة أو علاقة القاع بالقمة.

فهذا الأدب نقل لنا صورة القاع الاجتماعي للفئات المسحوقة ورسم ملامح الواقع بقتامتها ودون تزويق أو تنميق.

وقد يأخذ البعض على ذلك الأدب مستواه اللغوي أو الفني فينبذه من حظيرة الأدب الراقي وهذا يعني تكريس سلطة فنية مستمدة من مفهوم سلطة النخب المتنفذة فذلك الأدب استمد لغته وشكله ومضمونه من خلال مفردات البيئة التي تكوّن فيها لأنه كان تعبيراً عنها ولم يكن موجهاً إلى تلك النخب ليخاطبها وفق المعايير التي ترغب وترتضي.

وإذا كان كامو يرى أن السريالية (٣٧) "تمرد مطلق وعصيان كامل وتخريب منظم ووضع كل شيء موضع الاتهام" فإن أدب الهامشيين غيرُ بعيد عن ذلك. وإذا كان السورياليون يصفون أنفسهم بأنهم "دعاة الهزيمة في كل مكان"(٣٨) فإنّ أدباء التهميش كانوا دعاة هزيمة كبرى وشهود انكسارات فجائعية عبّر عنها الكتنجي المتحامق بالقول: "نحن في زمان رأى العقلاءُ قلةَ منفعةِ العقل فتركوه ورأى الجهلاءُ كثرةَ منفعة الجهل فلزموه فبَطُلَ هؤلاءُ لما تركوا وهؤلاءُ لما لزموا فلا ندري معَ مَنْ نعيش"(٣٩) ويبقى السؤال الجوهري: هل من الممكن أن تبلغ الأمور إلى هذا الحد الذي عبّر عنه الكتنجي؟

وهل من المعقول أن تبلغ المأساة ذلك الدرك العميق من التهميش والعدمية والضياع لو كان المجتمع سليماً لا تنخر في كيانه الأمراض والأزمات والهزائم والانهيارات؟

وبمعنى آخر هل كان لتلك الفئات من الأدباء والمؤرخين والفلاسفة والشعراء أن تختار المصير الذي صارت إليه لو كان مجتمعها ينهض على أرضية متينة من العدالة والحرية والمساواة؟

قد تطول التساؤلات وتتباين وجهات النظر وتختلف الآراء ولكنّنا نعتبر أنّ أدب الهامشيين يحمل إجاباتٍ شافيةً وعميقة اتسمت بقدر كبير من الأهمية في هذا المضمار.

الهوامش

(١) كتاب جدل: العدد ٤ سنة ١٩٩٣ مقال: نحو رؤية جديدة لدراسة فقراء المدن د. اسماعيل قيرة ص١٥.

(٢) الامتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، تصحيح أحمد أمين، وأحمد الزين نشر مكتبة الحياة بيروت ٢٢٦/٣ ويمكن الرجوع إلى كتاب (الفلاكة والمفلوكون) أحمد بن علي الدلجي، مطبعة الشعب، مصر ١٣٢٢هـ

(٣) أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، نشر دار الحوار ١٩٨٦ وفيه دراسة وافية عن انخراط الأدباء في عالم التسول والاستجداء

(٤) عالم الفكر الكويتية المجلد ١٨، العدد الأول: مقال الجنون في الأدب الفرنسي، محمد علي الكردي ص٣٩.

(٥) الفهرست: ابن النديم، تحقيق رضا تجدد ص١٦٩، وتاريخ بغداد: الخطيب البغدادي طبع مكتبة الخانجي (القاهرة) والمكتبة العربية (بغداد) ٤٠/٥.

(٦) الفهرست ص١٦٩.

(٧) طبقات الشعراء: ابن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، دار المعارف، مصر ص٣٤٢.

(٨) الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، بولاق، نشر صلاح يوسف الخليل، ودار الفكر، بيروت ٩٠/٢٠ وأشعار أولاد الخلفاء: أبو بكر الصولي، نشر دار المسيرة، بيروت ط٣ ص٣٤٣ ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، تحقيق أحمد فريد، مطبعة المأمون ١٢٣/٩.

(٩) الأغاني ٩٢/٢٠، وأشعار أولاد الخلفاء ص٢٢٠.

(١٠) عقلاء المجانين: النيسابوري، تحقيق محمد زغلول، نشر دار الكتب العلمية ص٣٥.

(١١) طبقات الشعراء ص٣٤٢.

(١٢) عقلاء المجانين ص٤١.

(١٣) يتيمة الدهر: الثعالبي، طبعة الصاوي ١٠٥/٣.

(١٤) عقلاء المجانين ص٣٥.

(١٥) عالم الفكر الكويتية المجلد ١٨، العدد الأول مقال: الجنون في الأدب رشا الصباح ص٣ وكذلك مقال: العقل واللاعقل أو خطاب الجنون عن ديدرو محمد علي الكردي ص٢٢.

(١٦) مجلة الكرمل، العدد الثالث عام ١٩٨٣ مقال (فيلسوف القاعة الثامنة) هاشم صلاح ص٢٦.

(١٧) عقلاء المجانين: ص٥٣-٦٦.

(١٨) عقلاء المجانين: ص٦١.

(١٩) العقد الفريد: ابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين ورفقاه، القاهرة ١٩٤٩، ١٥٠/٦.

کتابخانه
بنیاد دایرة المعارف اسلامی
٦٧٧٧٦
تاریخ

(١٩) العقد الفريد: ابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين ورفقاه، القاهرة ١٩٤٩، ٦/١٥٠.

(٢٠) معجم الأدباء ٤/١٦٨.

(٢١) يتيمة الدهر: الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ٣/١٦٦.

(٢٢) يتيمة الدهر ٣/١٢٣.

(٢٣) يتيمة الدهر ٣/١٢٤.

(٢٤) مجلة الكرمل العدد ٣ ص٢٦.

(٢٥) الأغاني ٢٠/٩٢.

(٢٦) جمع الجواهر في الملح والنوادر: القيرواني، تحقيق محمد علي البجاوي، ص٨٦.

(٢٧) طبقات الشعراء ص٢٤٣.

(٢٨) الأغاني ٢٠/٩١.

(٢٩) طبقات الشعراء ص٢٤٢.

(٣٠) جمع الجواهر في الملح والنوادر ص٨١.

(٣١) عقلاء المجانين ص٣٦.

(٣٢) عقلاء المجانين ص٣٦.

(٣٣) عقلاء المجانين ص٣٧.

(٣٤) يتيمة الدهر ٣/٣٥٨.

(٣٥) يتيمة الدهر ٣/١٢٣.

(٣٦) يتيمة الدهر ٣/١٢٣.

(٣٧) فلسفة السريانية: ٦٧.

(٣٨) فلسفة السريانية: فرديناند ألكية، ترجمة وجيه العمر، منشورات وزارة الثقافة ص٧٤.

(٣٩) الفهرست ص١٧٠.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی